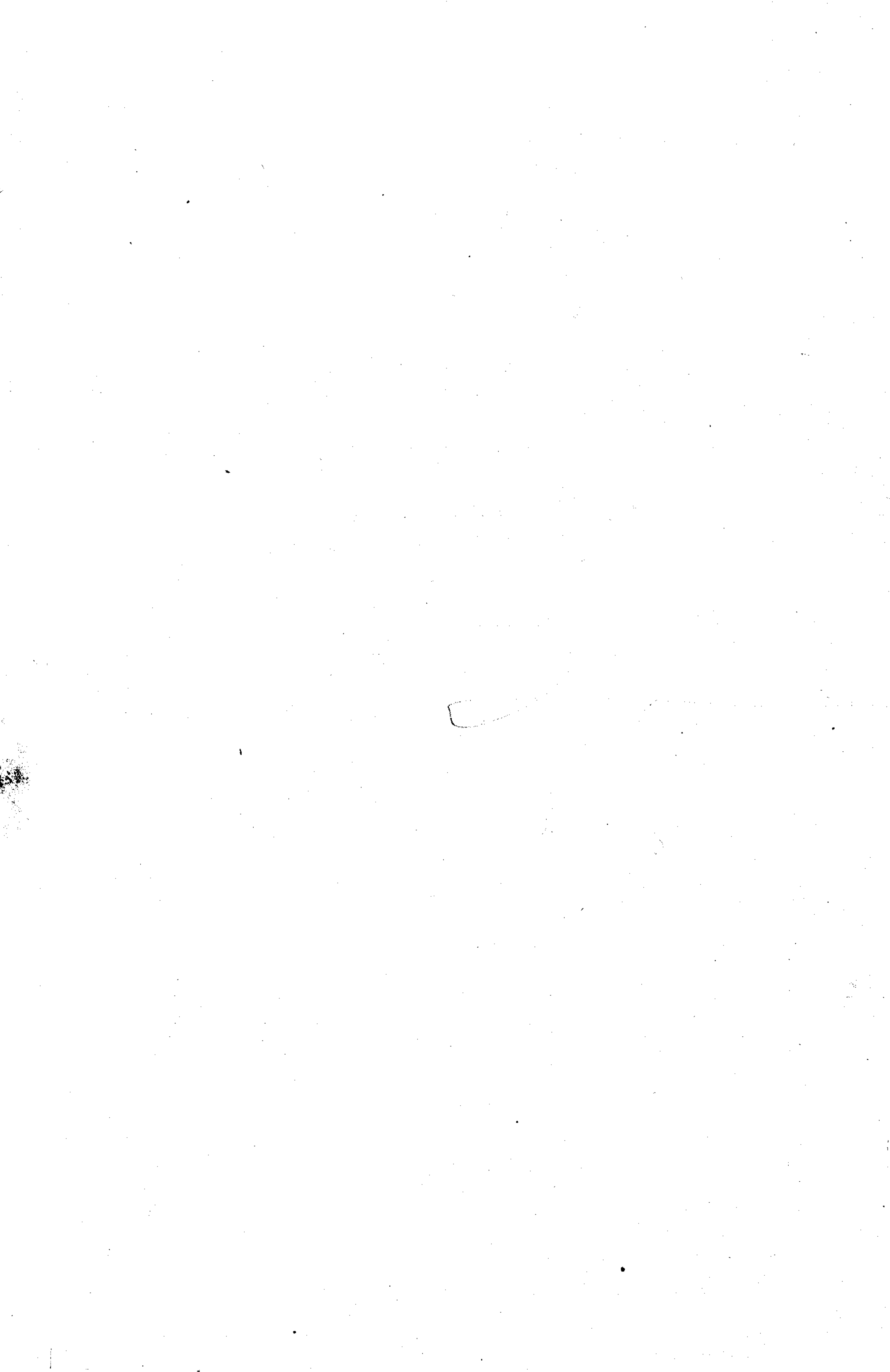
دار الكتب المصرية



الجـــزء الأوّل

طبـــع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ – ١٩٢٢ م



كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجـــزء الأوّل

طبـــع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ ﻫ — ١٩٢٢ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلمَ بأجمليه، فصاحته وبيانه . راقِمِ حقائق المعانى بأقلام الإلهام علىٰ صفحات الأفكار . جامع اللسان والقـلم علىٰ ترجمة ما فى الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذى حفِظ برسوم الخطوط ماتكلُّ الأذهانُ السليمة عن حفظه . وتَبْلُغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديتُه بصورة معناه ولفظه .

أحمـــده علىٰ أنْ وهب من بنات الأفكار ما يربو فى الفخر علىٰ ذُكُور الصوارم . ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم .

وأشهد أنلاإله إلاالله وحده لا شريك له شهادة يُوَقَّع لصاحبها بالنجاة من النار . ويُكْتَب قائلها فى ديوان الأبرار . وأنَّ محمدا عبده ورسوله الذى آهتزّت لهيبته الأسِرَّة وشَرُفت بذكره المنابر . وضاقت عن دَرْك وصـفه الطروس ونَفِدت دون إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين قُلِّدوا أمورَ الدين فقاموا بواجبها . وحُمِّلوا أعباءَ الشريعة فانتشرت بهم فى مشارق الأرض ومغاربها . صلاةً تُسَطَّر فى الصحف . وتفوق ببهجتها الروضَ الأُنُف .

وبعدُ فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها . وأفضل المآثر وأعْلاها . وآثرِ الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التى هى منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفِت الملوكُ إلا إليها . ولا تعوِّل فى المهمات إلا عليها . يعظِّمون أصحابها ويقرِّبون كُتَّابها . فخليفها أبدا خليق بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسُرُّ مجانيها إذا ما جَنىٰ الظَّمَا * وتُروِى مَجاريها إذا بَخِل القَطْر

وكانت الديار المصريه . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف عُلاها ! قد تعلقتْ من الثريَّا بأقراطها . ورجحت سائرَ الأقاليم بقيراطها . بشَّر بفتحها الصادقُ الأمين، فكانت أعظم بُشرىٰ . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمَنَ الفاروقِ فجاسُوا خِلالَ الديار وعْرها وسهلها . واقتطعتها أيدى المسلمين من الكفار ﴿وكانوا أحقَّ بِها وأهْلَها﴾ .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلىٰ أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسلاميه . وفَخَرتْ مملكتها بخدمة الحرَمَيْن . وخدمها سائرُ الملوك والأمم لحيازة القِبْلتيْن .

تَنَاهَتْ عَلاءً والشَّبابُ رداؤُها * فما ظَنُّكُم بالفَضْلِ والرَّأْسُ أَشْيَبُ؟

وحَظِيتْ من فُضلاء الكُتّاب بما لم تَحْظَ مملكةٌ من الممالك، ولا مصر من الأمصار . وحوَتْ من أهل الفضل والأدب مالم يَحْوِقُطر من الأقطار . فما بَرِحتْ متوَّجةً بأهل الأدب فى الحديث والقديم . مطرّزةً من فضلاء الكُتَّاب بكل مكينٍ أمينٍ، وحفيظ عليم .

نُجُومُ سَماءٍ كُلَّما غابَ كَوْكَبٌ * بَدَا كَوكَبٌ تأْوِى إليه كَوَاكِبُهْ

هـذا . والمؤلفون فى هذه الصنعة قد آختلفتْ مقاصدهم فى التصنيف . وتباينتْ مواردُهم فى الجمع والتأليف . ففِرْقة أخذتْ فى بيان أُصول الصنعة وذكر شواهِدِها . وأُخرىٰ جنحَتْ إلىٰ ذكر المصطلَحات وبيانِ مقاصدها . وطائفة آهتمَّت بتدوين الرسائل ليُقْتبَس من معانيهـا ويُتَمَسَّك بأذيالها . وتكونَ أُنْموذَجا لمن بعـدهم يسلك سبيلها، مَن أراد أن يَنْسِجُ علىٰ مِنْوالهـا . ولم يكن فيها تصنيف، جامعٌ لمقاصدها . ولا تأليف، كافلٌ بمصادرها الجليلة ومَوَاردها . بل أكثَرُ الكتب المصنَّفة فى بابها . والتآليفِ الدائرة بين أربابها . لايخرُجُ عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ الرائقة ممـا وقع آختيار الكُتَّاب عليه . أو طَرَف من آصـطلاح قد رُفِض . وتغير أُنموذَجُه ونُقِض . فلا يغنِي النظر فيه المقلِّدَ من كُتَّاب الزمان . ولا يكتفِي به القاصرُ فى أوانٍ بعد أوانٍ . علىٰ أن معرفة المصطلَح هى اللازم المحتَّم . والمهمُّ المقدّم . لعموم الحاجة إليه . وآقتصار القاصر عليه .

إنّ الصَّنيعةَ لا تَكُونُ صَنِيعةً * حتّى يُصَابَ بها طريقُ المَصْنع

وكان الدُّسْتُور الموسومُ "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضـل الألمعىّ . والمِصْقَع اللوذعىّ . مَلِك الكتابة وإمامِها . وسلطانِ البلاغة ومالِك زمامِها . المقرّ الشهابىّ "أحمد بن فضل الله العدوىّ العمرىّ" سقىٰ الله تعالىٰ عهده العِهاد ! . وألبسه سوابغ الرحمة والرِّضوان يوم المَعَاد ! . هو أنفَس الكتبِ المصنَّفة فى هذا الباب عِقْدا . وأعدلُها طريقا وأعذبُها وِرْدا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأُعْقِمت الأفكارُ عن مثله ففاز من الصنعة بأحمدِ مذاهِبها . فكان حقيقا بقوله فى خطبته :

"يا طالِبَ الإنْشاءِ خُذْ عِلمَه * عَنِّى فعِلْمى غير مَنْكُورِ !"

"ولا تَقِفْ فى بابِ غَيْرِى فما * تَدْخُـله (إلا بدُسْتُورِى)"

إلا أنه قد أهمــل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسُوغ تركُها . ولا ينجبر بالفِدْية لدىٰ الفوات نُسُكُها . كالبطائق، والملطفات، والمطلقات . المكبرة فى جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغِنىٰ به عما سواه . ولا الآكتفاءُ بالنظر فيه عما عدَاه .

ثم تلاه المقرّ التقوى آبن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دُستوره المسمّى "بتثقيف التعريف" مقتفيا أثره فى الوضع، وجاريا علىٰ سَنَنه فى التأليف . مع إيراد ما أهمله فى تعريفه . وذِكْر ما فاته من مصطلَح مايُكتَب أو حدَثَ بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وُجوده . ووقع الضنُّ به حتّى بَخِل بإعارته مَن عُرِف كرَمُه وَجُوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنه التعريف مقاصدَ لا غنىٰ بالكاتب عنها . ولا بُدّ للتلبس بهذه الصناعة منها . كالوصايَا والأوصاف، التى هى عمدة الكاتب . ومراكز البَرِيد وأبراج الحَمَام، وغير ذلك من متممات الواجب، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلٌّ من الدُّستورَيْن منفردًا عن الآخَر بقدر زائد . ولم تقع الغُنْية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا فى معنًى واحد .

وكيفما كان فالآقتصار علىٰ معرفة المصطلح قُصور . والإضراب عن تعرُّف أصول الصنعةِ ضَعْف همّةٍ وفُتُور . والمقلِّد لايوصف بالآجتهاد . وشتَّانَ بين مَن يعرِف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جَزْم الآعتقاد .

وَلَمْ أرَ فى عُيُوبِ الناسِ شَيْئاً * كنَقْصِ القادرِينَ على التَّمَـامِ

وقد ثبت فى العُقول أن البناء لايقوم علىٰ غير أساس . والفرعَ لاينبُت إلا علىٰ أصل، والثمَرَ لا يُجتنىٰ من غير غِرَاس .

وكنت فى حدود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة عند آستقرارى فى كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية، عظم الله تعالى شأنها! . ورفع قدرها! وأعز سلطانها!

أنشأت مقامة بنيتها علىٰ أنه لابدّ للإنسان من حرفة يتعلق بها. ومعيشة يتمسَّك بسببها. وأن الكتابة هى الصناعة التى لايليق بطالب العلم من المكاسب سواها. ولا يجوز له العُدُول عنها إلىٰ ماعداها. وجنَحت فيها إلىٰ تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها. وتقديمها علىٰ كتابة الأموال وترشيحها. ونبهت فيها علىٰ ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد. وما ينبغى أن يسلُكه من الجوَادّ. وضمنتها من أصول الصنعة ما أربَتْ به على المطوّلات و زادت. وأودعتُها من قوانين الكتابة ما آستولَتْ به علىٰ جميع مقاصدها أو كادتْ. وأشرت فيها إلىٰ وجه تعلُّقِى بحبال هذه الصنعة و إن لم أكن بمطلوبها مَلِيًّا[1]. وآنتسابى إلىٰ أهلها و إن كنت فى النسبة إليها دَعِيًّا.

وليْسَ دَعِىُّ القومِ فى القَوْمِ كالّذِى * حَوىٰ نَسَبًا فى الأكْرَمِينَ عَرِيقا

إلا أنها قد وقعَتْ موقِعَ الوَحْى والإشاره. ومالتْ إلىٰ الإيجاز فاكتفَتْ بالتلويح عن واسع العباره. فعزّ بذلك مطلَبُها. وفات على المجتنى ببُعد التناوُل أطيبُها. فأشار مَنْ رأيه مقرون بالصواب. ومَشُورته عرِيّة عن الآرتياب. أن أُتْبِعها بمصنَّف مبسوط يشتمل علىٰ أصولها وقواعدها. ويتكفَّل بحلّ رموزها وذكْر شواهدِها. ليكون كالشرح عليها. والبيان لما أجملته والتَّتمةِ لما لم يَسُقْه الفكر إليها. فامتثلت أمره بالسمع والطاعه. ولم أتلكَّأ و إن لم أكن من أهل هذه الصناعه. غير أن القريحة بذلك لم تسمَحْ. وصار المقتضِى يضعُف والمانعُ يترجَّح. لأعذار قد تشابه مُحْكَمُها. وضرورات، إن لم يعلمها الخلق فالله يعلمُها. إلىٰ أنْ لاحتْ لى بوارقُ الفتح. وظهرت ولله الحمدُ آثار المَنْح. فعند ذلك بلغتْ النفس أملَها. وأضْفَتْ مواهبُ الآمتنان حُلَلَها. وتلا لسانُ العناية على الغبى الحاسد ﴿مايَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لهـا﴾.

(١) أى موسرا.

فشرعت فى ذلك بعد أن ٱستخرت الله تعالىٰ (وما خَابَ مَنِ استخَار) . وراجعت أهل المَشُورة (وما نَدِمَ مَنِ اسْتَشار) . مستوعبا من المصطلَح ما ٱشتمل عليه "التعريف" و"التثقيف". موضحا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرْب المأخَذ وحُسْن التأليف . متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لايسَع الكاتبَ جهلُها . مُتَنَقِّلًا من توجيه المقاصد، وتبيين الشواهد، بما يُعَرف به فرعُ كل قضية وأصلُها . آتيًا من مَعَالم الكتابة بكل معنًى غريب . ناقلًا الناظرَ فى هذا المصنَّف عن رتبة أن يَسألَ فلا يجاب إلىٰ رُتبة أن يُسئَلَ فيجيب . منبِّها علىٰ مايحتاج إليه الكاتب من الفنون، التى يخرج بمعرفتها عن عُهدة الكتابة ودَرَكها[1] . ذاكرًا من أحوال الممالك المكاتَبة عن هذه المملكة مايُعرف به قدرُ كل مملكة ومَلِكها . مبينًا جهةَ قاعدتها، التى هى محل الملك شرقا أو غربا، أو جنوبا أو شمالا . معرِّفا الطريقَ الموصل إليها، برا وبحرا، وٱنقطاعا وٱتصالا . ذاكرا مع كل قاعدة مشاهيرَ بُلْدانها، إكمالًا للتعريف . ضابطا لأسمائها بالحروف كى لايدخُلَها التبديل والتحريف .

وسمَّيته (صبح الأعشىٰ فى كتابة الإنشا) راجيا من الله تعالىٰ أن يكون بالمقصود وافيا . وللغليل شافيا .

ولْيعذِرِ الواقف عليه، فنتائج الأفكار على ٱختلاف القرائح لاتتناهىٰ . وإنما ينفق كل أحد علىٰ قدر سعته ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلّا ما آتَاهَا﴾ . ورحم الله من وقف فيه علىٰ سهو أو خطإ فأصلحه عاذرا لا عاذلا . ومُنيلا لا نائلا . فليس المبرأُ من الخَطَل إلا من وقىٰ اللهُ وعصَم . وقد قيل: الكتّاب كالمكلف لايسلم من المؤاخذة ولا يرتفع عنه القلم، والله تعالى يقرنُه بالتوفيق! . ويُرشِد فيه إلىٰ أوضح طريق! . ﴿وما تَوْفِيقِي إلّا باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ﴾ .

وقد رتبتُه علىٰ مقدّمة، وعشر مقالات، وخاتمة .

---

(١) الدَّرْك ويسكن التبعة .

المقـــدّمة

في مبادٍ يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذمّ حَمْقاهم؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى فضل الكتابة .

الفصـــل الثانى — فى مدح فضلاء الكُتَّاب وذمّ حَمْقَاهم .

البـاب الثـانى

فى ذكر مدلول الكتابة لغةً وٱصطلاحًا، وبيان معنىٰ الإنشاء، وإضافة الكتابة إليه، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصـناعة الترسل، وتفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصـــل الأوّل — فى ذكر مدلولها، وبيان معنىٰ الإنشاء وإضافتها إليه . ومرادَفة التوقيع لكتابة الإنشاء فى عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل .

الفصـــل الثانى — فى تفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة .

الفصـــل الثالث — فى ترجيح النثر على الشعر .

البـاب الثـالث

فى صفات الكُتَّاب وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصـــل الثانى — فى آدابهـــم .

البـاب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه فى الإسلام

وتفرّقه بعد ذلك فى الممـالك ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى التعريف بحقيقته .

الفصـــل الثانى — فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرقه بعد ذلك فى الممـالك بالديار المصرية وغيرها .

البـاب الخـامس

فى قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله ، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصـــل الأوّل — فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله ولقبه الجارى عليه فى القديم والحديث .

الفصـــل الثانى — فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصـــل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويدبره ويصرفه بقلمه .

الفصـــل الرابع — فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وما يلزم رب كل وظيفة منهم، وما كان عليه الأمر فى الزمن القديم ، وما آستقرّ عليه الحال بعد ذلك .

المقـالة الأولى

فيما يحتاج اليه الكاتب، وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى الأمور العلميـــة ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — فيما يحتاج اليه الكاتب فى الجملة .

الفصـــل الثانى — فيما يحتاج الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشـاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالىٰ ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدّثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ (وأنساب العرب) ، ومفاخراتهم ، ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم فى الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانيـة ، وأصـناف العلوم ، ومَن بَرَع فى كل علم منها ، والكتب الفائقة فى كل فنّ من فنونها وما يجرى مجرىٰ ذلك ؛ والمعرفة بصنعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحمد من ذلك وما يذم .

الفصـــل الثالث — فى معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسـنين على اختلاف الأمم فيها وتفاصـيل أجزائهـا ، وما ينخرط فى سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

البـاب الثـانى

فيما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العَمَلية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى ذكر آلات الخط من الدُّوِىّ وما تُتَّخذ منه ومقاديرِها وكيفياتها ، ومعرفة أصـناف الأقلام وصنعة بِرَايتها : فتحا ونحتا وشقًّا وقطًّا ؛ ومقادير أطوالهـا وعدد ما يكون فى الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحلّ الذهب ، وإذابة اللازورد والمَغَرة العراقية ، وغير ذلك ممـا يُحتاج إليه فى كتابة الديوان .

الفصـــل الثانى — فى الكلام علىٰ نفس الخط وأصل وضعه وٱختلاف الأمم فيه ، وما يختص من ذلك بالخط العربىّ من تنويع أقلامه التى أحدثها أئمة الكتابة وتباين

أشكالها وآختلاف أوضاعها؛ وما يستعمل منها فى ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النَّقْط والشكل والهجاء .

المقــالة الثانيـــة

فى المسالك والممـالك؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى ذكر الأرض علىٰ سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـــــل الأوّل — فى معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها ، وبيان جهاتها الأربع، وما آشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية؛ وبيان موقع الأقاليم العرفيـة كمصر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصـــــل الثانى — فى ذكر البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان فى التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثّة فى أقطار الأرض ونواحى الممـالك ممـا هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصـــــل الثالث — فى آستخراج جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة بينها .

البـاب الثـانى

فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم فى القديم وما آنطوت عليه ممـالكهم من الأقطار؛ وفيه فصلان

الفصـــــل الأوّل — فى ذكر الخـلافة ومَنْ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وخلفاء بنى أمية بالشام، وخلفاء بنى العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بنى أمية بالأندلس، والمدّعين الخلافةَ من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصـــل الثانى — فيما ٱنطوت عليه الخلافة العباسـية فى الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هى عليه الآن .

البـاب الثـالث

فى ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها ؛

وفيـــه ثلاثة فصول

الفصـــل الأول — فى الديار المصرية وذكـر فضائلها ومحاسنها ، وخواصّهـا وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه ، وما ينتهى اليه فى الزيادة وما يصـل اليه فى النقص ، والخلجان المتفرّعة عنه ، وجسورها الحابسة لميـاه النيل علىٰ أرضها ، وبحيرات الديار المصرية ؛ وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها ، ومواشـيها ووحوشها وطيورها ؛ وذكر حدودها وٱبتداء عمارتها وتسميتها مصر ، وتفرّع الأقاليم التى حولها عنها ؛ وذكر أعمالها وقواعدها القديمة ، والمبانى العظيمة الباقية علىٰ ممر الأزمان ، وقواعدها المستقرّة وما ٱشتملت عليه من محاسن الأبنية ؛ وذكر مَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما قبل الطُّوفان وبعده ؛ وترتيب أحوالها ؛ وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها فى القديم والحديث ؛ وبيـان وظائف دُوَلها القديمة والمستقرّة لأرباب السيوف والأقلام .

الفصـــل الثانى — فى البلاد الشاميــة وما يتصل بهـا من بلاد الجزيرة الفراتيــة وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن ـ ببلاد الأرمن ـ وبلاد الدربندات المعروفة الآن ـ ببلاد الروم ـ مما هو مضاف الىٰ مملكة الديار المصرية ، وفضل الشام وخواصه

وعجائبـه وحدوده وآبتـداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحـيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشـيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعمـاله وجهاته وأجناده وكُوَره القديمة والمسـتقرّة وقواعده العظام وما كانت عليه فى الزمن السابق ومَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما وما آسـتقرّت عليه الآن من النيابات، وترتيب أحوالهـا ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب نياباتهـا وما بها من وظائف أرباب السيوف والأقلام وما آشتملت عليه من العُرْبان[1] .

الفصـــل الثالث ــ فى البلاد الحجازية وما ينخرط فى سلكها ، وذكر فضل الحجاز وخواصِّـه وعجائبه وآبتـداء عمارته وتسميته حجازا، وذكر مياهه وعيونه وجبـاله المشهورة وزروعه وفواكـهه ورياحينه ومواشيه ووحوشـه وقواعده وأعمـاله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

البـاب الرابع

فى الممـالك والبُلْدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع والطرق الموصلة اليها، وفيه أربعة فصول

الفصـــل الأوّل ــ فى الممـالك والبُلْدان الشرقية عن الديار المصرية، وما سامَتَ ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية، وما آشتملتْ عليه هذه الجهة من مملكة إيران التى هى مملكة الفُرْس قديما، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خُوزِسْتانَ وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كَرْمانَ وبلاد سِجِسْتان وبلاد أَرمِينية وأَذْرَبِيجان وبلاد الجبـال المعبَّر عنها بعراق العجم وبلاد الدَّيْلم وبلاد الجيل المعبر عنها بكِيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغَوْر

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعثر عليه فى معاجم اللغة التى بأيدينا وان كان القياس لا يأباه .

وغيرها، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديما، وما آشتملت عليه من قسم ماوراء النهر من بخارىٰ وسَمَرْقند ومضافاتهما و بلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم ودشت القبجاق المشتمل علىٰ خوارزم والدشت وأعمال السراى و بلاد القرم و بلاد الأزق وما ينضم إلىٰ ذلك من بلاد السرب والبلغار و بلاد الأولاق و بلاد الآص و بلاد الروس وغيرها، وقسم مابِيَدِ صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل علىٰ بلاد الخطا و بلاد الصين، وما آتصل بهاتين المملكتين ممـا يلى الجنوب من بلاد البحرين ومملكة اليمن وما منها بيد أولاد رسول ومامنها بيد إمام الزيدية، وممـالك الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة فى جزائر البحر الهندى" .

الفصـــل الثانى — فى الممـالك والبُلْدان الغربيــة عن مملكة الديار المصرية، من مملكة تونس المشتملة علىٰ بلاد أفريقية، ومملكة تِلِمْسان المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأوسط، ومملكة فاس المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأقصىٰ إلى البحر المحيط وما إلىٰ ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما آستعاده منها ملوك الكفر.

الفصـــل الثالث — فى الممـالك والبُلْدانـ الجنوبية عن مملكة الديار المصرية وما آشتملت عليــه من بلاد السُّــودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى ومملكة الحبشة، و بيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصـــل الرابع — فى الممـالك والبُلْدان الشماليــة عن مملكة الديار المصرية ممـا بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارىٰ من جزائر بحر الروم كجزيرة قبرس و جزيرة رودس و جزيرة أَقْرِيطِش و جزيرة المصطكى و جزيرة صِقِلِّيَّة وغيرها وما إلىٰ ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغيرذلك .

المقـالة الثالثـــة

فى ذكر أمور تشترك فيهـا أنواع المكاتَبات والوِلايات وغيرهما من ذكر الأسماء والكُنىٰ والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعاتِ ونحوها علىٰ كُتّاب الإنشاء، ومقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيته وبُعد ما بين السطور فى الكتابات، وبيان المستندات التى يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخَّصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

البـاب الأوّل

فى الأسماء والكُنىٰ والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأسماء والكُنىٰ ومواضع ذكرهما فى المُكاتبات والولايات وما يجرى مَجْراهما .

الفصـــل الثانى — فى ذكر الألقاب وأصْـل وضعها وما آستعمله الكُتّاب منهـا وما كان يلقَّب به أهلُ كل دولة وما حدث من الزيادة بعـد ذلك حتّى صار الأمر إلىٰ ما عليه الحال فى زماننا، والألقاب التى آصطُلِح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وُضع منها لأهل الكفر، وبيان معنىٰ كل لقب فى اللغة ومَن يقع عليـه فى الآصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها علىٰ بعض .

البـاب الثـانى

فى بيان مقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض الذى يراعيه الكاتب فى كتابته؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقادير قِطَع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء فى القديم والحديث

الفصـــل الثانى — فى بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قِطَع الورق المتقدّمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البيـاض الذى يراعيه الكاتب فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور فى الكتابة .

البـاب الثـالث

فى بيان المستندات وكتابة الملخصات، وكيفية التعيين، ومقادير قِطَع الورق وما يناسبها من الأقلام، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى بيـان المستندات التى يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلق كاتب السر الأمر فى ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلق كتّاب الدست بدار العدل، أو شمول القصة بالخط الشريف، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمـة من ديوان الخـاص وغيره، وكتابة الملخَّصات التى تكتب من الكتب المطوّلات الواردة على الديوان، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصـــل الثانى — فى بيـان كيفية تعيين صـاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما فى معناها، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل فى دواوين الإنشاء من الكامل والثلثين والنصف والثلث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقيل الثلث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعيّة فى الكتابة فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور .

البـاب الرابع

فى الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الفواتح من البسـملة والحمدلة والتصلية والسـلام فى أوّل الكتب والبعديّة التى يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعيته .

الفصـــل الثانى — فى الخواتم واللواحق من كتابة إن شـاء الله فى آخر المكتوب وكتابة التـاريخ ومعرفة معنـاه ومعرفة التواريخ القـديمة وأصـل وضع التـاريخ فى الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذى يؤرّخ فيه؛ وبيان بناء التاريخ العربىّ على الليالى دونَ الأيام، وآختلاف مذاهب النحاة والكتّاب فى التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليـالى، ومعرفة آستخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحَمْدلة فى آخر الكتب والتصلية على النبى صلى الله عليه وسلم بعدها، والآختتام بالحَسْبَلة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقـالة الرابعة

فى المكاتبـات؛ وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقدّمات المكاتبات من أصـول يعتمدها الكاتب فيها من حسن الآفتتاح وبراعة الآستهلال وتقديم مقدّمة تناسب المكتوب فيـه فى أوّل المكاتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية فى الخطاب ونحوه فى المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيـان لكل مَقْصَد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب إليهم على قدر طبقته

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة فى الكتابة إلىٰ مَنْ يتعاناها ، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الآختتام وما يجرى مَجْرىٰ ذلك، وبيان مِقادير المُكاتَبات وما يناسبها من البَسْط والإيجاز وما يلائمها من المعانى، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصـــل الثانى — فى بيـان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومَذَاهب الكُتَّاب فيما تُفْتَتَح به المكاتَبات فى القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر فى المكاتبات، وبيان كيفية طىّ الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه فى الإضْبارَة .

البـاب الثـانى

فى مُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب الإسلام فى كل زمن من الصدر الأوّل وإلىٰ زماننا، وفيه ثمانية فصول

الفصـــل الأوّل — فى الكُتُب الصادرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الإسلام وملوك الكفر، وآختلاف آفتتاحها بحسب المقاصد .

الفصـــل الثانى — فى الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بنى أمية، وخلفاء بنى العَبَّاس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بنى أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصـــل الثالث — فى الكتب الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم مما كُتِب به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والخُلَفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلفاء بنى أميـة، وخلفاء بنى العباس، وخلفاء الفاطِمِيِّين بالديار المصرية، وخلفاء

بنى أمية بالأندلس، وبقايا الموحدين بأفريقية؛ وما كتب به عن الملوك ومَنْ فى معناهم إلى الملوك ومَنْ فى معناهم من المكاتبات الدائرة بين مُلُوك الديار المصرية ومُلُوك الشرق والغرب، ووُزَراء الخلفاء ومُنَفِّذى أمرِ الخلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وما يَلْتحق بذلك من المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر وآختلاف الآفتتاح فى ذلك.

الفصـــل الرابع — فى الكُتُب الصادرة عن ملوك الديار المِصْريَّة علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ من آبتداء الدولة التُّركيَّة وإلىٰ زماننا علىٰ رأس الثمانمائة مما أكْثَرُه مأخوذ من ترتيب الدولة الأيُّوبية، التى هى أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلىٰ خلفاء بنى العبـاس، وإلى أهـل المملكة بمصر والشام والحجاز، وإلىٰ عظماء القانات بممالك الشرق كقان مملكة إيران الجامع لحدودها علىٰ ما كانـ الأمر عليـه إلىٰ آخر أيام أبى سعيد ثم مَنْ بعده ممن يبلغ شَأْوَه من القانات الصِّغار كالشيخ واويس ومَنْ تلاه إلىٰ زماننا، ومَنْ بهذه المملكة من صـغار الملوك والحُكَّام، وقانات مملكة تُوران من صاحب ما وراءَ النهـر من بخارىٰ وسَمَرْقند وما معهما، وصاحب خُوارَزْم والدَّشْت والقانِ الكبير صاحب التخت، وصاحب الهند، وصاحب اليمن وإمام الزيديَّة بها. وملوك بلاد المغرب كصاحب تُونُس، وصاحب تِلِمْسان، وصاحب فاس، وصاحب غَرْناطةَ من الأندَلُس، وملوك بلاد السُّودان كملك البرنو وملك الكانم، وصاحب مالى، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الرُّوم من الجهة الشمالية، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجَنُوبية وملك القُسْطنطِينِيَّة وسائر ملوك الفرنج وحُكَّامهم بجزائر الروم وغيرها ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المسالك والممالك.

الفصـــل الخامس — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المِصْرية من ملوك الممالك المتقدّمة الذكر وحُكَّامها من أهل الإسلام والكُفْر ممن ترِدُ مكاتبته علىٰ هذه المملكة.

الفصــــل السادس — فى المكاتبات الإخوانيَّات ممـا كان عليه مُصطَلَح السلف فمَنْ بعدهم فى كل زمن وما آستقرّ عليه الحال فى زماننا .

الفصــــل السابع — فى مقاصد المكاتَبَات من الأمور الخاصة بالملوك والخُلَفاء . كالكتب بالبِشَارة بولاية الخِلافة، والجلوس علىٰ تَخْت السلطنة، والدَّعاية إلى الدِّين، والحثّ على الجهاد، والإخبار عن الفتوحات، والأمر بلزوم الطاعة، والتنبيه علىٰ مَوَاسم العبادة، والمَوَاعظ عند حدوث الآيات السماوِية، والأوامر والنواهى، والنَّهْى عن التنازع فى الدين، والكتب إلىٰ مَنْ نكث العهد أو خلَع الطاعة، والتضييق علىٰ أهل الجرائم، والبِشارة بالمواسم، والأعياد، ووفاء النيل، وركوب الميادين، والعَوْد من الغزو، والكتب بالتلقيب علىٰ ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقـدّم، وبالإحماد والإذمام، والكتب قريـن الإنعام السلطانى من الخيل والجوارح، وسائر أصناف الإنعام، والاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ونحوها، والأجوبة عن ذلك، وما يشترك فيه الملوك ومَنْ عَدَاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف، وتكرمة السـلطان، وتجدّد الأولاد، والمساكن، والعَوْد من الحج، والقُدُوم من السفر، والإبْلال من المرض، ورضا السلطان وغُرّة السـنة، وشهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، والنَّيْروز، والمهرجان، والدخول فى دين الإسلام، والصَّرْف عن الخدمة فى سلامة؛ ومن التعازى كالتعزية بالأب والأم والولد والقريب والصـديق، والتشوُّقات، والشَّفاعات، والتهادى، والآستزارة، وآستماحة الحوائج، وآختطاب المودّة، وخطْبة التزويج، والشـكر، والشكوىٰ، والآعتذار، والعتاب، والمداعبة، وغير ذلك .

الفصــــل الثامن — فى معرفة إخفاء مافى الكتب من السرّ إمّا بطريق المترجم، وإمّا بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقـالة الخـامسة

في الولايات ؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — في بيـان طبقات الوِلايات وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها ممـا يكتب في وِلاية الخلافة والسـلطنة والوِلايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السُّيُوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الدِّيوانيَّة والوظائف الدِّينيَّة ، وغير ذلك .

الفصـــل الثاني — في بيـان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات علىٰ سبيل الإجمال .

الفصـــل الثالث — في بيان ما يَقَع به التفاوُت في رُتَب الولايات .

البـاب الثـاني

في البَيْعات ؛ وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — في معنى البَيْعات .

الفصـــل الثاني — في ذكر تنويع البيعات مما يكتب للخلفاء ، وأصل مشروعيتها ؛ وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعيـة ، وما يجب علىٰ الكاتب مراعاته في كتابة البَيْعة ؛ وبيان صورة ما يكتب فيها ، وآختلاف مذاهب الكُتَّاب في ذلك ؛ وذكر نسخ من بَيْعات الخلفاء ممـا كان يُكتَب به في الخلافة العبَّاسـية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بني أمية بالأَنْدَلُس وما يلتحق بذلك مما يكتب به لخُلَفاء بني العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك علىٰ ما آصطلح عليه كُتَّاب بلاد الغرب والأندَلُس .

الباب الثالث

فى العهود، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — فى معنى العهد .

الفصل الثانى — فى بيان أنواع العُهُود ممـا يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، ومايكتب به للملوك عن الخلفاء، ومايكتب به عن الملوك لوُلَاة العهد بالسلطنة وللملوك المنفردين بصغار البُلْدان ، ومذاهب الكُتَّاب فى ذلك ، وذكر نُسَخ من ذلك جميعه ممـا كتب به ببلاد المشرق والمغرِب والديار المصرية .

الباب الرابع

فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل — فيما كان يُكتَب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ،وخلفاء بنى أمية بالشام ،وخلفاء بنى العباس بالعراق ،وخلفاء بنى أمية بالأندَلُس ، وخلفاء الفاطميين بمصر، ومدّعين الخلافَة من بقايا الموحدين ببلاد المغرب ،ومذاهب كُتَّاب الدُّول فى ذلك .

الفصل الثانى — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السُّيُوف والأقلام وغيرهم من مصطلَح كُتَّاب المشرق بعد آنقراض الخلافة العباسية من العراق ، ومصطلَح كُتَّاب المغرب والأندلس فى القديم والحديث ، ومصطلَح كُتَّاب الديار المصرية فى الدولة الطُّولُونية وماوليها من الدولة الإخشيدية ، والدولة الأيُّوبية وماوليها من الدولة التركية ، وما آستقرّ عليه الحال فيها الى زماننا ، مما يكتب لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانيــة بالديار المصرية من التقاليــد والتفاويض والمراسيم والتواقيع على آختلاف مرَاتبها .

الفصـــل الثـالث — فيما يكتب عن نُوّاب السلطنة بالممـالك الشاميّة لأرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، وذكر نسخ من ذلك .

المقـالة السادسة

في الوَصَايا الدينية، والمُسامَحات، والإطلاقات، والطرخانيات، وتحويل السنين، والتذاكر، وذكر نسخ من ذلك؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

في الوَصَايا الدينية؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما لقُدماء الكُتّاب من ذلك .

الفصـــل الثـانى — فيما يكتب من ذلك، فى زماننا .

البـاب الثـانى

فى المسامحات، والإطلاقات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما يكتب فى المسامحات .

الفصـــل الثـانى — فيما يكتب فى الإطلاقات .

البـاب الثـالث

في الطرخانيات، وفيه فصـلان

الفصـل الأوّل — في طرخانيات أرباب السّيوف .

الفصـل الثانى — في طرخانيات أرباب الأقلام .

البـاب الرابع

في تحويل السنين، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية، وما يكتب في التذاكر، وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصـل الثانى — في التذاكـر .

المقـالة السـابعة

في الإقطاعات والمُقاطَعات، وذكر نُسَخ من ذلك، وفيها بابان

البـاب الأوّل

في ذكر مقدّمات الإقطاعات، وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها، وأصل وضعها في الشرع، وأوّل مَنْ وضع ديوان الجَيْش في الإسلام، ومَنْ يستحق إثباتَه في الديوان، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصـل الثانى — في بيان حُكْم الإقطاع وآنقسامه إلىٰ إقطاع تمليك وآستِغْلال .

البـاب الثـانى

فيما يكتب فى الإقطاعات فى القديم والحديث؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصل ذلك فى الشرع، وبيان ماأقطعه النبيّ صلى الله عليه وسلم من البلاد والأرضين .

الفصـــل الثـانى — فى صورة ما كان يكتب فى الإقطاعات فى الزمن القديم عن خُلَفاء بنى العَبَّاس بالعراق، وخُلَفاء الفاطميين بمصر، وعن الملوك القائمين على الخُلَفاء بالعراق، وملوك بنى أيُّوبَ بالديار المصرية، وما يكتب فى الإقطاعات فى زماننا مما استقرّ عليه الحال، ومايكتب فى ذلك من ديوان الجَيْش من المُرَبَّعات وماهى مترتبة عليه، ومايكتب فى ذلك من ديوان الإنشاء من المَنَاشير، وبيان مراتبها؛ وذكر قطع الورق الذى يكتب فيه؛ ومايكتب فى طُرَر المناشير ومايلتحق بذلك من الطُّغْراوات المشتمِلة على الألقاب السلطانية التى كانت تُلصَق بأعلى المناشير بين الطُّرَّة والبسملة؛ وما يختص من ذلك بالزيادات والتجديدات .

المقـالة الثـامنة

فى الأيمـان؛ وفيهـا بابان

البـاب الأوّل

فى أصول يتعين على الكاتب معرفتُها قبل الخوض فى الأيمـان؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما يقع به القَسَم من الأقسام التى أقسم الله تعالىٰ بها، والأقسام التي يُقسِم بها الخلق من أقسام العرب فى الجاهلية، والأقسام الشرعية التي يحلف بها

الفصـــل الثانى — فى بيان اليمين الغَمُوس ولَغْو اليمين ، والتحذير من الحِنْث والوقوع فى اليمين الغَمُوس .

البـاب الثـانى

فى نسخ الأيمـان الملوكية؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى نسخ الأيمـان المتعلقة بالخُلَفاء .

الفصـــل الثانى — فى الأيمـان المتعلقة بالملوك ممـا يحلف به المسلمون من أهل السُّنَّة وأرباب البِدَع وأهل الملل من اليهود والنصارىٰ، والمجوس وما يحلف به الحُكماء.

المقـالة التـاسعة

فى عقود الصُّلح والفُسُوخ الواردة علىٰ ذلك؛ وفيه خمسة أبواب

البـاب الأوّل

فى الأمانات؛ وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصـــل الثانى — فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام، وذكر أصل ذلك من السُّنَّة، وإيراد نسخٍ من ذلك .

البـاب الثـانى

فى الدفن؛ وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصله وكونه مأخوذا عن العرب .

الفصـــل الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوك .

البـاب الثـالث

فيما يكتب فى عقد الذِّمّة وما يتفرّع على ذلك؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأصول التى يرْجِع إليها هذا العقد .

الفصـــل الثانى — فى صورة مايكتب فى متعلّقات أهل الذمة، وإلزامهم بالجَرْى علىٰ ما يقتضيه عقدُ الذمة لهم .

البـاب الرابع

فى الهُدَن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهُدْنة وما يرادفُها من الألفاظ، وبيان أصل وضعها فى الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابتها .

الفصـــل الثانى — فى صورة ما يكتب فى المُهادَنات وآختلاف مذاهب كُتَّاب الشرق والغرب والديار المصرية فى ذلك، وذكر نسخ منها، وبيان ما يكتب من ذلك من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرِدُ من ذلك مما يكتب عن ملوك الكفر .

البـاب الخامس

فى عُقُود الصلح الواقعة بين مَلِكْين مسلمين؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصول تُعتَمد فى ذلك .

الفصـــل الثانى — فيما يُكْتب فى عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به عن الخلفاء والملوك فى القديم والحديث إلىٰ زماننا .

المقالة العاشرة

فى فنونٍ من الكتابة يتداولها الكُتَّاب ويتنافَسُون فى عملها ليس لها تعلُّق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ؛ وفيها بابان

الباب الأوّل

فى الجِدِّيات ؛ وفيه ستة فصول

الفصــــل الأوّل — فى المقامات وذكر نُسَخ منها .

الفصــــل الثانى — فى الرسائل : من الرسائل الملوكية المشتملة على الغَزْو والصيد ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورِد المدح ، والرسائل الواردة موردَ الذمّ ، ورسائل المفاخرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاخرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك ، والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتَتَبة بالحوادث والماجَريات وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصــــل الثالث — فى قدمات البندق ، وذكر نسخ منه .

الفصــــل الرابع — فى الصَّدَقات الملوكية ، وصَدَقات الأعيان .

الفصــــل الخامس — فيما يُكتَب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفَتَاوِى وعِراضات الكتب والمرْويَّات ، ومايكتب على الكُتُب المصنَّفة والقصائد من التقريظات ، ومايكتب عن القُضَاة من التقاليد الحُكْمية وإسجالات العدالة والمطلقات وغير ذلك .

الفصــــل السادس — فى العُمُرات التى تكتب للحاجّ .

البـاب الثـانى

فى الهَزْلِيَّـات، وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — فيما ٱعتنت الملوك ببعضه .

الفصـل الثانى — فى سائر أنواع الهَزْل .

الخاتمـة

فى ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى الكلام على البريد، وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — فى مقدّمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها : من معرفة معنى البريد وأوّل مَنْ وضعه فى الجاهلية والإسلام، وبيان مَعَالمه .

الفصـل الثانى — فى ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشَّـامية على ٱختلاف طُرُقها .

البـاب الثـانى

فى مَطَارات الحَمَام الرسائلىّ، وذكر أبراجها المقرّرة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — فى ذكر مَطَاراته وٱعتنـاء الملوك بشأنه فى القـديم والحديث ومسافات طَيَرانه .

الفصـل الثانى — فى الأبراج المقرّرة له بالديار المِصرية والبلاد الشَّاميَّة .

الباب الثالث

فى ذكر مراكب الثلج الواصلِ من البلاد الشامية إلى الملوك بالديار المصرية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى مراكبه .

الفصل الثانى — فى هُجُنه .

الباب الرابع

فى المَنَاور والمُحْرِقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى المناور التى كان يُستعلم بها حركة التتار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثانى — فى المُحْرِقات التى كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التتار ومراعيهم بأطراف بلادهم .



المقـــدّمة

فى المبادى التى يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء،

وفيها خمســة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمْقاهم؛

وفيــه فصلان

الفصل الأوّل

(فى فضـــل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوىٰ دليل علىٰ رفعة شأنها، أن الله تعالىٰ! نسب تعليمها إلىٰ نفسه، وآعتدّه من وافر كرمه و إفضاله فقال عز آسمه : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع مايُروىٰ أن هذه الآية والتى قبلها مفتَتح الوحى، وأول التنزيل علىٰ أشرف نبىّ، وأكرم مرسَل صلى الله عليه وسلم! وفى ذلك من الآهتمام بشأنها و رفعة محلها مالا خفاء فيه .

ثم بيّن شرفها بأن وصف بها الحَفَظة الكِرام من ملائكته فقال جلّت قدرته : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كاتِبِينَ ﴾ ولا أعلىٰ رتبةً وأبذخ شرفًا مما وصف الله تعالىٰ به ملائكته ونعت به حفَظَته؛ ثم زاد ذلك تأكيدا و وفر محله إجلالا وتعظيما بأن أقسم بالقَلَم الذى هو آلة الكتابة وما يُسطر به فقال تقدّست عظمته : ﴿ ن والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما آخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجةُ تفضيلها، وأَثَرة تعظيمها وتبجيلها، أن الشارع نَدَب إلىٰ مقْصدها الأسنىٰ، وحَثَّ علىٰ مطلبها الأغنىٰ، فقال صلى الله عليه وسلم : "قَيِّدُوا العِلْمَ بالْكِتَاب" مشيرا إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المُجْتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صَنْعة لا بدَّ له فى معاناتها من مادّة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدى إلىٰ تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُسْتَثْمَر من صنعته .

والكتابة إحدى الصنائع فلا بدَّ فيها من الأمور الأربعة .

فمادّتها، الألفاظ التى تخَيَّلها الكاتب فى أوهامه، وتصوّر من ضمّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة تامة فى نفسه بالقوة؛ والخَطُّ الذى يخطه القلم، ويقيد به تلك الصُّوَر . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورةً محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذى ينقطع الفعل عنده تقييدُ الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكمل قوّة النطق وتحصل فائدته للأبْعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صُوَره، ويؤمَن عليه من التغير والتبدّل والضَّياع . وغايتها الشىء المستثمَر منها، وهى آنتظام جمهور المَعاون والمَرافق العظيمة، العائدة فى أحوال الخاصة والعامّة بالفائدة الجسيمة فى أمور الدين والدنيا .

ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوبَ، ووقع الحضُّ من الشارع عليه، والحث على الآعتناء به تنبيها علىٰ أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائعَ متسعة؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسانُ بقلبه أو يحصِّلَه فى ذهنه .

قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : "أُكْتُبْ شِعرِى فالكتابُ أعجبُ إلىّ من الحفظ إن الأعرابىّ لينسى الكلمة قد سَهِرتُ فى طلبها ليلةً فيضَع موضِعَها كلمة فى وزنها لاتساويها، والكِتَاب لاينسىٰ ولا يبدّل كلاما بكلام" .

وقد أطنب السلف فى مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأوًا لمادح حتّى قال سعيد بن العاص: "مَنْ لم يكتبْ فيمينه يُسرىٰ" . وقال مَعْن بن زائدة : "اذا لم تكتب اليد فهى رِجْل". وبالغ مكحول فقال: "لاديةَ ليد لاتكتُب". قال الجاحظ : ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسَجِّل نبيّ سجِلًا ولا خليفة مرضيّ ولا يقرأ كتّاب علىٰ منبر من منابر الدنيا إلا اذا ٱستُفْتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتّاب كما هو مشهور فى السجلات التى سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نَجْرانَ وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤْمنين عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فى شرفه ونبله وسابقته ونجدته .

ومن ثم قال المؤيد : "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة، إليها ينتهى الفضل، وعندها تقف الرغبة" .

ومن كلام أبى جعفر "الفضل بن أحمد" فى جملة رسالة "الكتابة أُسُّ المُلك، وعماد المملكة، وأغصانٌ متفرّقة من شجرة واحدة. والكتابة قُطْب الأدب، ومِلاك الحكمة، ولسان ناطقٌ بالفصل، وميزان يدل علىٰ رَجَاحة العقل . والكتابة نور العلم، وفِدَامة(١) العقول ومَيْدان الفضل والعدل . والكتابة حِلْية وزينة ولَبُوس وجمال وهَيْبة ورُوحٌ جارية فى أقسام متفرّقة، والكتابة أفضل درجةً وأرفع منزلة، ومَنْ جهل حق الكتابة فقد وُسِم بوسم الغُواة الجَهَلة ، وبالكتابة والكُتّاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلا ونُبْلا تصوّرا جميعا تصوّرت الكتابة، ولو أن فى الصناعات صناعةً مربُوبة لكانت الكتابة رَبًّا لكل صنعة .

قال صاحب موادّ البيان : ومن المعلوم أنّ جميع الصنائع وسائلُ إلىٰ دَرْك المطالب ونَيْل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة فى الكثرة والقلة بحسب تفاضلها فى الرِّفعة

(١) من معاني الفدامة المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّـعَة، اذا كان منها ما لا يفى بالبُلْغة من قِوَام العيش : نحو الصنائع المَهِينة السُّوقيَّـة الداخلة فى المرافق العامية، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويجاوز حدّ الكفاية ويُحظى بالمـال والنِّعم الخطيرة وهى الصنائع الخاصَّة، و إذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها عُلِم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها فى هذا النوع، ولا ما يُكْسب ما تُكْسِبه من الفوائد والمَعَاون مع حصول الرَّفاهِيَـة والتنزه عن دَناءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورَفاهِيَة العيش ومشاركة الملوك فى ٱقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرفيعة، والمراكب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخَدَم المستحسَنة وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات الملوكيـة فى أقرب المُدَد وأقلّ الأزمنـة ؛ وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وٱرتفاع خَطَرها وسموّ قَدْرها اذ كان لها سَعة لمثل هذه الجدوىٰ التى لا يوجد مثلها فى غيرها من الصنائع .

وكفىٰ بالكتابة شرفا أنّ صـاحب السـيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمـه الكاتب فى سيفه .

قال فى مواد البيـان : "ومن ثَمَّ صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخْدِم أرباب كلِّ صـناعة ومُصَرِّفهم علىٰ أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلةً له مع ترفُّعه عن التلبُّس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأَنَفته أن يقع اسمٌ من أسمائها عليه" قال : وذلك أنا نرىٰ كل ملك وسلطان يُؤْثِر أن يكونَ له حظ من بلاغة العِبارة وجَوْدة الخط، وفى ذلك ما يدل علىٰ أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضلُ من سائر المتحلِّين بغيرها من الصنائع الأُخَر فقد عُلِم أن الصنائع كلَّها مَعاوِن ومَرَافق، لا تنتظم عِمَارة العالم إلا بتضافُرها ومُرافَدة بعضها لبعض . وإنها علىٰ ضربين : خاصية وعامية، فالعاميَّة صنائع المِهْنة وأهل الأسواق والحِرَف وإن شاركهم الخاصَّـة فى الحاجة إليها لأنّ بها تنتظم أمورُ المعاملات وتعمُر

البلاد؛ والخاصيَّة التى تقع فى حيِّز الملوك والسلاطين، ويتوزعها أعوانُهم وأتْباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التميز بين أقدارها بالنظر إلىٰ مقدار عائدتها فى أمور المُلك والسلطان والرعية مما كان معلّقا بالأمر الأهم، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أجسم، والفساد العائد بوقوع خَلَل فيه علىٰ أسباب المملكة أعظم؛ ومرتبته فى الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعةٌ تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج فى آنتظام أمور سلطانه إلىٰ ثلاثة أشياء لا ينتظم ملكه مع وقوع خلل فيها .

أحدها رسم ما يجب أن يُرْسَم لكلٍّ من العمال والمكاتِبين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعيد، وإحماد وإذمام .

والثانى آستخراج الأموال من وجوهها . وآستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها فى مستحقها من أعوان الدولة وأوليائها الذين يحمُون حَوْزَتها، ويسدُّون ثُغورها ويحفظون أطرافها، ويذُبُّون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا كُتّاب السلطان ولا سبيل للكُتّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبر فى صناعة الكتابة، فهى إذَنْ من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : "من أبْيَن فضلها أن جُعِلت فى عِلْية الناس" قال صاحب موادّ البيان : "وقد عُرِف أن الذين وضعوها وآبتدعُوها ورسموا رسومَها هم الأنبياء عليهم السلام" .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسفَ عليه السلام كان يكتُب للعزيز، وهارونَ ويوشعَ بن نون كانا يكتبانِ لموسىٰ عليه السلام، وسليمانَ بن داود كان يكتب لأبيه، وآصفَ بن برخيا ويوسف بن عنقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيىٰ بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد انتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمـر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صـلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليـه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفّان ثم صـار الأمر إليه فيما بعـدُ وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلىٰ غير هؤلاء من أهل هذه الصـنعة ممن فَرَع الذِّروة العلية من السيادة ، والسَّنام الباذخ من الرياسة ، علىٰ تغير الدُّول وتنقلها بين العرب والعجم ؛ وفي ذلك ما يدل علىٰ علو خَطَرها ، وارتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبَّه قوم بالكتابة بعدَ الخُمُول ، وصاروا الى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان رومياً خاملا فرفعته الكتابة وكتب لمعـاوية ويزيدَ بن معاوية ومَرْوانَ بن الحكم وعبد الملك بن مَرْوانَ . ومنهم حَسَّانُ النَّبَطيّ كاتب الحجاج ، وسالمٌ مولىٰ هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبدالصمد ، وجَبَلة بن عبدالرحمن ، وقَحْذم جدّ الحجاج (١) بن هشام القَحْذَميّ ، وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيعُ ، والفضلُ بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيىٰ بن خالد ، وجعفر بن يحيىٰ ، وابن المقفَّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وابن عبدالسلام الجُنْدَيْسَابوريّ ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسنُ بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) في العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام .

ونجاح بن سلمة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والريعان(١) : مروانَ ابن الحكم، وعبدَ الملك بنَ مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو آعتبر من شرُف بالكتابة وارتفع قدرُه بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحدّ . وهذا الوزير المهلبيّ كان فى أوّل أمره فى شدّة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره ضِيقةً حتّى اشتهى اللحم ولم يقدر عليه فقال آرتجالا :

ألَا مَوْت يُبَاع فأشْتَرِيه! * فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيه!
ألَا موتٌ لذيذُ الطَّعْمِ يأتِى * يُخَلِّصُنِى من المَوْتِ الكريهِ!
ألَا رحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ * تصدّق بالوفَاةِ علىٰ أخيه!

وكان معه رفيق له فاشترىٰ لحما وأطعمه . ثم ترقّى بالكتابة حتّى وُزِّر لمعزّ الدولة آبن بويه الديلمىّ فى جلالة قدره . وهذا القاضى الفاضل أصله من بَيْسان من غير بيت الوزارة رفعتْه الكتابة حتّى وُزِّر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلَتْ رتبته عنده حتّى بلغ من رتبته لديه أنْ كان يكتب فى كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرةً السلام على الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين فى كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغريبةٍ قد جِئْتُ فيها أوّلًا * ومَنِ اقْتَفَاها كان بَعْدِى الثانِى
فرَسُولىَ السُّلْطانُ فى إرسالها * والنّاسُ رُسْلُهُمُ إلى السُّلْطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة، كان علىٰ دين الصابئة مشدّدا فى دينه ، وبلغَتْ به الكتابة إلىٰ أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أى فيمن نَبُهوا بالكتابة . وأما عدّهما السابق ففى المكتوب لهم .

والمطيع وعز الدولة بن بويه : وجَهَد فيه عز الدولة أن يسلم فلم يقعْ له ؛ ولما مات رثاه الشريف الرضيّ بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انما رثيت فضله .

قال فى موادّ البيان : "ولا عبرة بمَنْ قعد به الجَدُّ ، وتخلّف عنه الحَظُّ من أهل هذه الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . على أن المبرِّز فى هذه الصناعة إن قعدتْ به الأيام فى حالٍ فلا بد أن يُرْفَع قدرُه فى أخرى : لأنَّ دَوْلة الفاضل من الواجبات ، ودَوْلة الجاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلاً أو رئيسا كاملاً ، فإنه يوفيه حقه و يرقِّيه إلى حيثُ آستحقاقُه . فمن كلام بعض الحكماء : تسْقُط الحظوظ فى دولة الملك الفاضل فلا يتسنَّم الرتبة العليَّة إلا مستوجبُها بالفضيلة .

و بالجملة ففَضْل الكتابة أكثر من أن يُحصىٰ وأجلُّ من أن يُستقصىٰ ؛ وانما حرِّمت الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردّا على الملحدين حيثُ نسبوه إلى الآقتباس من كتب المتقدّمين كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿ وقالُوا أساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِي تُمْلَىٰ عليه بُكْرَةً وأَصِيلًا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ المُبطِلُونَ ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسلم ! يأتى من القِصَص والأخبار الماضية منْ غير مُدارسة ولا نظر فى كتاب بما لا يعلمه إلا نبيٌّ ، كما رُوِى أن قريشا بمكة وَجَّهت الى اليهود : أنْ عَرِّفونا شيئاً نسأله عنه ؛ فبعثوا إليهم أن سَلُوه عن أنْبِياءَ أخذوا أحَدَهم فرمَوْه فى بئر و باعُوه ، فسألوه فنزلت سورة يوسف جملةً واحدة بما عندهم فى التوراة وزيادة .

قال العتبي : "الأُمِّيَّة فى رسول الله، صلى الله عليه وسلم! فضيلةٌ وفى غيره نَقِيصة لأن الله تعالى لم يعلِّمه الكتابة لتمكُّن الإنسان بها من الحيلة فى تأليف الكلام، وآستنباط المعانى فيتوسل الكُفَّار إلىٰ أن يقولوا آقتدر بها علىٰ ما جاء به".

قال صاحب موادّ البيان: "وذلك أنّ الإنسان يتوصل بها إلىٰ تأليف الكلام المنثور وإخراجه فى الصُّوَر التى تأخذ بمجامع القلوب؛ فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج علىٰ تكذيب معانِدِيه، وحسم أسباب الشك فيه".

وقد حكىٰ أبو جعفر النحَّاس: أن المأمون قال لأبى العلاء المِنْقَرىّ "بلغنى أنك أُمِّىٌّ، وأنك لاتقيم الشعر، وأنك تَلْحَن فى كلامك" فقال: "ياأمير المؤمنين! أما اللحن فربَّما سبقنِى لسانى بالشىء منه؛ وأما الأمية وكَسْر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا وكان لايُنْشِد الشعر". فقال له المأمون: "سألتك عن ثلاثة عُيُوب فيك فزِدْتنى رابعا وهو الجهل؛ ياجاهلُ! ذلك فى النبى، صلى الله عليه وسلم! فضيلة وفيك وفى أمثالك نَقِيصة".

قال الجاحظ : "وكلام أبى العلاء المنقرىّ هذا مِنْ أوابِد ماتكلَّم به الجُهَّال". علىٰ أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكَوْا وجهيْن فى أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يَعْلَم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزةً فى حقه كما تقدّم.

قال أبو الوليد الباجى من المالكية: "ولو كتب، صلى الله عليه وسلم! لكان مُعْجِزة لخَرْق العادة. قال: وليست بأوّل مُعْجِزاته صلى الله عليه وسلم!".

وإذا كانت الكتابةُ من بين سائر الصِّناعات بهذه الرتبةِ الشريفة والذِّروة المُنِيفة، كان الكُتَّاب كذلك من بين سائر الناس. قال الزبير بن بَكَّار: "الكُتَّاب ملوك وسائر الناس سُوقةٌ". وقال آبن المقفَّع: "الملوك أحوج إلى الكُتَّاب من الكتاب إلى الملوك". ومن كلام المؤيد "كُتَّاب الملوك عيونُهم المبصرةُ، وآذانُهم الواعية، وألسنتهم الناطقة".

وكانت ملوك الفرس تقول: "الكُتَّاب نِظام الأُمور، وجَمَال المُلْك، وبَهاء السلطان وخُزَّان أمواله، والأُمَناء علىٰ رعيته وبلاده وهم أولى الناس بالحِبَاء والكرامة، وأحقُّهم بحبة السلام".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "للكُتَّاب أقرَّت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم أُلْقِيت الأعِنَّة والأزِمَّة، وبهم ٱعتصَمُوا فى النـازلة والنَّكْبة، وعليهم ٱتَّكلوا فى الأهل والولد والذخائر والعَقْد ووُلاة العَهْد وتدبير المُلْك وقِرَاع الأعداء، وتوفير الفيء، وحِياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب".

قال فى موادّ البيان: "وما من أحد يتوسَّل إلى السلاطين بالأدب، ويمُتُّ إليهم من العلم بسبب، إلا وهو باقلُه لاينوَّل مايُنوِّلُه الا على وجه الإرفاق، خلا الكاتبَ فإنه يُنَوِّل الرغائب العظيمة من طريق الٱستحقاق، لموضع الٱفتقار إليه والحاجة، ومن المعلوم أنه لا بدَّ من واسطة تقوم بين الملوك والرعية لبُعْد مابين الطبقتين: العُلْيا والدُّنْيا، وليس من طبقات الناس من يُساهِم الملوكَ فى جَلَالة القدر وعظِيم الخَطَر، ويُشارك العامّة فى التواضع والٱقتصاد سوى الكُتَّاب فاحتيج إليهـم للسِّفارة فى مصالح الرعيّة عند السلاطين، وٱستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف فى الصلة بينهما". قال: "ولعلم الملوك بخَطَر هذه الصناعة وأهلها وعائدتها فى أمور السلطان صرَفوا العِنـاية إلى الكَتَبـة وخَصُّوهم بالحُظْوة وعرَفوا لهم فَضْـل ما جمعوه من الرأى والصـناعة، وكانت ملوك الفُرْس لرفعة رتبـة الكتابة عنـدهم تجمع أحداثَ الكُتَّاب ونواشئهم المعترضين لأعمـال الملك ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رُضى أُقرّ بالبـاب ليستعان به، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العُمَّال، وٱستعمالهم فى الأعمـال، وينقِّلهم فى الخِـدَم علىٰ قدر طبقاتهـم من حال إلىٰ حال حتّى ينتهيَ بكل واحد منهـم الىٰ

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يُمَكَّن أحد ممن عُرِض آسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا باذن الملك .

وفى عهد سابورَ — "وليكن كاتبُك مقبولَ القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانُه منك وما يُظَنّ به من لطافة موضعه عندك من الضَّراعة لأحد والمُداهنَة له ، ليحمله ما أوْليته من الإحسان علىٰ محض النصيحة لك ، ومنابَذَة من أراد عيبك وآنتقاصَ حقك" . ولم يكن يركبُ الهماليج فى أيامهم إلا الملكُ والكاتبُ والقاضى .

قلت : ولشرف الكتابة وفضْل الكُتَّاب صرف كثيرٌ من أهل البلاغة عنايتَهم إلىٰ وَضْع رسائل فى المفاخَرَة بين السيف والقلم ، إشارةً إلىٰ أن بهما قِوامَ الملك وترتيبَ السلطنة ، بل ربما فضل القلمُ على السيف ورُجِّح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلا للقلم بقَسَم الله تعالىٰ به :

إن آفْتَخر الأبطالُ يوماً بسَيْفِهم * وعَدُّوه مما يُكْسِب المجْدَ والكَرَمْ
كَفىٰ قَلَمَ الكُتَّاب عِزًّا ورِفْعةً * مَدَى الدَّهرِ أَنّ اللهَ أقسَمَ بالقَلَمْ

وكما قال آبن الرومى :

إن يخدُمِ القلمُ السيفَ الذى خَضَعَتْ * لهُ الرِّقابُ ودانَتْ خَوْفَه الأُمَمُ
فالموتُ ، والمَوْتُ لا شيءٌ يغالبُهُ ، * ما زَالَ يتبَعُ ما يَجْرى به القَلَمُ
كذا قضى اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيَتْ * أنّ السُّيوفَ لها مُذْ أُرهِفَتْ خَدَمُ

والمعنىٰ فى ذلك أنها تؤثر فى إرهاب العدوّ علىٰ بُعْدٍ والسيوف لا تؤثر إلا عن قُرْب مع ما فُضِّل به القلم من زيادة الجَدْوىٰ والكَرَم ، و إلىٰ ذلك يشير بعضهم بقوله مشيرا للقلم

فلَكَمْ يَفُلُّ الجيشَ ، وهو عرمْرمٌ ، * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأغْمادِ
وَهبَتْ له الآجامُ حين نَشَا بها * كرمَ السُّيولِ وَصَوْلَةَ الآسادِ

الفصل الثـانى

(فى مَدْح فضلاء الكُتّاب وذمِّ حَمْقاهم)

أما فُضَلاء الكتّاب فلم يزل الشـعراء يَلْهَجون بمدح أشراف الكُتّاب وتقريظهم ويتغالَوْن فى وصف بلاغاتهم وحُسْن خطوطهم . فمن أحسن مامُدِح به كاتب قولُ ٱبن المعتز :

إذا أخَذَ القِرْطـاسَ خلْتَ يمينَهُ * تُفَتِّـح نَوْرا أو تُنَظِّـم جَوْهَرا

وقول الآخر :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثُورَ مَنْطِقُـه * ويَنْظِمُ الدُّرّ بالأقلام فى الكُتُبِ

وقول الآخر :

وكَاتب يَرْقُم فى طِرْسِـه * رَوْضًا بِه تَرْتَعُ ألْحـاظُهُ
فالدُّرُّ ما تَنْظِـم أقلامُه * والسِّحْر ما تَنْـثُرُ ألفـاظُه

وقول الآخر :

إنْ هَزَّ أقلامَهُ يومًا لِيُعْمِلَها * أنْساكَ كُلَّ كَمِىٍّ هَـزَّ عامِلَه
وإنْ أقَرَّ علىٰ رَقٍّ أناملَهُ * أقَـرَّ بالرِّقِّ كُتّابُ الأَنامِ لَهُ

وقول الآخر :

لا يُخْطِر الفِـكْر فى كتابَتِـه * كأنّ أقلامَهُ لَهَـا خاطِـرُ
القَوْلُ والفِعْلُ يجْرِيَانِ مَعًـا * لا أوّلٌ فِيهِـمَا ولا آخِر

وقول الآخر :

وشادنٍ من بَنِى الكُتّابِ مُقْتَدِرٍ * على البَلاَغة أحْلَى الناس إنشاءَ
فَلا يُجارِيهِ فى مَيْـدانِهِ أحَدٌ * يُرِيكَ سَحْبانَ فى الإنْشاءِ إنْ شاءَ

وكذلك أُولِعُوا بذمِّ حُمْقِ الكُتَّاب ولَهِجُوا بهَجْوهم فى كل زمن .

فمن ذلك قول بعض المتقدّمين يهجُو كاتبًا :

حمارٌ فى الكِتَابةِ يَدَّعِيها * كدَعْوىٰ آلِ حَرْبٍ فى زِيَادِ

فدَعْ عنْكَ الكِتَابَةَ لَسْتَ منها ! * ولو غَرِقتْ ثِيابُك فى المِدَادِ

وقول الآخر :

وكاتبٍ كُتْبه تُذَكِّرنى الـ * ـقُرءانَ حتّىٰ أظلّ فى عَجَبِ

فاللَّفْظ "قالوا قُلُوبُنا غُلُفٌ" . * والخَطُّ "تَبَّتْ يدَا أبِى لَهَب"

وقول الآخر :

يَعِى غيْرَ ما قُلْنا ويَكْتُبُ غيْرَ مَا * يَعِيه ويَقْـرَا غيْرَ ما هو كاتبُ

وقول الآخر :

وكاتبٍ أقلامُـهُ * مُعَوَّداتٌ بالغَلَطْ

يَكْشِطُ مايَكْتُبُهُ * ثم يُعِيدُ ما كَشَطْ

وقولُ ٱبن أبى العَيْناء يهجو أسد بن جَهْور الكاتب .

أو ما ترىٰ أسَدَ بنَ جَهْوَرَ قد غَدَا * مُتَشَبِّهًا بأجِلَّةِ الكُتَّابِ؟

لكِنْ يُخَرِّقُ ألْفَ طُومارٍ إذا * ما ٱحْتِيجَ منه إلىٰ جوابِ كِتَابِ

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكُتَّاب مما صاروا به هزؤا علىٰ ممرّ الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيي الكاتب أنه قرأ علىٰ بعض الخُلَفاء كتابا يذكر فيه حاضرطى" فصحَّفه حاضرطى فسخر منه أهل المجلس .

ويروىٰ إن كُتّاب الدواوين ألزموا بعضَ العمال مالًا مخرجًا عليه فبعث بحسابه إلىٰ عبيد الله بن سليمان فوقَّع عليه "هذا هذا" وردّ الحساب إلىٰ العامل فقدّر العاملُ

بضَعْف آدابه أنه صحَّح حجتــه وقَبِل الحساب منــه كما يقال فى تثبُّت الشىء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكُتَّاب وناظرهم علىٰ أنّ ذلك يوجب إزالة المـال الذى لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فرُدّ التوقيع إلىٰ عبيد الله فلم يزده فى الجواب علىٰ أن شدّد الكلمة الأخيرة ووقَّع تحتها "الله المستعان" إعلامًا له أن لفظ هذّا بالتشديد بمعنى الهذيان .

وحكى العبَّاس بن أســد : أن أبا الحسن علىَّ بن عيسىٰ كتب إلىٰ أبى الطيب أحمد بن عيسىٰ كتابًا من مكة(١) فقرأه ثم رمىٰ به إلىّ فقال : اقرأ . فقرأت : كتابى إليك يوم القُرّ، بالرفع . فقال : ما معنَى يوم القُرّ ؟ فقلت : القُرّ البرد فقال : انمـا هو يوم القَرّ بالفتح ، حين يَقِرّ الناس بمنًى ، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهـاية الأرب : "وقد اتَّسع الخَرْق فى ذلك ودخل فى الكتابة مَنْ لايعرِفها البتَّة ، وزادوا عن الإحصاء ، حتّى إن فيهم مَنْ لا يفرق بين الضاد والطاء . قال : ولقد بلغنى عن بعض مَنْ أدخل نفسه فى الكتابة وتوسَّل إلىٰ أنْ كتب فى ديوان الرسائل : أنه رُسِم له بكتاب يكتُبه فى حقِّ رجل اسمه طرنطاى فقال لكاتب إلىٰ جانبه طرنطاى يكتب بالساقط أو بالقائم . قال : وصار الآنَ حدّ الكاتب عند هؤلاء الجُهَّال أنه يكتب على المجوِّد مدّة ويُتْقن بزعمه أسطرا فاذا رأىٰ من نفسه أنّ خطه قد جاد أدنىٰ جودة أصــلح بِزَّته ، وركب بِرْذَوْنه أو بغلتــه ، وسعىٰ فى الدخول إلىٰ ديوان الإنشاء والانضمام إلىٰ أهله ؛ ولعل الكتابة انمـا يحصل ذمّها بسبب هؤلاء وأمثالهم . ولله درّ القائل !

تَعِس الزمانُ ! فقدْ أتىٰ بعُجَابِ(٢) * ومحـا فُنُون الفَضْل والآداب
وأتىٰ بكُتَّابٍ لو انْبسَطَتْ يَدِى * فِيهِـــمْ رَدَدْتُهُمُ إلى الكُتَّابِ"

(١) فى ضوء الصبح (من منى) .
(٢) فى الأصل بعجائب وقد اخترنا رواية الضوء .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرّق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتّى صار الفصيح لديهم أعجم[1]، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم؛ ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصِناعَتِي عَرَبِيَّةٌ وكأنَّنِي * ألْقَىٰ بأكثرِ ما أقُولُ الرُّوما
فلِمَنْ أقُول؟ وما أقُول؟ وأيْنَ لِي؟ * فأسيرَ، لا بل أيْنَ لى فأُقِيما؟

وقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأحجمتُ عن مسألة حاجتى لكثرة جَمْعه، فرأيته وقد أملىٰ علىٰ كاتبه "ولم أكتب بخطّى إليك خوفا من أن تقِف علىٰ رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" علىٰ ما يجب فقال: أما تُحْسِن الهجاء ؟ أين الواو ؟ فأثبتها الكاتب فخسَّ حينئذ فى عينى، فاجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتى .

وحكىٰ صاحب ذخيرة الكُتَّاب عن بعض الوزراء : أنه تقدّم إلىٰ كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها علىٰ بُرْج أنشأه فكتب "أمر بعمارة هذا البُرْج أبو فلان فلان" واستوفىٰ ألقابه إلىٰ آخرها، ودفع المثال إلى الوزير ليقف عليه فلما قرأه غضب حتّى ظهر الغضب فى وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبى فلان بالياء محتجًّا عليه بأن أبو من ألفاظ العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن الحال اقتضتْ رفعه من حيث إنه فى هذا الموضع فاعل؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متىٰ رأيت الأمير فاعلا فى هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة علىٰ رأسه حتّى تنسبه إلىٰ هذا ؟ والله لولا سالفُ خدمتك لفعلت بك ! .

---

(١) فى الأصل أعجما . . . أبكما .

قال آبن حاجب النعمان : ولمّـا كان أرباب الأمور وولاتُها من الخلفاء فمَنْ دونهم يَنْقُدون مايكتب به الكُتّاب عنهم وما يرد عليهم من الكُتُب ، ويناقشون علىٰ ما يقع فيها من خطإ أو يدخُلُها من خلل ، ويقدّمون الفاضل ويرفعون درجته ، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته ، كان الكتّاب حينئذ يتبارَوْن على آقتناء الفضيلة . ويترفّعون عن أن يعلَق بهم من الجهل أدنىٰ رذيلة . ويَجْهَدون فى معرفة ما يحسِّن ألفاظهم ، ويزين مكاتباتهم ، لينالوا بذلك أرفع رتبة ، ويفوزوا بأعظم منزلة .

ولما آنعكست القضـية فى تقديم من غَلِط بهم الزمان . وغفل عنهم الحِدْثان . وآستولَتْ عليهم شِرّة الجهْل . ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضْل . وصار العالم لديهم حَشَفا ، والأديب مُحارَفا ، والمعرفة مَنْكرة ، والفضيلة مَنْقَصة ، والصمت لُكْنه ، والفصاحة هُجْنة ، آجتُنِبت الآداب آجتناب المحارم ، وهُجرت العلوم هَجْر كبائر المآثم .

ولو أنصف أحد هؤلاء الجُهّال ، لكان بالحَشَف أولىٰ ، وبالحُرْفَة والمَنْقصة أجدر وأحرىٰ ، لكنه جهل الواجبات وأضاعها (١) . وسَـفِه حقّ المُروءة وأفسـد أوضاعها ويوصف بالحىّ الناطق ، والصامتُ أرجى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق .

الباب الثانى

من المقدّمة

فى ذكر مدلول الكتابة لغة وآصطلاحا ؛ وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه ؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل ؛ وتفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر ؛ وفيه ثلاثة فصول .

---

(١) فى الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهى من زيادة الناسخ كما هو ظاهر .

الفصـــل الأوّل

فى ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسل

الكتابة فى اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتُب كَتْبا وكتَابًا وكِتابةً ومَكْتَبة وكِتْبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتَّبت القومُ إذا آجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كَتِيبة، وكَتَبْت البغلة إذا جمعتَ بين شُفْريها بحَلْقة أو سيْر ونحوه، ومن ثَمَّ سمِّى الخَطُّ كتابة لجمع الحروف بعضها إلىٰ بعض كما سمِّى خَرْز القربة كتابةً لضمّ بعض الخُرَز إلىٰ بعض . قال آبن الأعرابىّ : وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالىٰ ﴿ أم عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى يعلمون . وعلىٰ حدّ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه لأهل اليمن حينَ بعث إليهم معاذا وغيره " إنِّى بَعَثْتُ إلَيْكُم كاتبًا " . قال آبن الأثير فى غريب الحديث " أراد عالمـا سُمِّى بذلك لأن الغالب علىٰ مَنْ كان يعلم الكتابة أن عنده علمًا ومعرفةً وكان الكاتبُ عندهم قليلًا وفيهم عزيزًا" .

أما فى الآصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان : بأنها صناعة رُوحانيَّة تظهر بآلة، جُثْمانيَّة، دالةٌ على المراد بتوسط نظمها . ولم يبين مقاصد الحدّ ولا مادخل فيه ولا ماخرج عنه، غير أنه فَسَّر فى موضع آخر معنى الرُّوحانية فيها بالألفاظ التى يتخيلها الكاتبُ فى أوهامه ويصوِّرُ من ضمّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة قائمةً فى نفسه . والجُثْمانية بالخط الذى يَخُطُّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورةً معقولةً باطنـة صورةً محسوسةً ظاهرة . وفسر الآلَةَ بالقلم وبذلك يظهر معنى الحدّ وما يدخل فيه ويخرج عنه؛ ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطِّره القلم ممـا يتصوّره الذهن ويتخيله الوَهْم فيدخل تحته مطلَقُ الكتابة كما هو المستـفاد من

المعنى اللغوىّ . على أن الكتابة ، و إن كثرت أقسامها وتعدّدت أنواعها ، لاتخرج عن أصلين : همـا كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال وما فى معناهما علىٰ ماسـيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أنّ العرف فيما تقدّم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصـناعة الإنشاء حتّٰى كانت الكتابة إذا أُطْلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب اذا أُطلِق لايراد به غير كاتبها حتّٰى سمّٰى العسكرىّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء ، وسمّٰى ٱبن الأثير كتابه "المَثَل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لمـا يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب علىٰ كاتب المـال حتّٰى صار الكاتب إذا أطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء ٱسمان : خاصّ يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الانشاء ، وعامّ يتلفظ به عامّة النـاس وهو التَّوْقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيءَ إذا ٱبتدأه أوٱخترعه علىٰ غيرمثال يَحْتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلِّفه من الكلام ويبتكِره من المعانى فيما يكتُبه من المكاتَبَات والوِلَايات وغيرهما أو أن المكاتَبات والوِلاياتِ ونحوَها تنشأ عنه .

وأما تسميتُها بالتوقيع فأصله من التوقيع علىٰ حواشى القِصَص وظُهورِها كالتوقيع بخط الخليفـة أو السلطان أو الوزير أو صـاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومن جرىٰ مَجْراهم بما يُعتَمد فى القضية التى رُفِعت القِصَّة بسببها ، ثم أُطْلِق علىٰ كتابة الإنشاء جملة .

قال ٱبن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : ومعناه فى كلام العرب التأثير القليلُ الخفيفُ ، يقال : جَنْب هذه الناقة مُوَقَّع إذا أثّرت فيه حبال الأحمال تأثيرا خفيفًا .

وحُكِي أنّ أعرابيَّة قالت لجارتها "حديثُك تَرْويع وزيارَتُك تَوْقيع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَع الأمر إذا حَقَّ ولزِم ومنه قوله تعالىٰ ﴿ووقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَّع الصَّيْقَلُ السيفَ إذا أقبل عليه بمِيقَعته يجلُوه لأنه بتَوقيعه فى الرُّقْعة يجلو اللَّبْس بالإرشاد إلىٰ ما يُعتَمد فى الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر ــ وهى المكان الذى يأْلفه من حيثُ إن الموقِّع علىٰ الرقعة يألف مكانًا منها يُوقِّع فيه كحاشية القِصَّة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين (١) ــ وهو المكان المرتفِع فى الجبل لأرتفاع مكان الموَقِّع فى الناس وعُلُوّ شأنه أو غير ذلك.

ووجْه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدّم أن التوقيع فى الأصل آسم لما يُكْتَب على القِصَص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المُكاتَبَات والوِلايات ونحوها إنما يبنىٰ علىٰ مايخرُج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومَنْ فى معناهم؛ وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يَبْنِى عليه المنشئ، وقد يكون سمَّى بأصله الذى نشأ عنه مجازا؛ وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشيء بأعم أجزائه إذ الترسل والمكاتَبَات أعظم كتابةِ الإنشاء وأعمُّها من حيثُ إنه لا يَستغنى عنها مِلك ولا سُوقةٌ، بخلاف الوِلايات فإنها مختصَّة بأرباب المناصب العليَّة دُون غيرهم؛ وعلىٰ ذلك بنى الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تسمية كتابه "حُسْن التوسُّل، إلىٰ صناعة الترسُّل".

---

(١) عبارة اللسان والقاموس والوقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل. فلعل ما فى الأصول من تصحيف الناسخ فتأمل.

الفصــل الثـانى

(فى تفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة)

قد تقدّم فى الفصل الذى قبله أن الكتابة و إن كثرتْ أقسامها وتعدّدتْ أنواعُها لاتخرج عن أصلين : كتابةِ الإنشاء، وكتابةِ الأموال .

فأما كتابة الإنشـاء فالمراد بها كل مارجع من صــناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى : من المكاتَبَات والولايات والمسامحَات والاطلاقات ومناشِــير الاقْطاعات والهُدَن والأمانات والأيمان وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المـال وصَرْفه وما يجرى مَجْرى ذلك ككتابة بيت المـال والخزائن السُّلطانيـة ، وما يُجْبىٰ إليها من أموال الخرَاج وما فى معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والنفقات وغير ذلك ، وما فى معنىٰ ذلك ككتابة الجيوش ونحوها ممـا يجرّ القولُ فيه إلى صَنْعة الحُسَّاب ، ولا شك أن لكلٍّ من النوعين قدرًا عظيماً وخَطَرا جسيًا ، إلا أنّ أهــل التحقيق من علماء الأدب ما بَرِحُوا يرجِّحون كتابةَ الإنشاء و يفضلونها و يميزونها علىٰ سائر الكتابات و يقدّمونها ، و يحتجُّون لذلك بأمو ر .

منهـا أن كتابة الإنشاء مستلْزِمة للعـلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتُبه من ولاياته ومكاتَبَاته مما يتعلق بكتابة الأموال إلىٰ أن يُمَثِّل لهم فى وصاياه من صِناعتهــم مايعتمِدونه ، ويبينَ لهم مايأتونه و يذَرُونه ، فلا بُدّ أن يكون عالمًـا بصناعة مَنْ يكتب له . بخِلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد علىٰ رسوم مقرّرة وأُنْمُوذَجات محرّرة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيهـا الىٰ تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها آشتمالُ كتابة الإنشاء علىٰ البيان الدالّ علىٰ لطائف المعانى التى هى زُبَد الأفكار وجَوَاهِرُ الألفاظ، التى هى حِلْية الألسنة، وفيها يتنافسُ أصحابُ المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثرَ من تنافسهم فى الدرّ والجوهر .

ومنها ماتستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذَكاء القريحة، وجَوْدة الرويَّة : لمـا يحتاج إليه من التصرف فى المعانى المتداوَلة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التى عَبَّر بهـا مَنْ سـبق إلىٰ آستعمالها مع حِفْظ صورتهـا وتأديتها إلىٰ حقائقها؛ وفى ذلك من المشقّة مالا خفاءَ فيه علىٰ مَنْ مارس الصِّناعة، خصوصًا إذا طلب الزيادة والعُلُو علىٰ مَنْ تقدمه فى آستعمالها، أو حذا حَذْوَ رسوم المبرِّزين الذين ينتحلون الكلام ويُوقِعُونه مواقِعه مع مراعاة رَشَاقة اللفظ، وحلاوة المعنىٰ، و بلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من آختراع المَعَانى الأبكار للأمور الحادثة التى لم يقع مثلُها، ولا سبق سابق إلىٰ كتابتها ـ لأنّ الحوادث والوقائع لاتتناهىٰ ولا تقف عند حدّ .

ومن هنا تنقَّص الوزيرُ ضياءُ الدين بنُ الأثير فى المَثَـل السائر المقاماتِ الحريريَّةَ وآزدراها جانحًا إلىٰ أنها صور موضوعة فى قوالب حكايات مبنيَّة علىٰ مبدإ ومَقْطع بخلاف الكتابة فان أهوالها غير متناهية؛ ولو رُوعِى حال مايكتبه الكاتب فى أدنىٰ مدّة لكان مثل المقامات مرّات .

ومنها آختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقُرْبه منه وإعظام خواصِّه وآعتمادهم فى المهمات عليه، مع كونه أحرز (١) بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين فى الأموال. وقد قال بعض الحكماء : الكُتَّاب كالجوارح كل جارحة منها تَرْفِد الأخرىٰ فى عملها بمـا به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح الممازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسِّه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أحرى ـ كما سيأتى له بعدُ .

قال فى موادّ البيان "ولا شك فى صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل فى تقليده ما يعتمد عليه و يتصفح ما يرد منه و يصرفه بالأمر والنهى علىٰ ما يؤدّى إلىٰ آستقامة ماعَدق به(١)، وهو حلية المملكة و زينتها لمـا يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرَها، ويُعْلِي ذكرها، و يعظم خَطَرها، ويدلُّ علىٰ فضل ملكها، وهو المتصرف عن السلطان فى الوعد والوعيد، والترغيب، والإحماد والإذمام، وآقتضاب المعـانى التى تُقرّ الوالِيَ علىٰ ولايته وطاعته، وتَعْطف العدوّ العاصىَ عن عداوته ومعصيته . علىٰ أن بعض المتعصبين قد رجَّح كتابة الأموال علىٰ كتابة الإنشاء بمغالطات أوردها، وتزويرات زخرفها ونَمَّقها، لا تخفىٰ علىٰ متأمّل، ولا تتغطّى علىٰ ذى ذهن سليم .

وقد أوردْ الحريرىّ فى "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالفراتيَّة ألفاظا قلائل فى المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال علىٰ لسان أبى زيد السروجى .

"اِعلموا أنّ صِناعة الإنشاء أرفَع ، وصناعة الحِسَاب أنْفَع ، وقلَم المكاتبـة خاطب، وقلَم المحاسبة حاطب، وأساطيرَ البلاغة تُنْسَخ لتُدْرَس، ودساتيرَ الحُسْبانات تنسـخ وتُدْرَس، والمنشئ جُهَينةُ الأخبار ، وحَقيبة الأسرار ، ونَجِيُّ العظماء ، وكبيرُ النُّدَماء ؛ وقلمُه لسان الدوله ، وفارسُ الجَوْله ، ولُقْمان الحِكْمه، وتَرْجُمان الهِمَّه، وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير؛ به تُسْتَخْلَص الصَّياصِى، وتُمْلك النَّواصِى، ويُقْتاد العاصى، ويُسْتَدْنىٰ القاصى؛ وصاحبه برىء من التَّبِعات، آمنٌ كيدَ السُّعات، مقرّظ بين الجَمَاعات، غير معرّض لنظم الجَماعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

---

(١) فى الضوء عزق بالعين المهملة والزاى وهو المناسب ولعل مافى الاصل تصحيف .

"إلا أن صناعةَ الحِسَاب موضوعةٌ على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنيّة على التلفيق، وقلمَ الحاسب ضابط، وقلم المنشىء خابط؛ وبينَ إتاوة توظيف المعامَلات، وتلاوة طوامير السِّجلَّات، بون لا يُدْركه قِياس، ولا يعتوره التباس؛ إذ الإتاوةُ تملأ الأكياس، والتِّلاوة تفرّغ الراس، وخَرَاج الأوارِج يُغْنى الناظر، وٱستخراج المَدَارج يُعَنِّى الخاطر.

ثم إن الحَسَبة حَفَظة الأموال، وحَمَلة الأثقال، والنَّقَلة الأثبات، والسَّفَرة الثِّقات، وأعلامُ الإنصاف والٱنتصاف، والشهود المَقَانع فى الٱختلاف؛ ومنهم المستوفى الذى هو يَدُ السلطان، وقُطْبُ الديوان، وقِسْطاس الأعمال، والمهيمن على العُمَّال، وإليه المآل فى السِّلْم والهَرْج، وعليه المدار فى الدَّخْل والخَرْج، وبه مَنَاط الضَّرّ والنَّفْع، وفى يَده رِباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحُسَّاب، لأودَتْ ثمرةُ الٱكتساب، ولٱتَّصلَ التَّغابُن إلى يوم الحِساب، ولكان نظامُ المعاملات محلولا، وجُرْح الظُّلامات مَطْلولا، وجِيدُ التناصُف مغلولا، وسَيْفُ التظالُم مسلولا. على أنّ يراعَ الإنشاء متقوِّل، ويراعَ الحِساب متأوِّل، والحاسب مناقِش، والمنشىء أبو بَرَاقِش، ولكلَيْهما حُمَة حين يَرْقَى، إلى أن يُلقَى ويُرقَى، وإعْنات فيما يُنْشا، حتّى يُغشَى ويُرشَى ﴿إلَّا الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات وقَلِيلٌ مَاهُمْ﴾".

قلت: وقد أوردت فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر فى خطبة هذا الكتاب من فضلِ الكتابة ما يَشْدُو بذكره المترنِّم، وأودعتها من شرف الكُتَّاب ما يُذْعِن له الخصم ويسلِّم.

الفصل الثــالث

(فى ترجيح النثر على الشـــعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضـيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّدُه باعتدال أقسامه وتَوازُنِ أجزائه وتَساوِى قوافى قصائده، ممــا لا يوجد فى غيره من سائر أنواع الكلام، مع طُول بقائه على ممرّ الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوُله على ألسِـنة الرُّواة وأفواه النَّقَلة لتمكُّنِ القوة الحافظة منـه بٱرتباط أجزائه وتعَلُّقِ بعضها ببعض، مع شُـيوعه وٱستفاضته وسرعة ٱنتشاره وبُعْد مَسِيره وما يؤثِّره من الرِّفْعة والضَّعَة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده بمجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعـة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعديد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المُجِيـد من الحِباء الجسيم والمَنْح الفائق، الذى يستحقه بحسن مَوْقِع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأرْيحيَّــة، وقبوله لمــا يرد عليه من الألحان المطربة المؤثِّرة فى النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليــه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجرى مَجْراها وما يُستَدَلُّ به منها فى تفسير القرآن الكريم وكلامِ مَنْ أُوتِىَ جوامع الكلم، ومَجَامع الحِكم، صلى الله عليه وسلم! وكونه ديوانَ العرب ومجتمَع تمكنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمَّه، والمَفَاخر الضَّخْمه، فان النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مَقَاما، وأحسن نِظاما، إذ الشعر محصور فى وزْنٍ وقافيةٍ يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف مالا ينصرف ومنع ماينصرف من الصرف، وٱستعمالِ الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك ممــا تُلْجِئ اليه ضرورةُ الشعر فتكون معانيه تابعةً لألفاظه؛ والكلام المنثور لايُحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعةً لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا ٱعتبرت ما نُقِل

من معانى النثر إلىٰ النظم وجدتَه قد ٱنحطَّت رتبته . ألا ترىٰ إلىٰ قول أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه ! "قِيمةُ كلِّ ٱمرِئٍ مايُحْسِن" : أنه لما نقله الشاعر إلىٰ قوله

فَيَالائِمى دَعْنِى أُغالِى بِقِيمَتِى * فَقِيمةُ كلِّ الناسِ مايُحْسِنُونه

قد زادت ألفاظه وذهبت طَلَاوته ، وإن كان قد أفرد المعنىٰ فى نصف بيت فإنه قد ٱحتاج الىٰ زيادة مثل ألفاظه مَرَّة أخرىٰ توطئةً له فى صدر البيت ومراعاةً لإقامة الوزن ، وزاد فى قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ ٱمرئ بلفظ الناس ولا شكّ أنّ لفظ ٱمرئ هنا أعذب وألطف ، وغَيَّر قوله يُحْسن إلىٰ قوله يُحْسِنونه ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتدّ به مستوخَم ، وإذا ٱعتبرت ما نقِل من معانى النظم إلىٰ النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حُسْنًا ورَوْنقا ألا ترىٰ إلىٰ قول المتنبى يصف بلدا قد عُلِّقت القَتْلىٰ علىٰ أسوارها ؟ :

وكانَ بها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبحَتْ * ومِن جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمائِمِ

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير فى قوله يصف بلدا بالوصف المتقدّم : "وكأنما كان بها جُنُون فبعث لها مِن عزائمه عزائِم ، وعَلَّق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم" فإنه قد جاء فى غاية الطَّلاوة خصوصا مع التورية الواقعة فى ذكر العزائم مع ذكر الجنون ؛ وهذا فى النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلةً أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذى ﴿لايَأتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ولم ينزله على صفة نظم الشعر بل نزَّهه عنه بقوله ﴿وَمَا هُوَ بقَوْلِ شاعِرٍ قَليلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وحرّم نظمه علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تشريفًا لمحلِّه وتنزيهًا لمَقامه منها علىٰ ذلك بقوله ﴿وَمَا عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ﴾ وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل علىٰ الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاوِزة للحدّ، والنعوتِ الخارجة عن العادة، وقذف المُحْصَنات، وشهادة الزُّور، وقول البهتان، وسبِّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذى هو أقوى الشعر وأفحله . بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخُطَب والترسُّل، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق، إذ الخُطَب كلام مبنيّ علىٰ حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم، والتذكير والترغيب فى الآخرة والتزهيد فى الدنيا والحض علىٰ طلب الثواب، والأمر بالصَّلاح والإصـلاح، والحث علىٰ التعاضُد والتعاطُف، ورَفْض التباغُض والتقاطُع، وطاعة الأئمة، وصلة الرحم، ورعاية الذمم، وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ مما هو مستحسَن شرعًا وعقلا . وحَسْبُك رتبــةً قام بها النبي صلّى الله عليه وسلم! والخُلَفاءُ الراشدون بعده . والترسُّل مبنيّ علىٰ مصالح الأمة وقِوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسَرَاة الناس فى مهمَّات الدِّين وصلاح الحـال وبيْعات الخلفاء وعُهُودهم، وما يصـدُر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من وِلايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها . إلى غير ذلك من المصالح التى لا تكاد تدخُل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر .

قال فى موادّ البيـان "وقد أحسَّت العرب بانحطاط رتبــة الشِّعر عن الكلام المنثور كما حُكِي أن آمرأ القيس بنَ حُجْر همَّ أبوه بقتله حين سمعه يترنَّم فى مجلس شرابه بقوله :

اسْــقِيَا حُجْرًا علىٰ عِلَّاته * مِنْ كُمَيْتٍ لَوْنُها لَوْنُ العَلَق

وما يروى أنّ النابغة الجعدىّ كان سيدا فى قومه لايقطعون أمرا دُونه وأنّ قول الشعر نقصه وحطّ رُتْبته". قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر علىٰ النثر آتباعا لهواه بدون دليل واضح" .

قال فى الصناعتين : "ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن مِن أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا". قال: "والذى قصّر بالشعر كثرتُه وتعاطِى كل أحد له حتّى العامّة والسِّفْلة فلحقه بالنقص[1] مالحق الشِّطْرَنْج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام علىٰ آحتياج الكاتب للشعر فى بيان مايحتاج إليه الكاتب فيما بعدُ إن شاء الله تعالى !

البـاب الثـالث

فى صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى صفاتهم؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الصفات الواجبة التى لايسع إهمالُها؛ وهى عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام — ليؤمَن فيما يكتبه ويُمْليه. ويُوثَق به فيما يَذَره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهبُ للعـدوّ بوقع كلامه، والجاذبُ للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يولّى أحد من أهل الكفر، إذ يكون عينا للكفّار علىٰ المسلمين، ومُطْلعا لهم علىٰ خَفَايَاهم فيصلون به إلىٰ ما لايمكن آستدراكه، وقد قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

(١) لعله من النقص وحرر .

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ والمراد بالبطانة فى الآية من يَطّلع على حال المسلمين كالاطّلاع على مقدار خزائنهم من المال، وأعداد جيشهم من الخيل والرجال .

قال أبو الفضل الصُّورى فى تذكرته "وإن من الفِطرة التى جُبل كل أحد عليها حنينَ كل شخص من الناس إلى مَن يرى رأيه ويدين دِينه" قال : "وهذا أمر يجده كل أحد فى نفسه ، ولذلك شرط بعضهم فى الكاتب أن يكون على مذهب الملِك الذى يتمذهب به من مذاهب المسلمين ليكون موافقا له من كل وجه".

ولما فتحت الصحابة (رضوان الله عليهم) مصر ، بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل فى عمل من أعمال المسلمين كافرا فأجابه عمرو : بأن المسلمين إلى الآنَ لم يعْرِفوا حقيقة البلاد ، ولم يَطَّلِعوا على مقادير خراجها ، وقد اجتهدْتُ فى نصرانىّ عارف منسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فنعزله ، فغضب عمر رضى الله عنه وقال : كيف تؤمّنهم وقد خوّنهم الله؟ وكيف تُعزُّهم وقد أذلهم الله؟ وكيف تقرّبهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية وقال فى آخر كتابه "مات النصرانىّ والسلام".

وقد روى أن أبا موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومعه كاتب نصرانىّ فأُعْجِب عمرُ بخطه وحسابه ، فقال عمر "أحضر كاتبك ليقرأ" فقال أبو موسى "إنه نصرانىّ لايدخل المسجد" فزَبَره عمر رضى الله عنه وقال "لا تؤمّنوهم ، وقد خوّنهم الله ، ولا تُدْنوهم ، وقد أبعدهم الله ، ولا تُعزُّوهم وقد أذلهم الله".

وقد قال الشافعى رضى الله عنه فى كتابه الأمّ : "ما ينبغى لقاضٍ ولا والٍ أن يتخذ كاتبا ذمّيا ، ولا يضعَ الذمىّ موضعا يَفْضُل به مسلما . ويَعزُّ على المسلمين أن يكون لهم

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردى والقاضى أبو الطيب والبندنيجى وابن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط فى كاتب القاضى أن يكون مسلما وهو الأصح الذى عليه الفتيا فى المذهب .

وإذا اشترط الإسلام فى كاتب القاضى والوالى ففى كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرّ به .

قال أبو الفضل الصُّورى : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى فى أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثّل بنواهيه وأوامره ، والتدبّر لقوارعه وزواجره ؛ وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ؛ وهو الذى يَشُدّ قُوى الكلام ، ويثبّت صحته فى الأفهام ؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عاريةً من الفضائل : لأنه الحجة التى لا تُدْحَض ، والحقيقة التى لا تُرْفَض ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شىء ، وكانت كتابته مغسولةً من أفضل الكلام . وخاليةً مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصّرةً عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمىّ حفظ شىء منه وكتبه فقد أُبيحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ، وأمكن منه مَنْ يتخذه هُزُوا ولعبا والله سبحانه يقول فى كتابه المكنون ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم" قال : "ولا يُحتج بالصابئ وأنه كتب للطيع والطائع من خلفاء بنى العباس ، ومعزّ الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عُمْدة الإسلام وعَضُد الخلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابئ كان من أهل ملةٍ قليلٍ أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتُخشى غائلته وتُخاف عاقبتُه .

الصفة الثانية، الذكورة — فقد صرّح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشْتَرط فى كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا آشـتُرِط ذلك فى كاتب القاضى ففى كاتب السلطان أولىٰ لمـا تقدّم من عموم النفع والضرّ به . وقد روى أن عمر بنَ الخطاب رضى الله عنه قال فى حق النساء "جَنِّبوهُنّ الكتابَةَ، ولا تُسْكِنُوهُنَّ الغُرَف، وآستَعينُوا عليهن بلا : فانَّ نعم تُضَرِّيهِنَّ فى المسألة" . ومرّ علىّ كرّم الله وجهه علىٰ رجل يعلّم آمرأة الخط . فقال " لَا تَزِدِ الشَّرَّ شَرّا " .

ورأىٰ بعض الحكماء آمرأة تتعلم الكتابة فقال : "أفعىٰ تُسقىٰ سُمًّا" ولله البسامىّ حيث يقول ! :

ما لِلنِّســاءِ ولِلْكِتَا * بةِ والعِمَالَةِ والخطَابَهْ !
هٰــذا لنَـا ولَهُنَّ منَّـا * أن يَبِتْنَ علىٰ جَنَـابَهْ

فإن قيـل : قد كُنّ جماعةٌ من النساء يكتبْنَ ولم يرِد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روىٰ أبو جعفر النحاس بسنده إلىٰ الحسن أن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتُب فى مكاتباتها بعد البسملة : من المُبَرَّأة عائشــةَ بنتِ أبى بكرٍ حبيبةِ حبيبِ الله . وحكى جعفر بن سـعيد أنه ذُكِر لعمر بن مَسْعدة كاتبِ المأمون توقيعاتُ جعفر بن يحيىٰ فقال : " قرأتُ لأمّ جعفر توقيعاتٍ فى حواشى الكُتُب وأسافلها فوجدتها أجود آختصارا وأجمـعَ للمعـانى " . وذكر محمد بن علىّ المدائنى فى كتاب القـلم والدواة أن عاملا لزُبَيْـدَةَ كتب إليها كتابا فوقَّعتْ فى ظهره "أنْ أصلِحْ كتابَك وإلّا صَرَفْناك عن عَملك" فتأمله فلم يظهر له فيه شىء، فعرضه علىٰ بعض إخوانه فرأىٰ فيه فى الدعاء لها وأدام كرامتَك، فقال: "إنها تخيلتْ أنك دعوتَ عليها فإنّ كرامة النساء دَفْنُهنّ" فغيّر ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ؛ ومَنْ كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرَّح فيه بأنها كتبتْ بنفسها ولعلها أمرت مَنْ يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دُونه، و إن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها؛ ومَنْ عداها من النساء لا عِبْرة به .

الصفة الثالثة، الحُرّية — فقد شرطوا فى كاتب القاضى أن يكون حرا : لما فى العبد من النقص ، فلا يُعتمَد فى كل القضايا، ولا يُوثَق به فى كل الأحوال؛ فكاتب السلطان كذلك بل أولىٰ كما تقدّم.

الصفة الرابعة، التكليف — كما فى كاتب القاضى فلا يعوّل علىٰ الصبىّ فى الكتابة إذ لا وُثوقَ به ولا ٱعتمادَ عليه .

الصفة الخامسة، العَدَالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يحكُم بها فى أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنىٰ كلمة أو حذف أيسَر حرفٍ أو كتم شيئًا قد علمه أو تأوّل لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته، أدّى ذلك إلى ضرر مَنْ لا يستوجب الضرر، ونَفْع مَنْ يجب الإضرار به، وكان قد موّه علىٰ الملك حتّى مدح المذمومَ وذمّ الممدوح . فمتىٰ لم يكن له دِين يحجُزُه عن ٱرتكاب المآثم ويَزَعُه عن ٱحتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الآنتفاع ، وأثّر فعله من الأضرار مالم تؤثّره السيوف، ولله القائل !

وَلَضَرْبةٌ مِنْ كاتِبٍ بِبَنَانِه * أَمْضىٰ وأَقْطَعُ مِن رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَدَاوةَ حاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّما بِأَسِنَّةِ الأقْلامِ

وأيضا فإنه لا يُقْبل قول الفاسق فتضِيعُ به المصالح، وربما حمله الفِسْق وعدم الاكتراث بأمور الدِّينِ علىٰ وَهْن يدخله علىٰ الدِّين بقلمه، أو ضرر يجْلُبه بلسانه .

وأيضا فالكتابة وِلاية شرعية والفاسق لا تصح توليتُه شيئًا من أمور المسلمين ؛ وقد أطلق القاضى أبو الطيبِ والمـاورديُّ من أصحابنا الشافعيـة القولَ باشـتراط العَدالة فى كاتب القاضى فيجب مثلُه فى كاتب السلطان بل أَوْلىٰ على ما تقدّم .

الصفة السادسة، البَلاغة — بحيث يكون منها بأعلىٰ رُتْبـة وأسنىٰ منزلة ؛ فإنه لسان السلطان الذى يَنْطِق به ، ويدُه التى بهـا يكتُب . ورُبَّ كاتبٍ بليغ أصاب الغرض فى كتابته فأغنىٰ عن الكتائب ، وأعمل القلم فكفاه إعمالَ البيِض القواضِب ؛ واذا كان جَيِّد الفِطْنة صائبَ الرأى حسَنَ الألفاظ ، تتأتّى له المعانى الجَزْلةُ فيجلوها فى الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الآختصار ، ويُطيـل حيث لايجد عن الإطالة بُدّا ويتهدّد فيملأ القلوب رَوْعةً ، ويشْكُر فيُلْقِى علىٰ النفوس مَسَرَّة ؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عَظَّم مملكة سلطانه وفَخَّمها فى معَارض كلامه من غير أن يُوجد أن ذلك قَصْدُه .

الصفة السابعة ، وُفُور العقل ، وجَزَالة الرأى — فان العقل أُسُّ الفضائل وأصلُ المناقب ؛ ومَنْ لا عقلَ له لا آنتفاع به ، وكلام المرء ورأيُه علىٰ قدر عقله ؛ فاذا كان تامّ العقل كامل الرأى ، وَضَع الأشـياء فى مكاتَباته ومخاطَباته فى مواضـعها ، وأتىٰ بالكلام مِن وجهه ، وخاطب كلَّ أحد عن سلطانه بمـا يقتضيه الحـال التى يكون عليها ؛ فيشتدّ ما كانت الشدّةُ نافعة ، ويَلِين حينَ يكون إلىٰ اللِّين محتاجًا ، ويُوَبِّخ مَنْ لا يقتضى فعـلُه أكثَرَ من التوبيخ ، ويذُمُّ مَن تعدّىٰ الى ما يستوجب الذمّ ؛ ويأتى بالمكاتبات التى يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعَها صائبةً مراميَها .

الصفة الثامنة ، العِلم بموادّ الأحكام الشرعية ، والفنون الأدبية ، وغيرها مما يأتى بيـانه — إذ الجاهل لا تمييزَ له بين الحق والباطل ، ولا معرفةَ تُرْشِـده إلى الطرق المعتبرة فى الكتابة ؛ ومَنْ سلك طريقا بغير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زَلّ .

الصفة التاسعة، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكاتب الملوك عن ملكه . وكل كاتب يجذبه طبعه وجبلته وخيمه فى الكتابة إلى ما يميل إليه ؛ ومكاتبة الملوك أحوج شىء إلى التفخيم والتعظيم ، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ؛ فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشد عزما وأعلى همة، كان فى ذلك أمضى وعليه أقدر، ومهما نقص فى ذلك نقص من كتابته .

الصفة العاشرة، الكفاية لما يتولاه — لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن فى أمر المسلمين ؛ وربما عاد عليهم عجزه بالوبال، أو أدى بهم ضعفه إلى الاضطراب والاختلال .

الضرب الثانى

(الصفات العرفية)

قال المهذب بن مماتى فى كتابه "قوانين الدواوين" : "ينبغى أن يكون الكاتب أديبا ، حاد الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس، جيد الحدس ، حلو اللسان ، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية ، شريف الأنفة، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدام" .

قال محمد بن ابراهيم الشيبانى : من صفة الكاتب اعتدال القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم وكثاثة اللحية ، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل ، وخطف الإشارة، وملاحة الزى . قال : ومن حاله أيضا أن يكون بهى الملبس ، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة ، دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشى اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، مستقره المركب ،

ولا يكون مع ذلك فَضْفَاضَ الجثة، متفاوِت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة؛ ولله القائل !

وشَمُولٍ كأنَّمـا اعتَصَرُوها * مِنْ مَعَانِى شَمـائِلِ الكُتَّاب"

وقال أبو الفضل الصُّورىّ : "ينبغى أن يكون الكاتب فصيحًا بليغًا أديبًا، سنِىّ الرتبــة، قوىّ الحجة، شديد العارضة (١)، حَسَن الألفاظ؛ له مَلَكة يقتدر بها علىٰ مدح المذموم وذم المحمود" .

قال المهذب بن مماتى : "أمّا حُسن الهيئة فإنه يرجع فى ذلك إلىٰ ما يعلمه من حال مخدومه من إيثاره إظهار نعمته علىٰ مَنْ هو فى خدمته أو إخفائها" . قلت : وهذا قد يخالف ما تقدّم : من أنه ينبغى أن يكون الكاتب بهِىّ المَلْبَس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدُّمُ فى صناعة الكتابة هو الذى يرفع الرجل و يعظِّمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربمـا كان التعظيم فى الفضل لرَثِّ الحالة المنحط الجانب أكثَرَ، وترجيحه علىٰ غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتبُ المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة : " لو أنّ رجلين خَطَبا أو تحدّثا أو احتجَّا أو وصَفَا وكان أحدهما جميلا بهيّا، ولَبّاسا نبيلا . وذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليــلا قميئًا : وباذَّ الهيئة دميمـا (٢)، وخامل الذِّكْر، مجهولا : ثم كان كلامهما فى مقدارٍ واحد من البلاغة، وفى دَرْب واحد من الصواب، لتصدّع عنهما الجمع وعامّتهم يقضى للقليل الدميم علىٰ النبيل الجسيم، وللباذِّ الهيئة علىٰ ذى الهيئة؛ ويشغَلهم التعجُّب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب علىٰ مساواته له سببا للتعجب به، والإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد؛ فلما ظهر منه خلافُ ما قدّروه وتضاعف

(١) فى الأصل المعارضة وهو تصحيف من الناسخ .
(٢) هو فعيل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح منظره و إعجامه فى الأصول تصحيف فتنبه .

حُسْن كلامه فى صدورهم كبُر فى عيونهم : لأن الشىء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أبعدَ فى الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرفَ كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وإنما ذلك كنوادر الصِّبيان ومُلَح المجانين ، فإن ٱستغراب السامعين لذلك أعجب ، وتعجُّبهم منه أكثر". قال : "والناس مُوَكَّلون بتعظيم الغريب وٱستظراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأى والهوىٰ مثلُ الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ ، وعلىٰ هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم ، ويرحلون إلىٰ النازح عنهم ، ويتركون مَنْ هو أعَمُّ نفعا ، وأكثر فى وجوه العلم تصرفا ، وأخف مؤنةً وأكثر فائدة"" .

الفصـــل الثـانى

(فى آداب الكُتّاب ، وهى علىٰ نوعيْن)

النــــوع الأوّل

(حُسْن السيرة وشرف المذهب ، ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوىٰ الله تعالىٰ فى الإسرار والإعلان ، والإظهار والإبطان ، والمحافظةُ عليها ، والٱستنادُ إليها فى مبادى الأمور وعواقبها . فإنها العُروة التى لا تنفصم ، والحبل الذى لا ينصرم ، والركن الذى لا ينهدم ، والطريق التى مَنْ سلكها ٱهتدىٰ ، ومَنْ حاد عنها ضلّ وتردّى ، والمحافظةُ علىٰ شرائع الدين التى فرضها الله تعالىٰ علىٰ خلقه ، والحَذَرُ من الٱستخفاف فيها بحقه ، وتَوَقِّى غضبه بتأديتها ، والٱستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقيها[1] .

(١) كذا فى الأصول من الوقاية ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل .

ومنها طلب الأجر[١] بما يُنيله من عز سلطانه ويُجْديه من فواضل نعمائه ؛ وهذا هو أصح الأغراض التي يجب علىٰ كل عاقل أن يقدّمه علىٰ كل غرض ، ويحصُلَ منه علىٰ السهم الوافر ؛ فلا خير فى دنيا تنقطع السعادةُ عنها ، و إنما السعادة بعد الموت ﴿ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ ؛ ومن آختار الفانى المنصرم علىٰ الباقى الدائم ، فقد خَسِرت صفقته ، و بارَتْ تجارتُه .

والطريق الموصِّل إلىٰ هـذا المقصِد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان ، وقصدُ النفع العامِّ له ولرعيته ، والآجتهادُ فى إغاثة الملهوف ، والأخذ بيد الضعيف ، والنفع بجاهه عند سلطانه ، وحمله علىٰ العدل فى الرعيّة ، فإذا توخّى ذلك فاز بثواب الله تعالىٰ ، وقضى حقَّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر ، وقابل نعمة الله التى أقدره بها علىٰ هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقرّ بها لديه .

ومنها : مجانبة الرِّيَب والتنزهُ عنها ، والطهارةُ منها . فانها تُسْخط الله تعالى ، وتَذْهب بمَهَابة المرء ، وتُسْقطُه من العيون والقلوب . وأحقُّ مَنْ راعىٰ ذلك من نفسـه مِنْ بين أتباع السلطان أهل هـذه الصناعة لآختصاصهم به ، ولُطْف منْزِلتهم عنـده . إذ المشهور عند نَقَلَة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورها ومشايخها كانوا من جِلَّة العلماء ، وسادة الفقهاء ، وأفاضل أهل الورع ، المبرئين من الدَّنَس والطمَع ، المميزين علىٰ القضاة والحُكَّام ، فى الاستقلال بعلوم الإسلام ؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب ، ورواية الأشعار ، والعلم بالأيام والسير ، والآرتياض بآداب الملوك وعِشرتهم ورسوم صحبتهم ، وغير ذلك مما ينتظم فى صناعتهم . فقد ساوَوْهم فى علم الدِّين ، وفاقُوهم فيما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدِّين قرينان لا يفترقان ، وعَوْنان علىٰ صلاح البلاد والعباد ، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدِّين لأنه تابعه ورديفه .

---

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنهـا لزوم العَفَاف والصِّيانة فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الذميه . والمَطَاعم الوخيمه ، والترفُّع عن المكاسب اللئيمه ؛ فان ذلك يجمع القُرْبة إلىٰ الله تعالىٰ والحُظْوة عند السلطان ، وجميلَ السيرة عند الرعية — حتّىٰ إن هذه الطريقة قد تقدّم بها عند السلطان المتخلفون فى الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لايقاربونه فى غَنَـاء ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على من كان قريبا ، ومن لا مكانةَ له ولا حرمة علىٰ من له مكانة وحُرْمة ، وآستُدْنِيَ لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذى يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَاف الذى عليه نظام معيشته ، والآرتفاق فيما يحل ويطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل "الزم الصحة (١) يلزمك العمل". لا أنه يمتنع من المنافع التى تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلُص من قبيح الأُحْدوثة وإطلاق ألْسُن الحَسَـدة بالطعن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان ونفوذ الأمر من غير خيانة للمؤتمن ولا اشتكاء للرعية — فانه لولا هذه المنافع لغنِي الانسان بالقَنَاعة ، ورضِي بالكَفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه ودنياه فى سلامة السلطان . اذ لايجوز أن يستفرغ وُسْعه ويعرّض نفسه للخطر فيما لاتحسن له عائده ، ولا تخلص منه فائده ، فى جاه ولا مال . وقد عُلم ما كان عليه أهل هذه الطبقة فى سائر الدول وما حصلوه من الذخائر وآقتنَوْه من القُنْيات النفيسة ، التى أقدرتهم علىٰ إظهار مُرُوءاتهم ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم علىٰ الدوائر (٢) والأعقاب . وإنمـا حصلوا علىٰ ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة وذميم الطعم (٣) — لأنهم كانوا فى أزمنـة لايغضىٰ فيها عن متكَسِّب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وان جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل . (٢) لعله علىٰ الذرارى تأمل . (٣) لعله الطمع .

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلاها رتبة — لأنه يتلو الأجر فى البقاء والدوام ، وكلما كانت الهمة أعظم وأشرف ، كانت اليه أرْغَبَ وبه أكْلَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعِلْية الناس حتّى قال الخليل عليه السلام ﴿وٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ . وأوْلى الناس باقتناء ذخائر الحمد وٱفتراض فرض الشكر من عرّض الله تعالى جاهه ، وطوّل يده ، وأمضىٰ عند السلطان لسانه ، فينبغى أن يختار هذه المَكْرُمة ، ويقوم بالنصيب الأوفر منها ، ولا يَبْخَل بجاهه ولا ماله علىٰ قاصد ولا مؤمل ولا ذى رَحِم وذِمَام ، ولا يُضَجِّع فى أمر بطانته وحاشيته وأصحابه ، ولا يضَيِّق عليهم مع سَعَته ، ولا يقصِّر بهم فى كِفَايته ، ويجعل ٱكتسابها بجاهه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ما اؤْتُمِنوا عليه فى هذا الغرض ورَضُّوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوالَ النعم ، وسقوطَ الرتبة وذَهابَ المـال ، والوسمَ بِميسم الخيانة والبَوَار إلىٰ الأبد . ولا يبالغ فى ٱبتناء المعالى وٱقتناء المحامد وبذل الرغائب وٱرتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغى لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفاخِرا ولا مُكاثِرا ولا مقايِسا ، فيكون قد عدا طَوْره ، وأضلّ رُشْده ، وتعرّض للعَطَب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلىٰ سُوء الظن به ، وفوّق سهام الحَسَدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالطعن عليه ؛ وربمـا أدّى به ذلك إلىٰ سقوط المنزلة ان سلمت نفسه .

ومنها الاقتصاد فى طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المُروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهم ما يتناولونه من ذلك بسلوك طريقـة محمودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال علىٰ اللذات والانهماك فى الشهوات . فان ذلك غيرُ مستحسَن لملك ولا سُوقة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها فى صلاح المعاش

وأمر الآخرة، ولكن لا يكلَّف تركَ اللذات جملة — اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبِلت عليه الطبائع من الميل إليها والرَّغبة فى الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم فى آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النــــوع الثــانى

حُسْن العِشْرة — التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعا والحاصلة بالتخلق تكسبا وتطبعا ، وأعونها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامّة وحصول الثناء والشكر والمودّة من الأفاضل الأخيار، وكفاية الأراذل الأشرار، وان لم يلتزمها الكاتب طوعا حمل عليها كرها .

واعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأوّل

(عِشْرة المـــلوك والعظماء)

قال علىّ بن خلف : ولا يقُوم بآدابها وأكمل رسومها إلا مَنْ علَتْ فى الأدب درجَتُه ، وسَمَتْ فى رَجَاحة العقل منزلته ، وتميَّزَ بغريزة فاضـلة وأدب مكتَسَب ، وصبَرَ على المشاقِّ فى التحلّى بالهمم الشريفة ، والسموّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكّنَ من تصريف النَّفْسـيْنِ الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخْذِهما بقبول ما تُرْشد اليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحِبَه راكب خَطَر جسيم ، بتمليكه نفسه لمتحكم فى شَعره و بشَره ، قادر على نفعه

وضُره؛ لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكبير النِّكاية إلا ما يؤمِّل من صَفْحه ومسامحته، ويرجو من عَطْفه ورأفته . وأوّل ما يجب علىٰ المتصل بخِدمة السلطان النظرُ فى عواقب أموره وحفظُ نفسه من جَرِيرة يجُرّها عليها باغفاله فرضا من فروض طاعته، وتضييعه المحافظةَ علىٰ حقوق خِدْمته، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقا يغلب عليه، ويرجع بغرِيزة الطبع اليه، لا يمكنه النزوع عنه ولا المفارقةُ له؛ إذ الآنتقال عن الطِّباع، شديد الامتناع، فى الخدم والأتْباع؛ فكيف الملوكُ والرؤساءُ الذين لا يقابَلُون بلوم علىٰ خُلُق مذموم؛ بل العـادة جارية فى أدب خَدَمتهم بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطإ ويُحَسِّنُوا مايواقعونه من قبح . فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وما خالف سجيته فى إصـلاح زمانه؛ وأن ينزل عن هواه لهواه، ويتَّبعَ فيما يَسْخَطه ويأباه، ما يُؤثره سلطانه ويرضاه . وينبغى أنـ لا يعرّض نفسه لمـا يُسقِط منزلته ويُفْسد عاقِبتَه ولا يُوجِدَ للزمن طريقا إلىٰ التنكر له، ويُعِينه بتفويق سِهامه والتصدّى لمواقعها . وقد علم أن الزمان وان عَمَّ بنوائبه فإنه يخصُّ صاحبَ السلطان منها بمـا يزيد على نصيب غيره . ومن أشق الأحوال أن يُدْفَعَ الإنسان إلىٰ تغير السلطان مع كون السبب فى ذلك شيئا جرّه إلىٰ نفسه بسوء آختياره، لمـا يجتمع عليه فى ذلك من مرارة النَّكْبة، وحرارة المَغَبَّة، وتقريع مَنْ يُزْرى علىٰ عقله ، ويؤنِّبه بجهله .

ثم انه يلزمه بعد الآحتياط فيما تقدّم عدّة خصال أيضا .

منها الإخلاص وهو قِوَام الأمر فى المصاحبة؛ فإنَّ منـ صَحِب سلطانا بعقيدة مدْخُولة فى ولايته، مَشُوبة فى محبتــه، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر : لأن الضمائر المذوقة(١) والنيات السقيمة لا بد أن يصرِّح بمـا فيها ويظهرَ ما فى دخيلتها؛ وإذا آتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بإتلاف نفسه، وإذهاب مُهْجته .

(١) لعله المذوقة . أى غير الخالصة من قولهم مذق فلان الودّ إذا لم يخلصه . تأمل .

ومنها النصيحة، وهى ترْب الإخلاص . والطريق الموصل إلىٰ التوفية بها أن يُطالع السلطانَ بكل ما يفتقر إلىٰ العلم به من خاصّ أموره وعامّها؛ وعلىٰ مَن آستخلصه السلطانُ لنفسه، وآئتمنه علىٰ رعيته، وأنطقه بلسانه، وأخذ وأعطىٰ بيـده، وأورد وأصـدر برأيه، وتخيَّره لهذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستُرَ عنه دقيقًا ولا جليلا من أحوال ما فوّضه إليه، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجُمَله توقّيًا من لوم لائم، ولا يحمله فرطُ النصح له علىٰ الإضرار برعيته، ولا الرغبةُ فى إثبات حقه علىٰ تضييع حقوقها، ولا القِيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها .

ومنها الآجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بمـا يعود عليـه نفعه بحيث لا يُبقِى فى ذلك ممكنا، ولا يدَع فيه شأْوًا للاحق .

ومنها كِتْمان السر . وهو من أفضـل الآداب فى صُحْبة السلطان وغيره، وأعْودِها بالفـلاح علىٰ صاحبها : لأن كثرة الآنتشار الداخل علىٰ الدول إنمـا توجَّه بتفريط بطائنها وصاحبها فى أسرارها، وإظهارهم بمـا تقرّر فى أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهروه؛ فيَجِد العدوّ بذلك الطريقَ إلىٰ معالجة آرائهم بمـا ينقُضها، ومقابلتها بما يُفْسِدها . علىٰ أن إفشاء السر من الأخلاق التى طُبِـع أكثرُ النـاس عليها، وحِيل بينهم وبين الإقلاع عنها؛ فمن عَلِم من نفسه ذلك فليحذَر معاملة السلطان فى أسراره وبواطِنِ أموره، ولا سيما ما وُجِد منها فى باب حروبه ومكايده، فإنه إن ظُهِر منه علىٰ خيانة فى السر، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشُّـكْر فانه وان كان واجبا علىٰ الإنسان مع أكفائه ونُظَرائه فانه مع السلطان الذى يَستظِلُّ بظله، ويستدرّ أخْلاف فَضْـله أوجب . إذ المرء قد يقدر علىٰ مكافأة عارفة(١) صديقه بما يُضاهيها ويزيد عليها، ولا يقدِر علىٰ مكافأة سلطانه إلا

(١) العارفة المعروف كالعرف بالضم . قاموس .

بشُكْر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته . ثم الشكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا اليسير الذى يقضى به حقُّ الخدمة : لأن الإكثار منه داخل فى حكم المَلَق والتثقيل؛ وإنما يظهر شُكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهمِّ الخصال اللازمة وآكدِها؛ إذ هو الطريق إلى صَلاح العباد وعِمارة البلاد؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحُه ودوام عمله، والسبب الذى لأجله ترغَب السلاطين فى صحبته : لأنهم ما بَرِحوا يقرِّبون صاحب هذه الخَصْلة ويرَوْنه أهلا للاختصاص، موضعًا للثِّقة؛ ولا أسوأَ حالا ممن نزل هذه المنزلةَ وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصد المخالَصة، ومقابلَة كل نعمة تُفَاض عليه بالنهضة فيما آستند(١) اليه : ليدعوَ ذلك سلطانَه إلى رَبِّ(٢) النعمة لديه، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، فى حال سعادته، وإقبال دولته، وفى حال تولِّيها عنه وعُطْلته . أمَّا فى حال إقبال الدولة عليه فأن يصحَبَه بقلبه دُون بدَنه ولا يتطلبَ صاحبا غيره ينتقل إلى صحبته، ويستبدلُ بخدمته من خِدْمته؛ ولا يحدّث نفسَه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه؛ ولا أن يرتِّبَ له جهة أخرى يجعله مقدّمة لأمر يترقَّبه : لما فى ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدّم وجوبه . وأما فى حال آنصراف الدولة عن صاحبه، فإنه لا يباينه مباينَة المساعد للزمان عليه، الموافِق للمقادير فيه، ولا يخونُه عند حاجته إليه، ولا يُضيع حقوقَه عنده وصنائعَه لديه؛ ولا ينحاز بكُلِّيَّته إلى من أقبلت أمور السلطان عليه؛ فإن ذلك

(١) فى الضوء . أسند . وهى أوضح .
(٢) أى زيادة النعمة .

ممـا يدل علىٰ خُبْث السجيَّة ومقابلتهـا علىٰ الإحسان بالإساءة ، وٱستعمال العُقُوق ، وٱطِّراح الحُقُوق .

ومنها مجانَبَة الإدْلال . إذ الدالَّة علىٰ السلطان والرئيس من أعظم مَصارع التَّلَف ، وأقرب الأشياء إلىٰ زوال النعم ، ولأجلها هلك مَنْ هلك من بِطانة السلطان وخاصته ووزرائه ؛ وفى قَصَصهم عِبْرة لمن أنعم النظر فى تأمُّلها . وعليه أن يعوّل فى الآعتداد بخِـدَمه ونصائحه له علىٰ آشتهارها وظهورها ، ولا يفيض فى تعديدها وذكرها ، ولا يواصل التثقيل بأغراضه والإلحافَ بأسئلته ، ولا يظهر التشحُّب عنـد التقصير به ، ولا الغضب اتِّكالا علىٰ سالِف خدمة ، وقليـل حرمة ؛ وأن يتناسىٰ ما أسـلفه من الخِـدْمة والصحبة ، ويكون فى كل حال عارفا بعوارفه ، معتدّا بفواضـله ، موجبا الفروضَ له لاعليه ، فإن السلطان مجبول علىٰ أنفَة النفس وعِزَّتها ، ولا يحتمل التنازل لأحد : لتنزيله الكلَّ منازل الخَدَم والأرقَّاء ، وٱعتقاده أنه سبب النعمة السابغة علىٰ الكافَّة ، وثقتِه بوجود العِوَض عمَّن يفقِدُه من الأعوان والأصحاب ، ومثابرة الناس علىٰ خدمته والآنتساب إلىٰ متابعته لمـا يصلون إليه من الحُظوة ، وينالونه من الجاه والثروة . وان كان فى باطن حاله علىٰ خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والآعتداد وتلَطَّف فى بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمَه كاتبا ، ولا لسانَه مخاطبا ؛ فإن ذلك إزراء علىٰ همة المصحوب ، ودلالة علىٰ إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة وسُبُوغها ، والمِنَّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ آماله ، وسَدَاد أموره ، وسُهولة مطالبه . واذا زاده السلطان رِفْعة وتشريفا آزداد له تعظيما وتوقيرا . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل مايَشِينه ، وإذا خَصَّه بأَثَرة وتقريب أن يزيد الخاصَّة والعـامّة بشرا وإيناسا ، وان آتهمه بهَفْوة لم يأته فى إقامة العُذْر والآحتجاج علىٰ براءة الساحة إلىٰ الغاية القُصْوىٰ . بل يتوسط فى ذلك ويسأل

من حُسْن الصَّفح والإقالة وجميل التغمُّد[(١)] والعفو مايجعل للإحسان وجهًا ، ولتعقُّبه للسخط سببا . فإنه اذا صدع بالحجة فى براءة الساحة، فلا وجه لمعذرته وفيه تكذيب لرئيسه، وربما أدّى إلىٰ فساد ومُفاقمة .

ومنها التمسك بآداب الخدمة بالمواظبة عليها، وصرف الاهتمام إليها، إذ هى أعظم الذرائع إلىٰ نيل الرتب وبلوغ المآرب، والسبب الذى يقرّب البُعَداء، ويرفعهم علىٰ أهل الوسائل والحُرَم، وذوى المَوَاتّ[(٢)] والخَدَم؛ ويُعمِى عن كل شَيْن، ويُصِمُّ عن كل طعن . وما نال أحد عند السلطان مرتبةً إلا والمواظبة علىٰ خدمته سبَبُها والمواصلة موجِبُها . وأولىٰ الناس بلزوم السلطان كُتَّابُه الذين لاغِنَى به عن حُضورهم، فى ليله ونهاره، وأحيان شغله وفراغه : لأنه ربما بَدَهه ما يحتاج إلىٰ آستكفائه إيَّاه وإسناده إليه، وإن تأخر عنـه فى تلك الحال آستدعىٰ من مَوْجِدته وآستجَرَّ من لائمته مالا يُزِيله العذر إلا فى المدّة الطويلة . ورُبَّما آضطُرَّ لغَيْبته إلىٰ احضار من يستكفيه ماعَرَض له وأدّى ذلك إلىٰ آصطناعه وتصييره فى مَقَامه وان كان لايساويه فى فضل ولا علم ولا غَنَاء، بخلاف ما إذا وجده مُسارعا إلىٰ أمثلته؛ فإن ذلك يزيد فى حُظْوته، ويدعو إلىٰ آستخلاص مودّته .

فيجب عليه أن يخصَّ سلطانَه من زمانه بالقِسم الأوْفَر، والنصيب الأغْزَر، ولا يُؤْثِر نيلَ لذةٍ عليه ، ولا بلوغَ وَطَر إذا أدّى إلىٰ تنكُّره؛ فإن آستطاع أن يوافقه علىٰ وقت يفرِضه له يتمكن فيه من بلوغ أوطاره، والوصول إلىٰ مَقَاصده، كان أحمَدَ لعاقبته وأبلغ لقصده، وأحسَم لأسباب اللائمة فى غَيْبته . ولا يَنْهمِك فى الملاذّ آنهماكَ الآمن

(١) التغمُّد الستر من قولهم تغمده الله برحمته أى ستره .

(٢) جمع ماتَّة — وهى الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحدّ الذى يُبْقِى فيه فَضْلةً لعوارض السلطان ومُهِمَّاته الحادثة فى آناء الليل، وساعات النهار . فإن تعبه فى صلاح زمانه وراحة سلطانه مستَبْقٍ لِنعْمتِه ، مستَدْعٍ لزيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يبتهج بما أصلحه منها حتّٰى ينظر فى عواقبه، ويسُوس ما رُدّ إليه بالسياسة الفاضلة : فَيلِينُ فى غير ضَعْف ، ويشتدُّ فى غير عُنْف ، ويعفُو عن غير خَوَر، ويَسْطُو من غير جَوْر ، ويقرّب بغير تدله ، ويُبْعد بغير نُكر، ويخُصّ فى غير مجازاة ، ويعُمّ فى غير تضييع ، فلا يَشْـقى به المُحِقُّ وإن كان عدوّا، ولا يسعد به وإن كان وليا .

ومنها إذا حضر بين يدىْ سلطانه أو رئيسه فى المجلس الخاصّ أو العامّ أن يعتمد مقابلته بالإجلال والإعظام، والتوقير والإكرام، ولا يحمـله تأكد الخدمة وتطاوُل الصحبة علىٰ إهمال ذلك بل يحفظ رسْمَه ولا يغيّر عادته .

ومنها أن يتخير لخطابه فى الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلو سِرّه فيها، وفَرَاغ باله ، وٱنشراحَ صدره، وٱرتفاعَ الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيـه أمرا عائدا بانتظام سلطانه ، وٱستقامة زمانه، داخلاً فى مهمات أعمـاله التى متىٰ أخّرها نُسِب إلى التقصير، فيقدّم الكلام فيها خفّ أو ثقُل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره فى أمر من الأمور ، فعليه أن يُرْعِيه عيْنَه ويُنصت إليه سمعَه، ويَشْغَل به فكره، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتّٰى يستوعب ما يلقيه إليه ، ويجيبه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت فى حال إقباله عليه إلى غيره، ولا يَصْغىٰ إلى كلام متكلم، ولا حديث متحدّث، حتّٰى لو ٱمتحنه باستعادة ما فاوضه فيه وجده قد أحرز جميعه؛ فإن التقصـير فى ذلك ممـا ينكره الملوك والرؤساء، ويستدلُّون به علىٰ ضَعف المخاطَب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالاعتـذار عنه : لئلا ينسب إلىٰ التقصير بتأخيره عنـد الكشف عنه؛ وإن كان فيه مايخالف الصواب

أمضاه؛ وإن تعــذر السبيلُ إلىٰ فعله لم يظهر التقاعُس عنــه لتخطئته، بل يقابله بالآستصواب . ثم يتلطف فى تعريفه مكان الخطإ فيما رآه .

ومنها أن يجرى فى الحال فى مجالســه علىٰ ما يعود بوفائه وإرادته . فإن مال إلىٰ الآنبساط أطلق عِنَانه فيه إطلاقَ المتجنِّب للهُجْر والفُحْش، ورَفَث القول تابعًــا لإيثاره، قاضيا لأوطاره . وإن أظهر الآنقباض ذهب مذهَبَه فى ذلك، ولا ينبغى أن يخالفــه فى حال من أحواله، فإنّ من شروط هــذه الخدمة أن يتصرف صاحبها فى كل ما يُصرِّف فيه، ويُسرِعَ الآنقيادَ إلىٰ كل ما يُدْعى إليه؛ ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر علىٰ ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل .

ومنها أن لا يحضُر سلطانَه فى ملابســه التى جرت العادة أن ينفرد بهــا كالوشى ونحوه؛ إلا أن يكون هو الذى يشرِّفه بها، وأن يقتصد فى لباسه : فينحطّ عما يلبَسُه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السُّوقة، ويصرف عنايته إلىٰ التنظُّف والتعطُّر، وقطع الرائحة الكريهة من العَرَق وغيره، حتّى لاتقع عينُ رئيسه علىٰ دَنَس فى أثوابه، ولا يجدَ منه كريه رائحة فى حال دنوّه منه؛ ويواصل آســتعمال الطيب والبَخُور الفائق والتضمُّخ بالمسك؛ فإن الملوك ترىٰ أن مَنْ أغفل تعهُّد نفسه كان لغيرها أشدّ إغفالا .

ومنها أن يتجنب التفاصُح والتعمُّق فى مخاطبة رئيســه، والآفتخارَ عليــه بالبلاغة والبيان : لمــا فى ذلك من الترفع عليه فى الكلام . بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظٍ تدلُّ علىٰ معانيها بسهولة مع غضٍّ من صوته، وخفضٍ من طَرْفه، وسكونٍ من أعضائه : لأنه انما يُتَسامح بالإتيان بالفصاحة والذَّهاب بمذهب الجَزَالة للخطباء الذين يُثْنون علىٰ الملوك فى المواقف العــامَّة ضرورةَ آحتياجهم إلىٰ آستعمال ألفــاظ تقع فى الأسماع أحسن المواقع .

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وآرتفعت رتبته لديه أن يُجْمِل القول فى خاصَّته وعامَّته ، ويحسنَ الوَسَاطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنبَ القدحَ عنده فى أكفائه ونظرائه من بطانته ، والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلىٰ محبته والثناء عليه مكافأةً له وإمساكِ الألسُن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلىٰ المَشُورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه ، ويوردَه إيراد مستفيد لا مُفيد ، ومتعلم لا معلِّم ، ويتلطَّف فى أن يُوقِعه من نفسه موقعا يدعوه إلىٰ العمل به . فإنّ من عادة الملوك والرؤساء الأَنَفَةَ من الآنقياد إلىٰ ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة ، وإن تمكّن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادَعة بذلك لنفسه الأبيَّة وعزَّته المتقاعسة .

الضرب الثانى

(آداب عِشرة الأكفاء والنُّظَراء)

قال علىّ بن خلف : ولا شك أنّ طريقة الآعتدال فى ذلك الموافاة فى الإخاء ، والمساواة فى الصَّفاء ، ومقابلةُ كل حالة بما يُضاهيها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاءُ عمن قصَّر ، والمحافظةُ علىٰ ودّ من فرّط ، فلا خلاف فى فضله والتمدّح بمثله ، لا سيما لمثل أهل هذه الصناعة التى يرتفع حقُّ الآعتزاء اليها عن حقوق القرابات الدانية ، والأنساب الراسخة . ولذلك وقع فى كلام بعضهم « الكتابة نَسَب » . قال علىّ ابن خلف : والمعنىٰ فيه أن التناسبَ الحاصلَ بين أهلها تناسُبٌ نفسانىّ لاجِسمانىّ ، يحصل عن تناسب الصور القائمة فى نفوسهم بالقوّة ، وعن تناسبها بعد خروجها وظهورها من القوّة إلىٰ الفعل ، بدليل ما نراه من آتفاق خواطرهم علىٰ كثير من المعانى التى يستنبطونها ، وتوارُدِهم فيها . ولولا تناسُبُ الغرائز وتشابهها ، لم يكن أن يتواطئُوا فى أكثر الأحوال علىٰ معانٍ متكافئة متوافية .

قال : "وإذا كنا نحفظ مَن مَتَّ إلينا بالأنساب الجِسْمِيَّة التى لاتعارُف بينها فأولىٰ أن نحفظ مَن مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التى يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب: «الكتابة نفسٌ واحدة تجزأتْ فى أبدان متفرّقه» . وقال : لاعِبرة بمـا يقع بين بعضهم من التنافر والتباين، لأن المناسبة إنما تَقَع عند المساواة. أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصِر حاسدا لمن فوقه، للتقصير الذى فيه" .

و بكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم، و يحفظ مناسبتهم،و يتوخَّى مساهَمَتهم، و يتلقّاهم بالإكرام والتميز، و يجعلَهم فى أعلى المراتب عنده، و يزيدهم علىٰ الإنصاف ولا يقصِّربهم عمـا يستوجبونه و يستحقونه، و يخوّل بمثل ذلك نُظَراءه فى الرياســة من غير الكُتّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلىٰ ملتمَسهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل فى المستقبل، وٱجتهد فى الوفاء به .

الضرب الثـالث

(آداب عِشــرة الأتبــاع)

قال علىّ بن خلف : وهى لاحقة بعِشرة الأكفاء: لأن الذين يستعينُ بهم الكاتبُ يُدْعَوْن كُتَّابا ولا يُدْعَوْن أعوانا؛ وانمـا الأعوانُ خُدّام الشُّرْطة ومَن يجرى مجراهم . قال : "وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءُوسيه وأتباعَه، فاسم الكتابة يجمع بينه و بينهم، ومعاشَرتهم داخلة فى باب التكرم، والتفضـيل، والٱستئثار بمحاسن الأفعال ومكارم الشيم" .

ثم قال بعد ذلك : "و ينبغى أن يخصَّهم بالنصيب الأوفر، من إكرامه، والقِسْم الأغْزَر، من ملاحظته وٱهتمامه، و يفرض لهم من التقـديم والٱختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذى ينتهى اليه أمل المرءوس من الرئيس : ليجعل خِدْمتهم له بذلك خدمةَ مِقَة ومودّة، لاخدمةَ خوف ورهبة ؛ وأن يحبِّب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ؛ وإنالتهم من الترفيه فى بعض الأوقات ما يجدُون به السبيل إلىٰ الأخذ بنصيبٍ من لذاتهم وأوطارهم التى تميل النفوس إليها، وتتهافت عليها ؛ فإنهم متىٰ لحقهم التعب والنصَب، ٱعترضهم الضَّجَر والمَلَال، فقصَّروا فى الأعمال، وتهاونوا بالأشغال؛ فلا بدّ لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكَلَال ، ولا يفسح لهم فى مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يحمل علىٰ سُوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يَحْفَظ لهم حقوقَ الصُّحْبة والخِدْمة ويُوجدهم من الإعانة مافيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبِدُهم بذلك ويستخلص مودّتهم إذ القلوب مجبولة علىٰ حبّ من أحسن اليها " .

الضرب الرابع

(آداب عِشْرة الرعيــة)

قال ٱبن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاضٍ بالسلامة . إذ لا يطيب لأحدٍ عَيْش مع بُغض الرعية له ، ونفورِهم عنه، وإن علت عندالسلطان رتبتُه، وٱرتفعت طبقته، وظنّ بنفسه الٱستغناء عنهم" . قال : "فينبغى أن يُوَفِّر العناية على ٱستصلاحهم له ، وٱستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووَطَاءة الكَنَف [1] ، وخَفْض الجَناح ، والبَسْط والإيناس وتألُّفهم : كما يوفرها علىٰ ٱستصلاح السلطان وسياسته ، لتصحَّ له رتبةُ التوسُّط بين الطبقتين ، ويسلَمَ من طَعْن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويبرأ من البُغْض والشَّحْناء ، وينقُلَهم عما تسرع إليه الطِّباع الرديئة :

---

(١) أى دماثة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلىٰ التآلُف والمودّة . وقد أدّب الله تعالىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ولو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ” .

الضرب الخامس

(آداب عِشرة من يمُتُّ إليه بحُرْمة ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدِلِّ بحق المُفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة فى الصِّبا ، والصداقة بين الآباء وغير ذلك من الحُرَم التى لا يَطَّرِحها أهلُ المروءات)

قال ٱبن خلف : ”وينبغى أن يوفيهم حقوقَهم ، وينهَض بما يسنَح من أوطارهم ومهمَّاتهم ، ويُعينَهم علىٰ ما يحـدُث من نوائب زمانهم ، ويُسْعِد فى بلوغ مَطَالبهم من سلطانهم ، ولا يَضِنّ عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُخَيِّب أملَ آملهم ولا قصْدَه ، ويفرض لهم من إذعانه وٱعتنائه مايُعزُّ جانبَهم ، ويسَهِّل مآربهم ؛ ويكفّ الضيم والظلم عنهم ، ويبسُط العدل والإنصاف عليهم . فإنه اذا التزم ذلك لهم التزموا له الإعظامَ والإجلال ، وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والاعتداد بأياديه ، وأشاعُوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا له مودّتهم وتعصُّبَهم له“ .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوقَ مشايخ الصناعة وأئمتها الذين فتَحُوا أبوابها ، وذلّلُوا سُبُلها ، وسهّلوا طرقها ؛ ويعاملَهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرَهم ، وأتعبُوا فيه رَوِيَّاتِهم فيُنْزِلهم منازلهم ولا يَبْخسهم حقوقَهم . فمن آفات هـذه الصنعة علىٰ ذوى الفضـل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادّعاء منزلة المبرِّز بل لا يُعْفيه من ٱدعاء التقدّم فى الفضـل عليه ، والمبرِّز فى الفضل لا يقدر علىٰ إثبات نقص المتخلف ﴿والله يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليـه، وينْبُوعها الذى تفجَّرت منـه، رسالة عبد الحميد بن يحيىٰ الكاتب، التى كتبها إلىٰ الكُتَّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حفِظكم اللهُ يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ! فإن الله عز وجل جعل الناس بعدَ الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين؛ ومِنْ بَعْدِ الملوك المكرمين أصنافًا، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُرُوب المحاوَلات إلىٰ أسباب معايشهم، وأبواب أرزاقهم؛ فجعلكم معشرَ الكُتَّاب فى أشرف الجهات أهلَ الأدب، والمُروءة، والعلم، والرواية . بِكُمْ تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورُها؛ وبنصائحكم يصلحُ الله للخلق سلطانَهم، وتَعْمُر بلادهم . لا يستغنِى الملكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم؛ فَمَوْقِعُكم من الملوك مَوْقِعُ أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون، وألسنتهم التى بها ينطِقون، وأيديهم التى بها يبطِشُون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ! ولا نَزَع عنكم ما أضفاه من النِّعمة عليكم ! .

وليس أحدٌ أحوجَ إلىٰ آجتماع خِلال الخير المحمودة، وخصال الفَضْل المذكورة المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب، إذا كنتم علىٰ ما يأتى فى هـذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مُهِمَّات أموره أن يكون حليمًا فى موضِع الحلم، فهيمًا فى موضع الحُكْم، ومِقْداما فى موضع الإقدام، ومُحْجِما[1] فى موضع الإحجام، مُؤْثرًا للعفاف، والعدل والإنصاف، كَتُوما للأسرار، وَفيًّا عند الشدائد، عالما بما يأتى من النوازل، ويضع الأمور مواضِعَها، والطوارق أماكنها . قد نظر فى كل فنّ من فنون العلوم فأحكمه، فان لم يُحْكِمْه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغَرِيزة عقله، وحُسْن أدبه، وفضل تجرِبته، ما يرد عليه قبل وروده

(١) فى غير هذا الكتاب ومِحْجاما .

وعاقبةَ مايَصْدر عنه قبل صدوره؛ فيعدّ لكل أمر عدّته وعَتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتنافَسُوا يامعشر الكُتّاب، فى صُنُوف الآداب، وتفقهوا فى الدِّين؛ وآبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربيّة فانها ثِقَاف ألسنتكم .

ثم أجيدوا الخَطّ فإنه حِلْية كتبكم، وارووا الأشعار، وآعرفوا غريبَها ومعانيها؛ وأيامَ العَرَب والعجم، وأحاديثَها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم على ماتسمُو إليه هِمَمُكم . ولا تضيِّعوا النظر فى الحِساب فإنه قِوام كُتّاب الخراج؛ وآرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها، وسَفْساف الأمور ومحاقرها، فإنها مَذَلّة للرقاب، مَفْسَدة للكُتّاب؛ ونزهوا صِناعتكم عن الدَّناآت، وآربَؤُا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبرَ والصلف والعَظَمةَ، فإنها عداوة مجتلَبة من غير إحْنة، وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصَوْا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنُّبْل من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فآعطِفُوا عليه وواسُوه حتّى يرجعَ إليه حاله، ويثوب إليه أمرُه؛ وإن أقعد أحدَكم الكِبَرُ عن مَكْسَبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وآستظهروا بفضل تجربته، وقِدَم معرفته . وليكن الرجل منكم على مَن آصطنعه وآستظهر به ليوم حاجته إليه أحفَظَ منه على ولده وأخيه . فان عَرَضَتْ فى الشغل محمَدَة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مَذَمّة فليحملها هو من دونه . وليْحذر السَّقْطة والزلة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فان العيب إليكم معشر الكتّاب أسرع منه إلى القُرّاء؛ وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه الرجل، يبذُل له من نفسه مايجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، وآحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سرّه، وتدبير أمره، ماهو جزاء لحقه . ويصدّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والآضطرار إلى مالديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء، والشدّة، والحرمان، والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء، فنعمت الشِّيمة هـذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا وُلِّى الرجل منكم أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعيـاله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته ، وليكن علىٰ الضعيف رفيقا، وللمظلوم منصفا، فإن الخلق عيال الله وأحبهم اليـه أرفقهم بعياله . ثم لْيكُن بالعدل حا كما وللأشْراف مُكْرِما ، وللفىء موفِّرا، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا، وعن إيذائهم متخلفا، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سِجِلَّات خراجه ، وآستقضاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حَسَنها وقبيحها أعانه علىٰ ما يوافقه من الحَسَن وآحتال لصرفه عمـا يهواه من القبيح بألطف حيلة، وأجمل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها اذا ركبها، وإن كانت شَبُوبا اتّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُودا توقّاها من ناحية رأسها ، وإن كانتْ حَرُونا قَمَع برفق هواها فى طريقها ، فإن آستمرت عطَفها يسيرا فيَسْلَس له قيادُها . وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساسَ الناس وعاملهم وخدَمهم وداخلَهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سَطْوته، أولىٰ بالرفق بصاحبه، ومداراته، وتقويم أوَده من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تعرِف صوابا، ولا تفهم خطابا، إلا بقـدر ما يصيرها اليـه صاحبها الراكبُ عليهـا . ألا فأمعِنوا رحمكم الله فى النظر، واعملوا فيـه ما أمكنكم من الروِيَّة والفِكْر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبوة، والآستثقالَ والجَفْوة، ويصير منكم (١) الىٰ الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى الأصل . ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ

ولا يجاوزَنَّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه وملْبَسه ومرْكَبه ومَطْعَمه ومَشْربه وبنائه وخَدَمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حقه . فإنكم مع ما فضَّلكم الله به من شَرَف صنعتكم خَدَمة لا تُحَمَّلون فى خدْمتكم علىٰ التقصـير، وحَفَظَة لا تُحتمَل منكم أفعـال التضييع والتبذير : وٱستعينوا علىٰ عفَافكم بالقَصْـد فى كل ما ذكرته لكم وقصَصْته عليكم . وٱحذروا مَتَالف السرف، وسوء عاقبة التَّرَف؛ فإنهما يُعقِبان الفقر ويُذِلَّان الرِّقاب؛ ويفْضَحان أهلهما ولا سيَّمـا الكُتَّاب، وأرباب الآداب؛ وللأمور أشباه وبعضها دليل علىٰ بعض، فاستدلوا علىٰ مؤتَنَف أعمالكم بمـا سبقت إليه تجربتُكم؛ ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحَها محَجَّة، وأصدَقها حجَّة، وأحمدها عاقبة .

وٱعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلِفة — وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته؛ فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصدَ الكافى من منطقه، وليُوجِزْ فى ٱبتدائه وجوابه ؛ وليأخذ بمجَـامع حُجَجه ؛ فإن ذلك مصلحة لفعله ، ومَدْفَعة للتشاغل عن إكثاره . وليضْرَع إلى الله فى صِلَة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافَةَ وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظانّ، أو قال قائل، إن الذى برز من جميل صـنعته وقوّة حركته، إنمـا هو بفضـل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلىٰ أنـ يَكِلَه الله عز وجل إلىٰ نفسه، فيصير منها إلىٰ غير كاف، وذلك علىٰ من تأمله غير خاف .

ولا يقُلْ أحد منكم إنه أبصَرُ بالأمور وأحملُ لعِبء التدبير من مُرَافقه فى صناعته ومُصاحِبه فى خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب مَنْ رمى بالعُجْب وراء ظهره، ورأىٰ أن صاحبه أعقلُ منه وأحمدُ فى طريقته . وعلىٰ كل واحد من الفريقين أن يعرِف فضل نِعَم الله جلّ ثناؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثُر

علىٰ أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره، وحمدُ الله واجب علىٰ الجميع : وذلك بالتواضُع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدّث بنعمته" .

وأنا أقول فى كتابى هـذا ماسبق به المثل (مَن يلزم الصحة[1] يلزمه العَمَل) وهو جوهر هـذا الكتاب وغُرَّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولّى به مَنْ سبق علمُه بإسعاده وإرشاده! فإن ذلك اليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع

من المقدّمة

فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه فى الإسلام، وتفرّقه بعد ذلك فى الممالك؛ وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى التعريف بحقيقته)

لا خفاء فى أنه ٱسمٌ مركّب من مضاف وهو ديوان ومضاف اليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للوضع الذى يجلِس فيه الكُتّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس فى صناعة الكتاب "وفتحها خطأ" قال : "وأصله دِوّان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان" ويجمع علىٰ دواوين . وٱختلف فى أصله ، فذهب قوم الىٰ أنه عربىّ . قال النحاس : "والمعروف فى لغة العرب أن الديوان الأصل الذى يُرجَع اليه ويُعمَل

---

(١) فى نسخة النصيحة .

بما فيه" ومنه قول ٱبن عباس : « إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشّعر فإن الشّعر ديوانُ العَرَب» . ويقال دوّنته أى أثبته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلىٰ أنه عجمىّ وهو قول الأصمعىّ وعليه ٱقتصر الجوهرىّ فى صحاحه ، فقال الديوان «فارسىّ معرَّب» . وقد حكى المـاوردىّ "فى الأحكام السلطانية" فى سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما — أن كسرىٰ ذات يوم ٱطَّلع علىٰ كُتَّاب ديوانه فى مكانٍ لهم وهم يحسُبون مع أنفسهم فقال "ديوانه" أى مجانين فسمِّى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا ، فقيل ديوان وعليه ٱقتصر أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتاب .

والثانى — أن الديوان بالفارسية ٱسم للشياطين ، وسمِّى الكتّاب بذلك لحِذْقهم بالأمور ووقوفهم علىٰ الجلىّ منها والخفىّ .

وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشىء ينشئه اذا ٱبتدأه وٱخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين :

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتَبات والوِلايات تُنْشأ عنه وتُبْتَدأ منه .

والثانى — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان فى الزمن المتقدّم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التى تصدر عنه لأن الرسائل أكثرُ أنواع كتابة الإنشاء وأعمُّها ، وربمـا قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الاسم وشُهِر به وٱستمرّ عليه إلىٰ الآن .

الفصـــل الثـــانى

(فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرّقه عنه بعد ذلك فى الممـالك)

اعلم أن هــذا الديوان أوّل ديوان وضع فى الإسلام؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُكاتب أُمراءه، وأصحابَ سَرَاياه من الصحابة؛ رضوان الله عليهم! ويكاتبُونه . وكَتَب إلىٰ مَن قَرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام؛ وبعث إليهم رُســله بكُتُبه : فبعث عمرو بن أميَّة الضَّمْرىّ إلىٰ النجَاشىّ مِلك الحبشــة، وعبــدَ الله بن حُذَافة إلىٰ كِسرى أبرويز ملك الفرس، ودِحيــةَ الكلبىّ إلىٰ هِرَقْل ملك الروم، وحاطِبَ بن أبى بَلْتعةَ إلىٰ المُقَوْقس صاحب مصر، وسَلِيطَ بن عمرو إلىٰ هَوْذةَ بن علىّ ملك اليمــامة، والعَلاءَ بنَ الحضرمىّ إلىٰ المنــذر بن ساوىٰ ملك البحرين إلىٰ غير ذلك من المكاتبــات . وكتب لعَمْرو بن حزم عهــدًا حين وجَّهه إلىٰ اليمن . وكتب لتميم الدارىّ وإخوته بإقطاع بالشام . وكتب كتاب القَضيَّة بعقد الهُدْنة بينه وبين قُرَيش عامَ الحديبية . وكتب الأمانات أحيانا . إلىٰ غير ذلك ممــا يأتى ذكره فى الاستشهاد به فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه المكتوبات كلها متعلَّقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش، فإن أوّل مَن وضعه ورتَّبه أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

علىٰ أنّ القضاعىّ قد ذكر فى تاريخه "عيون المعارف . وفنون أخبار الخلائف" أن الزبير بن العوّام، وجُهَيم بن الصَّلْت كانا يكتبان للنبى صلى الله عليه وسلم أموالَ الصَّدَقات، وأن حُذَيفة بن اليمان كان يكتب له خَرْص النخل، وأن المُغيرة بن شُعبة والحُصَين بن نُمَير كانا يكتبان المدايَنــات والمعاملات . فان صح ذلك فتكون هــذه الدواوين أيضا قد وُضِعت فى زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنهــا ليست فى الشهرة وتَواتُر الكتَابة فى زمانه صلى الله عليه وســلم : كما تقدّم من متعلَّقات كتابة الإنشاء .

وقد رأيت فى سِـيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبيّ صلى الله عليه وسـلم نَيِّفٌ وثلاثون كاتبا : أبو بكر الصـدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلىّ بن أبى طالب ، وعامر بن فُهَيرة، وخالد بنُ سعيد بن العاص بن أمية، وأبانٌ أخوه، وسـعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزُّهرىّ ، وحنظلة بن الربيـع الأسـدى ، وأُبَىّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شَمَّاس، وزيد بن ثابت، وشُرَحْبِيل بن حَسَنة، ومعاوية بن أبى سُفيان، والمُغيرة بن شُعبة، وعبدُ الله بن زيد، وجُهَيْم بن الصَّلْت، والزُّبير بن العوّام، وخالد بن الوليـد، والعَلَاء بن الحضرمىّ، وعمرو بن العـاص، وعبدُ الله بن رَوَاحة، ومحمد بن مَسْلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ، ومُعَيقب بن أبى فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبى سفيان، والأرقم بن الأرقم الزُّهرىّ، والعلاء بن عُتْبة، وأبو أيوب الأنصارىّ، وبُرَيدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سَلَمة المخزومىّ، وحُوَيطب بن عبد العُزّى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح؛ وكان ألزمَهم له فى الكتابة معاويةُ بن أبى سفيان، وزيدُ بن ثابت .

وكتب لأبى بكر عثمانُ بن عَفَّان، وزيدُ بن ثابت؛ وعثمانُ هو الذى كتب عهدَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة عن أبى بكر رضوان الله عليه كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضى الله عنه زيدُ بنُ ثابت، وعبد الله بن خَلَف .

وكتب لعثمان رضى الله عنه مَرْوانُ بن الحكم .

وكتب لعلى عبدُ الله بن أبى رافع مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وسعيد ابن نَجْرانَ الهَمْدانىّ .

وكتب للحسن بن علىّ رضى الله عنهما عبدُ الله بن أبى رافع كاتب أبيه .

ثم كانت دولة بنى أمية فتوالت خلفاؤهم من معاوية بن أبى سفيان فمن بعده ، وأمْر ديوان الإنشاء فى زمن كل أحد مفوَّض إلىٰ كاتبٍ يقيمه إلىٰ حين آنقراض دولتهم . وكان الخليفة هو الذى يوقِّع على القِصَص ويُحْدثها بنفسه ، والكاتب يكتب ما يَبْرُز إليه من توقيعه ويصرِّفه بقلمه على حُكْمه . وكان ممن اشتهر من كُتَّابهم بالبلاغة وقوة المَلَكة فى الكتابة حتّٰى سار ذكره فى الآفاق ، وصار يُضرَب به المَثَل علىٰ ممرّ الأزمان عبد الحميد بن يحيىٰ كاتب مروان بن محمد آخرِ خلفائهم .

فلما بزغتْ شمس الخلافة العباسية بالعِراق ووَلِى الخلافة أبو العبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس ، آستوزر أبا سلمة الخَلَّال . وهو أوّل من لُقِّب بالوزارة فى الإسلام علىٰ ما سيأتى ، وتوالت الوزراء بعده لخلفاء بنى العباس من يومئذ . وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلىٰ الوزارة ، فيكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بقلمه ، ويتولّٰى أحواله بنفسه ، وتارة يُفْرَد عنه بكاتب ينظر فى أمره ، ويكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بكلامه ، ويصرِّفها بتوقيعه علىٰ القِصَص ونحوها ، وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد مايرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشى علىٰ ما يُلقىٰ إليه من توقيعه ، وربما وقَّع الخليفة بنفسه حتّٰى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبنى سلجوق وغيرهم علىٰ الأمر والأمر علىٰ ذلك تارة وتارة إلىٰ آنقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن آشتهر من وُزَرائهم بالبلاغة حتّٰى صار يضرَب به المثل يحيىٰ بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدة كاتب المأمون ، وآبن المقفَّع مترجم كتاب "كليلة ودمنه" ، وسَهْل بن هرون الذى ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل آبن العميد ، والصاحب كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد ، وأبو إسحاق الصابى فى جماعة آخرين منهم .

ثم لمـا آنقرضت الخلافة من بغدادَ فى وقعـة هُولاكُو ملك التتار فى سـنة (ست وخمسين وستمـائة) وآستولت المغل والأعاجم علىٰ بغداد، بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكْتَب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية؛ والأمر علىٰ ذلك إلىٰ زماننا علىٰ ماسيأتى بيانه فى الكلام علىٰ دواوين الأمصار فى المكاتَبات والوِلايات وغيرهما إن شاء الله تعالىٰ .

وكانت بلاد الغرب والأنْدَلُس بأيدى نُوَّاب الخلفـاء من حين الفتح الإسـلامىّ فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنـه، ولا عنايةَ لهم بديوان الإنشاء للتقرّب من البَـدَاوة، وغايته المكاتبة إلىٰ ديوان الخلافة ونحو ذلك؛ فلما غلب بَنُو العباس علىٰ الخلافة هرب طائفة من بنى أميـة إلىٰ بلاد المغرب، وجازت البحر إلىٰ الأنْدَلُس فآنتزعوه من النوّاب الذين كانوا به وملَكوه، وصاروا يَنْصِبون فيه خليفة بعد خليفة، جارين علىٰ سَنَن ما كانوا عليه بالشأم من ألقاب الخلافة، مضاهين لخلافة بنى العباس ببغداد : من إقامة شِعار الخلافة، واتخاذ ديوان الإنشاء، وآستخدام بُلَغاء الكُتَّاب وتعدّت دولتهم إلىٰ برّ العُدوة من بلاد المغرب فحكموه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المسـتَوْلين المستبدّين عليهم بالأمر إلىٰ أن آنقرضت دولتهم من الأندلس و بلاد المغرب، وآستولت عليهما طوائف من الملوك وتنقلت بهم الأحوال فى آستيلاء الملوك علىٰ كل ناحيـة منهما ، وتتابعت الدول فى كل حين كلمـا خَبَتْ دولة نَجَمَتْ أخرىٰ علىٰ ما سيأتى ذكره فى مكاتبات ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحَضَارة والبَـدَاوة، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشـاء، وإذا آستَحْضَرت الدولةُ صرفت آهتمامها إلىٰ ديوان الإنشاء وترتيبه إلىٰ أن استقرّ ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعته الفرنج منـه بأيدى بنى الأحمر، والغربُ الأقصىٰ بيـد بنى مرّين ،

والغربُ الأوسطُ بيدِ بنى عبد الواد، وإفرِيقيَّة بيد بقاياَ الموحدين من أتباع المهدىّ ٱبن تُومَرت؛ وداخلتْهم الحضَارة، فأخذوا فى ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك، ومعاناة البلاغة فى المكاتبات ونحوها؛ وٱستمرّ الحال علىٰ ذلك إلىٰ زماننا .

وممن ٱشتهر بالبلاغة من كُتَّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زَيْدون، والوزير أبو حفص بن برد الأصفر الأندلسىّ، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم، والوزير أبو القاسم محمد بن الحد فى جماعة أخرىٰ من متقدّمى كتّابهم . ومن متأخريهم عبد المهيمن كاتب السلطان أبى الحسن المرّينى، وأربىٰ علىٰ كثير من المتقدّمين ٱبن الخطيب وزير ٱبن الأحمر صاحب غَرْناطة من الأندلس ممن أدركه من عاصرْناه .

أما الديار المصرية فلديوان الإنشاء بها خمسُ حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه مِن حينِ الفتح وإلىٰ بداية الدولة الطُّولونيَّة، ونُوَّاب الخلفاء تتوالىٰ عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةٌ بديوان الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار علىٰ المكاتبات لأبواب الخلافة، والنزر اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدُر عنهم مايُدوّن فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونيَّة من ٱبتداء ولاية أحمد بن طُولون، وٱستفحال مُلْك الديار المصرية فى الإسلام، وترتيب أمرها، وإلىٰ حين ٱنقراض الدولة الاخشيديه؛ وفى خلال ذلك ترَتَّبَ ديوان الإنشاء بها، وٱنتظم أمر المكاتبات والولايات؛ وكان ممن ٱشتهر من كُتَّابهم بالبلاغة وحُسْن الكتابة، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مَوْدود بن عبد : كان كاتبَ أحمد بن طولون، وكان مبدأَ الكُتَّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمَارويُه بن أحمد بن طولون إسحقُ بن نصر العبادىّ النصرانىّ، وتوالت الكُتَّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة — ما كان الأمر عليه من ٱبتداء الدولة الفاطمية و إلىٰ ٱنقراضها .

ولما وَلِيَ الفاطميون الديارَ المصرية ، صَرَفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكُتّابه ، فارتفع بهم قدرُه ، وشاع فى الآفاق ذكره ، ووَلِي ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكُتّاب وبلغائهم : ما بين مسلِمٍ وذمىّ ؛ فكتب للعزيز بالله ٱبن المعز أبو المنصور بن سوردين النصرانىّ ، ثم كتب بعده لٱبنه الحاكم ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر البهزكىّ ، ثم كتب بعده لٱبنه الظاهر . وكتب للستنصر القاضى ولىُّ الدين بن خيران ، ثم ولىُّ الدولة موسىٰ بنُ الحسن قبل ٱنتقاله إلىٰ الوزارة ، وأبو سعيد العميدىّ . وكتب للآمر والحافظ الشيخُ الأجلُّ أبو الحسن علىّ بن أبى أسامة الحلبىّ إلىٰ أن تُوفِّى سنة ٱثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده ولدُه الأجلُّ أبو المكارم إلىٰ أن توفِّى فى أيام الحافظ ؛ وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرِّآسة أبو القاسم علىّ بن سليمان بن منجد المبصرى المعروف بابن الصيرفىّ ، والقاضى كافى الكُفَاة محمود ٱبن القاضى الموفَّق أسعد بن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودىّ . ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدمِ ذكره القاضى الموفَّق ٱبن الخَلّال أيامَ الحافظ ، و إلىٰ آخر أيام العاضد ؛ وبه تخرّج القاضى الفاضل البَيْسانى . ثم شَرَّك العاضدُ مع الموفَّق ٱبنِ الخَلّال فى ديوان الإنشاء القاضىَ جلالَ الملك محمودَ بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤتمن كاسيبويه . ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفَّق ابن الخَلّال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدّة سجلّات ومكاتَبات عن العاضد آخرِ خلفائهم .

الحالة الرابعة — ما كان الأمر عليه من ٱبتداء دولة بنى أيوب إلىٰ آخر انقراضها .

قد تقدّم أن القاضيَ الفاضلَ رحمه الله كان قد كتب بين يدَيِ الموفَّق ابن الخلَّال في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين، فلما آستقلّ السلطان صلاح الدين المذكور بالمُلْك وخَطَب لبنى العبَّاس علىٰ ما تقدّم في الكلام علىٰ ملوك مصر، فوّض إلىٰ الفاضل الوزارةَ وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا، وأقام علىٰ ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فكتب بعده لآبنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر. ثم مات؛ وكتب للكامل بن العادل القاضى أمينُ الدِّين سليمانُ المعروف بكاتب الدَّرْج إلىٰ أن توفِّى، فكتب بعده للكامل الشيخُ أمين الدين عبد المُحْسن الحلبى مدّةً قليلة؛ وتوالت كتّاب الإنشاء فى الولاية إلىٰ أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوبُ فولّى ديوانَ الإنشاء الصاحبَ بهاءَ الدين زُهيرا. ثم صرفه وولّى بعده الصاحبَ فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإِسْعَرْدِىَّ؛ فبقى إلىٰ آنقراض الدولة الأيوبية.

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه فى الدولة التركية مما هو مستقِرّ إلىٰ الآن.

قد تقدّم أن الصاحبَ فخر الدين بنَ لقمان بقَى فى ديوان الإنشاء إلىٰ آخر الدولة الأيوبيــة.

ولما صارت المملكة إلىٰ الدولة التركيــة، بقِى فى صَحَابة ديوان الإنشاء أيام أيبك التركمانى، ثم أيام المظفَّر قطز، ثم أيام الظاهر بيبرس، ثم أيام المنصور قلاوون. فباشر ديوان الإنشاء فى أيامه مدّةً، ثم نقله إلىٰ الوزارة، وولّى مكانه بديوان الإنشاء القاضىَ فتح الدين بنَ القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى حياة والده، فبقى حتّى توفى المنصور قلاوون، وآستقرّ بعده آبنه الأشرف خليل، وآستمَرّ عنده فى كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معـه الى الشام، فمـات بالشام فولّى الأشرفُ مكانَه القاضىَ تاج الدين أحمد بن الأثير، وقفل السلطانُ راجعا إلىٰ مصر، فمـات

القاضى تاجُ الدين فى أثنـاء الطريق بمضىّ شهر من ولايتـه ، فولّى مكانه القاضىَ شرف الدين عبدَ الوهاب بنَ فضلِ الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيامَ أخيـه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأُولىٰ ، وأيامَ العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاچين ، وأيامَ الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، وأيامَ المظفر بيبرس الجاشنكير ، وبرهةً من أيام الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثة .

ثم نقله إلىٰ كتابة السرّ بدمشق المحروســة عوضًا عن أخيه القاضى محيي الدين بن فضل الله ، وولّى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعدٍ له منه حين كان معه فى الكَرَك ، وبقى حتّى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فآستدعىٰ الملك الناصر القاضىَ محيي الدين بن فضـل الله من الشأم ، فولّاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وكان ولدُه القاضى شهابُ الدين هو الذى يقرأ البريد علىٰ السلطان وينَفِّذ المهمّات إلىٰ سـنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة فأعادهما الملك الناصر إلىٰ دمشق ، وولّى مكانهما القاضى شرف الدين بن الشهاب محمود فى شعبان من السنة المذكورة ، فبقى حتّى حَجّ السلطان وعاد إلىٰ مصر ، فأعاد القاضى محيي الدين وَوَلده القاضى شهاب الدين إلىٰ ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلىٰ سنة ثمـان وثلاثين وسبعمائة .

وفى أواخر ذلك تغير السلطان علىٰ القاضى شهابِ الدين المذكـور وصَرَفه عن المباشَرة وأقام أخاه القاضىَ علاءَ الدين مكانَه يباشر مع والده ، وبقى الأمر علىٰ ذلك مدّة لطيفة .

ثم سأل القاضى محيي الديـن السلطان فى العود إلىٰ دمشق ، وقد كَبِرتْ سنُه وضعُفتْ حركته ، فأعاده وصحبتُه ولدُه القاضى شهابُ الدين وكتب له تقليد فى قطع

الثّلثين : بأن يستمرّ علىٰ صحابة دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية، وأن يكون جميعُ المباشرين لهذه الوظيفة بالباب الشريف فمَنْ دونَه نُوّابَه ، وأنه حيث حلّ يقرأ القِصَص والمظالم ، ويقرِّر الولاياتِ والعزلَ والرواتبَ وغير ذلك ، ويوقِّع فيها بما يراه، وتُجهَّز إلىٰ مصر ليعلِّم عليها العلامةُ الشريفة؛ وفوّض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضى علاء الدين آستقلالا ، وتجهَّز القاضى محيي الدين للسفر، فمرض ومات بعد أيام قلائل فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة . ثم نُقل إلىٰ دمشق سنة تسع ، وبقى ولده القاضى علاء الدين فبقى فى الوظيفة بقية أيام الملك الناصر، ثم أيامَ ولده المنصور أبى بكر، ثم أخيه الأشرف كجك، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خلَع الناصر أحمدُ نفسَه فى سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلىٰ الكَرَك ، توجه القاضى علاءُ الدين معه ، فأقام عنده ، وآستقرّ الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى السلطنة بعد أخيه أحمد ، فقرّر فى ديوان الإنشاء القاضىَ بدرَ الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله ، فبقى فى الوظيفة إلىٰ أن عاد أخوه القاضى علاءُ الدين من الكَرَك ، فأعِيد إلىٰ منصِبه ، وبقِى بقيةَ أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيامَ أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفَّر حاجّى ، ثم أيامَ أخيه الناصر حسن فى سلطنته الأولىٰ، ثم أيام أخيه الصالح صالح، ثم أيام الناصر حسن ثانيا، ثم أيام المنصور محمد بن حاجّى بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتُوفِّى، وولى الوظيفةَ بعده ولدُه القاضى بدرُ الدين محمد، فبقى بقيةَ أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور على، ثم أيامَ أخيه الصالح حاجى بن شعبان إلىٰ أن خُلِعَ ، وجاءت الدولة الظاهرية برقوق فقرّر فى ديوان الإنشاء القاضىَ أوحد الدين عبدَ الواحد بن التركمانى ، فبقى حتّى تُوفِّى فأُعيد القاضى بدرُ الدين

المذكور وبقى حتّى خُلِع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجّى بن الأشرف شعبان إلىٰ السلطنة وهو مستمرّ المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكَرَك حضر معه القاضى علاءُ الدين علىّ الكَرَكى ، فولّاه كتابة السرّ وبقَى حتّى توجه صُحبة السلطان إلىٰ الشام فى طلب مِنْطاش ، فمات القاضى علاء الدين ، وكان القاضى بدر الدين صحبتَه فأُعيد إلىٰ الوظيفة فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد مولًى صحبةَ الركاب الشريف السلطانىّ . ثم توجه صحبتَه إلىٰ الشام عند وُصُول تمر لبغداد ، فمرض ومات هناك ، فولّى الظاهرُ مكانَه القاضىَ بدر الدين محمود السراى الكلستانىّ فى شوّال سنة ست وتسعين وسبعمائة ؛ وحضر صُحبةَ الركاب الشريف إلىٰ الديار المصرية ، فبقى حتّى تُوُفِّى فى جُمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وثمانمائة ، فولّى الظاهر مكانَه المقرّ العالى الفتحى فتْح الله ، ففتح اللهُ به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مُغْلَقا ، وأصفىٰ به مِن وِرْده ما كان مكدَّرا .

وآنتقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلىٰ ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم علىٰ عادة أبيه . ثم صرفه عن الوظيفة فى شهور سنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه فى الوظيفة المَقَرّ السعدىّ إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله فى وظائف الديار المصرية والمشارُ إليه . وأقام بها مدّة لطيفة ، وعادت إلىٰ المَقَرّ الفتحىّ فتح الله المشار إليه ، وقيل : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ يجرىٰ فيها علىٰ الأُسْلوب الأوّل والمَهْيَع السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلىٰ الخلق ، وإيصال البرّ إلىٰ مستحقيه ، والمساعدة فى الله لمن عَرَف ومن لم يعرِف ؛ والله هو المكافئ لعباده علىٰ جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لم يَعْـدَمْ جَوازِيَه * لَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناس

الباب الخامس

من المقدمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

(فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله
ولقبه الجارى عليه فى القديم والحديث)

أما رِفْعة محله وشرفُ قدره، فأرفعُ محل وأشرفُ قدر، يكاد أن لا يكون عند الملك أخصُّ منه ولا ألزمُ لمجالسته، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظّما عند الملوك فى كل زمن، مقدّما لديهم على من عداه: يُلْقون إليه أسرارهم، ويُخُصّونه بخفايا أمورهم، ويُطْلعونه على مالم يطّلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبةٍ هذا محلها!

قال صاحب مواد البيان "ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرّفين فى مهماته أخصُّ من كاتب الرسائل. فإنه أوّل داخل على الملك وآخرُ خارج عنه، ولا غِنًى له عن مفاوضته فى آرائه، والإفضاء اليه بمهماته، وتقريبه من نفسه فى آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمّات مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصّته ثِقَتَه به، ولا يركَنُ إلى قريب ولا نسيب رُكونَه إليه، ومحلُّه منه فى عائدة خدمته وأثَرة دولته محلُّ قلبه الذى يؤامره فى مشكل رأيه حتّى يتنقحَ، ويراجعُه فى مهمّ تدبيره حتّى يتضح؛ ولسانِه الذى يقرّر بترغيبه أولياءَه على الطاعة والموافقة، ويستقر (١) بترْهيبه عن المعصية والمشاقّقَة، ويقر بأوامره

---

(١) كذا فى الأصل ولعله مصحف عن يُنَفِر. أو يستنفر كما يقتضيه المقام.

ونواهيه أمور سلطانه، ويُنْزِلها منازلها فى متمهد مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعِمارة بلاده، ومصلحة رعيته، وآجتلاب مودّتهم، وآستخلاص نياتهم؛ وعينه التى تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرْعيها مهمات شانه؛ وأذنه التى يثق بماوَعَتْه، ولا يرتاب بما سمعتْه؛ ويده التى يبسُطُها بالإنعام، ويبطِشُ بها فى النقض والإبرام ".

قال : ومن كانت هذه رتبتَه فالسبب الذى رتَّبه فيها أفضلُ الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والآستيجاب .

قال ابن الطوير فى ترتيب الدولة الفاطمية " وكان هـذا المنصِب لا يتولّاه فى الدولة الفاطمية إلا أجلُّ كتّاب البلاغة، ويُخاطَب بالأجلّ، وإليه تسلَّم المكاتَبة واردة مختومة فيَعْرِضها على الخليفة من يده؛ وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها وربما بات عنـد الخليفة ليالىَ؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره ". قال "وهو أوّل أرباب الإقطاعات فى الكِسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتّابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمَخَادّ والمُسْنَد، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواته أستاذ من خواصّ الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة ".

قلت : ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة، ومحله أعظم محل؛ إليه تلقَى أسرارُ المملكة وخَفَاياها، وبرأيه يُستضاء فى مشكلاتها، وعلى تدبيره يعوّل فى مهماتها، وإليه تَرِدُ المكاتبات، وعنه تصـدر؛ ومن ديوانه تُكْتَب الولايات السلطانية كافّة، ويقوم توقيعُـه على القِصَص فى نفوذ الأوامر مَقـامَ توقيع السلطان؛ وجميعُ ما يعـلِّم عليه السلطان من جليل وحقير فى مرتبته حتّى ما يُكْتَب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكْتَب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من المُرَبَّعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرّض لأخذ علامة سلطانيّة البتةَ، وناهيك بذلك رفعةً وشرفا باذخًا .

وأمّا لَقَبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا فى زمن بنى أُمَيَّة وما قبله يعبّرون عنه بالكاتب، لايعرفون غيرذلك كما أشار اليه القُضاعىّ فى "عيون المعارف". فلما جاءت الدولةُ العباسيَّة، وٱستقر السَّفَّاح أوّلُ خلفائهم فى الخلافة، لقَّب كاتبَه أبا سلمة الخَلَّال بالوزارة وترك اسم الكاتب؛ وٱستقرّ لقب الوزارة علىٰ مَنْ يليها من أرباب السيوف والأقلام إلىٰ انقراض الخلافة من بغداد . وتقدّم أيضا أن هـذا الديوان كان تارة يضاف إلىٰ الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوّضه إلىٰ مَنْ يتحدّث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيث ٱنفرد عن الوزارة لُقِّب متوليه بما يتضمن إضافته إلىٰ صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل، كما كان فى الزمن الأوّل، لقِّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولِّى ديوان الرسائل، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات، أو متولِّى ديوان المكاتبات، وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصرية لُقِّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيما لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وعلىٰ هـذا مصطلَح كُتّاب الديوان فى زماننا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليد أو غيره؛ علىٰ أنه لو قيـل ناظر دواوين الإنشاء لكان أعلىٰ فى الرتبة لما ٱشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلىٰ من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطميـة بالديار المصرية كاتب الدَّسْت" .

قلت : وآنتهى الأمر إلىٰ أوائل الدولة التركية والحـال فى ذلك مختلف، فتارة يلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بكاتب الدَّسْت، وربمـا عُبِّر عنه بكاتب الدَّرْج، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بكُتَّاب الدَّسْت . ويقال إنهم كانوا فى أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر، أرفعُهم درجةً القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . وبقى الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن ولىَ الديوانَ القاضى فتحُ الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون علىٰ ما تقدّم ذكره، فلُقِّب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدَّست إلىٰ طبقة دُونَه من كُتَّاب الديوان . وآستمر ذلك لقبًا علىٰ كل من وَلِىَ الديوان إلىٰ زماننا علىٰ ماسيأتى ذكره . ويضاهيه فى ذلك من العُرْف العامّ متولى ديوان الإنشاء بدمشق، وبحلب، وبطرابلس، وبحمـاه، وبصَفَد، إلا أنه لا يقال فى واحد منهم فى مصطَلَح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال فى متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية، بل يقال فى متولى ديوان دمشق صـاحب ديوان الإنشاء بالشام، وفى متولى ديوان حَلَب صاحب ديوان المكاتَبَات بحلب، وكذا فى الباقيات . أما غَزَّة، والكَرَك، والإسكندرية وغيرُها من النيابات الصِّغار فإنمـا يقال فى متولى شئ من دواوينهـا كاتب دَرْج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

وآعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السِّرّ بميم فيقولون كاتم السر، وهو صحيح المعنىٰ إما لأنه يكتُم سِرَّ الملك، أو من باب إبدال الباء بالميم علىٰ لغة ربيعة وان كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصـــل الثـانى

(فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى فى مقدّمة تذكرته : "يجب أن يكون صبيحَ الوجه، فصيحَ الألفاظ، طَلْق اللسان، أصيلًا فى قومه، رفيعا فى حَيّـه، وَقُورا، حليما

مُؤْثِرا للجِدّ على الهزل، كثير الأَناة والرفق، قليلَ العَجَلة والخُرْق، نَزْر الضحك، مَهِيب المجلس، ساكن الظِّل، وَقُور النادى، شديدَ الذّكاء، متوقد الفهم، حَسَن الكلام إذا حدَّث، حسن الإصغاء إذا حُدِّث، سريعَ الرضا، بطىء الغضب، رءُوفا بأهل الدين، ساعيا فى مصالحهم، محبًّا لأهل العلم والأدب، راغبا فى نفعهم؛ وأن يكون محبا للشُّغْل أكثر من محبته للفراغ، مقسِّما للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءا منه حتّى يستوعبه فى جميع أقسامها، ملازما لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازما للديوان إذا لم يكن الملك جالسا : ليتأسّى به سائر كتّاب الديوان، ولا يجدوا رخصة فى الغيبة عن ديوانهم ؛ وأن يُغَلِّب هوى الملك على هواه ورضاه على رضاه — مالم ير فى ذلك خللا على المملكة، فإنه يجب أن يُهْدِى النصيحة فيها للملك من غير أن يُوجده فيما تقدّم من رأيه فسادا أو نقصا، لكن يتحيل لنَقْص ذلك وتهجينه فى نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنٍّ وأفضل تلطف؛ وأن يَنْحَل الملك صائبَ الآراء ولا ينتحلها عليه؛ ومهما حدث من الملك : من رأيٍ صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه ونخمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمدَه عليه وشكره . وإذا قال الملك قولا فى مجلسه أو بحضرة جماعة ممن يخدُمه فلم يره موافقا للصواب، فلا يَجْبَهْه بالرد عليه واستهجان ما أتىٰ به — فان ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر الى حين الخلوة ، ويُدخل فى أثناء كلامه ما يوضِّح به نهجَ الصواب من غير تلقٍّ بردّ، ولا يتبَجَّح بما عنده، ويكون متابعا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطِباعه الشريفة : من بَسْط المَعْدِلَة ومدّ رُوَاق الأَمَنة، ونَشْر جَناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونُصْرة المظلوم، وجَبْر الكسير، والإنعام على المُعْتَرّ المستحق، والتوفُّر على الصدقات، وعِمارة بيوت الله تعالى، وصَرْف الهِمَم الى مصالحها، والنظرِ فى أحوال الفقهاء، وحَمَلة كتاب الله العزيز بما يَصْلُح، والالتفاتِ الى عِمارة البلاد، وجِهاد الأعداء،

ونشر الهيبة، و إقامة الحدود فى مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها. فيكون لجميع ذلك مؤكِّدا، ولأفعاله فيه موطِّدا ممهِّدا. و إن أحسَّ منه بخَلَّةٍ تُنافى هذه الخلال، أو فَعْلةٍ تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بألطف سَعْى وأحسن تدريج، ولا يَدَعُ ممكنا فى تبيين قُبْحها، و إصلاح رداءة عاقبتها، وفضيلة مخالفتها إلا بينه وأوضحه الى أن يعيده إلى الفضائل التى هى بالملوك النبلاء أليقُ؛ وأن يكونَ مع ذلك بأعلى مكانة من اليَقَظة والآستدلال بقليلِ القول على كثيره، وببعض الشىء على جميعه، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء، بل الرمز والإيحاء: لينبه الملك على الأمور من أوائلها، ويعرّفه خواتم الأشياء من مُفْتَتَحاتها، ويحذِّره حين تبدو له لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بنِ برمك: "أنه كان مع قَحْطَبَةَ فى معسكر، جالسين فى خَيْمة إذ نظر خالد إلى سِرْب من الظباء قد أتى حتّى كاد يخالط العسكر، فأشار على قحطبةَ بالركوب فسأله عن السبب، فقال الأمر أعجل أن أبيِّن سببه. فركب وأركب العسكر، فلم يستتمُّوا الركوب إلا والعدوّ قد دهمهم، وقد آستعدّوا له فكانت النُّصرة لهم على العدوّ. فلما آنقضى الحربُ سأل قَحْطَبةُ خالدا من أين أدرك ذلك؟ فقال: رأيت الظِّباء وقد أقبلَتْ حتّى خالطت العسكر، فعرفتُ أنها لم تفعل ذلك مع نُفورها من الإنس إلا لأمر عظيم قد دهمها من ورائها". وأن لا يكتب عن الملك إلا ما يقيم مَنَار دولته ويعظِّمها، ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها؛ ولا يكتبُ ما يكون فيه عيب على المملكة ولا ذمٌّ لها على غابر الأيام، ومستأنَف الأحقاب؛ وإن أمر بشىء يخرُج عن ذلك، تلطَّف فى المراجعة بسببه، وبيَّن وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به الى الواجب. وأن يكون من كتمان السر بالمنزلة التى لا يُدانيه فيها أحد، ولا يقاربُه فيها بشر، حتّى يقرّر فى نفسه إماتةَ كلِّ حديث يعلمه، ويتناسى كلَّ خبر يسمعه. وأن لا يُطْلِع والدا

ولا ولدا، ولا أخا شقيقا، ولا صديقا صَدُوقا، علىٰ ما دَقَّ أو جلَّ، ولا يُعْلمه بما كثُر منه ولا قلَّ، ويتوهم بل يتحقق أنّ فى إذاعته ما يَعْلم به وَضْعَ منزلته وحَطَّ رتبته، ويجتهد فى أن يصير له ذلك طَبْعا مركَّبا وأمرا ضروريًّا .

قلت : وهذه الصفة هى الشرط اللازم، والواجب المحتَّم : بها شُهِر، وبالإضافة إليها عُرِف . وقد قال المأمون وهو من أعلىٰ الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علما : "الملوك تحتملُ كلَّ شيء إلا ثلاثة أشياءَ : القَدْح فى الملك، وإفشاءُ السِّر، والتعرّضُ للحُرَم".

ومن كلام بعض الحكماء : "سِرُّك من دمِك" قال صاحب العقد : يعنُون أنه ربَّما كان فى إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مِحْجَن الثقفىّ بقوله :

قد أطْعَنُ الطَّعْنَة النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ * وأكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبةُ العُنُقِ

وقال الوليد بنُ عتبة لأبيه : "إن أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثًا أفلا أُخْبرك به ؟ قال يا بُنىّ : إنَّ مَن كَتَم سرَّه كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه ؛ فلا تكُنْ مملوكا بعد أن كنتَ مالكا" . وقد كانت ملوك الفرس تقول "أعظمُ الناس حقًّا علىٰ جميع الطَّبَقات مَن وَلِىَ أسرار الملوك" .

وآعلم أنه إذا كان إفشاء السر ربما أفضىٰ إلى الهَلَكة خصوصا أسرارَ الملوك، فعلىٰ صاحب هذه الوظيفة القيامُ من ذلك بواجبه وكتمانُ السِّر حتّٰى عن نفسه ؛ فقد حكى صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" : أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظَ السر، فقال عبد الله :

ومُسْتَوْدِعِى سِرًّا تضَمَّنْتُ سَتْره * فأوْدَعْتُه فى مُستَقَرّ الحشَا قَبْرا

فقال آبنه عبيد الله، وهو صبىّ :

وما السِّرُّ من قَلْبى كَثاوٍ بحُفْرةٍ * لأنِّى أرى المَدْفُونَ يَنْتَظِرُ الحَشْرَا

ولٰكنَّنِى أُخْفِيهِ حتّٰى كأنَّنى * مِنَ الدَّهرِ يَوْمًا ما أَحَطْتُ به خُبْرَا

وعلى صاحب هـذه الرتبة الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك بأن لا يتلقاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : " لا ينبغى للملك أن يستشير منا أحدا إلا خاليا فإنه أصون[(١)] للسر وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين و إفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رهن بما أفشى اليه . والثانى مطلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، واذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة أو رهبة ، و إن كان عند اثنين كان على شبهة واتسعت عن الرجلين المعاريض[(٢)] ، فان عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، و إن اتهمهما اتهم بريئا بجناية مجرم ، و إن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه " .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدهما بحضرة الآخر لتكون العهدة فى دركه على واحد بعينه . على أنه ربما أفشى السر مع احتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الجن تنقل الأخبار ، وتفشى ماتطلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن على بن الجهم أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين المتوكل فرأيت الفتح بن خاقان وزيره واقفا على غير مرتبته التى يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مطرقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلى ، و إذا صرفت وجهى إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لى الخليفة ياعلى أنكرت شيئا ؟ — قلت نعم يا أمير المؤمنين ! — قال : ماهو ؟ — قلت : وقوف الفتح بن خاقان فى غير منزلته ، — قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام ، — قلت :

(١) فى الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .
(٢) لعل الأظهر على .

ما السبب ياأمير المؤمنين ؟ — قال : خرجتُ من عند جارية لى فأسررت إليه سِرًّا فما عدانى السرُّ أن عاد إلىّ . — قلت لعلك أسررت الى غيره ، — قال : ما كان هذا ! — قلت فلعل مستمعا آستمع إليكما ، — قال لا ولا هذا أيضا ، قال فأطرقت مليًّا ثم رفعت رأسى ، فقلت : ياأمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا . — قال وما هو؟ — قلت : خبر أبى الجوزاء ، حدثنا أبو نُعَيم الفضلُ بن دُكَيْن قال حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبى الجوزاء قال : طلقت آمرأتى فى نفسى وأنا بالمسجد ثم آنصرفت إلىٰ منزلى ، فقالت لى آمرأتى : طلقتنى ياأبا الجوزاء ! قلت من أين لك هذا ؟ قالت حدّثتنى به جارتى الأنصاريَّة قلتُ : ومِنْ أينَ لها هذا؟ قالت ذكرتْ أنَّ زوجها خَبَّرها بذلك قال : فغدوت علىٰ آبن عباس رضى الله عنهما فقصَصْت عليه القِصَّة فقال : أمَا علمت أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل ؟ فمن هنا يفشو السر ، فضحك المتوكل ، وقال إلىّ يا فتحُ ! فصَبَّ عليه خِلعة ، وحمله علىٰ فرس ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدُونِه فانصرفت إلىٰ منزلى ، وقد شاطرنى الفتح فيما أخذ فصار إلىّ الأكثرُ .

قال أبو نعيم وكان فى نفسى من حديث أبى الجوزاء شىء حتّى حدّثنى حمزة آبن حبيب الزيات . قال : خرجت سنةً أريد مكة فبينا أنا فى الطريق إذ ضلَّت راحلتى فخرجت أطلُبها فإذا أنا بآثنين قد قبضا علىّ أُحِسُّ حِسَّهما ولا أرى شخصهما بل أسمع كلامهما ، فأخذانى إلىٰ شيخ قاعِد وهو حَسَن الشَّيْبة فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فأفرخ رَوْعى[(١)] . ثم قال من أين والىٰ أين ؟ قلت من الكوفة إلىٰ مكة . قال : ولِمَ تخلَّفت عن أصحابك ؟ قلت ضلَّتْ راحلتى فجئت أطلُبها ، فرفع رأسه الىٰ قوم عنده ، وقال : أنِيخوا راحِلتَه ، فأُنِيخَتْ بين يدَىَّ . ثم قال : تقرأ القرآن؟

---

(١) فى الأصول بالجيم وهو تصحيف . وصوابه بالخاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه . أنظر القاموس .

قلت نعم . قال فاقرأ ، فقرأت حم الأحقـاف حتى أتيت ﴿وإذْ صَرَفْنَا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ﴾ فقال مكانَك ، أتدرى كم كانُوا ، قلت لا . قال كُنَّا أربعـةً : وكنتُ أنا المخاطِبَ عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿ياقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ الله﴾ ثم قال أتقول الشعر ؟ قلت لا . قال فتَرْويه ؟ قلت نعم . قال هاته، فأنشـدته قصيدة زُهَير بن أبى سُلْمىٰ "أَمِنْ أُمِّ أوفى" فقال لمن هذه؟ قلت لزهير بن أبى سُلْمىٰ قال الجنىّ ؟ قلت لا بل الإنسىّ . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال ائتُونى بزهير فأُتِىَ بشَيخ كأنه قِطعة لحم فأُلْقِى بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال "أمن أم أوفى" لمن هى؟ قال لى — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزُهَيْر بن أبى سُلْمىٰ ؛ قال : صدق وصدقتُ ، قال وكيف هـذا ؟ قال هو إلفى من الإنس وأنا تابعـه من الجنّ، أقول الشىء فألقيه اليه فى فهمه ويقول الشىء فآخُذ عنه ، فأنا قائلها فى الجنّ وهو قائلها فى الانس . قال أبونعيم : فصدق عندى حديثُ أبى الجوزاء أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل .

الفصـــل الثـالث

(فيما يتصرف فيه صاحبُ هذا الديوان بتدبيره، ويصرِّفه بقلمه، ومتعلَّق ذلك اثنا عشرَ أمرًا)

الأمر الأوّل

(التوقيـــع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة علىٰ الرِّقاع والقِصَص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبـات فى الأمور المتعلقة بالمملكة ، والتحدّث فى المظالم ؛ وهو أمر جليـل ، ومنصب حفيل ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنْع ، والوصل والقطْع ، والولاية والعزل

إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السَّنِيَّة . وٱعلم أن التوقيع كان يتولاه فى ٱبتداء الأمر الخلفاءُ، فكان الخليفة هو الذى يُوقِّع فى الأمور السلطانية ، وفصل المظالم، وغيرهما .

الأمر الثانى

(نظره فى الكُتُب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصورىّ : "كان الواجب أن لا يقرأ الكُتُبَ الواردة على الملك إلا هو بنفسه ؛ ولما كان ذلك متعذرا عليه لوُفُورها ، وٱتساع الدولة ، وكثرة المكاتِبِين من أصناف أرباب الخِدَم، ووُصُول الكُتُب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضِيق الزمان عن تفرُّغه لذلك ، وجب تفويضه إلى متولِّى ديوان رسائله".
قال : "ولما كان حال متولى صاحب الديوان كذلك لٱشتغاله بالحُضُور عند الملك فى بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة ، وتقرير مايُجاب به عن كل منها ، مع شَغْله بتصَفُّح مايكتَب فى الديوان والمقابلة به ، ٱحتاج أن يردّ أمْرَها إلى كاتب يقوم مَقامَه" على ماسيُذكر فى صفات كُتَّاب الديوان فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق بردّه الأجوبة عن الكُتُب الواردة على لسانه)

قال أبو الفضل الصورىّ : "ومن أهم ما يلزم صاحبَ هذا الديوان إشعارُ الملك مايراه من الآراء الصائبة ويعلمه أنّ من أعظمها خَطَرا أن يُصْدَر جواب كل كتاب يصل إليه فى يومه ولا يؤخرَه إلى غَدِه ويؤرّخ فى آخره بتاريخ ذلك اليوم" فيقال "وكُتِب فى يوم وُصُول كتابك ، وهو يوم كذا" فإن ذلك يقيم للملِك هيبة كبيرةً ، ويدل

علىٰ تطلُّعه للأمور، وآنتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شُئونها، ويؤثِّر فى نفس المكاتَبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حَذَرا وخِيفة".
قال: "وينبغى أن يأخذ جميعَ أرباب الخِدَم فى البلاد بتاريخ كُتُبهم ويحذِّرَهم من تركـ ذلك؛ فإن فى إهمـاله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يعلم بُعْدُ العهد بما ذكر فيه من قُرْبه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمّنه أم لا؛ وإذا كان مؤرّخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل اليه كتاب آقتضى تاريخه زيادة زمنٍ علىٰ مسافة الطريق، أنكر ذلك علىٰ حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجـة علىٰ أنه لم يتأخر به قدرا زائدا علىٰ مسافة طريقه، وأن العذر من تقدّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك علىٰ مرسله إنكارا يردَعُه عن ذلك ويزجُره عنه.

الأمر الرابـــع

(نظره فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتَبات والوِلايات: من الآفتتاح والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب فى الزمن المتقدّم فى غاية الضَّبْط والتحرير، خصوصًا فى زمن الخُلَفاء من بنى العبـاس والفاطميين؛ لا يُزاد أحد فى الألقاب علىٰ مالقَّبه به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمَح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها. أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلىٰ نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتَبين وأرباب الوِلايات مَنْزِلتـه علىٰ مايقتضيه مصطلَح الزمان من عُلو وهُبوط؛ وحينئذ فعليـه أن يحتاط فى ذلك ويؤاخِذَ كُتَّاب الإنشاء بالمشاحّة فيه، والوقوف عند ماحُدّ لهم من غير إفراط ولا تفريط. فقد قال صاحب موادّ البيان: "إن الملوكـ تسمَح ببَدَرات المال، ولا تسمَحُ بالدعوة الواحدة" وناهيك بذلك تشديدا وآحتياطا.

الأمر الخامس

(نظره فيما يُكتَب من ديوانه وتصفُّحه قبل إخراجه من الديوان)

قال أبو الفضل الصورى: "علىٰ متولِّى الديوان أن يتصفح ما يُكتَب من ديوانه من الوِلايات والمَنَاشِير والمُكاتَبات؛ إذ الكاتب غير معصوم من الخطإ واللحن وسبق القلم؛ وعيب الإنسان يَظْهر منـه لغيره مالا يَظْهَر له، فما أبصَره من لحن أو خطإ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحْذَر من مثله فيما يستأنِفُه، فإنْ تكرر منه زجَره عن ذلك، ورَدَعه عن العَوْد إلىٰ مثله؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كلُّ ما يُكتَب عن الملك كاملَ الفضيلة خطًّا ولفظًا ومعنًى وإعراباً حتّٰى لايجد طاعن فيه مطْعَناَ، فربما زَلَّ الكاتب فى شيء فيَزِل بسببه متولِّى الديوان. بل السلطان. بل الدولة بأسرها. قال: فإذا فرغ من عَرْض الكتاب والوقوفِ عليه، كتب عليه بخطه ما يدلُّ علىٰ وقوفه عليه ليكونَ ملتزما بدَركه".

وكأنه يشير إلىٰ ماتقدّم من كلامه: من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه؛ وإن كان منشوراً ونحوه، كتب تاريخه بخطه.

ثم قال: "فان كان متولِّى الديوان مشتغلا بحُضُور مجلِس السلطان ومخاطَبَاته والتلَقِّى عنه، ولا يمكنه مع ضِيق الزمان توفيةُ كلِّ ما يُكتَب بالديوان حقَّ النظر فيه وتصفُّحُ ألفاظه ومعانيه، نصب له فى ذلك نائبا كاملَ الصنعة حسَنَ الفِطْنة موثوقًا به فيما يأتى ويذَر، يقوم مَقامه فى ذلك". قال: "وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان، ولكن ليتحمل عنه أكثرَ الكل ويصيرَ اليـه وقد قارب الصحةَ أو بلغها فيحصُل علىٰ الراحة من تعبها، ويصرف نظره إلىٰ ما لعله خفى علىٰ المتصفح من دقائق المعانى وعَوِيص المَدارك[١]، فيقلُّ زمنُ النظر عليه، ويظْفَر بالغرض المطلوب فى أقربِ وقت".

(١) العويص بالعين المهملة وهو ما يعسر فهمه. وإعجامه فى الأصول تصحيف.

الأمر السادس

(نظره فى أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان،
وآكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : "وَلَّيتك حِجابى وعزلتك عن أربع : هذا المنادِى إلىٰ الله فى الصــلاة والفَلاح فلا تَعُوجَنَّه عنى ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحبُ الطعام، فإن الطعام اذا أُعيد تسخينه فسدَ؛ وطارقُ الليل فلا تحجُبْه فشَرٌّ ما جاء به، ولو كان خيرا ما جاء فى تلك الساعة ؛ ورسولُ الثَّغْر ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سـنةٍ فأدْخِلْه علىّ ولو كنت فى لِحافِى" . وقد تقدّم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يتلقَّى المكاتبات الواردة ويقرؤها علىٰ السلطان ويجاوبُ عنها، فيجب علىٰ صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقِّظا لمـا يَرِدُ على السلطان من نواحى ممـالكه وقاصيات أعمالِه فإنه المعتمد عليه فى ذلك والمعوَّل عليه فى أمره .

وقد كان أمرُ البريد فى الزمن المتقــدّم والدواداريَّةُ يومئذ أمراء صغار وأجناد معدّون لصاحب ديوان الإنشاء، تخرج رسالة السلطان علىٰ لسان بعض الدوادارية بمـا يرسُم به لمن يركب البريد فى المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدّم فى تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نُحاس كلُّ لوح منها بقدر راحة الكَفِّ أو نحوها منقوشٌ علىٰ أحد وجهَيْه ألقابُ الســلطان ، وعلىٰ الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أرْسَــلَه بالهُدىٰ ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَه علىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِه المُشْرِكُون. وفى رقبته شُرَّابةٌ من حرير أصــفر يجعلها راكب البريد فى عنقه ويرسل اللوح على صــدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلىٰ كاتب السر دفع إلىٰ البريدىّ لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلىٰ أميراخور البريد بالإصطبل الساطانىّ بمـا تبرُزُ به الرسالة من الخيل،

ويكتبُ ٱسمَه فى آخر الكتاب الذى يُنْفَذ معه بين السطور، ويختِم الكتاب، ويُسَلَّم اليه، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلىٰ جهة قصده، وحَمْلِه علىٰ ما رُسِم له به من خيل البريد علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ كتابة أوراق الطريق، ويترك ٱسمَه وتاريخ سَفرِه، والجهةَ التى توجه إليها، والشُّغْل الذى توجه بسببه بدفترٍ بالديوان.

فلما عظم أمر الدواداريَّة وٱستقرّ عند الدوادار كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يعلّق عنه الرسالة علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ تعليق الرسالة، رجع أكثَرُ الأمر فى ذلك إلىٰ الدَّوادار، وصار كاتبُ الدَّسْت الذى يخدُمه يعلّق الرسالة ع.ه بذلك كما يعلّقها عنه فى غيره علىٰ ما تقدّم. فإن كان البريد إلىٰ جهة الشام كتب فى ورقة لطيفة يرسم برسالة المقرّ المخدوم الفلانى أمير دوادار الناصرى أو الظاهرىّ مثلا أعز الله تعالىٰ أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلانى المرسومِ له بالتوجه إلىٰ الجهة الفلانية، ويُحْمَل علىٰ فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد. ثم يؤرّخ. وإن كان البريد إلىٰ الوجه القبلىّ أو البحرىّ أو غير ذلك كتب: أن يكتب ورقة فرسِ بريد باسم فلان الفلانى من غير تعرّض لذكر ورقة طريق، وباقى الكلام علىٰ نحو ما تقدّم، ويؤرّخ ويجهّز تلك الورقة صحبة البريدىّ إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيخلّد الورقة بديوانه عند دواداره فى جملة أَضَابِيرِ الديوان، ويكتب له فى ورقة صغيرة أيضا ما مثاله: أميراخور البريد المنصور، يُحمل فلانٌ الفلانىُّ علىٰ فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلىٰ الجهة الفلانية ويؤرّخ، ويدفع إلىٰ البريدىّ ليدفعها إلىٰ أميراخور البريد تخلَّد عنده، ويكتب اسم البريدىّ فى آخر الكتاب علىٰ ما سيأتى فى أوّل المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ، ويُختَم الكتاب ويدفع اليه.

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدىّ عنده شُرّابة حرير صفراءُ يجعلها فى عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدىّ إلىٰ مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلىٰ اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلىٰ الأبواب السلطانيــة من نيـابة من نيابات المملكة فى ورقة الطريق وخيــل البريد . ولصاحب ديوان الإنشــاء التنبُّه علىٰ مصالح مراكز خيل البريد فى الديار المصرية وغيرها .

وسيأتى الكلام علىٰ مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

وآعلم أنه يجب علىٰ الناظر فى أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتـاط فيمن يرسله فى الأمور السلطانية ، فيوجه فى كل قضية من يقوم بكفايتها وينهَض بأعبائها ، ويختصّ الملوكَ وأكابرَ النوّاب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التَّجارِب منهـم ، خصوصا فى المهمات العظيمة التى يحتاج الرسول فيها إلىٰ تمنيق الكلام ، وتحسـين العبارة ، وسمـاع شبهة المُرْسَـل إليه ، وردّ(١) جوابه واقامة الحجة عليــه ، فإنه يقال : يُستدَلُّ علىٰ عقل الرجل بكتابه وبرسوله . وقد قيل : من الحق علىٰ رسول الملك أن يكون صحيحَ الفِكْرة والمِزاج ، ذا بيانٍ وعارضــةٍ ولينٍ وآستحكام منَعة ؛ وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته ، مؤدّيا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صَدُوقا بريئا من الطمع . وعلىٰ مرســله آمتحانُه قبل توجيهه فى مقاصِده ؛ ولا يُرسِل إلىٰ الملوك الأجانب ، إلا من آختبره بتكرير الرسائل إلىٰ نوّابه وأهل مملكته . فقــد كان الملوك فيما سلف من الزمن إذا آثَرُوا إرسال شخصٍ لمهمٍّ ، قدموا آمتحانه بإرساله إلىٰ بعض خواص الملك ممن فى قَرَار داره ، فى شىء من مهمّاته ، ثم يجعل عليه عَيْنا فيما يُرْسَل به من حيث لا يشـعُر ، فاذا أدّى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملكُ عينَه ، فإن

(١) فى الأصل ويرد وهو تصحيف ظاهر .

طابق ما قاله الرسول ما أتىٰ به من هو عَيْن عليـه وتكرر ذلك منه، صارت له المِيزةُ والتَّقْدِمة عند الملك ووجَّهه حينئذ فى مهمَّات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخرُ ملوك الفرس يقول : "حقٌّ علىٰ الملك الحازم إذا وَجَّه رسولا إلىٰ ملك أن يُرْدِفه بآخَر، وإن وَجَّه برسولين وجَّه بعدهما باثنين، وإن أمكنه أن لا يجمع بين رُسُله فى طريقٍ فعل" .

ومن الحزم أن الرسول اذا أتاه برسالة أو كتاب فى خير أو شر أن لا يُحْدث فى ذلك شيئا حتّٰى يُرْسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفًا حرفًا ومعنًى معنًى فإن الرسول ربما فاته بعضُ مايؤمِّله فافتعل الكُتُب، وغيَّر ماشُوفِهَ به فأفسد مابَيْن المُرْسل والمرسَل إليــه : من ملك أو نائب ونحوهما، وربمــا أدّىٰ ذلك إلىٰ وقوع فتنة بين المَلِكين، أو خروج النائب عن الطاعة وتفاقَم الأمر بسبب ذلك وسرىٰ إلىٰ ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجَّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق فجــاء برسالة شكَّ الإسكندر فى حرف منها فقال له : "وَيْلَك ! إن الملوك لا تخلو من مقوِّم ومســدِّد اذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعــانى، وقد وجدتُ فيها حرفًا ينقضُها، أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه ؟ فقال بل علىٰ يقين منه أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تُكتَب الألفاظ حرفًا حرفًا و يعاد إلىٰ الملك الذى جاء ذلك الرسول من عنده مع رسولٍ آخر فيُقرأَ عليه ويتَرْجَمَ له . فلمــا وصل الرسول الثانى إلىٰ ذلك الملك وقرأ عليه ما كَتَب اليه به الاسكندر فى أمر ذلك الرســول، أنكر ذلك الحرَف الذى أنكره الإسكندر وقال للترجم : "ضَعْ يدك علىٰ هذا الحرف" فوضــعها فأمر أن يُعلَّمَ بعلامة وقال : " إنى أُجِلّ ما وصــل عن الملك أن أقطعه بالسِّكِّين، ولكن ليصنَعْ هو فيه وفى قائله ما شاء" . وكتب إلىٰ الإســكندر : " إن من أُسِّ المملكة صحةَ لَهْجة الرســول، إذ كان عن لسانه ينطق، وإلىٰ أذنه

يؤدّى". فلما عاد الرسول إلىٰ الإسكندر دعا برسوله الأوّل وقال : "ما حملك علىٰ كلمة قصدتَ بها إفساد ما بين ملكين ؟ " فأقرّ أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك، فقال له الإسكندر: "فأراك قد سعيت لنفسك لا لنا ! فاتَكَ ما أمّلتَ مما لا تستحقه علىٰ من أُرسِلت اليه فجعلت ذلك ثأرا تُوقِعه فى الأنفس الخطيرة الرفيعة ! ثم أمر بلسانه فنزع من قفاه." وكأنه رأىٰ إتلاف نفس واحدة أولىٰ من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقِعه بين الملكين من العداوة ويثير من الإحَن وضغائن الصُّدُور .

وقد كان أردشير بن بابك يقول : "كم من دمٍ سفَكَه الرسولُ بغير حِلّه ! وكم من جُيُوش هُزِمت وقُتِل أكثرها ! وكم حُرْمة آنتُهِكت ! وكم مالٍ نُهِب وعقد نُقِض بخيانة الرُسُل وأكاذيب ما يأتون به ! " .

الأمر السابع
(نظره فى أمر أبراج الحمام ومتعلّقاته)

سيأتى فيما بعدُ ان شاء الله تعالىٰ أن بالديار المصريةِ أبراجا للحمام الرسائلىّ يحمل البطائق فى أجنحته من مكان إلىٰ مكان ؛ منها بُرْج بقلعة الجبل، وأبراجٌ بطريق الشام بمدينة بِلبِيس، وأبراجٌ بطريق الإسكندرية . وكان قبل ذلك يدرج الىٰ قوص، ومنها إلىٰ أُسْوان وعَيْذاب ما يقطع ذلك الآن (١) . وحمام كل برج يُنْقل منه فى كل يوم الىٰ البرج الذى يليه ليطلُب برجه الذى هو مستوطِنه إذا أُرْسِل . فإذا عرض أمرٌ مهم أو ورد بريد أو غيره ممن (٢) يحتاج إلىٰ مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام، كتب والِيها المتحدِّثُ فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث بها علىٰ أجنحة الحمام . وقد جرت العادة

(١) كذا فى الأصل ولعله فانقطع ذلك الآن .
(٢) صوابه مما كما هو واضح .

أن تكتب بطاقتان وتُؤرَّخان بساعة كتابتهما من النهار ، ويعلَّق كل منهما فى جناح طائر من الحمام الرسائلىّ ويُرْسَلان ، ولا يكتفىٰ بواحد لاْحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلىٰ مقْصِده . فاذا وصل الطائر إلىٰ البرج الذى وُجِّه به اليه ، أمسكه البَرَّاج وأخذ البِطاقةَ من جناحه وعَلَّقها بجناح طائر من حمام البُرْج الذى يليه أى من المَنْقول إلىٰ ذلك البرج ، وعلىٰ ذلك حتّٰى ينتهى إلىٰ برج القلعة فيأْخُذُ البَرَّاج الطائرَ والبِطاقةُ فى جناحه ويُحْضِرُه بين يدَىِ الدَّوادار الكبير فيُعرَض عليه ، فيضع البطاقة عن جناحه بيده . فإن كان الأمر الذى حضرت البِطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلىٰ مُطالَعة السلطان به ، آستقلَّ الدوادار به ؛ وإن كان مهمًّا يحتاج إلىٰ إعلام السلطان به ، آستدعى كاتبَ السر وطالع لقراءة البطاقة علىٰ السلطان كما يفعل فى المكاتبَات الواردة . وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمَّات بالأبواب السلطانية فإنَّه يوجَّه بالحمام من برج القلعة إلىٰ الجهة المتعلِّقة بذلك المهم . وفى معنىٰ ذلك كل نيابة من النيابات العِظام بالممالك الشامية كدِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثامن

(نظره فى أمور الفِداوية)

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسِبين إلىٰ إسماعيل بن جَعْفرٍ الصادق بنِ محمدٍ الباقر بنِ علىّ زين العابدين بنِ الحسين السِّبط إبنِ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه! ، من فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وهم فِرْقة من الشِّيعة مَقَدُهم معتقَدُ غيرهم من سائر الشِّيعة أن الإمامة بعد النبى صلى الله عليه وسلم !

آنتقلتْ بالنص إلىٰ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه ، ثم إلىٰ آبنه الحسن ، ثم إلىٰ أخيه الحسين ، ثم تنقّلتْ فى بَنى الحُسَين إلىٰ جعفر الصادق ، ثم هم يدَّعُون آنتقالَ الإمامة من جعفر الصادق إلىٰ آبنه إسماعيل ، ثم تنقلت فى بنيه .

وسُمُّوا الفِداوية لأنهم يُفادُون بالمـال علىٰ مَن يقتُلونه . ويُسمَّوْن فى بلاد العجم بالباطنية لأنهم يُبطِنون مذهبهم ويُخْفُونه ، وتارة بالمَلاحدة لأن مذهبهم كلَّه إلحاد . وهم يُسمُّون أنفسهم أصحابَ الدعوة الهـادية . وسيأتى الكلام عند ذكر تحليفهم فى الكلام علىٰ الأيمان إن شاء الله تعالىٰ . وكانوا فى الزمن المتقدّم قد علَتْ كلمتُهم ، وآشتدَّتْ شَكِيمتُهم ، وقَوِيتْ شوكَتُهم ، وآستولَوْا علىٰ عِدّة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشأم . فأمّا بلاد العجم فكان بِداية قوتهم وانتشارُ دعوتهم فى دولة السلطان ملكشاه السلجوقىّ فى المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدَّميهم رجل آسمه عطاش فنشأ له ولد يسمّى أحمد فتقدّم فى مذهبهم وآرتفع شأنه فِيهم ، وألَمَّ به مَنْ فى بلاد العجم منهم ، فغلب علىٰ قلعة بأَصْبَهَان ، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدّم ذكره ، وقلعـةٍ بالطالَقَان تعرف بقلعة الموت ؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصباح ذو شهامة وتقدُّم فى علم الهندسة والحساب والنجوم والسِّحر ، فآتهمه بالدعوة للخلفاء الفاطميين ، وهم من جملة طوائف الإسمـاعيلية ففرّ الحسن بن الصباح منه هاربا الىٰ مصر ، وبها يومئذ المستنصرُ بالله خامسُ خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نُزُله ، وأمره بأن يخرج إلىٰ البلاد للدعوة الىٰ إمامته فأجابه الىٰ ذلك ، وسأله مَن الإمام بعده ، فقال له : ابنى نِزار وهو الذى تنسب إليه النِّزَارية منهم . فخرج آبن الصَّبَّاح من مصر وسار إلىٰ الشام ، والجزيرة ، وديار بكر ، وبلاد الروم يدعو إلىٰ إمامة المستنصر . ثم آبنه نِزار من بعده ، وسار إلىٰ خُرَاسان وجاوزها إلىٰ ما وراء النهر ، ودخل كاشْغَر يدعو إلىٰ ذلك ، ثم عاد إلىٰ الطالَقَان وآستولىٰ علىٰ قلعة الموت فى سنة ثلاث وثمانين

وأربعمائة ، ثم آستولى على قلعة أصْبهان وآستضاف اليها عِدّة قلاع بتلك النواحى فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقويتْ شوكة هـذه الطائفة بتلك البلاد، وعَظُم أمرها، وخافها الملوكُ وسائر الناس ، وبقى آبن الصباح على ذلك حتّى مات فى سنة ثمانَ عشرةَ وخمسمائة . وتنقّلت تلك القلاعُ بعدَه حتّى صار أمرها إلى شخص من عقبه يسمّى جلالَ الدين بن حسن ألكيا الصبّاحىّ فأظهر التوبة فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وبقِىَ على ذلك إلى سنة ثمان وستمائة، فأظهر شعائر الإسلام، وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام، فأقيمت فيها، وبقى حتّى تُوُفِّى سنة ثمانَ عشرةَ وستمائة، وقام بعده آبنه علاءُ الدين محمد، وتداول مقدّموهم تلك القلاع إلى أن خرج هُولاكو على بلاد العجم فى سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عَيْثهم وفسادهم، فخرَّب قِلَاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشأم فكان أوّل قوتهم بها أنه دخل منهم إلى الشأم رجل يسمى بَهْرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسداباذى ببغداد فى أيام تاج الملوك بورى صاحب الشام، وصار إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها ، وعاضده سعيد المردغانىّ وزيرُ بورى حتّى علتْ كلمته فى دِمَشْـق وسلم له قلعة بانياس(1)، فعظُم أمر بَهْرام وملك عدّة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلى الآن، وهى سبع قلاع بين حماه وحمص متصلةٌ بالبحر الرومىّ على القُرب من طَرَابُلُس : وهى مِصْـياف، والرُّصَافة ، والخَوَابى . والقُدْموس، والكَهْف، والعليقة، والمينقة، ومن هنا سُمِّيتْ بقلاع الدعوة . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتِل فى حرب جرَتْ بينه وبين أهل وادى التَّيْم، وقام مَقامَه بقلعة بانياس(1) رجل منهم آسمه إسماعيل، وأقام الوزيرُ المردغانىُّ عوضَ بهرام بدمشق رجلا منهم آسمه أبو الوفاء فعظُم أمره بدمشق حتّى صار الحكم له بها، وهَمَّ بتسليمها

(1) لعلها بُلُنْياس . قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص .

للفرنج علىٰ أن يسلّموا له صُورَ عوضًا منها، فشَعَر به بورى صاحب دمشق فقتله وقتل وزيره المردغانى ومَنْ كان بدمشق من هــذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقّل بالشام لواحد بعد واحد من مقدّميهم إلىٰ أن كان المقــدّمَ عليهم فى أيام الســلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشدُ الدين سِنانٌ البصرى وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين مباينةٌ ووثبوا عليه مراتٍ ليقتُلوه فلم يظْفَروا بذلك إلىٰ أن حاصر قِلَاعهم فى ســنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفْح عنهم فأجابهم إلىٰ ذلك وبقى راشدُ الدين سنانٌ مقدّما عليهم حتّى مات فى سنة ثمــان وثمــانين وخمسمائة .

قال فى مسالك الأبصار : "وهم يعتقدون أن كل مَنْ ملك مصر كان مَظْهَرا لهم، ولذلك يتولّوْنه ويَرَوْن إتلاف نفوسهم فى طاعته لمــا ينتقل إليــه من النعيم الأكبر بزعمهم". قال : "ولصاحب مصر بمشايعتهم مزيّةٌ يخافه بها أعداؤه (١) لأنه يرسل منهم مَنْ يقتله ولا يبالى أن يُقْتَل بعده، ومَنْ بعثه إلىٰ عدوّ له فجَبُن عن قتله قتله أهلُه إذا عاد إليهم، وإن هرب تبِعوه وقتلوه" .

قلت : وكانوا فى الزمن المتقدّم يُسمُّون كبيرهم المتحدِّث عليهم تارة مقدّم الفداويّة، وتارة شيخ الفِداويّة . أما الآن فقد سَمَّوْا أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين فى الزمن المتقدّم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلىٰ غيرها الا من رُسِم له بالخروج لمــا يتعلق بالسلطان ولا يُمكَّن أحدٌ من التجار من الدُّخُول إلىٰ بلادهم لشراء قُمَــاش وغيره . وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجَّه بها لنائب الشام المحروس . وسيأتى إيراد شىء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم فى الولايات إن شاء الله تعالى!

(١) لعله عدوّه بالافراد .

الأمر التاسع

(نظره فى أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أُسّ المُلك وعِماد المملكة . وعلىٰ صاحب ديوان الإنشاء مَدارُه وإليه رجوع تدبيره وٱختيارُ رجاله وتصريفُهم . فيجب عليه الٱحتياط فى أمر الجواسيس أكثَرَ مما يَحْتاط فى أمر البريديَّة والرُّسُل : لأن الرسول قد يتوجه إلىٰ الصديق وقد يتوجه إلىٰ العدوّ والجاسوسُ لا يتوجه إلا إلىٰ العدوّ ، وإذا وَثِق بجاسوسه فإنه إلىٰ ما يأتى به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا فى الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يُوثَق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُنتفَع بخبره وإن كان صادقًا لأنه ربما أخبر بالصدق فاتُّهِم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما آثر الضررَ لمن هو عَيْن له إذ المتهم فى الحقيقة عينٌ عليك لاعَوْن لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حَدْس صائب وفِراسة تامّة : ليدرك بوُفُور عقله وصائب حَدْسه من أحوال العدوّ بالمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدلَّ فيما هو فيه ببعض الأمور علىٰ بعض فإذا تفرّس فى قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوِىَ بحثُه فيها بانضمام بعض القرائن إلىٰ بعض .

ومنها أن يكون كثير الدَّهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلىٰ كل موصل ، ويدخل بحيلته فى كل مَدْخَل ، ويدرك مقْصده من أىّ طريق أمكنه . فإنه متىٰ كان قاصرا فى هذا الباب أو شك أن يقع ظَفَر العدوّ به أو يعودَ صِفْر اليدين من طَلِبته .

ومنها أن يكون له دُرْبَةٌ بالأسفار ومعرفةٌ بالبلاد التى يتوجه إليها : ليكون أغنىٰ له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربمـا كان فى السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربمـا وقع فى العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عَيْنا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التى يتوجه إليها لَيلْتقط مايَقَع من الكلام فيما يَذهب بسببه ممَّن يخالطه من أهل تلك المملكة وسُكَّانِ البلاد العالمين بأخبارها ، ولا يكون مع ذلك ممن يُتَّهم بمُمَالأة أهل ذلك اللسان من حيث إن الغالب علىٰ أهل كل لسان اتحادُ الجنس ، والجنسيَّةُ علة الضم .

ومنها أن يكون صَبُورا على ما لعله يصير إليه من عُقُوبة إنْ ظفر به العدوّ بحيث لا يخبر بأحوال مَالِكه ولا يُطْلِـع علىٰ وَهْن فى مملكته ؛ فإن ذلك لا يخلِّصه من يد عدوّه ، ولايدفَع سطوتَه عنه . بل ولايعترف أنه جاسوس أصلا ؛ فإن ذلك ممـا يحتِّم هلاكه ويُفْضِى إلىٰ حَتْفه : إلىٰ غير ذلك من الأمور التى لايسع استيعابُها . فإذا وَجَدَ من العيون والجواسيس مَنْ هو مستكمل لهـذه الشرائط وما فى معناها ، فعليه أن يُظْهر لهم الوُدّ والمصافاةَ ولا يُطلِـعَ أحدا منهم فى زمن تصرُّفه له أنه يتَّهمه ولاأنه غير مأمون لديه ؛ فربمـا أدّاه ذلك فى أضْيق الأوقات أنـ يكون عينا عليه ؛ فإن الضرورة قد تلجئه لمثل ذلك ، خصوصًا ان جَذَبه الىٰ ذلك جاذب يستميله عنـه مع ما هو عليه من الضرورة ، والضرورة قد تحمل الإنسان علىٰ مفاسـد الأمور ، ويُجْزِلَ لهم الإحسان والبرّ ، ولا يُغْفل تعاهُدَهم بالصِّلات قبـل احتياجه إليهم . ويزيدَ فى ذلك عند توجههم إلىٰ المهمات ، ويتعهدَ أهلِيهم فى حضورهم وغَيْبتهم ليملك بذلك قلوبَهم ويَستصْفِيَ به خواطرَهم . وان قُضِى على مَنْ بعثه منهم بقضاء أحسنَ إلىٰ مَن خَلَّفه من أهله ، وجعل لهم من بعـده من الإحسان ما كان يجعله له

اذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره علىٰ النصيحة . وإن قُدِّر أنْ عاد منهم أحد غيرَ ظافر بقَصْــد أو حاصل على طلِبةٍ وهو ثقة، فلا يستَوْحِش منــه بل يُوليه الجميل، ويعامله بالإحسان؛ فانه إن لم ينجَح المرَّةَ نجع الأخرىٰ . وعليــه أن يحترز عن أن تعرِف جواسيسُه بعضُهم بعضا لا سيما عند التوجه للمهمَّات . وإن ٱستطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطةً فعل، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولَّى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إذا ٱختص الواحدَ بالسرّ . وأيضا فانه لا يؤمَن ٱتفاقهم عليــه وممالأتُهم لعدوّه . وكذلك يحترز عن تعرّف أحد من عسكره عيونَه وجواسيسَه؛ فان ذلك ربمــا يؤدّى إلىٰ ٱنتشار السرّ والعَوْدِ بالمَفْسدة . وعليه أن يصغىٰ إلى مايلقيه إليه كلٌّ من جواسيسه وعيونه وإن ٱختلفتْ أخبارُهم ويأخُذ بالأحوط فيما يؤدّيه إليــه ٱجتهاده من ذلك ولايجعل إختلافهم ذنبا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيمايقوله؛ إذ كل واحد قد يرىٰ ما لا يرىٰ الآخرُ، ويسمعُ ما لا يسمعه . وإذا عثر علىٰ أحد من جواسيسه بزَلَّة فليستُرْها عنه وعليه، ولا يُعاقبه علىٰ ذلك ولا يوبِّخه عليه فان وَبَّخه ففى خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما فى ممــالأة العدو والخيانةِ مــن الوَبَال فى الآخرة . ولا بأس بأن يُجْرى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودّته وأنه مع العدوّ على غَرَر لا يدرى ما هو صائر إليه؛ فانــ ذلك أدعىٰ لٱستصلاحه . ولا شك أن ٱستصلاحه إمّا فى الوقت أو فيما بعدُ خير من ثبات فساده، فربما أدّاه ذلك الى ممالأة العدوّ ومباطَنته، لا سيما اذا كان العدوّ معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البذل والعطاء . وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوّه ٱستعمل فيه التثبت ودوامَ البشر ولا يُظْهِر تهافتا عليه تظهر معه الخفَّة، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة، ولا يُظْهِر له كراهة ما يأتيه به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمانَ السرّ عنه فيما يكره فيؤدّى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثَرَ مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارّة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممّن[1] يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوّه . فيجب الاحتراز منهم بكتمان السرّ وسَتْر العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربما دعتِ الضرورة فى بعض الأحيان إلىٰ أن يعرّف الملكُ عدوّه بعض أموره علىٰ حقيقته لأمرٍ يحاول به مكيدته . والطريق فى ذلك أن يتلطف الى أن يصيِّرَ جاسوسَ عدوّه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتّى يستخرج نصيحته ، فحينئذ يلقى إليه ما أراد تبليغه إلىٰ صاحبه الاول مما فيه المكيدة فيوصله إليه فيكون أقرَب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتّهمه .

الأمر العاشر

(نظره فى أمور القُصّاد الذين يسافرون بالمَلَطِّفات من الكتب
عند تعذر وصول البُرُد الى ناحية من النواحى)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وآكدها . وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه : أن أوّل مَن اتخذ السُّعاة من الملوك معزّالدولة بن بويه أوّلُ ملوك الديلم بعدالثلاثين والثلثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركنُ الدولة ابن بويه بأصبَهان ومامعها فأراد معز الدولة سُرعةَ إعلام أخيه ركنِ الدولة بتجدّدات الأخبار فأحدث السُّعاةَ وانتشىٰ فى أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخرِ مرعوش ، وكان أحدهما ساعىَ السُّنة والآخرُ ساعى الشِّيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

---

(١) كذا فى الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسير فى كل يوم نَيِّفا وأربعين فرسخا ، وٱستمرّ حكم السُّعاة ببغداد إلىٰ زماننا حتّىٰ إنّ منهم ساعيين لِرِكَاب السلطان يمشيان أمامه فى المواكب وغيرها علىٰ قرب .

قلت : "وقد رأيتهما فى خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر فى دولة الظاهر برقوق فارّا من تمر" . أمّا الديار المصرية فإنه لا يتعانىٰ ذلك عندهم إلا خِفافُ الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدّة العَدْو إلا أنه اذا طرأ مهم سلطانىّ يقتضى إيصال ملطّف مكاتبةً عن الأبواب السلطانية إلىٰ بعض النواحى وتعذر إيصاله علىٰ البريد لحيلولة عدوّ فى الطريق أو ٱنقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، ٱنتدب كاتبُ السرّ بأمر السلطان مَنْ يُعْرَف بسرعة المشى وشدّة العدو للسفر ليوصل ذلك الملَطّف إلىٰ المكتوب إليه والإتيانِ بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فأكثرُ إلى الشخص الواحد فى المعنىٰ الواحِد ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يُعتَرَض واحد فيمضى الآخر إلىٰ مقْصده كما تقدّم فى بطائق الحمام الرسائلىّ . وقد أخبرنى بعض من سافر فى المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم فى الغالب عند خوف العدو يمشُون ليلا ويكْمُنون نهارا وإذا مشَوْا فى الليل يأخذون جانبا عن الطريق الجادّة ، يكون بين كل ٱثنين منهم مقدار رمية سهم حتّىٰ لا يسمع لهم حِسٌّ فاذا طلع عليهم النهار كَمَنوا متفرّقين مع مُواعدتهم علىٰ مكان يتلاقَوْن فيه فى وقت المسير .

الأمر الحادى عشر
(نظره فى أمر المَنَاور والمُحْرِقات)

أما المَنَاور فسيأتى أنه فى الزمن المتقدّم عند وقوع الحروب بين التتار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفُرَات بآخر الممالك الشامية وإلىٰ قريب من بِلْبِيس من أعمال

الديار المصرية أمكنةٌ مرتَّبة برءوس جبال عوالٍ، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدوّ من بلاد التتار، واتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحَلَبية : فإن كان ذلك فى الليــل أُوقِدت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبــال فينظره مَنْ بعده، فيُوقد النار فينظره مَنْ بعده، فيُوقد النار وهكذا حتّى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بالقرب من بِلْبِيس فى يوم أو بعض يوم، فيرسل بِطاقَتَه علىٰ أجنحة الحَمَــام بالإعلام بذلك فيُعْلَم أنه قد تحرّك عدوّ فى الجملة فيُؤخذ فى التأهّب له حتّى تصل البُرُد بالخبر مفصَّلا .

وأمّا المُحْرِقات فسيأتى أنه كان أيضا قوم من هــذه المملكة مرتَّبُون بالقرب من بلاد التتار يتحيلون علىٰ إحراق زروعهم بأن تُمسَــك الثعالبُ ونحوها وتُربط الخرق المغموسة فى الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد بالنار وتُرسَل فى زروعهم إذا يبست فيأخُذُها الذُّعْر من تلك النار المربوطة بأذنابها فتذهب فى الزروع آخذة يمينا وشمالا فمــا مَرَّت بشىء منه الا أحرقته وتواصلت النار من بعضها إلىٰ بعض فتُحرق المزرعة عن آخرها .

قلت : وهذان الأمران قد بطل حكمُهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

الأمر الثــانى عشر

(نظره فى الأمور العامّة ممــا يعود نفعه علىٰ السلطان والمملكة)

قد تقدّم فى أوّل هذا الفصــل فى الكلام علىٰ بيان رُتْبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب موادّ البيان أنه ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرفين فى مهماته

أخصّ منه ، من حيث إنه أوّل داخل علىٰ الملك وآخر خارج عنـه وأنه لاغِنى به عن مفاوَضته فى آرائه والإفضاء إليه بمهماته ، وتقريبه من نفْسه فى آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه علىٰ حوادث دولتـه ومهمات مملكته ، وأنه لا يَثِق بأحد من خاصته ثِقتَه به ، ولا يركن إلىٰ قريب ولا نسيب رُكونَه إليه ؛ ومَنْ كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألُوَه نُصْحا فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمر لبـلاده وأرغم لأعاديه وحُسَّاده وأثبت لدولتـه وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن علىّ بن زيد الكاتب : أنه صحِب بعضَ الملوك فقال للملك : "أصحبك علىٰ ثلاث خلال — قال وما هى ؟ — قال لا تَهْتِكُ لى سترا ، ولا تَشْتِم لى عِرْضا ، ولاتقبلُ فِىَّ قولَ قائل حتّٰى تستبرئ . فقال له الملك — هذه لك عندى فمالى عندك؟ قال : لا أُفشى لك سرّا ، ولا أؤخِّر عنك نصيحةً ، ولا أُوثِر عليك أحدا — قال نِعْمَ الصاحبُ المستصحَب أنت ! .

فإذا ٱنتهىٰ إلىٰ صاحب الديوان خبر يتعلق بجَلْب منفعة إلىٰ المملكة أو دَفْع مضَرَّة عنها ، أطلع السلطان عليه فى أسرع وقت وأعجلِه قبل فوات النظر فيه ونَحَلَه فيـه صائب رأيه ، ثم ردّ النظر فيه إلىٰ رأى السلطان ليخرج عن عهدته . وإن ٱرتاب فى خبر المخبر أحضره معه إلىٰ السلطان ليشافِهَه فيه حتّٰى يكون بريئا عن تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرّد الريبة لأحتمال صحته فى نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال فى سائر ما يرجع إلىٰ صـلاح المملكة وحسن تدبيرها .

الفصـــل الرابع

(فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزمُ ربَّ كل وظيفة منهم فيما كان الأمر عليه فى الزمن القديم وٱستقرّ عليه الحال فى زماننا)

أما فى الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى مقدّمة تذكرته أن أرباب الوظائف فيه علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل ــ الكُتَّاب

(وقد عدّاهـــم إلى ســـبع كتاب)(١)

الأوّل ــ كاتب ينشئ ما يُكتَب من المكاتبات ، والولايات ، تتصدّىٰ للإنشاء ملكته وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقًا بصفات متولِّى الديوان بحيث يكون كاملا فى الصفات ، مستوْفيا لشروطِ الكتابة ، عارفا بالفنون التى يحتاج إليها الكاتب ، مشتملا علىٰ التقدّم فى الفصاحة والبلاغة ، قوىَّ الحجة فى المعارضة ، واسعَ الباع فى الكلام بحيث يقتــدر بملكته علىٰ مَدْح المذموم وذم المحمود وصرف عِنَـان القول إلىٰ حيث شاء ، والإطناب فى موضع الإطناب ، والإيجاز فى موضع الإيجاز ؛ فإنه أجلُّ كُتَّاب الديوان ، وأرفعُهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه ، وتلقىٰ إليه الكلمة الواحدة والمعنىٰ المفرد فينشئ علىٰ ذلك كلاما طويلا ، ويأتى منه بالعبارة الواسعة ؛ وهو لسانُ الملك المتكلمُ عنه ، فمهما كان كلامه أبدعَ ، وفى النفوس أوقع ، عظُمت رتبة الملك ، وٱرتفعت منزلته علىٰ غيره من الملوك . وهو الذى ينشئ العهود والتقاليد فى الولايات والكُتُبَ فى الحوادث الكبار ، والمهمّات العظيمة التى

---

(١) الصواب تأنيث ٱسم العدد كما هو واضح .

تتلىٰ فيها الكتب علىٰ صَيَاصِى المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلىٰ إبراهيم بن الوليد ، وقد همّ بالعصيان : أما بعد فإنى أراك تقدّم رِجْلا وتؤخر أخرىٰ فآعتمد علىٰ أيهما شئت والسلام ؛ فكان سببا لإقلاعه عما همّ به .

الثانى — كاتب يكتب مكاتَبَاتِ الملوك عن ملِكه ؛ وقد شرط فيه مع ماشرط فى المتصدّى للانشاء المتقدّم ذكرُه ان كان هو الذى ينشئ المكاتَبات بنفسه عن الملِك أن يكون على دِين الملك الذى يكتُب عنـه ومذهبِه ؛ لما يحتاج إليـه فى مكاتبة الملك المخالف من الآحتجاج علىٰ صحة عقيدته ، ونصرة مذهبه ، وإقامة الدلائل علىٰ صحة ذلك ، ولن يحتجّ للملة أو المذهب مَنِ آعتقـد خلافه بل المخالف إنما تبدُو له مواضعُ الطعن لا مواضعُ الحِجَاج . وكذلك أن يكون من عُلُوّ الهِمَّة ، وقوّة العزم ، وشرف النفس بالمحلّ الأعلىٰ ، والمكان الأرفع ؛ فإنه يُكاتِب عن ملكه ، وكل كاتب فإنه يجرّه طبْعـه وجبِلّته وخِيمُه إلىٰ ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوىٰ جانبا وأشدّ عزما وأعلىٰ همة ، كان علىٰ التفخيم والتعظيم ، والتهويل والترغيب والترهيب أقدرَ ، وكلما نقص من ذلك نقص مِنْ كتابته بقـدره ؛ وأن يكون عالما بقدر طبقة المكتوب إليه فى معرفة اللسان العربىّ فيخاطب كل قوم علىٰ قَدْر رتبتهم فى ذلك وما يَعْرِف من فهمهم .

الثالث — كاتب يكتُب مكاتَبَاتِ أهـل الدَّوْلة وكبرائها ، ووُلاتهـا ، ووجوهها من النوّاب والقضاة والكتّاب والمشارفين والعمال ، وإنشاءَ تَقليدات ذوى الخِدَم الصِّغار والأمانات ، وكَتْب الأيمـان والقسامات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبتين المتقدّمتين فهى جليلة الخَطَر عالية القَدْر ؛ ويجب أن يكون لاحقًا برُتَب الخـدمة منها ، وأن يكون مأمونًا علىٰ الأسرار ، كافّ اليد ، نَزِه النفْس عن العَرَض

الدنيوىّ لأنه يطّلع علىٰ أكثر مايجرى فى الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمعروف قبل صَرْفه، ويكون مع ذلك سريعَ اليدِ فى الكتابة، حَسَن الخط اذ كان هذا الفنّ أكثرَ ما يُستعمَل ولا يكاد يقلّ فى وقت من الأوقات

الرابع — كاتب يكتُب المَنَاشير والكُتُبَ اللِّطافَ والنُّسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقةٌ بالمنزلة التى قبلها وكأنها جزءٌ منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأمونًا كَتُومًا للسر؛ فيه من الأدب مايأمَن معه من الخطإ واللحن فى لفظه وخطه، ويكون حَسَن الخط أو بالغا فيه القَدْر الكافى . ولكن لما كان هذا الشغل واسعا وهو أكثر عمل الدِّيوان والذى لاينفك منه، لم يكد يستقِلُّ به رجل واحد فيحتاج إلىٰ معاضَدَته بآخر يكون دونه فى المنزلة، ويُجْعَل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدّمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها مما يمليه صاحب الديوان و يصدُر عنه فى نسخ تكون مخلدة فيه لا تُغادر المبيَّضَه بحرف لتكون موجودة متىٰ آحتيج اليها .

الخامس — كاتب يبيِّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلىٰ حُسْن الخط، كالعهود والبَيْعات ونحوها . قال الصورىّ : لما كانت البلاغةُ التامّة التى يصلح صاحبها للإنشاء وحُسْنُ الخط قلما يجتمعان فى أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيِّض برسم الإنشاءات والسِّجلات والتقليدات، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلىٰ الغاية الموجودة بحيث لايكاد يوجد فى وقته أحسَنُ خطا منه لتصدُرَ الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكمل للملكة، وأكثر تفخيما عند مَنْ يكاتبه وتعظيما لها فى صدره . ويجب أن يكون مع ذلك فى الأمانة، وكِتْمان السر، ونَزَاهة النفْس علىٰ ماتقدّم .

السادس — كاتب يتصفَّح ما يُكتَب فى الديوان . قد تقدم أنه لما كان كلُّ واحد ممن تقدّم ذكره غيرَ معصوم من السهو والزلل والخطإ واللحن وعَثَرات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه و يظهر له عيبُ غيره، وكان زمن متولِّى الديوان أضيقَ من أن يُوفِى بكل مايكتَب بديوانه حقَّ النظر، وكان القصد أن يكون كل مايكتب عن الملك كامل الفضيلة خطًّا ولفظا ومعنًى وإعرابا، حتّٰى لا يجد طاعنٌ فيه مطعنًا، وجب أن يستخدم متولِّى الديوان معيَّنا يتصفح جميعَ الإنشاءات والتقليدات والمكاتَبَات وسائر مايُسَطَّر فى ديوانه .

قال أبو الفضل الصورىّ : وينبغى أن يكون هذا المتصفِّح عالِى المنزلة فى اللغة والنحو وحفظِ كتاب الله تعالىٰ، ذكِيًّا، حسَن الفِطنة، عاقلا، مأمونًا وأن يكون مع ذلك بعيدا من الغرض والعداوة والشحناء حتّٰى لا يبخس أحدا حقَّه، ولا يُحابىَ أحدا فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده فى الحق علىٰ حدٍّ واحد لا يترجح واحد منهم علىٰ الآخر . وعليه أن يُلزم الكُتَّاب بعرض جميع ما يكتُبونه وينشِئونه عليه قبل عرضه علىٰ متولِّى الديوان — فاذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعرّف رضاه عنه ليلتزم بدَرَك ما فيه ويبرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمَّنة لمتعلَّقات الديوان .

قال الصُّورىّ : ويجب أن يُختـار لذلك كاتبٌ مأمونٌ، طويل الروح، صبور علىٰ التَّعَب، قال : والذى يلزمه من متعلَّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع فى الديوان تذاكر تشتمل علىٰ مهمَّاتِ الأمور التى تُنهىٰ فى ضِمْن الكتب، ويظن أنه ربما سُئِل عنها أو ٱحتيج إليها، فيكون ٱستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقير عنها من الأضابير . قال : ويجب أن تسلَّم إليه جميعُ الكتُب الواردة بعد أن يُكتَب بالإجابة عنها ليتأملَها وينقُل منها فى تذاكره مايُحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله، ويجعل لكل صفقة

أوراقا من هــذه التذاكر على حِدَة، تكون على رءُوس الأوراق علاماتٍ باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هــذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى، أو المُشارِف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجيب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرُغ السنة يستجدّ للسنة الأخرى التى تتلُوها تذكرة أخرى. وكذلك يجعل له تذكرة يسطِّر فيها مهماتِ ما تخرُج به الأوامر فى الكتُب الصادرة لئلّا تُغفل ولا يجابَ عنها؛ وتكون على الهيئة المتقـدّمة من ذكر النواحى وأرباب الخدَم. واذا ورد جواب عن شيء مهمٍّ نُزِّل عنده فيقول: ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمَّن كذا ، فإنه اذا آعتمد هـذا وجد السلطانُ جميع ما يُسأل عنـه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثـانى — أن يضع فى الديوان دفترا بألقاب الوُلاة وغيرهم من ذوى الخـدَم ، وأسمائهم، وترتيب مخاطباتهم؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطَب : بكاف الخطاب أو هاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يُدْعىٰ له به فى السِّجلات والمكاتَبات والمناشير، والتوقيعات : لآختلاف ذلك فى عُرْف الوقت . وكذلك يَضَع فيـه ألقابَ الملوك الأباعد والمكاتَبين من الآفاق وكُتَّابِهم وأسماءَهم ، وترتيب الدعاء لهم، ومقداره . ويكون هــذا الدفتر حاضرا لدى كُتَّاب الإنشاء ينقُلون منه فى المكاتَبَات مايحتاجُون إليه : لأنه ربمـا تعذَّر حِفْظ ذلك عليهم — ومتى تغير شيء منـه كتبه تحته . ويكون لكل خِدْمة ورقة مفرَدة فيها آسم متولِّيها ولقبُه ودُعاؤه — ومتى صُرِف كتب عليه صُرِف بتاريخ كذا ، وآستُخْدم عوضا منه فلانٌ بتـاريخ كذا وأُجرِى فى الدعاء على منهاجه، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافَل عن ذلك : فإنه متَى أُهْمل شيء من ذلك زلَّ بزلله الكُتَّاب وصاحبُ الديوان بل والسلطانُ نفسُه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترا للحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجرِى فى جميع المملكة، ويذكر كلا منها فى تاريخه؛ فإن المنفعة به كثيرة حتّى إنه لو جمع من هذين الدفترين تاريخ لاجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكُتُب الصادرة والواردة مفصَّلا مُسانَهة ومشاهَرَة ومُياومة، ويكتُب تحت اسم كل مَن ورد من جهته "كتابٌ ورد بتاريخ كذا"، ويشير إلىٰ مضمونه إشارةً تدل عليه أو ينسَخُه جميعَه إن دعت الحاجة إلىٰ ذلك، ويسلمه بعد ذلك إلىٰ الخازن ليتولّى الاحتفاظ به علىٰ ما سيأتى ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للانشاءات، والتقاليد، والأمانات، والمناشير وغير ذلك مشاهَرة فى كل سنة بجميع شهُورها؛ وإذا انقضت سنة استجدّ آخرَ، وعمل فيه علىٰ مثل ما تقدّم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجَم من الكتب الواردة علىٰ الديوان بغير اللسان العربىّ من الرومىّ والفرنجىّ وغيرهما مصرِّحا بمعنىٰ كل كتاب ومَنْ ترجمه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه . قال الصورىّ : فإذا روعِيتْ هذه القوانينُ انضبطت أمورُه ولم يكد يخِلّ منه شىء، وكان جميع ما يُلتَمس منه موجودا بأيْسر سعْيٍ فى أسرع وقت .

الضرب الثانى

(غير الكتّاب؛ وهما اثنان)

أحدهما الخازن . قال الصورىّ : "ينبغى أن يختار لهذه الخدْمة رجلٌ ذكىٌّ فَطِن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ فى الأمانة والثِّقة ونزاهةِ النفسِ وقِلّةِ الطمَع إلىٰ الحدّ الذى لا يزيد عليه : فإن زمام جميع الديوان بيده؛ فمتىٰ كان قليلَ الأمانة ربّما أمالَتْه الرِّشْوة إلىٰ

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، و إفشاء سرّ من الأسرار فيضرّ بالدولة ضررًا كبيرا . ويجب أن يكون ملازما للحضور بين يدَىْ كُتَّاب الديوان فمتىٰ كتب المنشئ أو المتصدّى لمكاتبة الملوك، أو المتصدّى لمكاتبة أهل الدولة ، أو لكتابة المناشير وغيرها شيئا، سلمه للمتصدّى للنَّسْخ فينسخُه حرفا بحرف، ويكتُب بأعلىٰ نسخه كتاب كذا — ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته علىٰ ماتقدّم فى موضعه، و يسلمه للخازن. وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خَطَّ الكاتب الذى كتب جوابَها بما مثاله . «ورد هذا الكتابُ من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لاجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لاجواب عنه لتبرأ ذمّتُه منه ولا يتأوّل عليه فى وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يُعْلِم به . ثم يجمع كلَّ نوع إلىٰ مثله ، ويجمع متعلّقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضْبارَة، يجمع فيها كُتُب من يكاتَب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية فى الشهر الفلانىّ» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارةً واحدة لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل آستخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب علىٰ هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما فى هذا الديوان من الكتب الواردة ونُسَخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمّات، وضرائب الرسوم آحتفاظا شديدًا" .

الثـانى — حاجب الديوان . قال الصورىّ : "ينبغى لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقِيم لديوانه حاجباً لا يمكّن أحدا من سائر الناس أن يدخُل إليه، ماخلا أهلَه الذين هو معدوق(1) بهم، فإنه يجمع أسرارَ السلطان الخفيـةَ فمن الواجب كتمُها ومتىٰ أُهْمِل

(1) فى الضوء معزوق بهم بالعين المهملة والزاى [وهى أصرح فى المقام ففى القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمَن أن يُطَّلع منهـا على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته و إذا كثر الغَاشُون له والداخلون إليه ، أمكن أهلَ الديوان معه إظهارُ الأسرار اتِّكالا علىٰ أنها تُنْسَب إلىٰ أولئك ، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم آحتاجوا إلىٰ كِتْمان مايعلمُونه خشيةَ أن يُنْسَب إليهم إذا ظهر" .

وأمّا ما آستقر عليه الحال فى زماننا فكُتَّاب الديوان علىٰ طبقتين :

الطبقة الأولىٰ — كُتّاب الدَّسْت ؛ وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب علىٰ ترتيب منازلهم بالقُدْمة (١) ويقرءُون القِصَص علىٰ السلطان بعد قراءة كاتب السر علىٰ ترتيب جلوسهم ويوقِّعُون علىٰ القِصَص كما يُوَقِّع عليهـا كاتب السر . وسُمُّوا كُتَّاب الدست إضافة إلىٰ دست السلطان وهو مَرْتبـة جلوســه : لجلوسهم للكتابة بين يديه ؛ وهؤلاء هم أحقُّ كُتَّاب ديوان الإنشاء باسم الموَقِّعين : لتوقيعهم علىٰ جوانب القِصَص بخلاف غيرهم .

وقد تقدّم أنهم كانوا فى أوائل الدولة التركية فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها قبـل أن يلَقَّب صاحبُ ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثةَ كتّاب ، رأْسهم القاضى محيي الدين بنُ عبد الظاهر ، ثم زادوا بعــد ذلك قليلا إلىٰ أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفيــة شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعــد ذلك شيئا فشيئا خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق ، وآبنه الناصر فرج حتّٰى جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد .

وقد كانت هذه الرتبة لاحقةً بشاوِ كتابة السر فى الرفعة والرياسة إلىٰ أن دخل فيها الدخيل ، وقدِّم فيها غيرُالمستحِق ، ووليَها من لا يُؤَهَّل لمـا هو دُونَها ، وآنحطّت رتبتها وصار أهلها فى الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوْجها الا الأفذاذ ممن عَلَتْ رتبته وقليلٌ ماهُمْ .

(١) القدمة بالضمّ السبق . ولعل مراده السبق فى الفضل .

الطبقة الثانية — كُتّاب الدَّرْج ، وهم الذين يكتُبون مايوقِّع به كاتبُ السر أو كُتّاب الدست أو إشارةَ النـائب أو الوزير ، أو رسالةَ الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليـد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمـان والأمانات ونحو ذلك ممـا يجرى مجراه . وسُمُّوا كُتّابَ الدَّرْج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دُرُوج الورق ، والمراد بالدَّرْج فى العُرف العامّ الورق المستطيل المركَّب من عدّة أوصال ، وهو فى عُرْف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لاغير . قال آبن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتّاب : وهو فى الأصـل اسمٌ للفعل أخْذا من درَجْت الكتاب أدْرُجه دَرْجا اذا أسرعتَ طيَّه وأدرجْته إدراجا فهو مُدْرَج اذا أعدته علىٰ مطاويه وأصلُه الإسراع فى حالة ، ومنه مَدْرَجة الطريقِ التى يُسْرِع الناس فيها وناقةٌ دَرُوج اذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كتّاب الإنشـاء لأنهم يكتُبون ما يُنْشأ من المكاتبات وغيرها ممـا تقدّم ذكره ؛ ولا يجوز أن يطلق عليهم لَقَب الموقِّعين لمـا تقدّم من أن المراد من التوقِيع الكتابةُ علىٰ جوانب القَصَص ونحوها . وكما زاد كتّاب الدَّسْت فى العدد زاد كتّاب الدَّرْج حتّى خرجوا عن الحـدّ ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبـا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وآنحط مقـدارها حتّى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلا . علىٰ أن كُتّاب الدست الآن هم المتصـدّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرْج : كمتعلّقات البريد المختصةِ بالسلطان من المكاتَبـات والعهود والتقاليد وكبارِ التواقيع والمَراسيم والمَناشير ، وصار كتّاب الدَّرج فى الغالب مخصوصِين بالمكاتَبَات فى خَلَاص الحقوق وما فى معناها . وكذلك صـغار التَّواقيع والمراسيم والمَنَاشير ممـا يكتب فى القَطْع الصغير ، وربمـا شارك أعلاهم كُتّاب الدست فى التقاليد وكِبَار التواقيع وما فى معناهما إذا كان حَسَن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملةً بل كل أحد يلَفِّق ما يتهيَّأ له من كلام المتقدّمين غيرَ مُبـالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مبْتهجا بذلك مطالعا

لغيره فى أنه الذى ٱبتدعه وإبتكره . وكل من لفَّق منهم شيئا أو أنشأه كتبه بخطه على أىّ طبقة كان فى الخط، ما خلا عهودَ السلطنة ومكاتباتِ القانات من مُلُوك الشرق فانه رُبَّما ٱنتخِب لها أعلى أهلِ الزمان خَطًّا، تنويهاً بذكرها، ورفعةً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمرّا فى بعضها ككتابة ما فى المُكاتَبَات الواردةِ والصادرةِ بدفْتر فى الديوان إلى آخر مباشَرة القاضى بدر الدِّين بن فضل الله فى الدولة الظاهرية برقوق، ثم رُفِض ذلك وتُرِك وٱقتصر على ما يَرِد من المكاتَبات وما يكتب من الملَخَّصات وكتابة الموقِّع الذى يكتب الجواب بسدّ كل فصل تحته ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وٱكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصار هو المتولّىَ لحفْظ ذلك وإيداعه فى الأَضَابِير على نحو ما تقدّم؛ وكذلك صار أمر حِجَابة الديوان إليه . ثم للديوان أعْوان يسمُّوْن المدرا (١) جمع مدِير، شأنهم أخذُ القِصَص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فَمن دُونَه من كُتَّاب الديوان ليكتبَ كلٌ منهم ما يلزمه من متعلَّقها ولذلك سُمُّوا بهذا الآسم .

---

(١) كذا فى الأصل والقواعد لا تساعد .

المقـالة الأولى

بعد المقدّمة

(فى بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من الموادّ، وفيه بابان)

البـاب الأوّل

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العِلْميَّة، وفيـــه ثلاثة فصول)

الفصـــل الأوّل

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد آختلفتْ مقاصِدُ المصنِّفين فى ذلك : فابنُ قتيبة بعد أنـ بنى كتابه أدبَ الكاتب على أمور من اللُّغَة والتصريف وطَرَف من الهجاء قال : "وليس كتابُنا هذا لمن لم يتعَلَّقْ من الإنسانيـة إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسْم، ولم يتقدّم من الأداه ، إلا بالقَلَم والدواه : ولكنه لمن شَدَا(1) شيئا من الإعراب فعرف الصَّدْر والمَصْـدَر ، وآنقلابَ الياء عن الواو، والألف عن الياء ، وأشـباهَ ذلك من النظر فى الأشكال لمساحة الأرَضِين حتّى يعرِفَ المثلَّث القائمَ الزاوية ، والمثلثَ الحـادّ ، والمثلَّث المنفرِج ، ومَساقط الأحجار، والمربَّعات المختلفات، والقِسِيّ، والمدوّرات، والعمودَيْن، وتُمتَحَن معرفتـه بالعمل فى الأرضِين لا فى الدفاتر، فإن المخبَرَ عنه ليس كالمُعايَن . وذكَر أن العجَمَ كانت تقولُ : من لم يكُنْ عالمـا بإجراء المياه، وحَفْر فُرَض

(1) كذا فى الأصل وأدب الكاتب . وفى القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنىً مناسب هنا . والذي فى الضوء سدّد .

المَشارب ورَدْم المَهاوِى ، ومَجَارى الأيَّام فى الزيادة والنقصان ، ودَوَرانِ الشمس ، ومَطالِـع النجوم ، وحالِ القمر فى آستهلاله وآتصاله ، ووَزْنِ الموازين ، وذَرْعِ المثلث والمربَّع والمختلف الزَّوايا ، ونَصْب القناطر ، والجُسُور ، والدَّوالِى ، والنَّواعير علىٰ المياه ، وحال أدوات الصُّنَّاع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال كتابتــه . ثم قال : ولا بدَّ له مع ذلك من النَّظَر فى جُمَل من الفقه والحديث ، ودِراســة أخبار النَّاسِ ، وحِفْظ عُيون الأخبار ليُدْخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاوَرَ . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر فى ذلك كلِّه علىٰ القُطْب وهو العقل وجودة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعـالى كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصر" .

وتابعه أبو هلال العسكرى فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» : "ينبغى أن تعـلم أنّ الـكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدَوَات جَمَّــةٍ : من معرِفة العربِيَّة لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزْمنة والشهور والأهِلَّة وغير ذلك ممـا ليس هذا موضِعَ ذكره وشرحه" .

ولا يخفى أن ما ذكره بعض ما ذكره آبن قتيبة ، يتواردان فيه فى المعنى وإن آختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أوّل كتابه "صـناعة الكتّاب" فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الـكتابة البلاغة ، ومعرفةَ الأضداد ممـا يقع فى الـكتب والرسائل ، والعلمَ بترتيب أعمــال الدواوين ، والخِبْرة بمَجَارى الأعمال ، والدُّرْبة بوجوه آستِخْراج الأموال ، ممـا يجب ويمتَنِــع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميُّز بذاته ، ولا آنفرادٌ باسمٍ يخصه ؛ وإنمـا هو جُزْء من الـكتابة وأصــلٌ من أركانها . أما الفِقْه والفرائض والعِلْم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنُّجومِ ، والمعرفةُ باجراء المياه ، والعلمُ بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياءَ منها نحو ما يُكتَب بالألف والياء، وإلى شيء من المقصور والممدود. ولو كلف الكاتبُ ما ذكره مَنْ ذكره لجُعِل الأصعبُ طريقا للأسهل والأشَقُّ مِفْتاحا للأهون وفى طِباع الناس النِّفَار عما ألْزَمهم من جميع هذه الأشياء .

قلت : والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوّعها، فكلُّ نوع من أنواعها يحتاجُ إلى معرفة فنّ أو فنون تختصُّ به .

وقد حكى أن عمرو بن مَسْعدة وزيرَ المعتصم قال : لما خرج المعتصِم من بلاد الروم وصار بناحية الرَّقَّة، قال لى ويْلكَ يا عمرو! لم تزل تخدَعُنى حتَّى ولَّيتُ عُمَر بن الفَرَج (١) الرُّخَّجى الأهوازَ، وقد قعد فى سُرَّة الدنيا يأكُلُها خَضْما وقَضْما! فقلت يا أمير المؤمنين فأنا أبعث إليه حتَّى يُؤْخَذ بالأموال ولو على أجنحة الطَّيْر — قال : كَلَّا بل تخرج اليه بنفسك كما أشرتَ به — فقلت لنفسى : إن هذه منزلة خَسِيسة، بعدَ الوزارة أكونُ مستَحِثًّا لعاملِ خراجٍ! ولم أجِدْ بُدًّا من الخُروج رِضًا لأمير المؤمنين — فقلت : ها أنا خارج اليه بنفسى يا أمير المؤمنين ! قال : فضَعْ يدَك على رأسك وآحلف أنك لا تُقِيم ببغدادَ ، ففعَلْت وأحدثْت عهدا باخوانى ومنزلى وأُتِىَ إلىّ بزَوْرق ففُرِش لى فيه ، ومضيت حتّى إذا صِرْت بيْنَ دَيْر هِرقْل ودَيْر العاقول إذا شابٌّ على الشط يقول: يا ملَّاحُ! رجل غريب يريد دَيْر العاقول فاحملنى يأْجُرْك الله ! — فقلت: يا غلامُ

(١) فى الأصل عمرو ... ... الرحجى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت فى الكلام على رُخَّج مثال زُبَّج : وينسب الى الرخج فرج وابنه عُمَر بن فرج وكانا من أعيان الكتاب فى أيام المأمون الى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعذل يهجو عمر بن فرج . فمن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلمة

أبلغ نجاحا فتى الكتاب مألكة * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا

لا يخرج المال عفوا من يدى عمر * أو تغمد السيف فى فوديه إغمادا

الرُّخَّجيُّون لا يوفون ما وعدوا * والرُّخَّجيات لا يخلفن ميعادا اهـ

قرِّب له — فقال : جُعلت فِداك ! يؤذيك و يُضيِّق عليك — فقلت : قرِّب له لا أمّ لك ! فقرّب له وحمله علىٰ مؤخَّر الزورق . وحضر الطعامُ ، فهمَمْت أن لا أدعُوه إلىٰ طعامى، ثم قلت : هلُمَّ يا فتىٰ ، فوثَب وجلَس ، فأكل أكْلَ جائعٍ نَهِم إلا أنه نظيف الأكل ؛ فلما فرغ من الطعام أحبَبْتُ أن يفعلَ ما يفْعلُ العوّام فيتنحّى ويغسلَ يديه ناحيةً فلم يفعلْ ، فغمزه الغِلْمانُ ليقومَ فلم يفعلْ ، فتناوَمْت عمدًا لينهَضَ فلم يفعلْ ، فاستويت جالسا وقلت يا فتى ! ما صِناعتك ؟ فقال جعلت فداك ! أنا حائك . فقلت فى نفسى : أنا والله جلَبْت هذه البليةَ ، وتغير لونى ، ففطِن أنى آستثقلتُه ، فقال : جعِلتُ فِداك ! انك قد سألتنى عن صناعتى فأجبتك ، فأنت ما صناعتك ؟ فقلتُ : هذه والله أضرُّ من الأولىٰ ألا ينظر إلىٰ غلمانى ونِعْمتِى فيعلَمَ أن مثل هذا لايُسْئل عن الحِرْفة؟ ولم أجد بُدّا من الجواب ، فلم أذهبْ إلى المرتبة العظمى من الوزارة لكنى قرَّبت عليه ، فقلت : أنا كاتب — فقال جعِلتُ فِداك الكُتَّاب خمسة فأيهم أنت ؟ فأورد علىّ مالم أسمع به قبلُ — فقلت : بيِّنهم لى — قال نعم ، هُم كاتبُ رسائِلَ يحتاج إلىٰ أن يَعْرِف المفصُولَ والموْصُول ، والمقْصُور والممدود ، والآبتداء والجواب ؛ حاذقا بالعُقود والفتوح — قلت :أجل وماذا ؟ قال : كاتب خَراجٍ يحتاجُ أن يعرِف السُّطُوح(١) والمِساحةَ والتَّقسيط ، خبيرًا بالحِساب والمُقاسَمات . قلت : وماذا ؟ قال : كاتب قاضٍ يحتاجُ أن يعرِف الحَلالَ والحرام ، والتأويلَ والتنزيل — والمُتشابهَ والحُدود القائمة والفرائض ، والآختلاف فى الأموال والفروج ، حافظا للأحكام ، حاذقا بالشروط — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ جُنْدٍ يحتاج أن يعرف الحِلَى والشِّيات — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ شُرْطة يحتاج أن يعرف القصاصَ والجِراحات ، وموضِعَ الحُدُود ، ومَواقِعَ العَفْو فى الجنايات — قلت حَسَن . قال : فأيُّهم أنت ؟ فكُنتُ متّكِئا فاستويت جالسًا مُتعَجِّبا من قوله ، فقلت :

(١) فى نسخة الطسّوج . وهو كتنور الناحية ، وربع دانق معرب اه قاموس .

أنا كَاتبُ رسائلَ — قال : فإن أخًا مِن إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنيا بأمورك لا يغْفُل منها عن صـغير ولا كبير يكاتبك فى كل محبوب ومكروه وأنت له علىٰ مثل ذلك تزوّجتْ أمُّه كيف تكتب إليه ؟ أتُهنيه أم تُعَزيه؟ — قلت أهنيه . قال فهَنِّه فلم يتَّجِه لى شيء — فقلت : لا أُعَزِّيه ولا أُهَنِّيه، فقال : إنك لا تغْفُل له عن شيء ولا تجِدُ بُدّا من أن تكتب إليه — فقلت : أقِلْنى فأنا كاتب خَرَاج — قال : فإنَّ أمير المؤمنين وجَّه بك إلىٰ ناحيةٍ من عَمَله، وأمرك بالعَدْل والإنصاف وأنك لاتَدَع شيئًا من حقِّ السلطان يذهب ضَيَاعا ، وحذَّرك الظُّـلم والجور ، فخرجتَ حتَّى قدِمْتَ الناحيةَ فوقَفُوك علىٰ قَرَاحِ أرض خطه قابل قسيا كيف تمسَحُه — قلت : آخُذ وسَطه وآخُذ طُولَه فأضربُه فيه — قال : تختلِف عليك العُطُوف — قلت : آخُذ طُوله وعَرْضَه من ثلاثة مواضِعَ — قال : إن طرَفَيْـه محدُودان وفى تحديده تَقْوِيس وذلك يختلف فأعْيانِى ذلك — فقلت : أقلنى فأنا كاتب قاضٍ — قال : فإنَّ رجلا هلك وخلَّف زوجةً حرَّةً وسُرِّيَّةً حاملتَيْن فوضَعتا فى ليلة واحدة وضَعتِ الحرّة جاريةً، ووضعتِ السُّرِّيَّة غلاما، فوضِعت الجاريةُ فى مَهْد السُّرِّيَّةِ ، فلما أصبحت السُّرِّية قالت الغلامُ لِى ، وقالت الحُرّة بل هو لى كيف تحكم بينهما؟ — قلت : لاأدرى فأقِلْنى ، فأنا كاتب جندٍ ، قال : فإن رجُلين من أصحاب السلطان أتياك آسمُهما واحد ، وأحدُهما مشقوق الشَّفَة العُلْيا ، والآخر مشقُوق الشفة السُّفْلىٰ ، ورِزْق أحدهما مائةٌ والآخَر ألف كيف تُحلِّيهما ؟ — قلت : فلان الأعلَمُ وفلان الأعلم ، قال : إذَنْ يجيء هـذا ورزقه مائة فيأخُذ الألفَ ، ويجيء هذا ورِزْقه ألفٌ فيأخُذ المـائةَ — قلت أقلنى : فأنا كاتب شُرْطة ، — قال : فإن رجلين تواثبا فشجَّ أحدُهما صاحبَه مُوضِحةً ، وشجَّه الآخَر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما ؟ — قلت : لا أدرى فأقلنى ، . قال فقلت : إنك قد سألتنى فبيِّن لى — قال نعم .

أما الذى تزوّجتْ أمُّه فتكتبُ إليه : أما بعـد فإن الأمورَ تجرى علىٰ غير مَحَابِّ المخلوقين والله يختارُ لعباده، فخَـار اللهُ لك فى قَبْضها إليـه فإن القُبور أكرم الأكفاء والسلام .

وأما القراح من الأرض، فإنك تمسح ٱعوِجاجَه حتى تعلم كم قَبْضة تكون فيـه فإذا ٱسـتوىٰ فى يدك عِقْد تعرفه ضربت طَرفَه فى وسـطه . وأما الحرّة والسُّرِّية فيُوزَن لبنهما فأيُّهما كان لبَنُها أخفَّ فالبنت لهـا . وأما المشقُوق الشَّفةِ العُلْيا فأعلَمُ والمشْقُوق الشَّفة السُّفْلىٰ فأفلَحُ . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلثٌ . وأما الموضحة ففيها خمسٌ من الإبل . فقلت : ألست تزعم أنك حائك ؟ فقال : أنا حائكُ كلام لا حائك نِسَاجة . قال عمرو بنُ مَسْعدةَ : فأحسنت جائزتَه وٱستصحبته معى حتّى عُدْت إلىٰ المعتصِم، فسألنى عمّـا لقِيتُ فى طريق، فقصَصْت عليه القِصَّـة فأُعْجِب به وقال : لِمَ يصلح ؟ فقلت : للعمائر . فقرّره فيها وعلَتْ رتبتُه، فكنتُ ألقاه فى الموكِب النبيل فيترجَّلُ لى فأنهاه، فيقول : هـذه نعمتك وأنت أفدْتَها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادّة يُحتاج إليها بمفردها، وآلةً تخصها لا يُستغنىٰ عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنِي عن علم ولا يسَعُه الوقوف عند فنٍّ، فقد قال الوزير ضياءالدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعةِ يحتاج إلىٰ التشبث بكل فنّ من الفنون حتّى إنه يحتاج إلىٰ معرفة ما تقوله النادبةُ بين النساء، والماشطة عند جَلْوة العروس، و إلى مايقوله المنادِى فى السُّوق علىٰ السِّلعة فمـا ظَنُّك بمـا فوق هذا وذلك لأنه مؤهَّل أن يَهِيم فى كل واد، فيحتاج إلىٰ أن يتعلق بكل فنّ .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنْسَب إليه ، فيقال فلان النحوىّ ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلِّم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقـال فلان الكاتب لمـا يفتقر إليه من الخوض فى كل فن .

وآعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلىٰ التعلق بجميع العلوم والخوضِ فى سائر الفنون فليس آحتياجُه إلىٰ ذلك علىٰ حدٍّ واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهى موادّ الإنشاء التى يستمدّ منها ويقتَبِس من مقاصدها : كاللغة التى منها آستمدادُ الألفاظ ، والنحو الذى به آستِقامةُ الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعانى والبيان والبديع التى هى مَنَاط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . وعلىٰ هـذا آقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وتبعه علىٰ ذلك الشيخُ شهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ رحمه الله فى كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يَحتاج إليه بطريق العَرَض كالطِّبِّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ؛ فإنه يحتاج إلىٰ معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلىٰ معرفة المشهورين من أهـله ومَشاهير الكُتُب المصنَّفة فيه لينظِم ذلك فى خلال كلامه فيما يكتُب به من متعلَّقات كل فنّ من هـذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يَكتُب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتُب به لمنجِّم ، ونحوه من الهَنْدسة فيما يكتُبُ به لمهندس . وربمـا آحتاج إلىٰ معرفة ماهُو دون ذلك فى الرتبـة كمعرِفة مصطلَح رُماة البُنْدق فيما يكتُب به فى قدمات البندق ، ومعرفة مصطلَح الفِتْيان فيما يكتب به فى دَسْكرة فُتُوّة ونحو ذلك ، بل ربَّمـا آحتاج إلىٰ معرفة مصطلَح سفَل النـاس لكتابة أمورٍ هَزْلِيَّة : كمعرفة أحوال الطُّفيليَّة فيما يكتب به لطفيلىّ آقتراحا أو آمتحانا للخاطر أو ترويحا للنفس ، مع معرفة مايجبُ عليه من وَصْف ما يَحتاجُ إلىٰ

وصفه كأوصاف الأبطال والشُّجعان، والجوارى والغلمان، والخيل والإبل، وجليل الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمام الهدى، وسائر أنواع الطير؛ والسلاح بأنواعه؛ وآلات الحصار، والآلات الملُوكيَّة، وآلات السفر، وآلات الصَّيْد، وآلات المعاملة، وآلاتِ اللَّهْو والطَّرَب، وآلات اللاعب، وآلات الشربة؛ والمدن، والحصون؛ والمساجد، وبيوت العبادات؛ والرياض، والأشجار، والأزهار، والثمار؛ والبَرارى، والقفار، والمفاوز، والجبال، والرمال، والأودية؛ والبحار، والأنهار، وسائر المياه؛ والسفن، والكواكب، والعناصر، والأزمنة، والأَنواء، والرياح، والمَطَر، والحر، والبَرْد، والثلْج، وما يتعلق بكل واحد من هذه الأشياء أو ينخرط فى سلكه؛ ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلىٰ وصفه فى حالة من حالات الكتابة علىٰ ماسيأتى بيانه فى آخر الفصل الثانى من هذا الباب إن شاء الله تعالى .

الفصـــل الثـانى

من البـابْ الأوّل من المقـالة الأولىٰ

(فيما يحتاجُ الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشاء، وفيه طَرَفان)

الطـــرف الأوّل

(فيما يَحتاجُ إليه من الأدَوات؛ ويشتمل الغَرَض منه علىٰ خمسة عشر نوعا)

النـــوع الأوّل

(المعرفةُ باللغة العربيـــة؛ وفيه أربعة مقاصـــد)

المقْصِـــد الأوّل

(فى فضلها وما ٱختصَّت به علىٰ سائر اللغات)

أما فضـلها فقد أخرج ٱبنُ أبى شَيْبَة بسنده إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب (رضى الله عنه) أنه قال : "تعلَّمُوا اللّحْنَ والفَرَائِضَ فإنَّهُ مِنْ دينِكُمْ" . قال يزيد بن هارون: "اللّحْن هو اللُّغة". ولا خَفاء أنها أمتنُ اللغات وأوضحُها بيانا، وأذْلقُها لسانا، وأمدُّها رُوَاقا، وأعذَبُها مَذَاقا؛ ومن ثَمَّ ٱختارها الله تعالىٰ لأشرف رُسُله، وخاتَمِ أنبيائه، وخِيرته من خَلْقِه، وصَفْوته من بَرِيَّته؛ وجعلها لغةَ أهلِ سمائه وسُكانِ جنته، وأنزل بها كتَابَه المُبين الذى لا يأْتِيه الباطِلُ من بَيْنِ يدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه .

قال فى صِناعة الكُتَّاب : "وقد ٱنْقادتِ اللّغات كلُّها للُغة العرب، فأقبلتِ الأمم إليها يتعَلَّمونها".

وأما ما ٱختصَّتْ به علىٰ غيرها من اللغات، فقد حكىٰ فى "صناعة الكتاب" أنها اللُّغة التامَّةُ الحُروف، الكاملةُ الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيَشينها نُقْصانُه، ولم يزِد فيها شيء فيعيبَها زيادتُه؛ وإن كان لها فروع أخرىٰ من الحُروف فهى راجعةٌ إلىٰ الحُروف الأصلية؛ وسائرُ اللُّغات فيها حروف مولَّدة، وينقُص عنها حروفٌ أصليَّة: كاللغة الفارسية: تجِد فيها زيادةً ونُقْصانا. وكذلك يُوجد فيها من الأسماء مالا يُوجَد فى الفارسية وغيرها: كالحَقِّ والباطِل، والصواب والخطإ، والحلال والحرام، فلاينطق به أهلُ تلك اللغة إلا عربيا. قال الفراء: "وجدنا للغة العرب فَضْلا علىٰ لغة جميع الأمم ٱختصاصًا من الله تعالىٰ وكرامةً أكرمَهُم بها؛ ومن خصائصها أنه يُوجَد فيها من الإيجاز مالا يُوجَد فى غيرها من اللغات". قال: "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضَّرْب كلمةً واحدةً فتوسَّعوا فيها، فقالوا للضرب فى الوجه لَطْم، وفى القَفَا صَفْع، وفى الرأس إذا أَدْمىٰ شَجّ؛ فكان قولُهم لُطِم أوجزَ من ضُرِب علىٰ وجهه". قال فى "المثل السائر": "حضَرْت مع رجلٍ يهودىّ عارفٍ باللُّغات فجرىٰ ذكر ٱسم الجَمَل فقال: لا شَكَّ أن العربِيَّة أوجزُ اللغات، فأنَّ اسمَ الجمل بالعِبرانيَّة كومل فسقط منه الواو وحُوِّلت الكافُ إلىٰ الجيم". قال أبو عبيد: وللعرب فى كلامها علاماتٌ لا يَشْرَكُهم فيها أحدٌ من الأُمَم كعلامة إدخالهم الألفَ واللامَ فى أوّل الاسم، وإلزامهم إياه الإعرابَ فى كل وجه مع نقلهم كلَّ ما ٱحتاجُوا إليه من كلام العجم إلىٰ كلامهم؛ فقد نُقِل ما قالتْ حكماء العجم والفلاسفةِ إلىٰ العربية ولم يقدر أحد من الأمم علىٰ نقل القرءان إلىٰ لغته لكمال لغة العرب. علىٰ أنَّ الكثيرَ من الناس حاولُوا ذلك فعَسُر عليهم نقلُه، وتعذَّرت عليهم ترجمته؛ بل لم يَصِلوا إلىٰ ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد.

المقْصِـد الثـانى

(فى وَجْه آحتياج الكاتب إلىٰ اللغة)

لامِرْيَةَ فى أن اللُّغة هى رأسُ مال الكاتِب، وأُسُّ كلامه، وكَنْز إنفاقه؛ من حيثُ إن الألفاظ قوالِبُ للمعانِى التى يَقَع التصرُّف فيها بالكتابة؛ وحينئذ يحتاج إلىٰ طول الباع فيها، وسَعة الخَطْو، ومعرِفة بسائطها : من الأسماء والأفعال والحروف، والتصرُّفِ فى وجوه دلالتها الظاهرة والخفية : ليقتدِر بذلك علىٰ آستعمالها فى محالِّها، ووَضْعها فى مواضعها اللائقة بها، ويجدَ السبيلَ إلىٰ التوسُّع فى العبارة عن الصُّوَر القائمة فى نَفْسه فيَتَّسِع عليه نطاقُ النُّطْق، وينْفَسِح له المَجَالُ فى العبارة، ويَنْفَتِح له باب الأوصاف فيما يَحتاجُ إلىٰ وصفه، وتَدْعو الضرورة إلىٰ نَعْته؛ فيستظهِر علىٰ ما يُنشِيه، ويُحيط علمًا بما يَذَرُه ويأتيه؛ إذ المعانِى وان كانتْ كامنةً فى نفْس المعبِّر عنها فإنما يقوىٰ علىٰ إبرازها وإبانتها مَنْ توفَّر حظُّه من الألفاظ، وآقتداره علىٰ التصرُّف فيها : ليأمنَ تداخُلَها وتكريرَها المُهَجِّنيْن للمعانى — وناهيك أن آبنَ قتيبة لم يُضَمِّن كتابه "أدب الكاتب" غيرَ اللُّغة إلا النَّزْر اليسير من الهِجاء؛ وأبا جعفر النحاسَ ضَمَّن كتابه "صناعة الكتّاب" جزءًا وافرا من اللغة؛ وأبا الفتح كُشاجِمَ لم يزد فى كتابه "كنز الكتّاب" علىٰ ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقْصِـد الثالث

(فى بيان مايحتَاج إليه الكاتبُ من اللغة؛ ويرجع المقصود منه إلىٰ خمسة أصناف)

الصنف الأوّل — الغَرِيب، وهو ماليس بمألوفِ الآستعمال، ولادائرٍ علىٰ الألْسِنة وذلك أن مَدَار الكتابة علىٰ آستخراج المعانى من القرءانِ الكريم، والأحاديث النبويّة، والشعر؛ وألفاظُها لا تخلُو عن الغَرِيب؛ بل ربَّما غلب الغريبُ منها فى الشِّعر علىٰ

المألوف لاسيّما الشعرُ الجاهليُّ . وقد قال الأصمعىّ "توسَّلت بالمُلَح ونِلْت بالغريب".
قال صاحب "الريحان والريعان" : والغريب و إن لم يُنْفِق منه الكاتبُ فإنه يجب أن يُعلَم ويُتطَلَّع إليه ويُستَشْرَف ، فرُبَّ لفظةٍ فى خِلال شِعْر أو خُطْبة أو مَثَل نادر أو حكاية ، فإن بقيتْ مُقْفَلة دونَ أن تُفْتَح لك ، بقى فى الصدر منها حزَازَة تُحْوج إلىٰ السُّؤال ؛ و إن صُنْت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجُهَّال . وقد عاب ٱبنُ قتيبة رجلا كتب فى وصْف بِرْذَوْن : "وقد بعثْتُ به أبيضَ الظهر والشَّفَتين" فقيل له : هَلَّا قلت فى بياض الشفتين أَرْثَم أَلْمَظ ، فقال لهم : فبياض الظهر، قالوا لا نَدْرِى ، فقال : انما جَهِلت من الشفتيْنِ ما جَهِلتُم من الظَّهر . وذَمّ قوما من وُجُوه الكُتَّاب بأنه ٱجتمع معهم فى مجلس فتذاكَرُوا عُيوبَ الرقيق فلم يكن فيهم من يُفرّق بين الوَكَع والكَوَع ، ولا بين الحَنَف والفَدَع(١) ، ولا بين اللَّمىٰ واللَّطع . ثم قال : "وأىُّ مقام أخزىٰ لصاحبه من رجُل من الكُتَّاب ٱصطفاه بعضُ الخُلَفاء ، وٱرتضاه لسِرِّه ، فقرأ عليه يومًا كتابًا فيه مُطِرْنَا مطرا كثُرعنه الكَلَأُ ، فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكَلَأُ ؟ فتردّد فى الجواب ، وتعثّر لسانُه ثم قال : لاأدرى ؛ فقال : سَلْ عنه".
قال أبو القاسم الزجاجىُّ فى شرح مقدّمة أدب الكاتب : وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عَمَّار ، وكان يتقلَّد العَرْض عليه ؛ وكان المعتصمُ ضعيفَ البَصَر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمدُ بن عمَّار الكِتَابَ وسأله عن الكَلإ فلم يعرفه ، قال : إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون ! خليفةٌ أمىّ ، وكاتب عامّىّ ؛ ثم قال مَنْ يقْرُب منا من كُتَّاب الدار فعُرِّف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف علىٰ قَهْرمة الدار فأمر بإشخاصه ، فلما مَثَل(٢) بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال : النبات كلُّه رَطْبه

(١) هو بالفاء والدال المهملة اعوجاج الرُّسْغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم الى انسيها . قاموس . وفى الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنبه .
(٢) هو من باب دخل كما فى المختار .

و يابِسه، فإذا كان رطْبا قيل له خَلًا، واذا كان يابسا قيل له حَشِيش، وأخذ فى ذكر النبات من ٱبتدائه إلىٰ ٱكْتهاله إلىٰ هَيْجه، فقال المعتصم "ليتقلّدْ هذا العَرْضَ علينا." ثم خُصَّ به حتّٰى ٱستوزره.

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التى هى من أهم شأنه، وأعنىٰ مقاصده. وجُلّ كتب اللغة المصنَّفة فى شأنها راجعة إليه، كصحاح الجوهرىّ، ومُحْكَم ٱبن سيده، ومُجْمَل ٱبن فارس وغيرها من المصنَّفات التى لا تكاد تُحصىٰ كثرةً والصحاح أقربها مأخذًا، والمحكم أمثلُها طريقــة، وأكثَرُها جمعا، وأكملُها تحقيقا. وقد صرف قوم من المصنِّفين العناية من ذلك إلىٰ الٱقتصار علىٰ ذكر الأسمـاء والأوصاف: كأوصاف الرجال والنساء المحمودةِ والمذمومةِ، ومايختص من ذلك بالرجال والنساء؛ وأوصاف الخيل، وأعضائها، وألوانها، وشِيَاتها، وأسنانها، وسَيْرها، وعَدْوها وما يخص الذكورَ والإناث منها؛ وأوصاف الوُحوش: من السباع والظِّباء والوُعُول والبَقَر والحُمُر الوحشِيِّين؛ وأسماء الطيْر: من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة، وبُغَاث الطير كالرخَم، وصِغَاره كالنحْل والجراد؛ وأوصاف الهوامّ كالحَشَرات: من الحيَّات والوَزَغ ونحو ذلك؛ وأوصاف العُلْوِيَّات: من السماء والسَّحاب والرِّياح والأمطار؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك؛ وأسماء النَّبَات: من الشجر البرِّىّ كالطَّلْح والأَراك، والبُستانِىّ كالنخل والعِنَب؛ والنبات البرِّى كالشِّيح والقَيْصُوم؛ وأنواع المَرْعىٰ؛ وأسماء الأماكن: من البَرارِى والقِفَار، والرمال والجبال والأحجار، والمياه والبِحار والأنهـار والعُيون والسُّيُول؛ والرِّياض والمَحَالّ والأبنية؛ وأسماء جواهر الأرض: من اليواقيت ونحوها؛ وسائر مستخرجات المعادن، كالنُّحاس والرَّصَاص وما يجرى مجراها؛ ومستخْرَجات البحر: من اللُّؤْلؤ والعَنْبر والمَرْجان وغيرها؛ وأسمـاء المأكولات: من الحُبوب، والفواكه، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة ، وأسماء الأشربة : كالمـاء ، واللَّبَن ، والعسل ، والخمر ؛ وأسماء السِّلاح : من السيوف ، والرِّماح ، والقِسِيّ ، والسِّهام ، والدروع وغيرها ؛ وأسمـاء اللباس : من الثياب علىٰ ٱختلافها ؛ وأسماء الأمتعة ، والآنية وسائر الآلات ؛ وأسماء الطيب : من المِسك ، والنَّدّ ، والغالية ، والزَّعْفران ، وما أشبهها . وكذلك كل مايجرى هذا المجرىٰ . و "كفاية المتحفظ" لٱبن الأجدابى ، و "المذهبة والمعقبة" لٱبن أصبغ كافلتان بالكثير من ذلك . وفى "أدب الكاتب" لٱبن قتيبة و "فِقْه اللغة" للثعالبى الجزء الوافر من ذلك .

وصرف آخرون عنايتهم إلىٰ التأليف فى الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره . وفى "فصـيح ثعلب" جزء وافر من ذلك ؛ ولعَصْرِيِّنا الشيخ مُقْبل الصَّرْغَتْمشىّ النحوىّ كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثانى ــ الفروع المتشعِّبة فى المعانى المختلِفة ، وهى فروع كثيرة متَّسِعة الأرجاء ، متباينة المقاصد ؛ لا يكاد يجمعها مصنَّف ، وإن كان الكاتب لا يَستغنِي عن شيء منها ، ولا يحسن به تَرْكُه .

منهـا المتباين والمُترادِف . فأما المتباين فهو ما دلَّ لفظُ الكلمة منـه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى ، كالسواد والبياض ، والطول والعَرْض ؛ ويحتاج إليه فى التعبـير عن المعـانى المختلفة لاتساع نطاق الكلام . وأما المترادف فهو المتوارِد الألفاظ علىٰ مسمًّى واحد كالأسـد والسبع للحيوان المفـترس ؛ والثَّنِيَّة والقَلُوص للناقة ، ونحو ذلك . ويحتاج إلىٰ معرفة ذلك للتَخَلُّص عند ضِيق الكلام عليه فى موضع لطول لفظة أو قِصَرها أو ٱختلاف وَزْنها فى شـعر ، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى نثر ، أو غير ذلك ممـا يُضْطَر فيه إلىٰ إيراد بعض الألفاظ بدل بعض ، كما فى قوله :

وَثَنِيَّـــةٍ جاوزتها بثَنِيَّةٍ * حَرْفٍ يُعارِضها جَنِيبٌ أَدْهَمُ

فإنه أراد بالثنية الأولىٰ العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ؛ والجنيب الأدهم استعارةٌ لظلها . فالثنيَّة من حيثُ وقوعُها علىٰ النـاقة والعقبةِ أوفقُ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التي هي الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب الفقه(١) ونحوها .

ومنهـا الحقيقة والمجـاز . والحقيقة هي اللفظ الدالُّ علىٰ موضوعه الأصليّ كالأسَد للحيوان المفترس ، والحمـارِ للحيوان المعروف . والمجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة ، كالأسَد للرجُل الشجاع بعلَاقة الشجاعة في كل منهما ، والحمار للبليد بعلاقة البلادة في كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلىٰ الاستعارة والتمثيل والكناية لمـا بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليَد فإنها في أصل اللغة للجارحة أُطْلِقت علىٰ القوة والنعمة مجازا ، من حيث إن القوّة تَظْهَر في اليد والنعمة تُولَى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما في معناها .

ومنهـا الألفاظ المتضادّة وهي التي تَقع كل لفظة منها علىٰ ضدّ ما تقع عليه الأخرىٰ كالأمانة والخيـانة ، والنصيحة والغش ، والفَتْق والرتْق ، والنقْض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيرا ما يبنى علىٰ الأضداد وربما غلط الكاتب بجعل مقابل الشيء غيرَ ضدّه فيلزمه النقصُ في صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطِّباق اللذين هما من أحسن أنواع البـديع . وفي "صناعة الكُتَّاب" لأبي جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك ، وفي "كَنْز الكُتَّاب" لأبي الفتح كُشَاجِمَ جملةٌ جيدة منه أيضا .

ومنهـا تسـمية المتضادَّيْن باسم واحد كالجَوْن للأسود والأبيض ، والقُرْء للطُّهْر والحيض ، والصَّرِيم للَّيل والنهارِ ، ووراء لخلَف وقدّام ، ونحو ذلك . ويُحتاج إليـه للتمييز بين الحقائق التي يقَع اللَّبْس فيها . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) لعله كتب أصول الفقه .

ومنها المَقْصور والممدود كالنـدى للجُود ونَدى الأرض ، والحَفَا لكَلَال القَـدَم والحافِر ؛ والممدود كالسماء للفَلَك وكلّ ما علاك ، والبقاء لِضـدّ الفَناء ، ونحو ذلك ؛ وما يجوز فيه المدّ والقَصْر جميعا كالزّناء والشّرَاء (١) وما أشبههما . ويَحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجُه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبـار المدّ والقصر كلفْظ الهَوَى فإنه إن قُصِر كان بمعنى هَوى النفس ، وإن مدّ كان بمعنى ما بين السماء والأرض . الثانى أنه إذا أُضِيف الممدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يُحتجْ إلى زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان ممـا يجوز (٢) فيه المدّ والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كالبَلاء والقَلاء ، فإنه اذا كُسر أوّلها قُصِرا وكُتِبا بالياء واذا فتح مُدَّا وكتبا بالألف . وكالباقلاء فإنه إذا خفّف مُدّ وإذا شُدّد قُصِر ؛ فمتى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته ، وفى "أدب الكاتب" من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلِفُ أحوالُه باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور . وذلك أن المؤنث على ضربين : أحدهما مافيه علامة من علامات التأنيث الثلاثِ ، وهى الهاءُ نحو حمزةَ وطلحةَ ، والألفُ الممدودة نحو حمراء ، والألفُ المقصورة نحو حُبْلى . وضرب لا علامةَ فيه وإنمـا يؤخذ من السَّماع : كالسماء ، والأرض ، والقَوْس ، والحَرْب ، وما أشبهها . وربمـا كان منه ما يجوز فيـه التذكير والتأنيث كالطَّريق ، والسبيل ، والموسى ، واللِّسان ، والسُّلْطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب من يذكّر ذلك ومنهم من يؤنّثه . وربمـا وقع لفظ التأنيث على الذكر والأنثى جميعا

(١) أهمله فى الأصل وهو من اهمـال الناسخ .

(٢) قوله ولو كان ممـا يجوز الخ كذا فى الأصـل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محـل الوجه الثـالث الذى سقط من قلم الناسخ وحاصله أن الداعى إلى معرفتهما إما أن يرجع إلى المعنى وهو الأوّل أو إلى الرسم والكتابة وهو الثانى أو إلى النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسَّخْلة والحَيَّة والحَمامة والنَّعامة والبَطَّة ونحوها . وأيضا فإن مِنْ وَصْف المؤنث ما يُحذَف منه الهـاء باعتبار تأويلٍ آخَرَ كصـيغة فَعِيل : فإنه إن كان بمعنى مفعول كقَتِيل بمعنى مقتول وخَضِيب بمعنىٰ مخضوب، حُذِفت الهـاءُ من مؤنَّثه : فيقال آمرأةٌ قتيلٌ وكَفٌّ خَضِيب وما أشبه ذلك،وإن كان بمعنى فاعل كعَلِيم بمعنى عالم ورحيم بمعنى راحم، تثبُت الهاء فى مؤنَّثه : فتقول فيه عَلِيمة ورَحِيمة . وعلى العَكْس من ذلك فَعُول فإنه إن كان بمعنى فاعل كان بغير هاء نحو امرأةٌ صَبُور وشَكُور بمعنى صابرةٍ شاكرة، وإن كان بمعنىٰ مفعول كان مؤنَّثُه بالهـاء كالحَلُوبة بمعنىٰ المحلوبة ، والرَّكُوبة بمعنىٰ المركوبة ؛ وصيغةُ مُفْعِل ممـا لا يُوصَف به الذكورُ تكون بغير هاء كامرأة مُرْضِع ، فان أرادُوا الفعلَ قالوا مُرْضِعة؛ وصيغةُ فاعل ممـا لا يكون وَصْفا لمذكر تكون بغير هاء أيضا نحو امرأة طالِق وحامل، وربَّمـا حُذِفت الهاءُ مما يكون للذكر والمؤنَّث جميعا فتقول امرأة عاقِر ورجلٌ عاقِر . وفى "أدَب الكاتب" و"فصيح ثعلب" جملة من ذلك . وفى كتب النحو المبسوطة قواعدُ موصِّلة إلى مقاصده .

ومنها المَهْموزُ وغيرُ المهموز فإن المعنىٰ قد يختلف فى اللفظ الواحد باعتبـار الهمز وعَدَمه : كما تقول عَبَّأْت المتاعَ بالهمز، وعَبَّيت الجيشَ بغير همز ، وبارَأْتُ الكَرِيّ بالهمز من الإبراء، وباريتُ فلانا من المُفاخرة بغير همز. وتقول زنىٰ من الزِّنَا بغير همز، وزَنَأ فى الجبل إذا رَقِيَ فيه ونحو ذلك . وربما جاء الهمزُ وعدمُه فى الكلمة الواحدة كما تقول شِئْت بالهمز وشِيت بإسكان الياء من غير همز ونحو ذلك . فمتىٰ لم يكن الكاتب عارفا بالهمز ومواضعه ضَلَّ فى طريق الكتابة . وفى "أدب الكاتب" باب مفردٌ لذلك .

ومنها ما ورد من كلام العرب مُزْدَوِجا كقولهم الطِّمّ والرِّمّ، يريدون بالطِّمّ البحرَ وبالرِّمّ الثرىٰ، وكقولهم الحَجَر والمَدَر، فالحجر معروف والمَدَر التراب النَّدىٌّ ونحوذلك .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكّن من وَضْعه فى مواضعه لتحسين الكلام وتمييقه فى الطباق والمقابلة؛ وفى "أدب الكاتب" نبْذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنًّى إمّا علىٰ سبيل التغليب : كقولهم القَمرانِ يريدون الشمسَ والقمرَ، والعُمَران يريدون أبا بَكْر وعُمَر، و إما علىٰ الحقيقة : كقولهم ذَهَب منْه الأَطْيَبانِ، يريدون الأكْل والنكاحَ واختَلَف عليه المَلَوانِ أو الجَديدانِ، يريدون الليلَ والنهار، ونحو ذلك؛ وفى "أدب الكاتب" أيضا طَرَف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتَّبا كقولهم أوَّلُ النوم النُّعاس، وهو الآحتياجُ إلىٰ النَّوْم ؛ ثم الوَسَن، وهو ثِقَل النُّعَاس ؛ ثم الكَرىٰ والغَمْضُ، وهو أن يكونَ بين النائم واليَقْظان؛ ثم التَّغْفيق، وهو النوم وأنت تسمعُ كلام القَوْم؛ ثم الإغْفاء، وهو النوم الخَفيف؛ ثم التَّهْجاع، وهو النوم القليل ؛ ثم الرُّقاد، وهو النوم الطويلُ ؛ ثم الهُجُوع، وهو النوم الغَرِق؛ ثم التَّسْبيخ(١)، وهو أشدّ النوم، وما أشبه ذلك، وفى "فقه اللغة" للثعالبيّ قدرٌ صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مَوْرِد الدعاء : إما علىٰ بابه فى الدعاء كقولهم "آستأْصَلَ الله شأْفَته" يريدون أذهَبَ الله أثرَه كما يَذْهَب أثر الشَّأْفة، وهى قَرْحة تخْرج فى القدم فتُكْوىٰ فتَذْهَب؛ وقولهم "أبادَ اللهُ خَضْراءهم" أى سَوَادهم ومُعْظَمَهم . أو لم يُقصد به حقيقة الدعاء، كقولهم "تَرِبَتْ يَدَاكَ" أى أُلْصِقتْ بالتراب من الفاقة ، وقولهم "أرْغَمَ اللهُ أنْفَه" أى ألْصَقه بالرَّغَام، وهم لا يَقْصِدون به الدعاءَ . وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

---

(١) أهمله فى الأصل وهو من إهمال الناسخ .

ومنها ما تختلف أسمـاؤه مع المشابهة فى المعنىٰ كالظُّفُر للإنسان، والحافر للفَرَس والبَغْل والحِمـار، والظِّلْف للبقر، والمَنْسِم للبعير، والبُرْثُن للسِّباع، وما يجرِى هذا المجرىٰ. وفى "فقه اللغة" جزء وافر منه .

ومنها ما تختلف أسمـاؤه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يُقال فيه كأس إلا اذا كان فيه شَرَاب وإلا فهو قَدَح، ولا مائدةٌ إلا اذا كان عليها طعام والا فهى خِوَان، ولا قَلَم إلا اذا كان مبْرِيًّا والا فهو أُنْبُوبة، ولا خاتَمٌ إلا وفيه فَصّ وإلا فهو فَتَخَة ونحو ذلك، وفى "فقه اللغة" جملة منه .

ومنها معرفة الأُصُول التى تُشتَقُّ منها الأسماء كتسمية القمر قَمَرًا لبياضه، إذ الأقْمَر هو الأبيض؛ وكتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلَةَ البَدْر لُمبادَرة الشمسِ القمرَ بالطلوع، أو لتَمامه وآمتلائه حينئذ من حيثُ إن كل تامّ يقـال له بَدْر؛ وكتسمية النَّجْم نَجْما، أخذًا من قولهم نَجَم إذا طَلَع ونحو ذلك، وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

ومنها مانَطَقتْ به العَجَم علىٰ وَفْق لغة العَرَب، لعدم وجوده فى لغتهم[1] وهو المعرَّب كالكَفِّ والسَّاق والدَّلَّال والوَزَّان والصَّرَّاف والجَمَّـال والقَصَّاب والبَيْطار وما أشبه ذلك؛ وفى "فقه اللغة" جزء من ذلك كافٍ .

ومنها ما آشترك فيه العربية والفارسيَّة، كالتَّنُّور، والخَمِير، والدِّينار، والدِّرْهم، والصَّابُون، وما أشبه ذلك؛ وفى "فقه اللغة" أيضا نبْذة منه .

ومنها ماأضْطُرَّت العربُ إلى تعريبه وآستعماله فى لغتهم من اللُّغة العجمية كالكُوز، والإبريق، والطَّسْت، والخُوَان، والطَّبَق، وغيرها من الآنية؛ والسِّكْباج، والزيرباج، والطَّباهج، والجُوذاب، ونحوها من الأطعمة؛ والجُلَّاب، والسَّكَنْجَبين، ونحوهمـا

(١) قوله وهو المعرب كذا فى الأصل .

من الأَشْربة،والخُولَنْجان ، والكافُور ، والصَّنْدل ، وغيرها من الأَفَاويه ، والطِّيب ونحو ذلك؛ وفى "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيِّدة . إلىٰ غير ذلك من الأمور التى لايَسَع استيفاؤها ممـا فى أدب الكاتب وفقه اللغة الكثيرُ منه .

ومنها ماتعدّدت لغاتُه؛ ولْتَعلم أن لغة العرب متعدّدة اللُّغات متسعة أرجاء الأُلْسُن بحيث لا تُساويها فى ذلك لغة . فمن ذلك مافيه لغتان كقولهم رِطْل ورَطْل بكسر الراء وفتحها وسَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وضمها؛ وما فيــه ثلاث لغات مثل بُرْقُع بضم القاف وبُرْقَع بفتحها وبُرْقُوع بضم البـاء وزيادة الواو ، وخاتِم بكسر التاء وخاتَم بفتحها وخِيْتام ؛ وما فيــه أربع لغات مثل نِطْع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَع بفتح النون والطاء جميعا وكَسْر النون؛ وصَدَاق بفتح الصاد وصِدَاق بكسرها وصُداق بضمها وصُدْقة بضم الصاد وسكون الدال؛ ومافيه خمس لغات كقولهم رِيح الشَّمال بفتح الشين من غير همز، والشَّمْأل بالهمز، والشَّامَل بغير همز، والشَّمَل بفتح الميم ، والشَّمْل بسكونها ؛ وما فيــه سِتُّ لغات كفُسْطاط بضم الفاء وفِسْطاط بكسرها ، وفُسْتَاط بضم الفــاء وإبدال الطاء تاء ، وفِسْتاط بكسر الفاء ، وفُسَّاط بضم الفــاء وتشديد السين ، وفِسَّاط بكسر الفاء ؛ وما فيــه تسع لُغات كالأَنْمـلة بفتح الهمزة وضمهــا وكسرها مع فتح الميم وضمِّها وكسرها ؛ وما فيــه عَشْر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمِّها وكسرها مع فتح البـاء وضمها وكسرها والعاشر أُصْبوع . وفى "أدب الكـاتب" جملة من هذا النمط .

الصنف الثالث — الفصـيح من اللغة . وٱعلم أن اللغة العربيّــة قد تنوّعت وٱختلفتْ بحسَب تنوّع العرب وٱختلاف ألسِنَتهم ؛ والذى ٱعتمده حُذَّاق اللغــة وجَهابِذة العربية من ذلك مانطق به فُصَحاء العرب ، وهم الذين حَلُّوا أوساطَ بلاد العرب ، ولم يخالِطْهم مَنْ سِـواهم من الأمم كثيرَ مخالطةٍ ، ولم يُصاقِبُوا بلاد العجم

فبقيتْ ألفاظُهم سالمة من التغييرِ والاختلاط بلغةِ غيرهم : كَقُرَيش، وهُذَيل، وكِنَانةَ ، وبعضِ تميم ، وقَيْسِ عَيْلان ، ونحوهم من عَرَب الحجاز، وأوْساط نَجْدٍ . بخلاف الذين حلُّوا فى أطراف بلاد العــرب ، وجاوَرُوا الأعاجمَ فتغيرتْ ألفاظُهم بمخالطتهم : كحِمْيَرَ، وهَمْــدانَ، وخَوْلانَ، والأَزْد : لمجاورتهم بلادَ الحبشة ، وطيِّئ وغَسَّانَ : لمجاورتهم بلاد الرُّوم بالشام، وبعضِ تميم ، وعبد القيس : لمجاورتهم أهلَ الجزيرة وفارس .

واعلم أن التغيير يدخلُ فى لغة العرب من عِدَّة وجوه :

منها أن تُبْدل كلمةً بغيرها : كما يَستعمل أهلُ اللغة الحميريَّة "ثِبْ" بمعنىٰ اجلس، وهى فى عامَّة لغة العرب للأمر بالطَّفْرة . قال القاضى الرشيدُ فى شرح أُمْنِيَّة الألمعىّ "وربمــا غلَبتِ العُجْمة علىٰ أحدهم حتّٰى لا يُفْهَم عنه شىء" .

ومنها أن تُبْدل حرفا من الكلمة بحرف آخر : كما تُبْدل حميرُ كاف الخطاب شِينا معجمة فيقولون فى قُلتُ لك قلت لَشَ ؛ وربمــا أبدلُوا التاء أيضــا كافًا فيقولون فى قلت قُلْكُ، وكما تُبْــدل ربيعةُ الباء الموحدة ميما فيقولون فى بكر مَكْر ونحو ذلك، وكما يُبْــدل بعض العرب الصادَ المهملة بالسين المهملة فيقولون فى صابر سابر، وكما يُبْــدل بعضهم الطاءَ المهملة بتاء مثناة فوقُ فيقولون فى طالَ تالَ وتُسْمَع من عرب أهل الشرْق كثيرا، وكما يبدل قوم التاء المثناة فوقُ بضاد معجمة فيقولون فى أترّ أضر.

ومنها أن يُعاقَب بين حرفين فى الكلمة كما يقول بعضهم فى بَلْخ فَلْخ، وفى أَصْبَهَان أَصْفهان .

ومنها أن يأتى بحرفٍ بين حرفين فيأتُون بكاف بجيم فيقولون فى كملَ جمل . قال ابن دريد : " وهى لغــة فى اليمن كثيرة فى أهــل بغداد " ويأتون بجيم ككاف

على العكس من الأول فيقولون فى رَجُل رَكُل يقرّبونها من الكاف، ويأتون بشين معجمة بجيم فيقولون فى ٱجتَمَعوا ٱشْتَمَعوا، ويأتون بصاد مهملة كزاى فيقولون فى صِرَاط زِرَاط، ويأتُون بجيم كزاى فيقولون فى جابِر زابر، ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة، قاله ٱبن سعيد عن سماعه من العرب؛ ولا يكاد يوجد منهم من ينْطِق بها علىٰ أصلها الموصوفِ فى كتب النحويين . وقد ذكر الشيخ أثيرُ الدِّين أبو حيان ذلك جميعَه فى شرحه علىٰ تسهيل ٱبن مالك .

الصنف الرابع — ما تَلْحَن فيه العامة وتغيِّره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأوّل والعامّةُ تكسِره : كقولهم فى جَفْن العين بفتح الجيم جِفْن بكسرها؛ أومفتوح الأوّل والعامّةتضمُّه : كقولهم فى القَبُول الذى هو خلاف الرّدّ قُبُول بضمها؛ أومكسور الأوّل والعامّة تفتحه : كقولهم فى دِرْهم بكسر الدال دَرْهِم بفتحها؛ أومكسور الأوّل والعامّة تضمُّه : كقولهم فى التِّمْساح بكسر التاء تُمْساح بضمها؛ أو مضمُوم الأوّل والعامّة تفتحه : كقولهم فى العُصْفور بضم العين عَصْفُور بفتحها؛ أو مضموم الأوّل والعامّة تكسره : كقولهم فى الظُّفُر بضم الظاء ظِفر بكسرها؛ أو مفتوح الوَسَط : كقولهم فى القالَب بفتح اللام قالِب بكسرها؛ أو مكسُور الوسط والعامّة تفتَحُه : كقولهم فى الرجل المُوَسْوِس، والبُرّ المسوِّس، والجبن المدوِّد بكسر الواو فى الثلاثة : مُوَسْوَس ومُسَوَّس ومدوَّد بفتحها؛ أو مضموم الوسط والعامّة تفتحه كقولهم فى الجُدُد جمع جديد جُدَد بفتحها؛ أو محرّك الوسط والعامّةُ تسكِّنه : كقولهم فى التُّحَفة بفتح الحاء تُحْفة بإسكانها؛ أوساكن الوسط والعامّة تحرّكه : كقولهم فى الحَلْقة بإسكان اللام حَلَقة بفتحها؛ أو مشدّدا والعامّة تخفّفه : كقولهم فى العاريَّة بتشديد الياء عارِيَة بتخفيفها؛ أو مخففا والعامّة تشدّده : كقولهم فى الكَرَاهِيَة بتخفيف الياء كراهِيَّة بتشديدها؛ أو مهموزا والعامّة تحذف الهمز من أوّله : كقولهم فى الإهْلِيلَج بإثبات همزة فى أوّله

هِليلَج بحذفها ، أومهموز الوسط والعامّة تسهله : كقولهم فى المِرْءاة بإثبات الهمزة مراة بحذفها ، أو غير مهموز الأوّل والعامّة تثبت الهمزة فى أوّله : كقولهم فى الكُرَة ، أُكْرَة [(١)] ؛ أو كان بالظـاء المعجمة بجعلته بالضاد المعجمة كالوظيفة ونحوها ، أو بالضاد بجعلته بالظاء : كقول بعضهم فى البَيْضة بَيْظة ، أو بالذال المعجمة بجعلتـه بالدال المهملة كالذراع ، أو كان بالجيم بجعلته بالقاف : كقولهم فى مَجَاديف السفينة مَقَاديف ؛ أو بالدال المهملة بجَعَلَته بالتاء المثنّاة فوق : كقولهم فى دَخَارِيص القميص تَخَارِيص ، ونحو ذلك ممـا شاع وذاع وفى "أدب الكاتب" لآبن قتيبة نُبْـذَة من لحن أهل المشرق ، وكتاب "تثقيف اللسان" لآبن مَكِّى التونسى موضوع فى لحن أهـل الغرب ، وفصيحُ ثعلب مشتمل علىٰ كثير من هذا المقصد .

الصنف الخامس ــ الألفاظ الكتابية ، وهى ألفاظٌ آنتخبها الكُتَّاب وآنتقَوْها من اللغــة آستحسانا لهـا وتميزًا لهـا فى الطّلاوة والرّشاقة علىٰ غيرها . قال الجاحظ "ما رأيتُ أمثلَ طريقةً من هؤلاء الكُتّاب ، فإنهم آلتمَسُوا من الألفـاظ ما لم يكن متوعِّرا حُوشِيًّا ، ولاساقطا سُوقِيًّا" . وقد ذكر آبن الأثير فى "المثل السائر" : أن الكُتَّاب غَرْبَلُوا اللغةَ وآنتقَوْا منها ألفاظًا رائقةً آستعملوها .

ثم هذه الألفاظ أسمـاء وأفعال : فالأسماء كقولك فى المدح فلانٌ غُرَّة القبيلة ، وسَنَامها ، وذُؤابتها ، وذِروتها ؛ وهو نَبْعة أَرُومته وأبْلَق كَتيبته ومِدْرَه عَشيرته ونحو ذلك . والأفعال كقولك فى إصلاح الفاسد : أصلح الفاسدَ ، ولَمَّ الشَّعَثَ ، ورَأَبَ الشَّعْب ، وضَمَّ النَّشَر ، ورَمَّ الرَّثَّ ، وجمَعَ الشَّتَات ، وجَبَر الكسر ، وأَسَا الكَلْم ، ورَقَع الخَرْق ، ورَتَق الفَتْق ، وشَعَب الصَّدْع . وفى "كتاب الألفاظ" لعبد الرحمن آبن عيسى الكاتب كفايةٌ من ذلك . وله مختصَر أربىٰ عليه . وفى "كنز الكُتَّاب" لكُشَاجِمَ ما فيه مَقْنَع .

---

(١) هى لغة كما فى القاموس .

المقصـــد الرابع

(فى كيفية تصرف الكاتب فى الألفاظ اللُّغويّة . وتصريفها فى وُجوه الكتابة)

لاخفاءَ أنه إذا أكْثَر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعَرَف الألفاظَ المترادِفةَ على المعنىٰ الواحد والمتقارِبَةَ المعانى ، تمكَّنَ من التعبير عن المعانِى التى يُضْطَّر إلىٰ الكتّابة فيها بالعبارات المختلِفة ، والألفاظ المتباينَة ؛ وسَهُل عليه التعبيرُ عن مقصوده ، وهانَ عليه إنشاءُ الكلام وترتيبُه . وفى الأمثـلة التى أوردها كُشَاجمُ فى "كنز الكُتّاب" حيث يعبر عن المعنىٰ الواحد بعبارات متعدّدة مايُرشِد إلىٰ الطريق فى ذلك ، ويَهْدِى إلىٰ سُلُوك الجادَّة المُوصِّلة إلىٰ القَصْد منه .

وهذه نسخة مكاتبة منه فى التهنئة بمولود يُستضاءُ بها فى ذلك ، وهى :

قد جَعَلك اللهُ من نَبْعةٍ طابتْ مَغارِسُها ؛ أَرومةٍ رَسَخَتْ عُرُوقها ؛ شجرةٍ زَكَتْ غُصُونها ؛ فَرْعٍ شرُفتْ منابِتُه ؛ معدِنٍ زكتْ علائقُه ؛ جوهرٍ شاعَتْ مكارِمُه ؛ عنصرٍ بَسَقت فُروعه ؛ مَحْتِـد ذاعَتْ محامِدُه ؛ أصلٍ نَجُبتْ مآثِره ؛ سِنْخ خَلَصت مناقِبُه ؛ نِصابٍ صَرُحت مَفَاخِره ؛ نَجْر نَمتْ مَسَاعِيه ؛ أصلٍ فَضَلت معالِمُه ؛ عُنْصرٍ نُصِرَتْ محاسِنُه ؛ منتمًى كَثُرتْ مناقِبه . فالزيادة فيها زيادة فى جوهر الكَرَم ، مُظَاهِر فى مَحْو ثرىٰ الإفضال ، ذَخِيرةٌ نَفِيســةٌ لذوى الآمال ، نِعْمةٌ كاملةُ السـعادة ، غِبطة شاملةُ البَشَاشة ، سرورٌ يواجه الأولياء ، حُبور تَجْتَوِيه الأعداء ، غِبْطة تَصلُ إلى الأحرار ، ٱبتهاج لذوى الأخْطار . فتولَّى الله نِعمه عندك بالحِراسة الوافية ، بالوِلاية الكافِية ، الكِفَاية المُتظاهِرة ، الدِّفَاع الكالى ، الحِفَاظ الداعى ، الصُّنْع الجميل ، الدِّفاع الحَسَن ، العافية المتكاتِفَة . وبلغنى الخبرُ بهبة الله المستجِدّة ، الولَد المبارَك ، الفَرْع الطيِّب ، السليل الرَّضِىّ ، الولَدِ الصالح ، الآبنِ السارّ ، الثمرة المُثْمِرة ، السُّلالة الزكيَّة ، النجل

الميمون، الذى عَمر أفْنِيةَ السِّـيادة . زاد فى مواثيق العهد والرياسة، أرسىٰ قَواعِدَ السيادة، ثَبّت أَسَاسَ الرِّفعة، أوثَق عُرى المجد، مَكّن أركان الفَضْل، وَطّد أساس المَكَارِم، أكّد علائِق الشَّرَف، أبّدَ أوَاخىَ الكرم، أبرَم حِبالَ الجُود، أمَرّ أسْبابَ الطَّوْل، شَـيَّدَ بُنْيان الكمال، أحْصَفَ أيْدى السَّماحة، أحكَمَ قُوىٰ الرَّجاحة، أوْثق عَقْد العُلا، رَفع دعائم الطَّهارة، أنار أعلامَ الغارة، أظْهر علاماتِ الخَيْر . فتباشَرتُ به، ٱبْتَهجتُ، ٱجْتذَلْتُ، ٱغتَبطْتُ، فرِحتُ، سُررت، ٱستَبْشَرتُ . جعله الله بَرّا تقِيًّا، سيِّدا، حَميدا، مَيْمونًا، مُباركًا، طَيِّبا، عَزِيزا، سَعيدا، ظَهيرا، عَوْنا، ناصرًا، راجحًا، زَكِيًّا، وَزَرًا، مَلْجأً . يتَقيَّل[1] سلفه، ويَقْتفِى أثَرَهم، يَسْلُك مِنْهاجَهُم، يَسُنّ سُنَّتهم، يَتْبَع قَصْدهم، يَسِير سَيْرَتَهم، يَسعىٰ مَساعِيَهُم، يَنْحُو مِثالَهم، يحذو حَذْوهم، يتخَلَّق بأخلاقِهم، يتَبصَّر بصيرتَهم، ينوط أفعالهم، يترسَّم رُسومَهم . وأيْمَن به عددَك، كَثَّر به ذُرِّيتك، أراكَ فيه غاية أمَلِك، شَفَعه الله بإخْوة بَرَرة، وفَّقه الله لأداء حقِّك، جعله خيرَ خَلَف كما هو لخير سَلَف . زَيَّن به العَشِـيرة، وَهَب له النَّمـاء، بلَغ به أكْلأَ العُمُر، مكّن له فى رَفِيع المراتب، حَقّق فيه فِراسَتك، وَهَب له تمامَ الفَضِيلة، وأوْزَعَك الشكر عليه، أجارك فيه من الثُّكل، سَرَّك بفائدته، أسعدك برؤيته، أطابَ عيْشَك به، متَّعك بعَطِيَّته، ألْهمكَ شُكْرَ ماخوّلك، وواصَلَ لك المَزِيدَ برحمته .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عِدّة كتب بتهنئة بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك اللهُ من نَبْعةٍ طابتْ مغارِسُها، فالزيادةُ فيها زيادةٌ فى جَوْهَرِ الكرم، فتولّى الله نعمه عندك بالحِرَاسـة ؛ وبلغنى الخبرُ بهبة الله الجديدة المستجِدّة، الولدِ المبارَك الذى عَمر أفْنِيةَ السيادة، فتباشرْتُ به، جعله الله تعالىٰ بَرّا

(١) فى القاموس تقيّل أباه أشبهه .

تقيا، يتقيَّل سَلَفه، وأيمَن به عَددَك، وأوزَعَكَ الشكر عليـه، وواصَلَ لك المزيد برحمته، كان ذلك كتابا كافيا فى هذا النوع. فتأمّل ذلك وقِسْ عليه .

النــــوع الثـانى

(المعرفة باللغة العجمية، وهى كل ما عدا العربية : من التركية، والفارِسيَّة، والرُّوميَّة، والفِرِنْجية، والبربريَّة، والسُّودان، وغيرهم؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إلىٰ معرفة اللُّغات العجمية)

لا يخفىٰ أن الكاتب يحتاج فى كماله إلىٰ معرفة لغـة الكتب التى تَرِد عليـه لملكه أو أميره ليفهَمَها ويُجيب عنها من غير آطّلاع تَرْجُمان عليها، فإنه أصونُ لسرّ ملكه، وأبلغُ فى بُلوغ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائنى فى "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «إنه يَرِدُ علَىَّ أشياءُ من كَلامِ السُّرْيانيَّة لا أُحسِنُها فتعَلَّمْ كلامَ السُّرْيانيَّة فتعلَّمْتُها فى سِتَّةَ عَشَرَ يوما» وفى رواية قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتُحسِنُ السُّرْيانيَّة؟ فإنَّه يأتِينِى كُتُبٌ بها، قلتُ لا . قال فتعَلَّمْها فتعلَّمْتُها فى سبْعةَ عَشَر يوما، فكنت أجيبُ عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وأقرأُ كُتُبَ يَهُودَ اذا وردَتْ عليه» وفى رواية، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يازَيْدُ تعَلَّمْ كتابَ يَهُودَ فإنِّى واللهِ لا آمَنُ يَهُودَ علىٰ كتابِى قال فتعلمتُ كتابَتَهم فما مَرّ لى سِتَّ عشرةَ ليلةً حتّى حَذَقته فكُنْتُ أقرأ له كُتُبَهم إذا كتبُوا إليه وأُجيبُ اذا كتب» وفى روايةِ العِبْرانية بدل السُّرْيانية .

قال محمد بن عمر المدائنى بل قد قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يفهَم اللغاتِ كلَّها و إن كان عربيا لأن الله تعالىٰ بعثه إلى الناس كافّةً ولم يكن اللهُ بالذى يبعَثُ نبيًّا إلىٰ قومٍ لا يفهم عنهم، ولذلك كلَّم سَلْمان بالفارسية . وساق بسنده إلىٰ عكرمة أنه قال: سُئِل ابنُ عبَّاس هل تكلَّمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالفارسيَّة قال نَعَمْ، دخَلَ عليه سَلْمانُ فقال له درسته وسادته قال محمد بن أميَل : أظنه مَرْحبًا وأهلا . وحينئذ فيكون النبى صلى الله عليه وسلم إنَّما أمر زيدا بتعَلُّم كتابةِ السُّرْيانية أو العِبْرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعَلُّم لغتهم .

المقصــــد الثـانى

(فى بيان ما يتصرَّف فيه الكاتبُ من اللغة العجمية)

اعلم أن الذى ينبغى له تعلُّمــه من اللغـات العجمية هو ما تتعلَّق به حاجتُـه فى المخاطَبة والمكاتبَة .

أما المخاطبة فبأن يكونَ لسانُ ملكه بعضَ الألسُن العَجَمية أو كان الغالبَ عليه لسانٌ عجمىٌّ مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية علىٰ ملوك الديار المصرية، وكما غَلَبتِ اللغة الفارسـية علىٰ ملوك بلاد العِراق وفارس، وكما غلب لسانُ البربر علىٰ ملوك بلاد المغرب مع تبعيَّة عسكر كل ملك فى اللسان الغالب عليه له فى ذلك فيحتاج الكاتب إلىٰ معرفة لسان السلطان الذى يتكلم به هو وعسكره ليكون أقربَ إلىٰ حصول قصدِه : من فهم الخطاب وتفهيمه، وسُرْعة إدراك ما يلقىٰ إليه من ذلك، وتأدية ما يقصــد تأديتــه منه؛ مع ما يحصــل له من الحُظْوة والتقريب بالموافقة فى اللسان؛ فإن الشخص يميل إلىٰ مَنْ يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوسُ ملوكِ الديار المصرية وأمرائها وجُنْدها لمن يتكلم بالتركية: من العُلَماء والكُتَّاب ومَنْ فى معناهم علىٰ ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكاتبة فبأن يكونَ يعرِف لسان الكُتُب الواردة علىٰ ملكه ليترجَمها له ويُجيبَ عنها بلغتها التى وردتْ بها ؛ فإن فى ذلك وقعًا فى النفوس ، وآستجلابا للقلوب ، وصونا للسر عن آطّلاع ترجمان عليه ؛ وأمْرُ النبى صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلُّم السريانية أو العبرانية على ما تقدّم ظاهرٌ فى طلب ذلك من الكاتب وحثِّه عليه .

ثم اللغات العجمية علىٰ ضربين : أحدهما ماله قَلَم يُكتَب به فى تلك اللغة كاللغة الفارسية ، واللغة الرومية ، واللغة الفرنجية ونحوها ؛ فإن لكل منها قلما يخصُّه يُكتَب به فى تلك اللغة . والثانى ماليس له قلم يكتب به ، وهى لغات القوم الذين تغلب عليهم البَدَاوة كالترك والسُّودان . ولأجل ذلك ترد الكُتُب من القانات ملوكِ الترك ببلاد الشِّمال المعروف فى القديم ببيت بركة ، والآن بمملكة أزبك باللغة المغلية بالخط العربى ؛ وترد الكتب الصادرةُ عن ملوك السودان باللفظ العربىّ والخط العربىّ . أما اللغات التى لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتب الواردة من ملوك الروم والفِرنج ونحوهما ممن للغته قلم يخصه علىٰ اختلاف الألسنة واللغات .

النــوع الثـالث
(المعرفة بالنحو ؛ وفيـه مَقْصِدان)

المقصـد الأوّل
(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إليـه)

لا نِزاعَ أن النحو هو قانون اللغة العربية ، ومِيزان تقويمها ؛ وقد تقدّم فى النوع الأوّل أن اللغة العربية هى رأسُ مال الكاتب ، وأُسُّ مَقاله ، وكنز إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرُق الإعراب، والأخذ فى تعاطِى ذلك حتّى يجعله دأْبَه، ويُصيِّره ديدنه : ليرتسم الإعرابُ فى فِكْرِه، ويَدُورَ علىٰ لسانه، وينطلِقَ به مَقالُ قلمه وكَلِمه، ويزولَ به الوهم عن سجيَّته، ويكونَ على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتىٰ من البلاغة بأعلىٰ رتبة ولحنَ فى كلامه، ذهبتْ محاسن ما أتىٰ به، وٱنهدمتْ طبَقة كلامِه وأُلغِيَ جميع ما حسَّنه، ووُقِف به عند ما جهله . قال فى "المثل السائر": وهو أوّل ما ينبغِى إثبات معرفته، علىٰ أنه ليس مختصًّا بهذا العلم خاصّةً بل بكل علم؛ لا : بل ينبغى معرفتــه لكل أحد ينطِق باللســان العربىّ ليأمنَ مَعَرّة اللحن . قال صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" ولم يزل الخلَفاءُ الراشدون بعد النبى صلى الله عليه وسـلم يحُثُّون علىٰ تعلُّم العربيَّة، وحفْظِها والرِّعاية لمعانيها، إذ هى من الدِّين بالمكان المعلوم، والمحلِّ المخصوص . قال عثمان المهرىُّ : « أتانا كتابُ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأَذْرَبِيجانَ يأمرنا بأشياءَ، ويذكر فيها : " تعلَّمُوا العربيَّة فإنها تثبِّت العقلَ، وتزيد فى المُرُوءة " . وكان لخالد بن يزيد بن معاوية أخٌ فجاءه يوما فقــال : إن الوليــدَ ٱبن عبد الملك يَعْبَثُ بى ويحتَقِرُنى، فدخل خالد علىٰ عبد الملك والوليدُ عنده فقال ياأمير المؤمنين ! : إن الوليد قد ٱحتقر ٱبنَ عمه عبدَ الله وٱستصغره، وعبد الملك مُطْرِق فرفع رأسَه وقال : ﴿إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوها﴾ الآية ــ فقال خالد : ﴿وإذا أَرَدْنا أنْ نُهلِكَ قَرْيةً﴾ الآية ــ فقال عبدُ الملك : أفى عبدالله تكلِّمُنى؟ وقد دخل علىّ فما أقام لسانَه لَحْنا ــ فقال خالد : أفعلَى الوليد تُعوِّل؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلْحَن فإن أخاه سليمانُ ــ فقال خالد : وإن كان عبد الله يلْحَن فإن أخاه خالدٌ فى كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوما لبنيه : "ما ضرّ أحدَكم لو تعلَّم من العربيَّة ما يُصلِح به لسانه؟ أيسُرّ أحدَكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبــده وأَمَتِه ؟ " . ومن كلام مالك بن أنس

"الإعراب حَلْيُ اللِّسانِ فلا تَمْنَعوا أَلْسِنَتَكُم حُلِيَّها" . ولله درّ أبى سعيد البصرىّ ! حيث يقول :

النَّحْوُ يَبْسُط مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ * والمَرْءُ تُكْرِمُه إذا لم يَلْحَنِ

وإذا طَلَبْتَ من العُلُومِ أجلَّها * فأجَلُّها عِنْدِى مُقِيمُ الأَلْسُنِ

قال صاحب "الريحان والريعان" واللحنُ قبيح فى كبراء الناس وسَرَاتهم ، كما أن الإعرابَ جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السِّفْلة ويرتقِى به إلىٰ مرتبة تُلحِقه بمن كان فوقَ نَمَطه وصِنْفه . قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنىٰ ؛ فإن اللحن يغيِّرالمعنىٰ واللفظ ويقلِبُه عن المراد به إلىٰ ضدّه حتّى يفهم السامعُ خلاف المقصود منه . وقد رُوِى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿إِنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولِه﴾ بجرّ رسوله فتوهم عطفه علىٰ المشركين فقال : أوَ بَرِئَ اللهُ من رسوله ؟ ، فبلغ ذلك عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يَقرأ القُرءان إلا مَنْ يُحْسن العربيـة . على أن الحسن قد قرأها بالجرّ علىٰ القسَم وقد ذهب علىٰ الأعرابىّ فهمُ ذلك لخفائه . وقرأ آخَرُ ﴿إِنَّما يخشىٰ اللهُ مِن عِبَادِهِ العلماءَ﴾ برفع الأوّل ونصب الثانى ، فوقع فى الكفر بنقل فتحة إلىٰ ضمة وضمة إلىٰ فتحة فقيل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفطّن له . وسمع أعرابىّ رجلا يقول : أشهد أن محمدا رسولَ الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجل لآخر ما شانَك؟ بالنصب فظنّ أنه يسأل عن شينٍ به فقال عِظَم فى وجهى . وقال رجل لأعرابىّ : كيف أَهْلِك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهـله فتوهَّم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صَلْبا . ودخل رجل علىٰ زيادِ بنِ أبيه فقال : إنَّ أبُونا ماتَ وإن أخِينا وَثَبَ علىٰ مال أبانا فأكله — فقال زياد للَّذى أضعتَه من كلامك أضَرُّ عليك مما أضعْتَه من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال مِنْ عند أَهْلُونا ، فحسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا واللهِ أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوالُنا وأَهْلُونا﴾ فأضحكَ كلٌّ منهما من نفســه . قال صاحب "الريحان والريعان" وكان مَن يُؤْثِر عقلَه من الخلفاء يعاقِب علىٰ اللحن وينفِر من خطإ القول، ولا يجيز أن يُخاطَب به فى الرسائل البُلْدانية ، ولا أن يُوقَف به على رءوسهم فى الخُطب المَقَاميَّة قال : وهو الوجه . فأنديتُهم مَطْلَب الكمال، ومَظانُّ الصواب فى إحكام الأفعال، فكيف فى إحكام الأقوال. قال آبن قادم النحوىّ : "وجه إلىّ إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبِىّ : وهو أمير فأحضرنِى فلم أدرِ ما السببُ، فلما قَرُبت من مجلســه تلقَّانى كاتبُه علىٰ الرسائل ميمونُ بنُ إبراهيم وهو علىٰ غاية الهَلَع والجزَع، فقال لى بصوت خفىّ إنه إسحاق ! ومرّ غير متلبث حتّى رجع إلىٰ إسحاق، فراعنى ماسمعتُ، فلما مَثَلْت بين يديه، قال كيف يقال وهذا المــال مالٌ أو وهذا المــالُ مالا، فعلمت ما أراد ميمونٌ الكاتبُ فقلتُ له الوجهُ وهذا المــال مالٌ ويجوز وهذا المــال مالًا، فأقبل إسحاق علىٰ ميمون كاتبه بِغلظة وفَظَاظة ثم قال : «آلزم الوجهَ فى كُتُبك ودَعْ ما يجوز ! » ورمىٰ بكتاب كان فى يديه، فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حمله إليه فقال «وهذا المــالُ مالا» ، فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقَّع بخطه فى حاشيته تُكاتِبنى باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجـاوز موضع اللحن فى قراءة الكتاب فقامتْ عنـد إسحاق ؛ فكان ميمونٌ الكاتبُ بعـد ذلك يقول : لا أدرى كيف أشــكُر آبنَ قادم بَقَّى علىّ رُوحى ونِعْمتى . ووقف بعضُ الخُلفاء على كتاب لبعض عُمَّاله فيه لحن فى لفظه فكتب إلى عامله : قَنِّعْ كاتِبَك هذا سوطًا معاقبةً علىٰ لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدارَ أهل العلم، وبحسبه كانت الرَّغبةُ فى طلبه والحِذْر من الزَّلل . قال صاحب "الريحان والريعان" : فكيف لو أبصر بعضَ كتَّاب زماننا هــذا ؟ . قلت قد قال ذلك فى زمانه هو وفى الناس بعض الرَّمق والعلمُ ظاهر وأهلُه مُكرَمُون، وإلا فلو عَمَر إلى زماننا نحن لقال ﴿تلكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ .

ثم المَرجع فى معرفة النحو إلىٰ التلقِّى من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر فى الكُتُب المعتمَدة فى ذلك من كتب المتقدّمين والمتأخرين .

وآعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة فى زماننا عند أبناء المشرق "المفَصَّل" للزمخشرى و"الكافية" لآبن الحاجب . وعند المصريين كتبُ آبن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب آبن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعُنُ علىٰ متعلِّمى العربيــة جهلا وتعدّيا حتّٰى إنهم يحتجُّون بما يَزْعُمون أن القاسم بن مُخَيْمِرة قال : «النحو أوّله شُغل وآخره بَغْى» قال : وهذا كلام لامعنىٰ له لأن أوّل الفقه شُغْل وأوّل الحساب شُغْل وكذا أوائلُ العلوم . أفترىٰ الناس تاركين العلومَ من أجل أن أوّلها شغل؟ . قال وأمّا قوله « وآخره بغى » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه صار فيــه زَهْوٌ وآستحقَرَ مَنْ يلْحَن فهذا موجود فى غيره من العلوم : من الفقه وغيره فى بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغى التجاوُزَ فيما لا يحِلُّ فهــذا كلامٌ مُحال فإن النحو إنمــا هو العلم باللغة التى نزل بها القرءانُ وهى لغة النبى صــلى الله عليه وســلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكُتَّاب فيما مضى أرْغبَ النــاس فى علم النحو وأكثَرَهم تعظيما للعلمــاء حتّٰى دخل فيهم مَنْ لايستحقُّ هذا الآسم فصَعُب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبَعُدَتْ عليهم معرفة الهمزة التى ينضَمُّ وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتهــا وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لامعنى لها : فى كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . ـــ أمّا التعمُّق فى الإعراب والمبالغةُ فيه فإن حكمه فى الآستكراه حكْمُ التقعُّر فى الغريب ، وقد كانوا يذُمّون مَنْ يتعاناه ، ويَسْــخَرون بمن يتعاطاه . قال الأصمعى

خاصمَ عيسىٰ بن عمـر النحوىُّ رجلا إلىٰ بلال بن أبى بُرْدَةَ فجعـل عيسىٰ يُشْبِـع الإعراب ويتعمَّق فى الألفاظ ، وجعل الرجل ينظر إليه — فقال له القاضى : "لأنْ يَذْهَبَ بعضُ حَقِّ هذا أحَبُّ إليه مِنْ تركه الإعرابَ ، فلا تتشاغَلْ به وٱقصدْ بحُجَّتك".

وخاصم نحوىٌ نحويًّا آخرَ عند بعض القُضاة فى دَيْن عليه فقال : "أَصْلَحَ الله القاضى ! لى علىٰ هذا دِرْهمان" — فقال خصمه : "والله أصلحك الله ! إن هى إلا ثلاثةُ دراهم ولكنه لظهُور الإعراب ترك من حقه درهما" . فهذا وشبهه قد صار مذموما والمتشبِّثُ به مَلُوما ؛ ولذلك كان بعضُ الكُتاب لشدّة ٱقتداره علىٰ الإعراب يُعرِب كلامه ولا يُخَيَّل إلىٰ السامع أنه يُعْرِب ، فإن عرض مع التعمق فى الإعراب لحن ، كان ذلك أبلغَ فى الشَّناعة ، وأجْدَرَ بتوجُّه اللوم علىٰ صاحبه والسخرية من المتكلِّم به .

وقد قال الجاحظ : « إن أقبح اللحن لحنُ أصحاب التقعير والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم » . قال « وأقبح من ذلك لَحْنُ الأعاريب النازلين علىٰ طريق السابلة وبقُرْب مجامع الأسواق » . وعلىٰ الجملة فالنحو لا يُستغنىٰ عنه ولا يوجد بدٌّ منه ، إذ هو حَلْىُ الكلام ، وهو له كما قيل كالملح فى الطعام . قال فى "المثل السائر" : والجهل بالنحو لا يقْدَح فى فَصاحةٍ ولا بلاغةٍ ولكنه يقْدَح فى الجهل به نفسِه لأنه رُسومٌ قوم تواضَعُوا عليه وهم الناطقُونَ باللغة فوجب ٱتباعهم ؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضُه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مَجْراهما وإنما غرضُه إيراد المعنىٰ الحسَنِ فى اللفظ الحسن المتصفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة . قال : ولذلك لم يكن اللحنُ قادحا فى نفسِ الكلام : لأنه اذا قيل جاء زيد راكبٌ بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته وإنما الغرضُ أمرٌ وراء ذلك — وهكذا يجرِى الحكم فى الخُطَب والرسائل من المنثور مع

ما حُكِي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدّمين فى شعرهم ، كقول أبى نُوَاس فى محمد الأمين :

يا خَيْرَ مَنْ كانَ وَمَنْ يَكُونُ * إلا النَّبيُّ الطاهرِ المأمونُ

فرفع المستثنى من الموجب . وكقول المتنبى :

أرأيتَ هِمَّـةَ ناقتِى فى ناقةٍ * نَقَلَتْ يَدًا سُرُحا وخُفًّا مُجْمَرَا
تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ فى أوْطانِها * طَلَبًا لقَوْمٍ يُوقِدُون العَنْـبرَا
وتَكَرَّمتْ رُكَبَاتُها عن مَبْرَكٍ * تَقَعانِ فيه وليس مِسْكا أذْفَرَا

فجمع فى حالة التثنية، لأن الناقة ليس لها إلا رُكْبتانِ وقد قال رُكَبَاتها .

واعلم أن اللحن قد فَشَا فى الناس ، والألسِنَةَ قد تغيرت حتّى صار التكلم بالإعراب عَيْبا ، والنطقُ بالكلام الفصيح عِيًّا . قلت : والذى يقتضيه حالُ الزمان ، والجرى على منهاج الناس أن يحافَظَ على الإعراب فى القرءان الكريم ، والأحاديثِ النبوية ، وفى الشعر والكلام المسجوع ، وما يُدوّن من الكلام ، ويُكتَب من المراسلات ونحوها ؛ ويغتفر اللحنُ فى الكلام الشائع بين الناس الدائرِ على ألسنتهم مما يتداولُونه بينهم ويتحاوَرُون به فى مخاطباتهم ؛ وعلى ذلك جَرَت سُنَّة الناس فى الكلام مذ فَسَدت الألْسِنة ، وتغيرت اللغة حتّى حكى أن الفرّاء مع جلالة قدره وعلوّ رتبته فى النحو دخل يوما على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفرّاء أتَلْحن يا يحيى؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البَدْو الإعرابُ وطباع أهلِ الحَضَر اللحنُ فاذا حفظتُ أو كتبت لم أَلْحَن وإذا رجعت الى الطبع لَحَنت — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ فى كتابه "البيانِ والتبيين" « ومتى سَمِعت حفظك اللهُ نادرةً من كلام الأعراب فإياك أن

تَحْكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إن غيرتهـا بأن لَحَنت فى إعرابها أو أخرجْتها مَخْرَج كلام المولَّدين والبلَدِيِّين، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير؛ وإن سمعتَ نادرة من نوادر العوامّ ومُلْحةً من مُلَحهم فإيَّاك أن تستعمل لها الإعرابَ أو تتخيرَ لهـا لفظا حسـنا ، فإن ذلك يُفْسِد الإمتاع بهـا ويُخْرجها من صُورتها التى وُضعت لها ويُذْهبُ ٱستطابتَهم إياها » . قال : "واللحن من الجوارِى الظِّراف، ومن الكَواعب النَّواهِد، ومن الشَّوابِّ الملاح، ومن ذوات الخُدُور أيسرُ وربمـا ٱستَمْلح الرجلُ ذلك منهنّ مالم تكن الجارية صاحبةَ تكلُّف" ولكن إذا كان اللحن علىٰ سجيَّة سُكَّان البلد كما يستملحون اللَّثْغاء إذا كانتْ حديثة السنّ فإذا أسنت وٱكتهلَتْ سُئِم ذلك الاستملاح . قال : "وممن ٱستملح اللحن فى النساء مالكُ بن أسماء فقال فى بعض نسائه :

أمُغَطًّى مِـنِّى علىٰ بَصَرى لِلْـ * ـحُبِّ أم أنتِ أكملُ الناسِ حُسْنا؟

وحـــديثٍ ألَذُّه هو مِمَّـا * تَشْتَهِيه الأسمـاع يُوزَنُ وَزْنا

مَنِطقٌ صـائِبٌ وتَلْحَنُ أحيـا * نًا وخَيْرُ الحَديثِ ما كانَ لَحْنا"

والناس فى ذلك كله بحسب البلاد وأهلها ، ألا ترىٰ أن العرب وإن تغيرت ألسِنَتُهم بمخالطة مَنْ عداهم فإنهم لا يخْلُو كلامُهم من مُوافقة الإعراب فى بعض الكلام والجرْيِ علىٰ قواعد العربية خصوصا عَرَب الحجاز وأهل البـادية منهم . وقد قال الجاحظ فى أثناء كلامه «ولأهل المدينة ألْسِنَة ذَلِقة، وألفاظ حَسَنة، وعبارة جيِّدة؛ واللحن فى عوامِّهم فاشٍ وعلىٰ مَنْ لم ينظر منهم فى النحو غالبٌ» .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية تصرّف الكاتب فى علم العربيـــة)

وٱعلم أن ٱنتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يُلْحَق به . ومن أهم ما يُعتنىٰ به من ذلك النَّسَبُ لكثرة ٱستعماله فى الألقاب ونحوها ، وكذلك العَدَدُ فإنه مما يقعُ فيه اللَّبْس على المبتدئ؛ ومحل ذلك كلّه كتبُ النحو. الثانى فيما يقع الكاتب فيه بطريق العَرَض، فيحتاج من ذلك إلىٰ معرفة النُّحاة ومشاهير أهل العربية كأبى الأسود الدؤلى، وسيبويه، والفرّاء، وأبى على، وأبى عثمان المـازنىّ وغيرهم من المتقدّمين؛ وٱبن عُصْفور وٱبن مالك وٱبن مُعْطى وغيرهم من المتأخرين؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة فى هـذا الفن : من المبسوطـات والمختَصرات من كتب المتقدّمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التى ٱصطلحوا عليها : من ذكر الأسم، والفعل، والمعرفة، والنكرة، والمبتدإ، والخبر، والحال، والتمييز، وألقاب الإعراب: من الرفع والنصب والجرّ والجزم وغير ذلك ممـا تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم فى ٱستعمالاتهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك ليُدْرِج ما عَنّ له من ذلك فى خلال كلامه حيث ٱحتاج إليه فى التواقيع والمكاتَبات وغيرها .

قال فى «التعريف» فى وصية نحوىّ: وهو زيد الزّمان، الذى يضربُ به المثَل، وعمرو الأوان ؛ وقد كَثُر من سيبويه المَلَل ومازِنِىُّ الوقت لكنه لم يَسْتَبِح الإبل ، وكسائىُّ الدهر الذى لو تقدّم لمـا ٱختار غيرَه الرشيدُ للأمون، وذو السُّودد لا أبو الأسود على أنه ذو السـابقة والأَجْر الممنون . وهو ذو البِرّ المأثور، والقـدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذيلُ فَخَاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَر لمثله من الحَزْم ، والذاهبُ عملُه الصالح بكل العوامل التى لم يبق منهـا لحسوده إلا الجَزْم . وهو ذو الأبنيَة التى

لا يفصِح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرَف أفصحُ منهــا فيما أُخِذ عن الأعراب . والذى أصبــحتْ أهدابُه فوق عمــائم الغمائم ثلاث ، ولم يزل طُولَ الدهر يُشْــكَر منه أمسُــه ويومُه وغدُه وإنمــا الكلمات ثلاث . فلْيتصدّ للإفاده ، ولْيعلّمْهم مثل ما ذكر فيه من علم النحو نحو هــذا وزياده . ولْيكُنْ للطلبــة نَجْما به يُهْتدىٰ ، وليرفعْ بتعليمه قدر كل حبر يكون خبرًا له وهو المبتدا . ولْيقدّم منهم كلَّ من صلَح للتبريز ، وآستحق أن يُنصَب إماما بالتميز . وليُورِدْ من موارِده أعذبَ النّطاف ، وليجرّ إليه كلّ مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم علىٰ حقائق الأسمــاء ، ويعرّفْهم دقائق البحوث حتّىٰ آشتقاقَ الآسم هل هو من السموّ أو من السّماء . ولْيُبيّن لهم الأسمــاء العجمية المنقولَة والعربية الخالصــه ، ويدلّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يتشــبّه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه ، ولْيُحفّظْهم المثل وكلماتِ الشعراء ، ولْينصِب نفسه لحدّ أذهان بعضهم ببعض نَصْب الإغراء . وليعامل جماعةَ المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كله فليترفّقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

وكما قال الشــيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرس : «ولأنه فى البيان ذو الآنتقاد والآنتقاء . والعربىّ الذى كان لرِقَاب الفضلاء آبنَ مالك فإنّ قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى رسالة آقترِحت عليه فى هــذا الباب وهى : «حرس الله نعمة مولاى ! ، ولا زال كَلِمُ السعد من آسمه ، وفعله ، وحرف قلمــه يأتلف ، ومنادَى جُوده لا يُرخَّم وأحمدُ عيشه لا ينصرف . ولا عَدِم مستوصلُ الرِّزق من براعته التى لا تقف الوصلَ [1] ولا عَدِمت نُحاة الجُود

(١) بياض فى الأصل .

من نَواله كلَّ موزون ومعدود ، ومن فضــله وظله كل مقصور وممدود . ولا خاطَبتِ الأيام مُلتَمِسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوّه الا بلام الجحود . هذه المفاوضة اليه أعزه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدُنا له فعلا غدا به منتصبا للمكايد ومعتَلًّا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذاك إلا لأن معرفتَها داخلها التنكير، وقُدِّر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوتَ صُحْبته تكررت لجاز قَطعُها بسبب ذلك التكرير . وسيدُنا يعلم بالعلمية المدْكونَ[1] من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيْشُه به خفضا على الإضافة . وكان الظنّ أنّ الأشغالَ التى جُمِعت له لا تكون جمعَ تكسير بل جمع سلامة ، وآية لاتكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرفُ ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبِح معرَبُ إحسانه مبنيّا ، وأن نزيلَ كرمه يكون للنكرات بأىّ محكيّا أو أن يأتى سيدُنا بالمـاضى من الأفعال فى معنى الاستقبال ، أو أن يجعل بَدلَ غلطه الإبدال للاشتمال . أو يدغم من مودّته مُظهَرا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُخْبَرا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدبير سيدنا مصدرا . ولا بَرِح سيدُنا نسيجَ وحدِه فى أموره ! ولا زال حلمُه يتناسى الهفوات لا يشتغِلُ مفعولُه عن فعله بضميره .

النـــوع الرابع
(المعـــرفة بالتصـــريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، و زيادتها ، وحذفها ، و إبدالها فيتصرّف فيها بالجمع والتصغير والنسـبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصـغيرَها أو النسبةَ اليها ولم يعرِف الأصلَ فى حروف الكلمة و زيادتَها وحذفَها و إبدالَها ، ضلّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالدال المهملة . ودُكن المتاع تنضيد بعضه على بعض وهو غير مناسب فلعله مصحف عن المزكون بالزاى بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظُهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوىّ الجاهل بعلم التصريف كيف تصغِّر لفظة ٱضطراب فإنه يقول ضُطَيْريب(١)، ولا يلام فى ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة علىٰ خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته منها، نحو قولهم فى منطلق مطيلق وفى جَحْمرِش جحيمرش(٢) . ولفظة منطلق علىٰ خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنًى فلذلك لم تُحذَف وحُذِفت النون. وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا . فإذا بنىٰ النحوىُّ علىٰ هـذا الأصل، فإما أن يحذف من لفظة ٱضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو البـاء ، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلى فيصغر لفظة ٱضطراب حينئذ علىٰ ضطيريب، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى ٱضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلىٰ الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضتيريب فإن هذا ممـا لا يعلمه إلا التصريفىّ والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك ٱتكالا منهم علىٰ تحقيقه من علم التصريف، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه، فتكليف النحوىّ الجاهل بعلم التصريف إلىٰ معرفة ذلك كتكليفه ماليس من علمه .

قال : فثبت بمـا ذكر أن علم التصريف مما يُحتاج إليه لئلا يغلط فى مثل ذلك .

قال : ومن العجب أن يقال إنه لا يُحتاج إلىٰ معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القرّاء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قد قال فى مَعَايِش معائش بالهمز ، وهذه اللفظة ممـا لايجوز همزه بإجماع من علمـاء العربية : لأن اليـاء فيها ليست

(١) أى بإثبات الياء بعـد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفتعال كما قد يتوهم بل ألف الأفتعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحيمر كما تقتضيه القواعد الصرفية . أُنظر باب التصغير من الكتاب .

مبدلة من همزة وإنما الياء التى تبدل(١) من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكونُ بعدها حرفٌ واحد ولايكون عينا نحو سَفَائن، ولم يعلم نافع الأصلَ فى ذلك فأُخِذ عليه وعيبَ عليــه من أجله وذلك أنه آعتقدَ أن مَعِيشةً علىٰ وزن فَعِيلة تجمع علىٰ فعائِل ولم ينظر إلىٰ أن الأصل فى مَعِيشة مَعْيِشة علىٰ وزن مَفْعِلة لأن أصل هذه الكلمة من عاشَ لكن(٢) أصلها عيش علىٰ وزن فَعَل، ويلزم مضارع فَعَل المعتــل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعْيِشُ ثم تنتقل حركةُ العين إلىٰ الفاء فتصير يَعِيش ثم يبنىٰ من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعْيُوشٌ به كما يقال مَسْيُور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنَّث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة . ومن جمــلة من عابه أبو عثمان المــازنى فقال فى كتابه فى التصريف : إنــ نافعا لم يدر ما العَرَبِيّة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر فى بعض كُتُب الكُتَّاب فإذا فيه حرف مُصْلَح هو : وقد لَهَوْت عن جباية الخراج ، فاغتاظ وقال لايحكه غيرى فحَكَّه فأصلحه وقد لَهِيت باليــاء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه فى الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُساناةً ثم صارت مشاهرة ثم صارتْ مُياومةً ثم صارت مُساعاةً، فأخطأ، وكان يجب أن يقول مُساوَعة . قال فى "المثل السائر" : وكثيرا مايَقع أهلُ العلم فى مثل هذه المواضع فكيف الجُهَّال الذيــن لا معرفةَ لهم بها ولا آطِّلاعَ لهم عليها ؛ وإذا علم حقيقة الأمر فى ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِب قَدْحا ولا طَعْنــا . قال : وقد وقع الغَلَط لأبى نُوَاس فيما هو أظهر من ذلك، وهو قوله فى صفة الخمر :

كأنَّــ صُغْرىٰ وكُبْرىٰ مِنْ فَوَاقِعها(٣) * حَصباءُ درٍّ علىٰ أرضٍ من الذَّهَب

(١) أى التى تكون الهمزة بدلا منها .

(٢) لعله التى كما يقتضيه السياق .

(٣) المشهور فقاقعها . انظر شرح الأشمونى فى باب أفعل التفضيل .

فإن فُعْلىٰ أفعلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعْلىٰ التى لا أفْعَلَ لها نحو حُبْلىٰ الا أن تكون فُعْلىٰ أفعلَ مضافةً، وها هنا قد عَرِيت عن الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصُّغْرىٰ والْكُبْرىٰ أو كأن صُغْراها وكُبْراها . فانظر كيف وقع أبو نُوَاس فى مثل هذا الموضع مع قُرْبه وسُهُولته . وغلط أبو تمام أيضا فى قوله :

بِالْقائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ ٱطَّادَتْ * قَواعِدُ الْمُلْك مُمتَدًّا لَها الطُّول

فقال ٱطَّادت والصواب ٱتَّطَدَتْ لأن التاءَ تُبْدل من الواو فى موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع : لأنك إذا بنيت ٱفتعل من الوعد قلت ٱتَّعدَ وكذلك ٱتَّطَدَتْ فى البيت فإنه من وَطَد يَطِد كما يقال وَعَد يَعِد، فإذا بُنِى منه ٱفْتَعل قيل ٱتَّطَدتْ ولا يقال ٱطَّاد . وأما غير المَقِيس فقولهم فى وُجاه تُجاه وقالوا تُكْلان وأصله الواو لأنه من وَكَل فأبدلت الواو تاء للاستحسان . ثم قال : إن المخطئ فى التصريف أندرُ وقوعا من المخطئ فى النحو لأنه قلّما تَقَع له كلمة يحتاجُ فى ٱستعمالها إلىٰ الإبدال والنقل فى حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام فى تصرُّف الكاتب فى التصريف علىٰ ما تقدّم فى النحو .

النـــوع الخـامس

(المعرفة بعلوم المعانى ، والبيان، والبديع؛ وفيه مقصدان)

المَقْصِـــد الأوّل

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أنه لما كانتْ صناعةُ الكتابة مبنيَّة علىٰ سلوك سُبُل الفصاحة وٱقتفاء سَنَن

البلاغة، وكانتْ هذه العلومُ هى قاعدةَ عمود الفصاحة ومَسْقِطَ حجرِ البلاغة، اضْطُرَّ الكاتب إلىٰ معرفتها ، والإحاطةِ بمقاصدها : ليتوصَّل بذلك إلىٰ فهم الخطاب، وإنشاء الجواب ، جاريا فى ذلك علىٰ قوانين اللغة فى التركيب ، مع قُوّة المَلَكة علىٰ إنشاء الأقوال المركَّبة المأخوذةِ عن الفصحاء والبلغاء : من الخُطَب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخُلوّها عن اللَّكَن ، وتأدية المطلوب بها ، وتكميل الأقاويل الشِّعرية نَثْرا كانت أو نَظْما، فى بلوغها غايتَها وتأدية ماهو مطلوب بها، وأنها كيف تتعيَّن بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخيل الموجِب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشيء يُذْكَر بضدّه، فيذكُر المحاسنَ بالذات والعيوبَ بالعرض .

قال أبو هلال العسكرى : "فإن صاحب العربية إذا أخَلَّ بطلب هذه العلوم ، وفَرَّط فى التماسها، فاتَتْه فضيلتها، وعَلِقتْ به رذِيلة فوْتها، وعَفَّى علىٰ جميع مَحاسنه، وعَمَّى سائر فضائله ، لأنه إذا لم يَفْرُق بين كلامٍ جيِّدٍ، وآخر رديءٍ؛ ولفظٍ حَسَن، وآخر قبيح؛ وشِعْر نادر، وآخَرَ بارد، بانَ جهلُه ، وظهَر نقْصه؛ و إذا أراد أن ينشئ رسالة أو يَضَعَ قصيدة وقد فاتته هذه العلوم ، مزَجَ الصَّفْوَ بالكَدَر، وخلط الغُرر بالعُرَر؛ فجعل نَفْسه مَهْزأة للجاهل، وعبرةً للعاقل . وكذلك إذا أراد تصنيفَ كلام منثور أو تأليفَ شِعر منظوم وتخطَّى هذه، ساء اختيارُه ، وقَبُحت آثارُه ؛ فأخذ الرديءَ المردود، وترك الجَيِّد المقبول ؛ فدلّ علىٰ قصور فهمه، وتأخر معرفته ؛ مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلىٰ فهم كتاب الله تعالىٰ وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذينِ منهما يستمدُّ الكاتب شريفَ المعانى ، ويستعير فَصِيح الألفاظ؛ بل منهما تُستفاد سائر العلوم، وتُقْتبَس نفائس الفضائل". قال : "وقبيحٌ لعمرى بالفقيه المؤتَمِّ به ، والقارئ المقتدىٰ بهديه ، والمتكلِّم المشار إليه فى حسن

مناظرته، وتمـام آلته فى مجادلته، وشدّة شَكيمته فى حِجَاجه ؛ وبالعربىّ الصَّليب، والقُرَشىّ الصريح، أن لايَعْرِف فَهْمَ إعجاز كتاب الله إلا من الجهــة التى يعرفها منها الزِّنجىّ والنَبَطىّ، وأن يستدلّ عليه بما يستدلُّ به الجاهل الغبىّ".

علىٰ أن الشيخ بهاء الدين السبكى رحمه الله قد ذكر فى شرح تلخيص المفتاح أن أهل مصر لايحتاجون إلىٰ هذه العلوم وأنهم يَدْرُونها بالطبع، فقال فى أثناء خطبته : "أما أهل بلادنا فهم مستَغْنُون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذَّوْق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التى هى أرقُّ من النسيم، وألطفُ من ماء الحياة فى المُحَيَّا الوسيم، أكْسَبَهُم النيلُ تلك الحَلاوه، وأشار إليهم بأصابعه فظهَرتْ عليهم هــذه الطَّلاوه ؛ فهم يدركون بطِبَاعهم ما أفْنَتْ فيه العلمـاء فضلا عن الأعمار، الأعمار، ويرَوْن فى مِرْءاة قلوبهم الصقيلةِ ما آحتجَبَ من الأسرار، خلف الأستار.

والسَّيْفُ ما لم يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ * مِنْ طَبْعِـه لم يَنْتَفِـعْ بِصِقَال

فيالهـا غنيمةٌ لم يُوجَف عليها من خَيْل ولا رِكاب، ولم يُزْحَف إليها بعْدَ وِعيدِيَّةٍ[(١)] ولا بلَحَاق لاحِقٍ وآنسِكاب سَـكَاب ؛ فلذلك صرفُوا هِمَمهم إلىٰ العُـلوم التى هى نتيجةٌ أو مادّة لعلم البيان، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرءان". ثم قال: "وأما أهـل بلاد الشرق الذين لهم اليدُ الطُّولىٰ فى العلوم، ولا سِيَّـما العلوم العقليَّة والمَنْطق، فاستوْفَوْا هِمَمهم الشامخةَ فى تحصيله، وآستولوا بجِدّهم علىٰ جملته وتفصيله. ووردوا مناهل هذا العلم فصَـدَروا عنها بملء سِجَالهم، وكيف لا وقد أجْلَبُوا عليــه بخيلهم ورَجْلهم. فلذلك عَمَروا منه كل دارس، وعبَرُوا من حُصُونه المَشيدة ما رقد عنه الحارس. وبلغوا عَنانَ السماء فى طلبه، و"لو كان الدِّينُ فى الثريا لنالَهُ رِجالٌ من

(١) أى نوق نجائب منسوبة الى بنى العيد حىّ من العرب. ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران. انظر اللسان.

فارس" . إلىٰ أن خرج عنهم المِفْتاح، فكأنّ الباب أُغْلِق دُونهم، وظهر من مِشْكاة بلاد الغرب المصباح،فكأنما حِيل بينه وبينَهُم . وأدارت المنون علىٰ قُطْبهم الدوائر، فتعطّلت بوفاته من علومه أفواهُ المحابر وبُطون الدَّفاتر . وٱنقطعتْ زهَراتُهم الطّيبة عن المقتطِف، وتسلَّط علىٰ العَضُد لسانُ من يعرف "كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِف" . فلم نظفر بعــد هؤلاء الأئمةِ رحمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مَحَض هــذا العلم فألقىٰ للطالب زُبْدتَه، ومَحَض النُّصح فنشر علىٰ أعطاف العارى بُرْدته ، ولا حملتْ قَبُول القَبُول إلينا عنهم بِطاقه ، ولا حصَلتْ للتطلّعين لهذا العلم علىٰ تلك الأبواب طاقه، ولا رأينا بعد أن ٱنطمَست تلك الشموسُ المشرِقه، وٱندرستْ طبقةُ تحرّى الفرقه، ولم يبق إلا رسوم هى من فضائلهم مسترَقه . مَنْ أطلع غُصنٌ قلمه من روض الأذهان زهرةً علىٰ ورقه ، ولا من علّق شنه بطبقتهم فيقال وافَقَ شَنٌّ طَبَقه ، بل ركَدَتْ بينهم فى هذا الزمان رِيحه، وخبَتْ مصابيحه، وناداهم الأدب سِواكُم أعنِي: و"رُبَّ كلمةٍ تَقُول دَعْنِي" .

وما بَعْضُ الإقامة فى دِيارٍ * يُهانُ بها الفتَى إلا بلَاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل، وآذن بالتحوُّل .

وإذا الكَرِيمُ رأىٰ الخُمولَ نَزِيلَه * فى مَنْزِلٍ فالرَّأْىُ أن يَتحَوّلا

وفَزِع إلىٰ مصر فألقىٰ بها عصا التَّسْيار ، وأنشد مَنْ نادىٰ من تلك الديار .

أقمْتُ بأرضِ مِصرَ فلا وَرائى * تَخُبُّ بى الرِّكابُ ولا أَمامِى"

ولقد أحسن رحمه الله فى بيانِ السبب، والتعويل فى ٱنجِبال أهل مصر علىٰ هذا العــلم علىٰ عَلاقة الصِّهْر والنسَب . حيث قال فى أوائل خطبته فى أثنــاء الصــلاة علي النبي صلى الله عليه وسلم : صلي الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما خَفَقتِ للبلاغة راية

مَجْدٍ فى بنى غالبِ بنِ فِهْر ، وتعلَّقت بأزمّة الفصاحة أهـل مصر : لمـا لهم من نسب وصِهرْ ”.

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمـه الله فى كتابه ” حسـن التوسل إلىٰ صناعة الترسل“: وهذه العلوم وإن لم يُضطَرَّ اليها ذو الذِّهن الثاقب، والطبع السليم، والقَريحة المطاوعة والفكرة المنقِّحة، والبديهة المُجيبة، والروية المتصرِّفة ، لكن العالم بها متمَكِّن من أزمّة المعانى، وصناعة الكلام، يقول عن علم، ويتصرف عن معرفة، وينتقِد بحُجة، ويتخير بدليل، ويستحسِن ببرهان، ويصوغ الكلامَ بترتيب“ .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاتب العارِيَيْنِ عن هـذه العلوم قاصرانِ عن أدنىٰ رُتَب الكمال يحيدان ، ولا يَدْرِيان كيف يُجيبان . فلو سئل كل منهما عن علة معنًى آستحسـنه أو لفظ آستحلاه أو تركيب آستجاده ، لم يقدِر علىٰ الإتيان بدليل علىٰ ذلك .

وقد حكىٰ الإمام عبـد القادر الجُرْجانى قال : ” ركب الكِنْدىُّ المُتفلسِفُ إلىٰ أبى العبَّاس وقال له : إنى أجِدُ فى كلام العرب حَشْوا — فقال له أبو العباس فى أىّ موضع — قال : وجدت العربَ تقول عبـد الله قائم ثم يقولون إن عبـد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس : لا ، بل المعانى مختلفة لآختلافِ الألفاظِ ، فقولهم عبـدُ الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهُم إن عبدالله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب علىٰ إنكار منكر قيامه، فمـا أحار المتفلسفُ جوابا . فإذا ذهب مثلُ هذا علىٰ الكندىِّ فمـا الظنُّ بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم فى آمتزاجه بالقـلوب غيرُ الذوق الصحيح كما قال الشاعر :

شَيءٌ به فُتِن الورىٰ غيْرُ الذى * يُدعىٰ الجَمَال ولستُ أدرِى ما هُو

لكن الغالب فى الكلام أن يعلم سببُ تحسينه، وتعليل موادّ تمكينه . ويُجابَ عن العلة فى ٱنحطاطه وٱرتفاعه ، ويذكَر المعنىٰ فى ٱرتقائه من حَضِيض القول إلىٰ يَفَاعِه .

قلت : وهذا العلم وإن شحَن أُئمةُ[1] الكُتّاب — كما قال أبو هلال العسكرى فى كتابه "الصناعتين" والوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المَثَل السائر" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي فى " حسن التوسل " فإنه ليس مختصا بفنّ الكتابة بل هو آلة لكل كلامٍ ٱقتضىٰ البلاغة ، كما أن المَنْطِق آلةٌ لكل العلوم العقلية، التى يُحتاج منها إلىٰ تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنَّفات فيه كالرُّمَّانى والجُرْجانىّ وغيرهما؛ وأكثر ٱعتماد أهل الزمان فيه علىٰ تلخيص المِفتاح للقاضى جلال الدين القَزْوِينىّ فأغنىٰ ما وضع فيه عن إيراده هنا .

المقصد الثانى

(فى كيفية ٱنتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طُرُقها، أتىٰ فى كلامه بالسِّحر الحلال؛ وصاغ من ألفاظه ومعانيه مايقضِى له بالفصاحة التامّة، والبلاغة الكاملة، من وجوه تحقيق الكلام، وتحسينه وتَدْبِيجه وتنميقه . وإذا فاتَتْه هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها، نقصتْ صناعته بقدر ما يَنْقُص من ذلك . ثم كما يحتاج إلىٰ هذه العلوم بطريق الذات، كذلك يَحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة المعرفة بالبُلَغاء الذين يُضرَبُ

(١) لعله وان شحن به أئمة الكتاب كتبهم وحرر .

بهم المَثَل فى البلاغة كقُسّ بن ساعدة ، وسَحْبانِ وائل ، وعَمْرو بن الأهْتم ، ونحوهم من بلغـاء العرب؛ وآبن المقفَّع ونحوه من المُحدَثين . وكما قيل فى عىّ باقِلٍ — وهو رجل آنتهىٰ به العِىُّ إلىٰ أنه آشـترىٰ ظبيـا بأحدَ عشرَ درهما ، فسأله سائل فى الطريق ، وهو ممسك الظبىَ : بكم آشتريتَهُ ؟ فلم يُحْسن التعبير عن أحد عشر، ففرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانَهُ مشيرا إلىٰ أحدَ عَشَر فتفلَّت الظبىُ وفرّ هاربا — . وكمعرفة أئمة الصِّناعة : كالجُرجانى والرُّمَّانى . وكذلك المعرفة بالأسماء التى آصطلَح عليها أهلُها : من الفَصْـل، والوَصْل، والتشبيه كما تقـدّم ، والمقابلة ، والمطابَقَة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما آحتياجه إلىٰ المعرفة بأسماء البُلَغاء ولغةِ أهل الصناعة، فلأنه ربمـا آحتاج إلىٰ تفضيل بعض مَنْ يكتب له ممن يُنْسَب مثله إلىٰ البلاغة فيفضِّله بمساواته لبليغ من البلغاء، أو إمام من أئمة الصنعة: كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير فى ذمّ كاتب: هَـذا وهو يدَّعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحده، ومَنْ قُسُّ إياد وسَحبانُ وائل عنـده؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفا له :

أتانَا وَمَا دَاناهُ سَحْبانُ وائِلٍ * بَيانًا وعِلْمًا بالذى هو قائِلُ

فما زَالَ عِنْد اللّقْم حتّى كأنَّه * مِنَ العِىّ لَمَّا أنْ تَكَلَّمَ باقِلُ

ومما أتىٰ علىٰ ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولِى فى كلام قليل جاء ذكره فى آخر رسالةٍ كتبتُ بهـا فى تقريظ المقـرّ الفتحى ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية — وهو : "علىٰ أنِّى أستقيل من التقصـير فى إطرائه ، والتعرّض فى مدحه لمـا لا أنهض بأعبائه . فلو أن الجاحظ نَصِيرى ، وآبن المقفَّع ظَهيرى ، وقُسَّ بن ساعدة يُسْعدنى ، وسَحْبـانَ وائلٍ يُنْجِدنى ، وعَمْرو

آبن الأهتم يُرْشدنى ؛ لكان آعترافى بالتقصير أبلغ مما آتيه ، و إقرارى بالقُصُور أولىٰ مما أخفيه ، من تَوَالى طَوْله وأياديه" .

وأما آحتياجه إلىٰ معرفة ألفاظ أهل الصناعة ، فلأنه ربما ورّى بها فى تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زينُ الدين أبو بكر بن العجمىّ علىٰ البديعيّة التى نظمها عيسىٰ العالية الشاعر ، مضاهيا بها بديعية الصفىّ الحلىّ فقال :

"وبعدُ فقد وقفتُ علىٰ هــذه المعجزة التى أحيا بها عيسىٰ مَيِّتَ البديع ، وجوّد ماشاء فيها من التَّصْريع والترصــيع ، وَرَقم لأعطافها حُلَل التَّوشيح والتَّوْشيع ، ونظم لأجياد أبياتها فرائد المَعانى المستخْرَجةَ من بحر فكره علىٰ يَدِ يراعه المُرِيع ، وقلدها من دُرَر لفظه بمــا هو أزهىٰ من زَهْرِ الزُّهْرِ علىٰ نهر المَجرة وهالات البُدُور ، وشَنَّفَ المسامعَ منها بمــا هو أبْهىٰ من النور فى العُيون وأوقعُ من الشفاء فى الصُّدور ، وأوْلج الليل فى النهار بما طَرَّس به الطُّروس ، وأطلعَ فى ذلك الليل مِن ناصع معانيه نجومًا تُزْهى علىٰ الشموس ، وأوْدعَ المَهارِقَ[1] شُــذُورا تُزَيِّف ذهب الأصائل ، وتُسْفِر عن وجوهِ حِسان تفوق آبْتسامَ ثُغور الأزاهر بين الخَمــائِل ؛ وسلك فى البــديع طريقة مُثْــلىٰ ، أظهر فيها من شَهْد ألفاظه وجواهر مَعانيــه ماحَلَا وحَلّى ؛ ولم يَدَع للحِلِّىّ فى بهجتها مَحلّا ؛ وأحسن التذييل والترشيح والتهكم عليه ، من غير آلتفات لمــا أهمله ولم يتعرّض إليه ؛ وعادت المعانى تأوِى من حُسْن تصرفه إلىٰ ركنٍ شديد ، وتَحْوى بشَبَا أقلامه كل مارامه من تأبيد التأييد ؛ وتلقِى مقاليدَها منه إلىٰ ملىّ بحسن التحيُّل والتحوُّل فى نظمه ونثره ، وتحكم لمن حَكَم له بكمال وصفه ووَصْف كماله بأنه نسيجُ وحدِه وفريد عصرِه ؛ وأجرىٰ فى حَلْبة البديع جيادَ أقلامه فحاز قَصَب الرِّهان ، وأصفىٰ لها موارد النَّفْس فارتوت وآستخرجَتْ من ظُلُمــاته جواهِرَ البيان ؛ ونطقَتْ بمــا هو

(١) المهرق كمكرم الصحيفة معرب جمعه مهارق . قاموس .

المألوف من غرائب حِكَمِه الحسان؛ وتأملتها فوجدتُها قد أجاد فيها براعة المَطْلَع، وبالَغ فى تحسين المَنْزَع والمَقْطَع؛ ودخل جِنان الجناس فاجتنىٰ من قُطوفها الدانية ماراق، وآطّردتْ له أنهارُها فآستطرد منها فى أعلىٰ الطِّبَاق؛ وقابل وجوهَ حُورها أحسن المقابله، آمنًا فيها من الآشتراك والمماثله؛ وأوضح الفُروق بين التَّوْرِيَة والإبهام، والتوجيه والآستخدام؛ وأبان فى التتميم نقصَ أبى تَمَّام، وأوجب فى إبهامه عقدَ الخناصر علىٰ نظمه، وفوّض بنزاهته التسليمَ له وطلبَ سِلْمِه؛ ولم يقنع بما فيه الآكتفاء من التذييل والتذنيب، بل أتىٰ فى الآستدراك علىٰ من تقدّمه بالعَجَب العَجِيب؛ معتمدًا فى تكميل مقاصده الآقتصار والإيجاز، ولو آدّعىٰ الإعجاز علىٰ الحقيقة لا المجاز لجاز؛ وتحققتُ أن ليس له فى هذا الفن مُقاوٍ ولا مقاوم، ولا مساوٍ ولا مساوم؛ فكم جلب من بحر براعته دُرّة أشرقت فى ليالى الفترة المسودّة، وكم حلب من ثدى يراعته دِرّة[(1)] لها ألف زُبْده؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع البحرين، وسمع ورأىٰ من فصله الجزل وفضله الجزيل ماهو عين المراد ومراد العين؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وآبتكاره صَبَاحَ الوجوه الصِّباح، وخَفَق فى الخافقين لمَقاصده وبصائره جَناحُ النجاح. قد أصبحت كلماتُه لحُصورالفرائد مَناطق، ولبدُور الفوائد مَشارق؛ واطلائع أسرار المَبانى، آلات، ولمَطالع أقمار المعانى، هالات؛ وقد وقعتُ حين وقفْتُ علىٰ بديعيته هذه بين داءين كل منهما الأخطر، وبين أمرين أَمَرَّيْن كل منهما الأعسر؛ إن لم أكتبْ عليها شيئا فقد أخللت بالفرض الواجب، وإن كتبتُ فقد فضحتُ نفسى وعرّضتها للمعايب؛ ولكنى رُحت علىٰ ظَلْعى متحاملا، وغدوتُ علىٰ حسب طاقتى فى هذا الباب قائلا:

---

(١) الدرة بالفتح المرة وبالكسر هيئة الدر وكثرته. مصباح [وقد أعجم الذال فى الأصل وهو من إهمال الناسخ كما هو ظاهر].

عَاشَ البَدِيعُ وكانَ مَيْتًا وٱنثنىٰ * بادِى المَحاسِنِ زاهِيًا مَحْروسَا
أحياه عيسىٰ نجلُ حَجَّاجٍ وكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أَحْياه قِدْما عِيسىٰ

النـــوع الســادس

(حفظ كتاب الله العزيز، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيــان ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك فى كتابته)

قال فى "حسن التوســل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالىٰ، و إدامة قراءته، وملازمة درســه، وتدبر معانيــه، حتّى لا يزال مصوّرا فى فكره، دائرا علىٰ لسانه، ممثلا فى قلبه ليكون ذاكرا له فى كلامه وكل مايرد عليه من الوقائع التى يحتاج إلىٰ الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلىٰ قيــام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلّٰهِ الحُجَّــةُ البالِغَةُ﴾ وكفىٰ بذلك مُعِينا له علىٰ قصده، ومُغْنيا له عن غيره. قال تعالىٰ ﴿مافَرّطْنا فى الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تِبيانًا لِكُلِّ شىء﴾. قال فى "المثل السائر" كان بعضهم يقول: لو ضاع لى عِقَال لوجدته فى القرءان الكريم. قال فى "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل مايدور بين الناس فى محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قُصور كل لفظ ومعنًى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلا سأل بعض العلماء أين تجد فى كتاب الله معنىٰ قولهم "الجارُ قبلَ الدار"؟ قال فى قوله تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبــل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختلف فى جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم فى المكاتبات ونحوها : فذهب أكثر العلماء إلىٰ جواز ذلك مالم يُحَلْ عن لفظه ولم يتغير معناه . فقد ثبت فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كَتَبَ فى كِتَابِهِ إلىٰ هِرَقْلَ ﴿ قُلْ يٰـأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ إلىٰ قوله مسلمون ؛ و روى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم ، فكتب أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه فى عهده لعمر بن الخطاب ﴿ ولِكُلِّ آمْرِئٍ ما آكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ . وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ علىٰ ما سيأتى فى ذكر عهود الخلفاء إن شاء الله تعالىٰ . وكتب علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فى آخر كتاب إلىٰ معاوية "وقد علمتَ مواقعَ سُيُوفنا فى جَدِّك وخالك وأخيك ﴿ وَمَاهِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . وقال للمغيرة آبن شعبة لما أشار عليه بتولية معاوية ﴿ وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ . وكتب إلىٰ عامل من عُمَّاله بعد البسملة ﴿ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ . وقال الحسن بن علىّ لمعاوية حين نازعه فى الخلافة ﴿ وإنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ومَتَاعٌ إلىٰ حِينٍ ﴾ . ويروى عن آبن عباس مثلُه . وكتب الحسن إلىٰ معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين وكافَّةً للناس أجمعين ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلىٰ الكَافِرِينَ﴾ . وكتب محمدُ بن عبد الله بن الحسن بن علىٍّ إلىٰ المنصور فى صدر كتاب ﴿ طسم تِلْكَ ءاياتُ الكِتَابِ المُبِينِ ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . ولم يزل العلماء وفضلاء الكُتَّاب يستشهدون بالقرءان الكريم فى مكاتباتهم فى القديم والحديث ، من غير نكير ؛ وذلك كله دليل الجواز . ونقل عن الحسن البصرىّ ما يدل علىٰ كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر على رجل آستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان : بلغني أن أمير المؤمنين عَطَس فشمّته مَنْ حضر فردّ عليهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . قال في "حسن التوسل" : وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره على الحجاج لكونه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلى أنّ كل ماأراد الله به نفسه لا يجوز الآستشهاد به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه مثل قوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقوله ﴿ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله تعالى .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنًى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال في "المثل السائر" وإذا ضُمِّنت الآياتُ في أماكنها اللائقة بها ، ومواضعها المناسبة لها ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفَخَامة والجزالة والرونق . قال في "حسن التوسل" : ومن شرف الآستشهاد بالقرءان الكريم إقامةُ الحجة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال في "حسن التوسل" : وأين قول العرب — القَتْلُ أنفى للقتل — لمن أراد الآستشهاد في هذا المعنى من قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرّية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك فقرأ عليه ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ فعيسى آبن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدةَ تقوم في بلوغ الغرض ، وتوفيَة المقاصد مالا تقومُ به الكتب المطوّلة والأدلة القاطعة .

فمن أَخْصَر ماوقع في ذلك وأبلغ أنه كان على الروم بهِرَقْلَة في أيام الرشيد آمرأةٌ منهم ، وكانت تُلاطفُ الرشيدَ ولها آبن صغير ، فلما نشأ فوضتْ الأمر إليه فعاثَ

وأفسدَ وخاشَنَ الرشيد، فخافَتْ علىٰ مُلْك الروم فقتَلَتْ ولدَها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يَقْفُور فقتلها وٱستولىٰ علىٰ المُلْك وكتب إلىٰ الرشيد : أما بعد، فإن هـذه المرأةَ وضَـعَتْك موضِعَ الشاه، ووضَعَتْ نفسَها موضعَ الرُّخّ، وينبغى أن تعلَمَ أنى أنا الشاه وأنت الرُّخّ فأدّ إلىَّ ما كانت المرأةُ تؤدّى إليك ! فلما قرأ الكتاب . قال للكُتّاب : أجيبُوا عنه فأتَوْا بمـا لم يَرْتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا . فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلىٰ يَقْفُور كلبِ الروم . أما بعدُ، فقد فهِمت كتابَكَ ، والجوابُ ما تراه لا ماتسمَعُه، والسلام علىٰ منِ ٱتَّبَع الهُـدىٰ .

ثم خرج فى جمع له لم يُسمَع بمثله فتوغَّل فى بلاده وفتك وسبىٰ . فأوقد يَقْفُور فى طريقة نارا شديدةً فخاضها محمد بن يزيد الشيبانى، وتبعه الناس حتّى صاروا من ورائها؛ فلمـا رأى يقفُور أنه لا قِبَـلَ له به، صالحه علىٰ الجزية يؤدّيها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته .

وكتب ملك الروم إلىٰ المعتصم يتوعّدُه ويتهدّده فأمر الكتّاب أن يكتبُوا جوابه فلم يُعْجِبه ممـا كتبوا شىء فقال لبعضهم اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعـد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجوابُ ما ترى لا ماتسمع (وسَيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبىٰ الدار). هذا مع ماينسبُ إليه المعتصم من ضعف البَصَر بالعربية كما تقدّم فى الكلام علىٰ اللغة . ولا يستكْثَرُ مثلُ ذلك علىٰ الطبع السليم، والرجوع إلىٰ سلامة العُنْصُر وطِيب المَحْتِد .

ومثل ذلك فى الجواب وأخصر منه أن الأدفونش ملك الفرنج بالأَنْدَلس . كتب إلىٰ يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس ، بخط وزيرله يقال له

ٱبن الفخار : بٱسمك اللهمَّ فاطِرَ السموات والأرض والصلاة على السيد المسيح ٱبن مريم الفصيح ، أما بعدُ : فلا يخفى على ذى ذهنٍ ثاقب ، وعقل لازِب ، أنى أميرُ الملة النصرانية ، كما أنك أمير الملة الحنيفية ، وقد علمتم ماهم عليه رؤساءُ جزيرةِ الأندلُس من التَّخاذُل والتواكُلِ والإخلاد إلى الراحة وأنا أسُومُهم الخسف وأُخْلِي منهم الديار ، وأجُوسُ البلاد ، وأَسْبِي الذرارىّ ، وأقتُل الكهولَ والشُّبَّان لايستطيعون دفاعا ، ولا يُطِيقون ٱمتناعا ، فلا عذر لك فى التخلف عن نَصْرهم ، وقد أمكنَتْك يدُ القدرة ، وأنتم تعتقدون أن الله عزّ وجل فَرَض عليكم قِتَال عشرةٍ منا بواحد منكم ، والآن خَفَّف اللهُ عنكُمْ وعَلِم أنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فلتُقاتِلْ عشرة منكم الواحدَ منا ؛ ثم بلغنى أنك أخذْتَ فى الٱحتفال ، وأشرفْتَ على ربوة الإقبال ، وتُماطِل نفسك عاما بعد عام : وأراك تُقَدِّم رجلا وتؤخِّر أخرى ؛ ولست أدرى إن كان الجُبْنُ أبطأك أو التكذيبُ بما أنزل عليك ربُّك ؛ ثم حُكِى لى أنك لا تجد إلى الجواز سبيلا لعلة لا يجوز لك التفخم(١) به معها ؛ فأنا أقول ما فيه الراحةُ لك ، وأعتذِرُ لك وعنك ، على أن تفِي لى بالعُهود والمواثيق والٱستكثار من الرهن ، وترسل إلىّ بجملة من عبيدك بالمراكب والشَّوانى ، وأجُوز بجُملتى إليك ، وأبارزك فى أعز الأماكن عليك ؛ فإن كانتْ لك فغنيمةٌ وُجِّهتْ إليك ، وهديَّة عظيمة مَثَلتْ بين يديك . وإن كانتْ لى كانت يدى العُليَا عليك وأستوجب سيادة الملتين ، والحكم على الدِّينَيْن ، والله تعالى يسهِّل ما فيه الإراده ، ويوفق للسعاده ؛ لارب غيره ، ولا خير إلا خيره .

فكتب رحمه الله جوابا على أعلى كتابه ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

---

(١) كذا فى الأصل بالفاء والخاء المعجمة ويظهر أنه تصحيف عن التقحم بالقاف والحاء المهملة والتقحم فى الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيوب كتب إلىٰ الديوان العزيز ببغداد كتابا يعدّد فيه مواقِفه فى إقامة دعوة بنى العباس بمصر . فكُتِب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصد الثانى

(فى كيفية ٱستعمال آيات القرءان الكريم)

وٱعلم أن تضمين الكلام بعضَ آى القرءان الكريم ينقسم عند أهل البلاغة إلىٰ قسمين :

أحدهما — الاستشهادُ بالقرءان الكريم ، وهو أقلهما وُقُوعا فى الكلام ودَوَرانا فى الاستعمال : وهو أن يضمَّن الكلام شيئا من القرءان الكريم وينبه عليه مثل قول الحريرى فى مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . وقول أبى إسحاق فى عهدٍ لملك عن خليفةٍ بعد الأمر بالتقوى والحثّ عليها : فإذا ٱطّلع الله منه علىٰ نَقاء جيبه ، وطَهارة ذيله ، وصِحّة مُروءته ، وٱستقامة سيرته ، أعانه علىٰ حفظ ما ٱستحفظه ، وأنهضه بثقْل ما حمله ، وجعل له مخلصا من الشُّبْهة ، ومَخْرجا من الحَيْرة . فقد قال الله تعالىٰ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال عز ٱسمه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إلىٰ آيٍ كثيرة حضّنا بها علىٰ كَرَم الخُلُق ، وأَسْلَم الطُّرُق ؛ فالسعيد من نَصَبها رأْىَ ناظره ، والشقىُّ مَن نبذَها وراء ظهره ، وأشقىٰ منه من يَحُثُّ عليها وهو صادفٌ عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ وأكثر مشى الصابى فى كتابه علىٰ هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه علىٰ آى القرءان فى خلال كلامه، دون الإشارة إليه، والاقتصار علىٰ اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قدمة (١) كتب بها لمظفر الدين موسى بن أقوش وقد صرع لغلغة، وادّعىٰ بها للملك المؤيد صاحب حماه : نحمده علىٰ توفيقه الذى ساد به من ساد وسما، وأصاب بتفويقه بمعونة ربه طير السما، فحسن أن يتلىٰ ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ ﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام علىٰ فضل الكتابة : فقد نطق القرءان الكريم بفضلها، وجاءت السنّة الغرّاء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه علّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلىٰ أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذانا بأن منحها من أوفر جوده وفائض ديمه، وقال جلت قدرته ﴿ ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتىٰ بذلك فى آكد قسم، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلّت عظمته ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين ﴾ . فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما منعها النبيّ صلى الله عليه وسلم معجزةً قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقرّ البدرى بن فضل الله :

---

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدوم المظفر بعد صرع العدوّ المسمى لغلغة .

قلت حَسْبُك قد دلني عليه عُرْفه ، وأرشدَنِى إليه وَصْفُه ؛ وبان لى مَحْتِدُه الفاخر وحَسَبُه الصميم ، وعرفت أصلَه الزاكِىَ وفرعَه الكريم ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيـمِ ﴾ .

وقولى فى آختتام هـذه المقامة معبرًا عن المقرّ البدرىّ المشار إليه : فلما تحقّقت أنى قد أُثبتُّ فى ديوانه ، وكنت من جُمـلة غِلْمـانه ، رجعْتُ القهقرىٰ عن طلب الكسب ، وتساوىٰ عندى المَحْل والخِصْب ؛ فآستغنَيْتُ بنظَرى إليه عن الطعام والشراب ، وتحققْت أن نظرة منه تُرَقِّينى إلىٰ السحاب ، وتلوتُ بلسان الصدق علىٰ الملإ وهم يسـمعون ﴿ قُلْ بِفَضْـلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِـه فَبِذَلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَـيْرٌ مِمَّـا يَجْمَعُون ﴾ .

وقولى فى بَيْعة خليفة أنشأتُها بعد ذكر تحاليف أهل البَيْعة : وَأَشْهَدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمـة الأعلام ، والشهود والحُكَّام ، وجعـلوا الله علىٰ ما يقولون وكِيلا ، فآسـتحق عليهـم الوفاء بقوله تعـالىٰ ﴿ ولا تَنْقُضُوا الْأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدها وقَدْ جَعلْتُمُ اللهَ عَلَيْـكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغَبون إلىٰ الله تعـالىٰ أن يُضاعف لهم بحسن نيتهم الأُجور ، ويلجـُون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالىٰ إليه بقوله ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّـلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ولِلّٰهِ عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ .

وقولى فى بيعة أخرىٰ : والله يجعل آنتقالَهم من أدنىٰ إلىٰ أعلىٰ ، ومن يُسرىٰ إلىٰ يمنىٰ ، ويحقّق لهم بمن آسـتخلفه عليهم وعدَه الصادق بقوله تعـالى ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى آرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثـانى — الاقتباس وهو أن يضمِّن الكلام شيئا من القرءان، ولا ينبه عليه : كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده علىٰ فواضلَ زادت محاسنَ العلوم . وعَرَّفتْ تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك : وسماء الشبيبة بضحىٰ المَشيب قد تجلَّت، والنفسُ قد ﴿ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ .

وقول ابن نبـاتة السـعدى فى بعض خطبه : فيأيها الغَفَلة المُطْرِقون . أما أنتم بهذا الحديث مُصَـدِّقُون . مالكم لاتسمعون . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالَمين خَلْقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وَقُودا . يوم تكونوا[1] ﴿ شهداء علىٰ الناس ويَكُونَ الرَّسُولُ عليكم شهيدا ﴾ . ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أتظنون أنكم دون غيركم مخلَّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب ﴾ . حتّٰى أنشد فأغرب . وقوله : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليله .

وقول ضـياء الدين بن الأثير فى فصـل من كتاب فى مدح الجُود وذمّ البخل : وقد علم أن المـال الذى يُخْتَزَن ، كالمـاء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل الأيدى عن امتياح مَشارِبه[2] . فكذلك يأجُنُ هـذا بتعطيل الأيدى عن امتناع مَواهبه . وأىّ فرق بين وُجوده وعدمه لولا أن تُمْلَكَ به القلوب . وتُفَلَّ به الخُطوب . ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذى ليس برَكُوب ، ومن بسطَ يده فيه ثم قبضها بُخْلُه ، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .

(٢) لعله امتناح بالحاء المهملة .

يقف دون الرجال مغْمُورا . ويقْعُد عن نيل المَعـالِى محسورا . وإذا أدركته منيّتُه مضىٰ وكأنه لم يكُنْ شيْئاً مذْكُورا * وقوله فى وصف كاتب : له بنتُ فكرٍ ما تمخّضتْ بمعنًى إلا نُتجتْه من غيرِ ما تُمهِله . و﴿أتَتْ به قومَها تحملُه﴾ . ولم تُعْرَض علىٰ ملإٍ من البلغاء إلا ألقَوْا أقلامَهُم أيُّهم يستعيرُه لا أيُّهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى من عهد لسلطان : وجمع بك شمْلَ الأمة بعد أن كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُـم ، وعَضَدك(١) لإقامة إمامتِه بأولياءِ دولتِك الذين رضى الله عنهم ، وخصّك بأنصارِ دينِه الذين نَهَضُوا بِمـا أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون ﴿ وقَلّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتّى جاءَ الحَقُّ وظَهَـرَ أَمْرُ الله وهم كارِهُونـ ﴾ . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاچين : وجعل عدوّه وإن أعرض بجيوش الرُّعْب محصورا . وكفاه بالنصر علىٰ الأعداء التوغُّلَ فى سـفك الدماء فلم ﴿ يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إنّهُ كانَ مَنْصُورا ﴾ . وقوله فى خطبة صداق فى وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضىٰ دينهم . وجمع بين متفرّقِينَ ﴿لَوْ أنفَقْتَ مَافِى الأَرْضِ جميعاً ماأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِـمْ ولَكِنَّ الله ألَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾. وقوله من توقيع بإمامة صـلاة : وليعلم أنه فى المحراب مُنَاجٍ لربه . واقفٌ بين يدَىْ من ﴿ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِه ﴾ .

وقولى فى خطبة هـذا الكتاب فى الإشارة إلىٰ فتح الديار المصرية : فتوجَّهَتْ إليها عزائم الصحابة زمنَ الفاروق فجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ ، وعَمْرها وسهلها . واقتطعتْها أيدى المسلمين من الكُفّار ، وكَانُوا أحَقَّ بِهـا وأهْلَها . وقولى فى المقامة المتقدّمة الذكر : قال إذَنْ قد تعلّقتَ من الصنعة بأسبابها . وأتيتَ البيُوت مِنْ أبوابِهـا . وقولى فيها : قلت قد بانت لى عُلُومها . فمـا رُسُومها؟ — قال إن أعباءها لباهظة حِملا . وإنّها لَكبِيرةٌ إلا . ولكن سأُحدِثُ لَكَ ذِكْرا . وأنبّئُكَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِه خُبْرا .

(١) هو من باب نصر بمعنى أعانك .

وقولى فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الصلاة علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين قامت بنُصْرتِهم دولةُ الإسلام فسَمَتْ بهم على سائر الدول . وكَرَعتْ فى دماء الكفر سيوفُهم فعادت بخَلُوق النَّصر لا بحُمْرة الخَجَل . صلاة ينقضى دون ٱنقضائها تعاقُبُ الأيام . وتَكِلُّ ألسِنة الأقلام عن وصفها وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَام .

وربما ٱقتصر علىٰ التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضى الفاضل فيما كتب به عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلىٰ الديوان العزيز ببغداد فى الٱستصراخ وتهويل أمر الفرنج : رَبِّ إنِّى لا أَمْلِكُ إلَّا نَفْسِى ، وها هى فى سبيلك مبذوله ، وأخِى وقد هاجر إليك هِجْرة يرجوها مقبوله .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غُبار الحرب : وعقَدَ العجاجُ سقفا فانعقد . وأرانا كيف رفع السماء بغَيْر عَمَد . غير أنها سماء بُنِيتْ بسَنابك الجياد . وزينت بنُجوم الصِّعاد . ففيها ما يُوعَد من المنايا لا ما يُوعَد من الأرزاق . ومنها تُقذَف شياطينُ الحرب لا شياطينُ الٱستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : "والطريق فى ٱستنباط المعانى من القرءان الكريم وٱستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمِدَ إلىٰ سورة من القرءان ، وتأخُذ فى تلاوتها وكلما مرَّ بك معنًى أثبتَّه فى ورقة مفردة حتّى تنتهى إلىٰ آخرها ، ثم تأخُذ فى ٱستعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلما عاودت التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى مالم يظهر لك فى المرّة التى قبلها" .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الٱستعمال علىٰ عدّة وجوه يورده الناثر فى معنى ثم ينقله لمعنًى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالىٰ حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ . فقال فى دعاء كتاب : وصــل كتاب من الحضرة السامية أحســن الله أثرها، وأعلىٰ خَطَرها، وقضىٰ من العلياء وطَرها، وأظهر علىٰ يدها آياتِ المكارم وسُوَرَها، وأسجد لها كواكب السـيادة وشمسَها وقمرها . ثم أبرزه فى معنى آخر فقال أكرمُ النعم ما كان فيه ذكرىٰ للعابدين . وتقدّمه إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَعَشَرَكَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُــمْ لِى سَاجِدِينَ . فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير . وتجلو ظُلمة الخَطْب بإيضاح المنير . فٱنظر إلىٰ أَثَرِ رحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِها إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي المَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير . ثم نقله إلىٰ معنًى آخر فقـال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنـين أدنىٰ مجلسه من سمــائه، وآنســه علىٰ وحدة الٱنفراد بحُفَّل نَعمائه . ورفعه حتّٰى ودّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من نُدَمائه . وذلك مقام لا تَستطيع الجُــدود أن ترقىٰ إلىٰ رتبته . ولا الآمال أن تَطُوفَ حول كعبته، ولا الشِّفاه أن تتشرَّف بتقبيل تُرْبته . فليَزْدَدْ إعجابا بمــا نالَتْه من مواطئ أقدامه، ولينظُرْ إلىٰ سجود الكواكب له فى يَقَظته لا فى منامه .

قال فى "حسن التوسل" والناس فى ٱستخراج المعانى من القرآنــ الكريم، وٱستعمالها فى الكلام علىٰ قدر طبقاتهم وتفاوُت درجاتهم . فمفرط فى الحسن ومفرّط وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلىٰ حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقتبس من معانيه كذلك يحتاجُ إلىٰ معرفة العلوم المختصَّــة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ، ومعرفة رجالهــا، ومن ٱشتهر منهم وعرف بجودة القراءة، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم؛ ليمــاثل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم؛ فى خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقا لذلك كما قال فى "التعريف" فى وصية مقرئ فى القسم الثالث من الكتاب : وليدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُرْبه، وصَباح القبول المؤذن له برضا ربه؛ وليجعل سُوَره له أسوارا، وآياته تظهر بين عينيه أنوارا . وليتل القرءان بحروفه وإذا قرأ ٱستعاذ، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويترك الشواذّ . ولا يرتَدّ دون غاية لإقصار، ولا يقِفْ فبعد أن أتَمّ لم يبق بحمد الله إحصار، وليتوسع فى مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار، وليبذل للطلبة الرِّغاب ، وليُشْبع فإنَّ ذوى النَّهْمة سِغاب . ولْيرِ النـاسَ ما وهبه الله من الٱقتدار فإنه ٱحتضن السَّبع ودخل الغاب ، وليتمَّ مبانِيَ ما أتم ٱبن عامر وأبو عمرو له التعمير، ولَقَّه الكسائىّ فى كِساه ولم يقلْ جَدّى ٱبنُ كثير، وحُمَّ به لحمزة أن يعودَ ذاهب الزمان، وعرف أنه لاعاصمَ من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطُّوفان، وتدفَّق يتفجَّر علما وقد وقفت السيول الدوافع ، وضرَّ أكثرَ قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو نافع ، وليُقْبِل علىٰ ذوى الإقبال علىٰ الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد ٱنتسب . وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النعماء، ووصل سببَه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلى السماء . فليقدُرْ حقّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهىٰ وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

النـــوع السابع

(الٱستكثار من حفظ الأحاديث النبوية علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال "فى حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية، والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم، وخصوصا فى السير، والمغازى،

والأحكام؛ وتأمّلِ فصاحتها، والنظر فى معرفة معانيها وغريبها ؛ وفقه ما لا بدّ من معرفته من أحكامها لينفقَ منها علىٰ سَعة، ويستشهدَ بكل شىء فى موضعه، ويحتجَّ بمكان الحجة، ويستدلَّ بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبنىَ كلامه علىٰ أصل لا يُزَلْزَل، ويسوق مقاصده إلىٰ سبيل لا يَضِل عنه، فإن الدليل علىٰ المقصِد إذا ٱستَنَد إلىٰ النص قويت فيه الحجة، وسلَّم له الخصم، وأذعن له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طُلِبت غايتها فإنها بعـد كتاب الله فى كلام من أُوتِىَ جوامعَ الكلم وقال : "أنا أَفْصَحُ مَنْ نَطَق بالضَّاد" .

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به فى مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجَمُوح ويستسهل الصَّعْب، وقد رجع الأنصار يوم السَّقِيفة إلىٰ حديث "الأَئمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ" حيث رواه لهم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، وأذعنوا له، وبايعوه بعـد ما ٱجتمعوا إلىٰ سعد بن عُبَادة وقالوا : "مِنَّا أميرٌ ومِنكُمْ أَميرٌ" . علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ورجع عمر رضى الله عنـه لحديث النهى عن دُخُول بلد الطاعون فعاد إلىٰ المدينـة بعد أن قارب الشأم حين بلغه أن به الطاعونَ . وقال علىّ رضى الله عنه فى حق الأنصار : "لو زالُوا لَزُلْت معهم" لقول رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "أزُولُ مَعَكُم حَيْثُ ما زُلْـتُم" .

ثم الذى أشار إليه ٱبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أن الأحاديث التى ينبغى للكاتب حفظها الأحاديثُ المتعلقة بالفقه وأحكامه : كقوله صـلى الله عليه وسلم : "البَيِّنةُ علىٰ المُدّعِى . واليمينُ علىٰ المدَّعىٰ عليه . والخَرَاج بالضَّمان . وجَرْح العَجْماء جُبار .

ولا يَغْلَق الرهنُ (١) . والمِنْحة مردودة . والعارية مؤدّاة . والزَّعيم غارم . ولا وصيَّة لوارث . ولا قَطْعَ فى ثَمر ولا كَثَر . ولا قودَ إلا بحديدة . والمرأة تُعاقل الرجلَ إلىٰ ثلُث ديتها . ولا تعقلُ العاقلةُ عمدا ولا عَبْدا ولا صُلْحا ولا ٱعترافا . ولا طَلاقَ فى إغلاق ، والبَيِّعانِ بالخيار ما لم يتفرّقا . والجارُ أحقُّ بصَقَبه . والطلاقُ بالرجال والعِدّة بالنساء . وكنهيه فى البيوع عن المُخابَرة والمحاقَلة ، والمزابَنة ، والمُعاوَمة ، والثُّنْيا ، وعن ربح ما لم يُضْمَن ، وعن بَيْع ما لم يُقْبض ، وعن بَيْعتَيْنِ فى بَيْعة ، وعن شرطَيْن فى بيْع ، وعن بَيْعٍ وسَلَف ، وعن بَيْع الغرر و بيع المُواصفة ، وعن الكالِئ بالكالئ ، وعن تلَقِّ الركبان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطالات الفقهاء " .

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحِكَم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثرُ الٱستشهاد به فى الكتابة والٱقتباس من معانيه . قال فى "المثل السائر" : و ينبغى أن يكون أوّلَ ما يحفظه من الأخبار ما تضمَّنه كتابُ "الشهاب فى المواعظ والآداب" للقضاعى ، فإنه كتاب مختصر و جميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمَّن حِكَمًا وآدابا ، فإذا حفظته وتدرّبت بٱستعماله ، حصل عندك قوة علىٰ التصرف والمعرفة بما يدخل فى الٱستعمال وما لا يدخل ؛ وعند ذلك تتصفَّح كتاب صحيح البخارى ، ومسلم ، والموطإ ، والترمذى ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وغيرها من كتب الحديث ؛ وتأخذ ما تحتاج إليه ، و "أَهْلُ مَكَّةَ أخبرُ بشِعَابِها" . قال والذى تأخذه إن أمكنك

---

(١) الحديث فى المصباح لا يَغلَق الرهن بما فيه . أى لا يستحقه المرتهن بالدَّين الذى هو مرهون به .

درســه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة؛ وإن كان لك محفوظاتٌ كثيرة : كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدّمت الإشارة اليه وما يأتى ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من آستعمالها فى كلامك، حتّى ترتقم على خاطرك فتكون إذا آحتجت منها إلى شيء وجدته، وسهل عليك أن تأتى به آرتجالا؛ فتأمل ذلك وآعمل به . ثم قال وكنت جرّدت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها فى الآستعمال، وما زلت أواظب مطالعتَه مدّة تزيد على عشر سنين، فكنت أُنْهِى مطالعته فى كل أسبوع مرة حتّى دار على ناظرى وخاطرى ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ منه عنى شيء .

المقصـــد الثـانى

(فى بيان كيفية آستعمال الأحاديث والآثار فى الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير : وآعلم أن أكثر الأحاديث تدخل فى الآستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بينى وبين بعض علماء الأدب فى هـذا الأُسلوب كلامٌ فآستوعره وآستنكره، وقال : هذا لا يتهيأ إلا فى الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا ؛ بل يتهيأ فى الأكثر منها — فقـال قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنَّهُ آختُصم إليه فى جنين فقضىٰ علىٰ مَنْ أسقطه بغرّةٍ عبد أو أمة" فأين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو : "قد كثُر الجهل حتّى لا يقـال فلان عالم وفلان جاهل وضُرِب المثلُ بباقل وكم فى هـذه الصورة الممثّلة من باقل، ولو عرف كل إنسان قدرَه لما مشىٰ بدنٌ إلا تحت رأسه، ولا آنتصب رأسٌ إلا علىٰ بدنه، ولكان صاحبُ العمامة

أحقُّ بعمامته وصاحب الرسن أحقُّ برسنه . وكنت سمعتُ بكاتب من الكُتَّاب كَلِمُه إلىٰ غَثَائه ، وقَلَمُه بُغاثةٌ لا يَستَنْسر وأىُّ بطش لُبُغَاثَه . و إذا وجب الوضوء علىٰ غيره بالخارج من السبيلين ، وجب عليه من سُبُل ثلاثه . هذا وهو يدَّعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحده ، ومَنْ قُسُّ إيادٍ أو سَحْبانُ وائلٍ عنـده ؛ و إذا كُشِف خاطره وجد بليدا لايخرُجُ عن العَمَه والكَمَه ، و إن رام أن يستنتجَه فى حينٍ من الأحيان قضى عليه بغرّةِ عبد أو أمَه ؛ وكثيرا مايتقدّم ونقيصتُه هذه علىٰ الأفاضل من العلماء ، وقد صار الناس إلىٰ زمان يعلُو فيه حضيضُ الأرض علىٰ هام السماء". فلمـا أوردته عليه ، ظهرت أمارة الحسد علىٰ صفحات وجهه مع إعجابه به وآستغرابه فيه إياه .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو "لاتَدْخُلُ الملائكة بَيْتًا فيه صُورةٌ ولا تِمثالٌ" فهذا أين يُستعمل من المكاتبات؟ فتروّيت فى قوله تروّيا يسيرا ثم قلت : هذا يستعمل فى كتاب إلىٰ دِيوان الخلافة ، وأمليت عليه الكتاب ، فجاء هذا الحديث فى فصل منه ، وهو : "إذا أفاض الخادمُ فى وصف وَلَائه ، نَكَصَتْ هممُ الأولياء عن مقامه ؛ وعلموا أنه أخذ الأمرَ بزِمامه ؛ فقد أصبح وليس بقلبه سوىٰ الوَلاء والإيمان ، فهذا يظهر أثرُه فى طاعة السِّرِّ وهذا فى طاعة الإعلان ؛ وما عداهما فإن دخولَه إلىٰ قلبه من الأشياء المحظوره ، والملائكة لاتدخُل بيتا فيه تِمْثال ولاصُوره ، فليعوّل الديوان العزيزُ منه علىٰ سيف من سيُوف الله يَفْرِى ، بلا ضارب ؛ ويَسْرِى ، بلا حامل ؛ ولا يُسَـلُّ إلا بيد حق ، ولا يُغْمَدُ إلا فى ظهر باطل . وليَعْلَمْ أن كَرِشَه وعَيْبَتَه فى تضمُّن الأسرار ، وأنه أحد سـعديْه إذا عُدَّتْ مواقف الأنصار" .

فلمـا رأىٰ هذا الفصـل بُهِت له وعَجِب منه . قال : ولم أقنع بإيراد الحديث الذى ذكر حتّى أضفتُ اليه حديثا آخر ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم : "الأنصار كَرِشي وعَيْبتِي" .

ثم تضمين الكلامِ شيْئا من الأحاديث علىٰ ما تقدّم فى القرءان الكريم ؛ فينقسم إلىٰ الآستشهاد والآقتباس علىٰ ما تقدّم .

فأما الآستشهاد فهو أن يضمّن الكلام شيئا من الحديث، وينبه عليه : كقول أبى إسحاق الصابى فى وصية عهدٍ من خليفة لسلطان : وأن يقومَ بما يعقِده الرجل من عَرْض المسلمين ، فإن ذمّته ذمّة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المسلِمُون يَسْعىٰ بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وهُمْ يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهُمْ" .

وكما كتب بعض الكُتَّاب فى صدر كِتابٍ لديوان الخلافة : والحمد لله علىٰ أن صار إلىٰ أمير المؤمنين مِيراثُ الطاهرين من آبائه، وخصّه بما حاز له من جَزِيل الفضل وحِبَائه، وحقَّق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعمه العباس رضوان الله عليه "ألَا أُبَشِّرُكَ ياعَمِّ! بِي خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ وبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخِلَافة" . وكقوله من عهدٍ آخر : وأمره أن يضَعَ الرصَد علىٰ مَنْ يختار[(1)] فى الحمالة من أُبَّاق العبيد، والآحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلىٰ أن قال وأن يعرِّفوا اللُّقَطَ ويتَّبِعوا أثَرَها، ويُشِيعوا خبَرَها، فإذا حضر صاحبُها وعلم أنه مستوجِبُها، سُلِّمت إليه، ولم يُعْتَرَض فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهلِها ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ضَالَّةُ المُؤْمِنِ حَرَقُ النَّار" إلىٰ غير ذلك من الآستشهادات .

وأما الآقتباسات فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث ولا ينبِّه عليه .

فمن ذلك، ماذكره الحريرىّ فى مقاماته من قوله : وكِتمانُ الفَقْر زَهادة، وآنتظارُ الفَرَج بالصبْرِ عبادة . وقوله : شاهَتِ الوُجوه، وقَبُحَ اللُّكَعُ ومَنْ يَرْجُوه .

وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

---

(١) لعله على من يجتاز فى العمالة .

فمن ذلك قوله فى دعاء كتاب : "أعاذ الله أيامَهُ من الغِيَر، و بيَّن بخَطر مجده نَقْصَ كل خَطَر . وجعل ذِكْره زادًا لكل ركب ، وأُنْسًا لكل سَمَر . ومنحه من فضله ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعتْ ولا خَطر علىٰ قَلْب بَشَر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم فى وصْف نعيم الجنة "فِيهَا ما لَا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر علىٰ قلبِ بَشَر" فنقله إلىٰ الدعاء .

ومن ذلك ماذكره فى النصر علىٰ العدوّ فى مواطن القتال ، وهو : "أخذنا بسُنَّة رسول الله فى النصر الذى نرجوه ، ونَبـذْنَا فى وجه العـدوّ كفًّا من التراب وقلنا شاهت الوجوه، فثبَّتَ الله ماتزلزل من أقدامنا ،وأقدَمَ حيزُومُ فأغنىٰ عن إقدامنا " .
أخذ المعنى الأوّل من حديث غزوة حنين وأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ قَبْضةً من التُّراب وألقى بها فى وُجُوه الكفار وقال : "شاهتِ الوجوهُ" . وأخذ المعنى الثانىَ من حديث غزوة بدر : وذلك أن رجلا من المسلمين لاقىٰ رجلا من المشركين وأراد أن يَضْرِبَه فخرّ علىٰ الأرض ميتا قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتًا من فوقه وهو يقول أَقْدِم حَيْزُومُ فجاء النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "ذلك من مدَدَ السماء الثالثة" .

ومن ذلك ماذكره فى ضِيق مَجَال الحرب، وهو : "وضاق الضرب بين الفريقين حتّى آتصلَتْ مواقعُ البِيض الذُّكور ، وتصافحَتِ الغُرَر بالغُرَر والصُّدورُ بالصدور . وآستُظِلَّ حينئذ بالسيوف لآشتباك مَجَالها وتُبوِّئتْ مقاعدُ الجنة التى هى تحت ظلالها" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم "الجنةُ تَحْتَ ظِلَال السُّيُوف" .

ومن ذلك ما ذكره فى وصف بعض البلاد الوخمة، وهو : "ومن صفاتها أنها مَدَرَة مُسْتَوبَلة الطينه، مجموعٌ لها بين حَرّ مكّةَ ولأْواء المَدينـه . إلا أنها لم يؤْمَن

حَرَّها من الخَطْفه ، ولا نُقلت حُمَّاها إلىٰ الجحفه . أخذ المعنىٰ الاوّل من قوله صلى الله عليه وسلم "مَنْ صَبَرَ علىٰ حَرِّ مَكَّةَ ولأواءِ المَدينةِ ضمنْتُ له علىٰ الله الجنّةَ" . والمعنىٰ الثانىَ من قوله صلى الله عليه وسلم فى دُعائه للمدينة : "اللهمَّ حَبِّبْها إلينْا كما حَبَّبْتَ إلَيْنَا مكَّةَ وٱنْقُلْ حُمَّاهَا إلىٰ الجُحْفة" . ورشّح ذلك بمعنىٰ قوله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ حيث قال إلا أنها لم يؤمن حَرُّها من الخطفة .

ومن ذلك ماذكره فى وصف كريم ، وهو : "فأغنىٰ بجوده إغناءَ المطر ، وسَمَا إلى المَعالِي سُمُوَّ الشمس وسار فى منازلها مَسِيرَ القمر . ونُتِج من أبكار فضائله ما إذا ادّعاه غيرُه قيل للعاهرِ الحَجَر" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم "الوَلَدُ لِلْفراشِ ولِلْعاهِرِ الحَجَر" . إلىٰ غير ذلك من مقتبساته المستكْثَره ، وٱستنباطاته التى هى غير قاصرة ولا مستنكَره .

ومن ذلك ما ذكرته أنا فى المفاخرة بين السيف والقلم ، وهو : "وبدأ القلم فتكلَّم ، ومضىٰ فى الكلام بصدق عَزْم فما توقَّف ولا تلعْثَم ، فقال بٱسم الله تعالىٰ أستفتح ، وبحمده أتيَّمنُ وأستنجح ، إذ من شأنى الكتابه ، ومن فَنِّى الخَطَابه ، وكلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدَأُ فيه بٱسم الله تعالىٰ فهو أجْذَم ، وكل كلام لا يُفْتَتَحُ بحمد الله فأساسُه غيرُ مُحْكَم" . أخذت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدأُ فيه باسمِ اللهِ أوبِحمْدِ اللهِ فهو أجْذَمُ" علىٰ ٱختلاف الرواية فى ذلك .

وٱعلم أنه كما يحتاج الكاتب إلىٰ حفظ الأحاديث والآثار بطريق الذات للٱستشهاد بها ، والٱقتباس من معانيها علىٰ ماتقدّم بيانه : كذلك يحتاج إلىٰ المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها : كالصحيح ، والحَسَن ، والمُرْسَل ، والمرفوع ، والمُسْنَد ، والمتصل ، والمنقطع ، ونحو ذلك . وكذلك المعرفة بأسماء الرجال ، والمشاهير من المحدّثين :

كالبخاريّ، ومسلم، وأبى داود، والنسائى وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك فى غُضُون كلامه عند ٱحتياجه إليه فى كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدّث ونحوه كما قال فى "التعريف" فى وصية لمحدّث فى قسم الوصايا من الكتّاب "وقد أصبح بالسنة النبوية مُضطلِعا، وعلىٰ ما جمعه طُرُق أهل الحديث مُطّلعا، وصح الصحيح أن حديثه الحسن، وأن المُرْسَل منه فى الطلب مقطوع عنه كلُّ ذى لَسَن. وأن مُسْنَدَه هو المأخوذ عن العوالى، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى. وأن مثله لا يوجد فى نسبه المُعْرِق، ولا يُعْرَف مثله للحافظين : ابنِ عبد البر بالمغرب وخطيبِ بغداد بالمَشْرِق. وهو يعرف مقدارَ طلب الطالب فإنه طال ما شدّ له النِّطَاق، وسعىٰ له سَعْيه وتجشَّم المشاق. ورحل له يشتدّ به حرصه والمطايا مزمومة، ويُنبِّهه له طلبُه والجُفونُ مُقْفَلَة والعيون مَهمُومه. ووقف علىٰ الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتّٰى يؤذَنَ له فى وُلُوجها، وقَعد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضِيق به فُرُوجُها. فليعامل الطلبة إذا أتَوْه للفائده معاملةَ من جرّب، وليَبْسُط للأقرباء منهم ويُؤْنِس الغُربَاء فما هو إلا ممن طلب آوِنةً من قريب وآوِنة تغرّب. وليُسفِرْ لهم صباحُ قصده عن النجاح، وليَفْتُقْ لهم من عُقُوده الصحاح، وليُوضح لهم الحديثَ، وليُرِحْ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السيْرَ الحثيث، وليؤْتِهم مما وسَّع اللهُ عليه فيه المَجال، ويعلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال، ويُبَصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعديل، والتوجيه والتعليل، والصحيح والمعْتَل الذى تتناثر أعضاؤه سَقَما كالعليل. وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عنايه، وما يُنَقَّب فيه عن دراية أو يُقْنع فيه بمجرّد روايه. ومثله ما يزاد حلما، ولا يعرّف بمن رخَّص فى حديثٍ موضوع أو كتم علما". وسيأتى ذكر هذه الوصية فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ.

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرّسى الشام : "ولأنه الحافظ الذى أحيا ذكر ابن نُقْطةَ بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنىٰ وحده دمشقَ عمن أتىٰ فى النسَب بعساكر" .

النـــوع الثـامن

(الإكثار من حفظ خُطَب البلغاء، والتفنُّن فى أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه ٱحتيـاج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : "وهى من آكد ما يحتـاج اليـه الكاتب ، وذلك أن الخطب من مستَوْدَعات سرّ البلاغة، ومجامع الحكم ؛ بها تفاخرت العرب فى مَشَاهدهم ، وبها نطقت الخُلَفاء والأمراء علىٰ منابرهم ؛ بها يتميز الكلام ، وبها يُخاطَب الخاصّ والعامّ، وعلى منوال الخَطابة نُسِجت الكتابه، وعلى طريق الخُطَباء مشَتِ الكُتَّاب . وقد قال أبو هلال العسكرى رحمه الله فى"الصناعتين" : والرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتَّاب فى السهولة والعذوبة؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل" . قال : "والفرق بينهما أن الخطبة يُشافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة" .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غايةُ الاعتناء حتّى قال صاحب "الريحان والريعان" : إن ماتكلمت به العرب من أهل المَدَر والوبَر من جيِّد المنثور ومزْدَوِج

الكلام أكثر مما تكلمتْ به من الموزون إلا أنه لم يُحفَظْ من المنثور عُشْره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره . لأن الخطيب إنما كان يخطُب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أوخِطْبة النكاح ؛ فإذا آنقضىٰ المقام حفِظه مَنْ حفِظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد . قال : " ولولا أن خطبة قُسِّ بن ساعدةَ كان سنَدُها مما يتنافَسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى رواها عنه فأطار ذكرها ، ماتميزت عما سواها " .

قلت : وليس ماأشار إليه لرفض النَّثْرعندهم وقلّة آعتنائهم به ؛ بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم ، وخاصّهم وعامّهم ؛ بخلاف الخَطَابة فإنه لم يتعاطَها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المَصَاقِع : فلذلك عزّ حِفْظُها وقلّ عنهم نقلُها . وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية ساداتُ العرب ، ورؤساؤُهم ممن فاز بقِدْح الفضل ، وسبق إلىٰ ذُرىٰ المجد ، ويخُصُّون ذلك بالمواقف الكرام ، والمَشَاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحَفِيلة ، فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد اللهَ ويُثْنِي عليه . ثم يذكر ماسنح له من مُطابق قَصده ومُوافِق طلبه : من وعظ يذكِّر أو فخرأو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خُطَبهم فى الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جدّ النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكرى فى كتاب الأوائل . وهى : اسمعُوا وَعُوا ، وتعلَّمُوا تَعْلَموا ، وتَفَهَّمُوا تَفْهَموا ، ليلٌ ساج . ونهارٌ صاج (١) ، والأرض مِهاد ، والجبال أوتاد ، والأوّلون كالآخرين ، كلُّ ذلك إلى بَلاء ، فصِلُوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم مَنْ

---

(١) لعله ضاج من قولهم ضج القوم يضجون اذا صاحوا وجلبوا . وفى الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ما تقولون، زيِّنوا حَرَمكم وعظموه، وتمسَّكوا به ولا تُفارِقُوه، فسيأتى له نَبأ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم . ثم قال :

نَهارٌ ولَيْلٌ واختلافُ حوادِثٍ * سَـواءٌ علينَا حُلْوها ومَرِيرُها
يئُوبان بالأحداث حتّى تأوّبا * وبالنِّعَم الضافِي علَيْنا سُتُورُها
صُرُوفٌ وأنباءٌ تقلَّبَ أهلُها * لها عُقَد ما يستحيل مَرِيرها
علىٰ غَفْـلةٍ يأْتِى النبىُّ محمَّدٌ * فيُخْبِرُ أخبارًا صَدُوقا خَبِيرُها

ثم قال :

ياليْتَنِى شاهِـدٌ فَحْواءَ دَعْوتِهِ ! * حِينَ العَشِيرةَ تَبْغِى الحَقَّ خِذْلانَا

ومن ذلك خطبة قُس بن ساعدة الإيَادِىّ ، بسُوق عُكَاظَ فيما نقله أصحاب السِّيَر عن إخبار النبى صلى الله عليه وسلم عنه وهى : أيها الناس ! اسمعُوا وَعُوا ، مَن عاش ماتَ ، ومَن مات فات ، وكلُّ ما هو آتٍ آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماءٌ ذاتُ أبراج ، ونُجومٌ ، تَزْهَر ، وبحار تَزْخَر ، وجبال مُرْساه ، وأرض مُدْحاه ، وأنهار مُجْراه . إنَّ فى السماء لخَبَرا ، وإن فى الأرض لَعِبَرا ! ما بالُ الناسِ يَذْهَبُون ولا يَرْجِعُون . أرَضُوا فأقامُوا ، أم تُرِكُوا فنامُوا . يُقْسِم قُسٌّ باللهِ قسمًا لا إثم فيه إنّ لله دِينًا هو أرضىٰ له وأفْضَـلُ من دينكم الذى أنتم عليه ؛ إنكم لتأتون من الأمر منكرا ! . ويروىٰ أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول :

فى الذَّاهِبِينَ الأوّلِيـ * ـن من القُرُونِ لَنَا بَصائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَـوَارِدًا * للموتِ لَيْس لَهَا مَصادِرْ
ورَأَيْتُ قَوْمِى نَحْـوَها * تَمْضِى : الأكابِرُ والأَصَاغِرْ
لا يَرْجِـعُ المَاضِى إلىَّ * ولا مِنَ الباقِينَ غَابِرْ
أيقنْـتُ أنّى لا مَحَا * لَةَ حَيْثُ صارَ القَوْمُ صَائِرْ

قال صاحب الأوائل : ويروىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يُعرَض هذا الكلام يوم القيامة علىٰ قُسِّ بن ساعدةَ فإن كان قاله لله فهو من أهل الجنة" .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خَطبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خديجةَ وهي : الحمدُ لله الذى جَعلَنا من زَرْع إبراهيم، وذُرّية إسماعيل، وجعل لنا بيتا مَحْجوجا، وحَرَما آمنا . ثم إن محمدَ بنَ عبد الله بن عبد المطلب ابنَ أخى مَنْ لا يُوازَن بأحد إلا رجَحَه، ولا يُعْدَلُ بأحد إلا فَضَله، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظلٌّ زائل؛ وله فى خديجةَ رغبة ولها فيه مثلُها؛ وما كان من صداق ففى مالِى؛ وله نَبَأٌ عظيم وخبرٌ شائع .

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم "أيها الناسُ كأنَّ الموتَ فيها علىٰ غَيْرِنا قَدْ كُتب، وكأنَّ الحقَّ فيها علىٰ غيرنا قد وَجَبْ، وكأنَّ الذى نُشَيِّع من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليلٍ إلينا راجعون، نبوِّئُهُم أجداثَهم، ونأكل من تُراثِهم كأنَّا مخلَّدون بعدهم، ونسِينا كُلَّ واعظة وأمِنَّا كلَّ جائحة، طُوبىٰ لمن شغَله عَيْبُه عن عُيوب الناس، طُوبىٰ لمَنْ أنفق مالًا ٱكتسبه من غير معصية، وجالَس أهلَ الفقْه والحِكْمة، وخالَطَ أهْلَ الذُّلِّ والمَسْكنة، طُوبىٰ لمن زكَتْ وحَسُنَتْ خَليقَتُه، وطابَتْ سَريرتُه، وعَزَل عن الناس شرَّهُ، طُوبىٰ لمن أَنْفقَ الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله، ووَسِعَتْه السُّنَّة ولم تَسْتَهْوِه البِدْعة !"

ومن خطب أبي بكر الصديق رضى الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتّاب" وهى : ألا إن أشْقىٰ الناس فى الدنيا والآخرة الملوك، الملك إذا مَلَك زهَّده اللهُ جلّ وعز فيما عنده، ورَغَّبه فيما فى يدَىْ غيره، وٱنتقصه شَطْر أجله، وأَشْرَب قَلْبَه الإشفاق، وإذا وجبَتْ نفسُه، ونَضَب عمرُه وضَحَا ظلُّه،

حاسبه اللهُ جل ثناؤُه وأشـدَّ حسابَه، وأقلَّ عَفْوه، وستَرَوْن بعدِي مُلْكًا عَضُوضا، وأمَّة شِحَاحا، ودَمًا مُباحا، وإن كانت للباطل نَزْوةٌ، ولأهل الحق جَوْلة، يعفُو لها الأثر وتموت السُّنَن، فآلزموا المساجِدَ وآستشيروا[1] القُرءان، وليكن الإبرامُ بعد التَّشاور، والصَّفْقةُ بعد التناظُر.

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنَّه أتىٰ علىّ حينٌ وأنا أحْسَب أنَّ مَنْ قرأ القرءانَ إنما يرِيدُ اللهَ وما عنْدَه، ألا وإنه قد خُيِّل إلَىّ أن أقواما يقرَءُون القرءان يُريدون ما عند الناسِ! ألا فأرِيدُوا اللهَ بقراءتكم، وأرِيدُوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرِفكم إذ الوحىُ ينزِل وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أظْهُرنا، فقد رُفع الوحىُ وذهبَ النبىُّ عليه السلام، فإنما أعرِفكم بما أقولُ لكم: ألا فمن أظهرَ لنا خيرا ظنَنَّا به خيرا وأثنينا به عليه!، ومَنْ أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه!، اقْدَعُوا هذه النفوسَ عن شَهَواتها، فإنها لَمِلَقة، وإنكم إلَّا تَقْدَعُوها تَنْزِعْ بكم إلى شَرِّ غايةٍ. إن هذا الحَقَّ ثقيلٌ مَرِيء، وإن الباطل خَفِيف وَبِيء، وتركُ الخطيئة خيرٌ من مُعالجَة التَّوبة، ورُبَّ نظرةٍ زرَعَتْ شَهوة، وشَهْوةِ ساعةٍ أورثَتْ حُزْنا طويلا!.

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تقديم بَنِى أُمَيَّة علىٰ غيرهم: أمّا بعدُ فإنَّ لكلِّ شيء آفةً، وآفَة هذا الدِّين وعاهةَ هـذه المِلَّة قومٌ عَيَّابون، طَعَّانون، يُظْهِرون لكم ما تُحبُّون ويُسِرُّون ما تكْرَهُون. أما والله يامعشَر المهاجرِينَ والأنصار! لقد عِبْتُمْ علىّ أشياءَ ونَقَمْتم منّى أُمورا قد أقررتم لآبن الخطّاب بمثلها ولكنه وقَمَكم وَقْما، ودَمَغكم[2] حتّى لايجترئ أحد منكم يملأُ بصرَه منه ولا يُشير بطَرْفِه

(١) كذا فى الأصول بالشين المعجمة ولعله تصحيف عن الثاء المثلثة ففى اللسان وثوّر القرآن بحث عن معانيه وعن علمه. وأورد فى ذلك حديث عبدالله أثيروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين. وحديثا آخر. من أراد العلم فليثوّر القرآن. (٢) فى غير هذا الكتاب وقمكم والوقم والدمغ القهر والإذلال.

إلا مُسارقةً إليه ؛ أما والله لأنا أكثرُ من ابن الخطّاب عَددا ، وأقربُ ناصرا وأجدر إن قال هَلُمَّ[1] أن يُجاب . هل تفقِدُون من حقوقكم وأعطياتكم شيئا فإنّى إلّا أفعلْ فى الفضل ما أريد فلِمَ كنت إماما إذَنْ ؟ أما والله ما عاب علىّ مَنْ عاب منكم أمرا أجهَلُه ولا أتيتُ الذى أتيتُ إلا وأنا أعْرِفُه .

ومن خطب على كرم الله وجهه : حين بُويِع بالخلافة : إن الله أنزل كتابا هاديا بيَّنَ فيه الخيرَ والشر ، فخُذُوا بالخير ودَعُوا الشر ؛ الفرائضَ أدّوها إلى الله تؤدِّيكم إلىٰ الجنة . إن الله حَرّم حُرَما غير مجهولة ، وفضَّل حُرمةَ المسلم علىٰ الحُرَم كلها ، وسدّد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين . فالمسلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلِمُون من لسانه ويده إلا بالحق ؛ لا يحِل أذىٰ المسلم إلا بما يجب ، فأدُّوا أمر العامَّة ، وخاصةُ أحدكم الموتُ . فإن الناس أمامكُم و إنما خَلْفَكُم الساعة تُذَكِّركم . تخفَّفُوا تَلْحَقُوا ، فإنما ينتظر بالناس أُخْراهم . اتقوا اللهَ عبادَ الله فى عباده و بلاده ، فإنكم مسئُولون حتّى عن البِقَاع والبهائم ؛ أطيعُوا اللهَ ولا تَعْصُوه . و إذا رأيتم الخير فخذوا به ، و إذا رأيتم الشر فدَعُوه ، واذْكُروا إذ أنتمْ قليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأرْضِ .

ومن خطب الحسن بن على رضى الله عنه : اعلموا أن الحلم زين ، والوقارَ مَوَدّة ، والصِّلة نعمة ، والإكثار صَلَف ، والعَجَلة سَفَه ، والسَّفَه ضَعْف ، والقَلَق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شَيْن ، ومخالَطة أهل الفسوق رِيبة .

ومن خطب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بصِفِّين : أيها الناس ! إن الحرب صَعْبة ، وإن السِّلْم مَنّ ومَبَرّة ! ألا وقَدْ زَبَنَتْنَا الحربُ وزبَنّاها

(١) فى غير هذا الكتاب وأقمن إن قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر . والروايات متقاربة .

وأَلِفْتَنا وأَلِفْناها، فنحن بنُوها وهى أُمُّنَا . أيها الناس ! آستقيموا علىٰ سبيل الهدىٰ، ودَعُوا الأهواء المُضِـلَّة ، والبِدَع المُرْدِية ، ولستُ أراكم تزدادُون بعد الوَصاة إلا آستجراء ، ولن أزداد بعد الإعذار والحجة عليكم إلا عقوبة ! ، وقد آلتقينا نحن وأنتم عند السِّيف فمن شاء فليتحرّك أو يتقهْقر وما مَثَلِي ومثلُكم إلا كما قال آبن قيس آبن رفاعة الأنصارىّ .

مَنْ يَصْلَ نَارِى بِلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ * يَصْـلىٰ بنـارِ كريم غيرِ غَدَّار

أنَا النـذيرُ لكُمْ مِنِّى مُجَاهِرَةً * كَىْ لا أُلامَ علىٰ نَهْيِى وإنذارى

ومن خطب عتبة بن أبى سفيان، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها أمور أن صعد المنبر (١) وقال : يا حامِلِي ألأم أنوفٍ رُكِّبتْ بينَ أعيُنٍ ! إنما قلَّمتُ أظفارى عنكم ليَلِينَ مَسِّى إياكم، وسألتكم صلاحَكم لكم إذ كان فسادكم راجعا عليكم؛ فأمّا إذ أبَيْتم إلا الطَّعْن على الأمراء والعَتْبَ علىٰ السلف والخلفاء، فوالله لأُقَطِّعَنَّ بُطونَ السـياط علىٰ ظهوركم ! فان حسَمْت مُستشرِىَ دائكم وإلا فالسيف من ورائكم . فكم من عظةٍ لنَـا قد صَمَّت عنها آذانُكم ، وزَجْرةٍ مِنَّا قد مجّتْها قلوبكم ؛ ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤيسا لكم من المراجعة إلىٰ الحسنىٰ إن صرتم إلىٰ التى هى أبرّ وأتقىٰ .

ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلىٰ البصرة : أما بعدُ فإن الجَهالة الجَهْلاء ، والضَّلالَة العمياء ، والغَىّ المُوفى بأهله على النار ما فيه سُفَهاؤكم، ويشتمل عليـه حُلَماؤكم من الأمور التى ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشىٰ عنها الكبير ؛ كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ماأعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب

---

(١) لعل عاملِ أن محذوف والأصل فما كان منه الا أن الخ .

الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يَزُول. إنه ليس منكم إلا مَنْ طَرَفت عينَه الدنيا، وسدّت مسامعَه الشهَوات، وآختار الفانية على الباقية؛ ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحَدَث الذى لم تُسبَقوا إليه: من تركِكم الضعيف يُقْهَر، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تُنْصر[1]، والعدد غير قليل، والجمع غير مفترق. ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار! قرّبتم القرابة! وباعدتم الدِّين، تعتذرون بغير العذر، وتُغْضُون على النُّكْر. كل آمرئ منكم يردّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عقابا ولا يرجو مَعَادا. فلم يَزَل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونَهم حتّى آنتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا فى مكَانِس الرِّيَب، حرام علىّ الطعام والشراب حتّى أضَع هذه المواخيرَ[2] بالأرض هَدْما وإحراقا!. إنى رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلحُ إلا بما صَلَح به أوله: لينٌ فى غير ضَعْف، وشدّة فى غير عُنْف، وإنى لأقسم بالله لآخذنّ الولىّ بالمَوْلى، والمقيمَ بالظاعن، والمطيع بالعاصى، حتّى يلقى الرجل أخاه فيقولَ "آنْجُ سَعْدُ فقد هَلَك سَعيد" أو تستقيم لى قَناتُكم. إنّ كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلتْ لكم معصيتى؛ وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ فجعلْتُ ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى. إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغْضى لم أكشف له قِناعا، ولم أهتك له سترا، حتى يُبْدِىَ لى صَفْحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم وراعوا[3] على أنفسكم، فربَّ مبتَئِس بقدومنا سيُسَرّ، ومسرورٍ بقُدُومنا سيَبْتئِس!. أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا، فاستوجِبُوا عدلنا وفَيْئنا بمُناصحتِكم لنا،

---

(١) فى العقد الفريد والصفقة المسلوبة فى النهار المبصر. (٢) وقع فى الأصل المناخير وهو تصحيف عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد. (٣) فى العقد الفريد وأعينوا.

فقام إليه عبد الله بن الأهتم وقال : "أشهد أيها الأمير لقد أُوتيتَ الحِكمةَ وفصلَ الخِطَاب" قال : "كذبْتَ" ذاك نَبِيُّ الله داودُ !

ومن خطب عبد الملك بن مروان، لما قتل عَمْرا الأشدقَ بنَ سعيدِ بن العاص : إرمُوا بأبصاركم نحوَ أهل المعصية، وآجعلوا سَلَفكم لمن غَبَر منكم عِظَة، ولا تكونُوا أغفالا من حُسْن الآعتبار، فَتَنْزِلَ بكم جائحةُ السَّطوات، وتَجُوسَ خِلالَكم بَوادرُ النَّقِمات، وتَطَأَ رِقَابكم بثِقَلها العقوبة فتجعلكم هَمَدا رُفاتا، وتشتمل عليكم بطونُ الأرض أمواتا . فإيَّاى من قول قائل، ورَشْقة جاهل ! فإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة[1] فأُصَمِّم تصميمَ الحُسام المَطْرُور[2]، وأَصولَ صِيالَ الحَنِق المَوْتُور، وإنما هى المصافَحَة والمكافَحَة بظُبات السُّيوف وأَسِنَّة الرماح، والمعاودةُ لكم بسُوء الصَّباح، فتاب تائب، وهدل[3] خائب، والتوْب مقبول، والإحسان مبذول، لمن عرف رُشْده وأبصر حظه . فآنظروا لأنفسكم، وأقبِلوا على حظوظكم، ولتكن أهلُ الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم، وآستديموا النعمة التى آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجلِ الخَفْض والدَّعة، وآجلِ الجزاء والمَثُوبة عصمكم الله من الشيطان وفتْنته ونزغه، وأمدّكم بحُسن معزته وحفظه . انهَضُوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم غيرَ مقطوعة عنكم، ولا مكدَّرةٍ عليكم .

فخرج القوم من عنده بِدارا كُلُّهم يخاف أن تكون السطوةُ به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفىّ عند قدومه الكوفة أميرا على العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا فى الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنغوة والنغية أوّل الخبر قبل أن تستبينه .

(٢) المطرور براءين المحدود المشحوذ وفى الأصل بالدال المهملة وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل بالهاء واهمال الدال واعجام حاثب ولعله بالميم واعجام الذال بمعنى ضجر وقلق واهمال الحاء من حائب لخرر .

أَنَا ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنـايَا * مَتى أَضَـعِ العمامةَ تَعْرِفُونى

والله يا أهل العراق: إنى لأَرىٰ رءوسا قد أينعتْ وحان قطافها، وإنِّى لصاحبها! والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى . يا أهـل العراق ما يُغمَز جانبِى كتَغْمَاز التِّين، ولا يُقعقَع لى بالشِّنان. ولقد فُرِرْت عن ذكاء، وفُتِّشْت عن تجربة، وأجريتُ من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك نَثَر كنانتَـه بين يديه فعجَم عيدانَهـا عُودا عُودا فوجدنى أمرّها عودا . وأشـدّها مَكْسِرا، فوجَّهنى اليـكم ورماكم بى يا أهلَ الكُوفة، أهلَ الشِّقاق والنفاق، ومَسَاوى الأخلاق : لأنكم طالمـا أوضعْتُم فى الفتنة، وٱضطجَعْتم فى مَنامِ الضَّلال، وسـنَنْتُم سُنَن الغىّ، وٱيم الله لألْحُوَنَّكم لَحْوَ العُود، ولأَقْرَعَنَّكم قَرْع المروة، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّـلَمة، ولأضربَنَّكم ضَرْب غريبة الإبل . إنى والله لاأحلف إلّا صدَقْت، ولا أعدُ إلّا وَفَيت . إيَّاى وهذه الزَّرافاتِ، وقال وما يقولُ، وكان وما يكون . وما أنتم وذاك يا أهل العراق . إنمـا أنتم أهل قرية كانَتْ آمِنَةً مُطْمئِنَّةً يأْتِيها رِزْقُها رَغَدا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فأتاها وعيدُ القُرىٰ من ربها . فٱستَوْثِقُوا وٱعتدِلُوا ولا تميلوا، وٱسمعُوا وأطيعوا، وشايعُوا وبايعُوا .

وٱعلموا أن ليس منى الإكثارُ والإهذار ولا مع ذلك النِّفار ولا الفِرار؛ إنمـا هو ٱنتضاءُ هذا السيف، ثم لا يُغْمَد الشتاءَ ولا الصيف، حتّى يُذِلَّ الله لأمير المؤمنين عِزَّكم، ويُقيم له أَوَدَكم وصَعَركم . ثم إنى وجدتُ الصدق من البِر، ووجدت البرّ فى الجنَّـة، ووجدت الكذبَ من الفُجُور، ووجَدْت الفُجُور فى النـار . وإن أمير المؤمنـين أمرنى أن أُعطيَكم أعطياتكم، وأُشْخِصَكم لمجاهدة عدوّكم وعدوّ أمير المؤمنين؛ وقد أمرتُ لكم بذلك وأَجَّلْتكم ثلاثا، وأعطيت الله عهـدًا يؤاخذنى به ويستوفيه مِنِّى : لئن تخلَّف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربَنّ عُنُقَه وأنهبَنّ ماله .

ثم ٱلتفتَ الى أهل الشام فقال أنتم البِطانةُ والعشيرة ! والله لرِيحُكم أطيبُ من ريح المســك الأذْفَر، و إنما أنتم كما قال الله تعالى ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية .
وٱلتفتَ الى أهل العِراق فقال والله لَرِيحُكم أنتَنُ من رِيح الأبْخَر، و إنما أنتم كما قال الله ﴿ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لما قدم البصرة يتهدّد أهل العراق و يتوعدهم :

أيُّها الناس : مَنْ أعياه داؤه فعندى دواؤه ! ، ومَن ٱستطال أجلَه ، فعلىّ أن أُعْجِله ؛ ومن ثَقُل عليه رأسُــه وضعت عنه ثِقْله ، ومَنِ ٱستطال مَاضِىَ عُمُره قصّرت عليــه باقيَه . إنّ للشيطان طَيْفا ، وللسلطان سَيْفا ! ، فمن سَقُمتْ سريرتُه ، صحتْ عقوبته ؛ وَمَنْ وضعه ذَنَبه ، رفعه صُلبه ؛ ومن لم تَسَعْه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكة ؛ ومن سبقَتْه بادرة فمه ، سَبَق بدنَه بسفْك دمه ؛ إنى أُنْذِرُ ثم لا أُنظِر ، وأحَذِّر ثم لا أُعْذِر ، وأتوعد ثم لا أعفو . إنمــا أفسدكم ترنيق وُلاتكم ؛ ومن ٱسترخى لبه ، ساء أدبُه . إن الحزمَ والعزم سلَبَانى سَوْطى ، وأبدلانى به سيفى : فقائمُه فى يدِى ، ونِجادُه فى عنق ، وذُبابُه قلادة لمن عصانى ! ؛ والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربتُ عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمانَ بنِ عبد الملك من خلفاء بنى أميــة ؛ وأبى جعفر المنصور ، وهارونَ الرشيد ، وٱبنِه المأمون من خلفاء بنى العباس وغيرهم ، من خلفــاء الدولتين وأمرائهــم خطبٌ فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هــذا الكتاب عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبى بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضــل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسْعِفُهم آخرون على ذلك :

أيها النـاس! إنى قائل قولا فمن وعاه وأدّاه فعلىٰ الله جزاؤه، ومَن لم يَعِه فلا يعدُ من ذِمَامها[1]؛ إن قصَّرتم عن تفصيله، فلن تعجزُوا عن تحصيله. فأرعُوه أبصاركم وأوعُوه أسماعَكم وأشعروه قلوبكم؛ فالموعظَة حياةٌ؛ والمؤمنون إخوة؛ وعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيل ولو شاءَ لَهَدَاكُمْ أجْمَعينَ. فأْتُوا الهدىٰ تهتدوا، وٱجتنِبُوا الغَىّ ترْشُدوا. وأَنِيبُوا إلىٰ اللهِ جَمِيعًا أيُّها المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. والله جل جلاله. وتقدّست أسماؤه أمركم بالجماعة ورَضِيها لكم. ونهاكم عن الفُرْقة وَخِطَها منكم. فاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُون. وٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا وٱذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكم إذ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخوانًا وكُنْتُم علىٰ شَفَا حُفْرةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها. جعلنا الله وإياكم ممن يتّبع رضوانَه ويجتنب سُخْطه فإنا نحن به وله. وإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالدِّين، وٱختاره على العالمين، وٱختار له أصحابا على الحق وُزَراء دون الخلق. إختصَّهم به وٱنتخبهم له، فصدَّقوه ونصروه وعَزَّروه ووقَّروه؛ فلم يُقْدِموا إلا بأمره، ولم يُحْجِموا إلا عن رأيه، وكانوا أعوانَه بعهده، وخلفاءه من بعده. فوصفهم فأحسن وصفهم وذكرهم فأثنىٰ عليهم فقال وقوله الحق ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلىٰ الكُفَّارِ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ مَغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فمن غاظه كفر وخاب وفجر وخسر. وقال الله جل وعز ﴿ للفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ ورِضْوانًا ﴾ إلىٰ قوله ﴿ رَبَّنَا إنك رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمْرَه إياه فيهم فلا حقَّ له فى الفيء، ولا سهم له فى الإسلام فى آى كثيرة من القرءان، فمرق مارقةٌ من الدين. وفارَقُوا المسلمين وجعلوهم عِضِين. وحزبوا أحزابا، أُشَابات وأَوْشابا. فخالفوا كتاب الله فيهم فخابوا وخسروا

(١) كذا فى الأصل ولكن باهمال الياء من يعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها أى المقالة.

الدنيا والآخرة . ذلكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين . أفَمَنْ كانَ علىٰ بَيِّنَةٍ من رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه واتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ . مالى أرىٰ عيونا خُزْرا، ورِقابا صُعْرا، وبطونا بُجْرىٰ[1]، شَجًى لا يُسِيغه الماء، وداءً لا يُشْرَب فيه الدواء . أفَنَضْرِب عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحا أنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِين . كَلَّا والله بل هو الهِناء والطِّلاء حتّى يظهر العُذر، ويَبُوح السرّ، ويَضِحَ العيب، ويَسُوسَ الجيب . فإنكم لم تُخلقوا عبثا ولم تتركوا سُدًى، ويْحَكُمْ إنّى لستُ أتاويًّا[2] أُعَلَّم، ولَا بَدَوِيًّا أُفَهَّم . قد حَلَبْتُكم أشْطُرا، وقَلَّبْتكم أبْطُنا وأظْهُرا . فعرفت أنحاءكم وأهواءكم، وعلمت أن قوما أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأسرُّوا الكفر فى قلوبهم، فضربُوا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض، وولَّدوا الروايات فيهم، وضَربوا الأمثال، ووجدوا علىٰ ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يَأْذَنُون لهم، ويَصْغَوْن اليهم، مَهْلا مَهْلا ! قبل وُقُوع القوارع وطول الروائع . هذا لهذا ومع هذا، فلستُ أعتنش[3] آئبا ولا تائبا، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ومَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْه واللهُ عزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ . فأسِرّوا خيرا وأظهروه، وآجهَروا به وأخلِصوه . وطالما مشَيْتُم القَهْقَرىٰ ناكصين . وليعلم من أدبر وأصرّ أنها موعظة بين يدىْ نِقْمة، ولست أدعوكم إلىٰ هوًى يُتَّبع، ولا إلىٰ رأْى يبتدَع . إنما أدعوكم إلىٰ الطريقة المُثْلىٰ، التى فيها خير الآخرة والأُولىٰ، فمن أجاب فإلىٰ رُشْده، ومَنْ عَمِىَ فعن قصده . فهَلُمَّ إلىٰ الشرائع، الجدائع، ولا تُوَلُّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدلوا الذى هو أدْنَى بالذى هو خَيْرٌ ﴿بِئْس للظالمين بَدَلا﴾ . إياكم وبُنَيَّات الطريق، فعندها الترنيق والتَّرْهيق . وعليكم بالجادّة فهى أسدُّ وأورد، ودَعُوا الأمانِىَّ

(١) لعله بُجْرا جمع أبجر والبَجَر عظم البطن .

(٢) الأتاوىّ الغريب الذى ليس فى وطنه .

(٣) أى أظلم راجعا ولا تائبا مما حصل . ووقع فى الأصل أعيش وهو تصحيف لا معنى له هنا .

فقد أودتْ مَنْ كان قبلكم . وأنْ لَيْسَ لِلإنسان إلّا ماسَعىٰ . ولله الآخِرةُ والأُولى . ولا تَفْتَرُوا علىٰ الله الكَذِبَ فيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وقَدْ خَابَ مَنِ ٱفترىٰ . ربَّنا لاتُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أنْتَ الوَهَّاب .

ومن خطب خالد بن عبدالله أمير البصرة : أيُّها الناس ! نافِسُوا فى المَكارم وسارعوا إلىٰ المغانم . وٱشتَرُوا الحمدَ بالجُود ، ولا تكسِبوا بالمَطْل ذَمًّا ، ولا تعتَدُّوا بالمعروف ما لم تُعَجِّلوه ، ومهما يكُنْ لأحد منكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسنُ لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . وٱعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمةٌ من الله عليكم ؛ فلا تَمَلُّوا النِّعم فتُحوّلوها نِقَمًا . وٱعلموا أنّ أفضل المال ما أكْسَبَ أجرا ، وأوْرث ذِكْرا . ولو رأيتم المعروف رجلا ، رأيتموه حسنا جميلا يسُر الناظرين . ولو رأيتم البخل رجلا ، رأيتموه مشوّها قبيحًا تنفِر عنه القلوب ، وتُغْضِى عنه الأبصار . أيها الناس ! إن أجود الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يرجوه ، وأعظمَ الناس عَفْوا مَنْ عفَا عن قُدرة ، وأوصلَ الناس مَنْ وصل مَنْ قطعه ؛ ومن لم يطِبْ حرثُه لم يَزْكُ نبته ؛ والأصول عن مَغَارسها تَنْمو ، و بأصولها تسمُو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ومن خطب قَطَرِىّ بن الفُجاءة خطبته المشهورة فى ذمّ الدنيا والتحذير عنها ، وهى :

أما بعد : فإنى أُحذِّركم الدنيا ، فإنها حُلْوة خَضِرة ، حُفَّتْ بالشهَوات ، وراقَتْ بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحَلِيتْ بالآمال ، وتزينَتْ بالغُرور . لاتدوم نَضْرتها ، ولا تُؤْمَن فَجْعتها . غَرَّارة ، ضَرَّارة . وخاتلة ، زائلة . ونافدة ، بائدة . أكَّالة ، غَوّالة . لا تعدُوا إذا تناهتْ إلىٰ أمنيَّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالىٰ ﴿ كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ

الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا ﴾ مع أن آمرأً لم يكن منها فى حَبْرة، إلا أعقبَتْه بعدها عَبْرة، ولم يلق من سَرَّائها بطنا ، إلا منحَتْه من ضَرَّائها ظَهْرا . ولَم تَصله غيثة (١) رَخَاء ، إلا هطلَتْ عليــه مُزْنَةُ بلاء . وحَرِيَّة إذا أصبحتْ له منتصرة أن تُمسِيَ له خاذلة متنكِّرة . وأىُّ جانبٍ منها آعذَوْذَب وآحْلَوْلىٰ ، أمَرَّ عليه منها جانب وأوبا (٢) . فإن آتت آمرأً من غصونها ورقًا أرهقته مــن نوائبها تَعَبا . ولم يُمْسِ منها آمرُؤ فى جناح أمْن إلا أصــبح منها علىٰ قَوَادم خوف؛ غَرَّارة غُرُور ما فيهــا ، فانية ، فانٍ مَنْ عليها؛ لاخير فى شيء من زادها إلا التقوىٰ . مَنْ أقلَّ منها آستكثر مما يؤمِّنُه . ومن آستكثَرَ منها، استكثر ممــا يُوبقه ويُطيل حُزْنه، ويُبْكى عَيْنه . كم واثقٍ بها قد فَجَعتــه، وذى حُكْم ثنته اليها قد صرعَتْه، وذى آختيال فيهــا قد خدعَتْه . وكم ذى أُبَّهة فيها قد صيرَّته حقيرا، وذى نَخْوة قد ردّتْه ذليلا . ومن ذى تاجٍ قد كبَّتْه لليدين والفم . سلطانها دُوَل . وعَيْشها رَنْق، وعَذْبها أُجَاج، وحُلْوها صَبِر، وغذاؤها سِمَام، وأسبابها رِمَام . قِطَافُها سَلَع . حيُّها بعَرَض موت ، وصحيحُها بعَرَض سُقْم . منيعُها بعَرَض آهتضام . ومُلْكها مسلوب، وعزيزها مَغْلوب . وسليمها منكوب ، وجارُها مَحْروب . مع أن وراء ذلك ســكَراتِ الموت ، وهولَ المُطَّلع ، والوقوف بين يدَيِ الحَكَم العَدْل ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُوا بِمَــا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ . ألستــم فى مساكن مَنْ كان قبلكم أطولَ منكم أعمــارا ، وأوضحَ منكم آثارا ، وأعَدّ عَدِيدا، وأكْثَفَ جُنودا . وأشــدّ عُتُودا . تعبَّدُوا للدنيا أى تعبُّــد، وآثَرُوها أىَّ إيثار، وظَعَنُوا عنها بالكره والصَّغَار . فهل بلغكم أن الدنيا سمَحتْ لهم نفْسًا بفِدْية، أو أغنَتْ عنها فيما قد أهلكتهم بخطب بل أرهقَتْهم بالقوادح، وضعضعَتْهم بالنوائب،

---

(١) فى غير هذا الكتاب ولم تطله من الطل . ويظهر أن غيثة مصحفة عن غبية . والغبية الدفعة من المطر .

(٢) فى نسخة وأولى .

وَعقرتهم بالفجائع . وقد رأيتم تنكُّرها لمن رادها وآثرها وأخلد إليها ، حينَ ظَعَنوا عنها لِفراقٍ إلىٰ الأبد إلىٰ آخر الأمَد . هل زوّدتْهم إلا السَّغب ؟ ، وأحَلَّتهم إلا الضنك ، أو نوّرت لهم إلا الظُّلمة ، أو أعقبَتْهم إلا النّدامة ؟ أفهذه تُؤثِرون ، أم علىٰ هذه تَحْرِصون أم إليها تطمَئِنُّون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُون ﴾ بئست الدارُ لمن أقام فيها ! فآعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هى كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيةً تَعبَثُونَ وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وإذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلىٰ غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ، ويخرج الكتاب بذكره عن حدّه .

المقصد الثانى

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى الخُطَب)

قد تقدّم فى أوّل المقصد الأوّل من هذا النوع قول أبى هلال العسكرى : إن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحَقُه وزن ولا تقفية والمشاكلةُ فى الفواصل وإن الخطب يُشَافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كُلْفة . وحينئذ فإذا أراد الكاتبُ نقل الخطبة إلىٰ الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخَطَابة وموارد الفَصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مَصاقِع الخطباء ومشاهيرهم ، آتسع له المَجَال فى الكلام وسَهُلت عليه مستَوْعرات النثر ، وذُلِّلت له صِعابُ المعانى ، وفاض علىٰ لسانه فى وقت الحاجة ما كَمَن من ذلك بين ضُلُوعه فأودعه فى نثره ، وضمنه فى رسائله ،

فاستغنىٰ عن شَغْل الفكر فى آستنباط المعانى البديعة، ومشقّة التعب فى تتبُّع الألفاظ الفصيحة، التى لاتنهَض فِكرته بمثلهـا ولو جَهَد ، ولا يسمَحُ خاطره بنظـيرها ولو دَأَب . إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ، ونوع من أنواعها، يحتاج الكُتَّاب إليها فى صـدور بعض المكاتبات ، وفى البَيْعات والعهود والتقاليـد والتفاويض وكبار التواقيع والمراسيم ، والمناشير، على ماسـيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعـالى ؛ وما لعله يُنْشئه من خُطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك . وكذلك يعرِف مَصَاقع الخطباء، ومشاهير الفصحاء ، والبلغاء ، كقُسّ بن ساعدة الإيادىّ الذى تقدّمت خطبته آنفا فى صدر الخطب . وسَحْبانَ الوائلىّ : وهو رجل من بنى وائل، لَسِنٌ بليغ يُضرَب به المثل فى البيان، وغيرهما ممن يُضْرَب به المَثل فى الفصاحة والبلاغة؛ ومن يُنْسَب إلىٰ العىّ والغَباوة كباقل : وهو رجل من العرب آشترىٰ ظبيا بأحدَ عَشَر درهما فقيل له بكم آشتريته ففتح كفيه وفرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانه؛ يشير بذلك إلىٰ أحد عشر ولم يحسن التعبير عنهـا ، فانفلت الظبى فضُرِب به المثـل فى العِىّ . فإذا عرف البليغَ وغيرَ البليغ ، وعالِيَ الرتبـة وسافِلَها، عرّض حينئذ بذكر من أراد منهم مقايسا للفاضل بمثله ، وللغبىّ بنظيره : كما قال القـاضى الفاضل فى بعض رسائله ، فى جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه :

فأما شوقُه لعبده فالمولىٰ قد[1] أبقاه الله قد أُوتِى فصاحة لسان . وسَحَب ذيل العىّ علىٰ سَحْبان .

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبى من رسالة كتب بهـا للشيخ تقىّ الدين آبن دقيق العيد ، يصف رسالة وردت منه عليـه : إنَّ كلمها يَميس فى صُدُورها وأعجازها ، وتنثال عليها أعراض المعانى بين إسهابها وإيجازها ؛ فهى فرائد آئتلفَتْ فى أبكار الوائلىّ والإيادىّ .

---

(١) لعل كلمة قد هنا زائدة .

النـــــوع التـاسع

(ممـا يحتاج إليه الكاتب من حفْظ[1] جانب جيد من مكاتَبَات الصدر الأوّل، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدّعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر فى رسائل المتقدّمين : من بلغاء الكتّاب؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه آحتياج الكاتب إلىٰ معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأوّل ورسائلهم فلأنها مع [2] مبتدع البلاغة وكنز الفصاحة غير ملابسة لطريقة الكُتَّاب فى أكثر الأمور؛ فيستعان بحفظها علىٰ مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالآتكال علىٰ إيراد فصل منها برمّته لمخالفته لأسلوب الكتّاب فى أكثر الأمور .

وأما النظر فى رسائل البلغاء من فضلاء الكتّاب، فلما فى ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطُّرق، والنسج علىٰ مِنْوال المُجيـد، والآقتداء بطريقة المُحْسن، وآستدراك مافات، والآحتراز ممـا أظهره النقد، وردّ مابَهْرَجَه السـبك . وآقتُصِر علىٰ النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر علىٰ ما يأتى به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يُعطَ فيكون كلابس ثَوْبَىْ زُور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضَرَة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظُ دون غيره .

---

(١) كذا بالأصل بزيادة من وفى الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصـــد الثانى

(فى ذكر شىء من مكاتبات الصدر الأوّل يكون مَدْخَلا إلىٰ معرفة مايُحتاج إلىٰ حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملةُ علىٰ المحاورة والمراجعة، فمنها ما كتب به معاوية بن أبى سُفْيان رضى الله عنه إلىٰ أمير المؤمنين على بنِ أبى طالب رضى الله عنه فى زمن المشاجرة بينهما[1]، وهى :

أما بعد، فإن الله ٱصطفىٰ محمدا ، وجعله الأمينَ علىٰ وحيه، والرسولَ إلىٰ خلقه؛ وٱختار له من المسلمين أعوانا أيَّده بهم ، وكانوا فى مَنازلهم عِنْده علىٰ قدر فضائلهم فى الإسلام؛ فكان أفضلُهم فى الإسلام، وأنصحُهم لله ولرسوله الخليفةَ ، وخليفةَ الخليفة، والخليفةَ الثالثَ؛ فكلَّهم حسَدْتَ، وعلىٰ كلهم بغَيْتَ . عرفْنا ذلك فى نظرك الشَّزْر، وتنَفُّسك الصُّعَداء، وإبطائك علىٰ الخلفاء، وأنت فى كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير المَخْشُوش[2] حتّى تُبايع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشدّ حَسَدا منك لٱبن عمّك عثمان، وكان أحقَّهم أن لاتفعلَ ذلك به، فى قرابته وصِهْره؛ فقطعْتَ رحمه، وقبَّحتَ محاسِنه، وألَّبْت عليه الناسَ حتّى ضُرِبت إليه آباطُ الإبل ، وشُهر عليه السلاح فى حرم الرسُول، فقُتل معك فى المَحَلَّة وأنت تسمع فى داره الهائعة[3]؛ لاتؤدّى عن نفسك فى أمره بقول ولا فعلٍ برّ؛ أُقسم قسما صادقا ! لو قمتَ فى أمره مقاما واحدا تنهْنِهُ الناسَ عنه، ماعُدل بك ممَّنْ قبلنا من الناس أحد ، ولمَحَا ذلك عنك ما كانوا يعْرِفُونك به : من المجانبة لعثمان والبغْى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

(١) كتاب معاوية بيّض له فى الأصل فنقلناه من العقد الفريد لٱبن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجعول فيه الخشاش . وهو عود يجعل فى عظم أنف البعير . مصباح .

(٣) الهائعة الصوت المفزع .

ابن عَفَّان ضنين ، إيواؤكَ قَتلة عثمان ، فهم بطانتك ، وعَضُدك وأنصارك . فقد بلغنى أنك تنتفِى من دمه فإن كنت صادقا فآدفع إلينا قتلته نقتُلْهم به . ثم نحن أسرعُ الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ! والذى نفس معاوية بيده لأطلُبَنّ قتلة عثمان فى الجبال ، والرمال ، والبر ، والبحر ؛ حتّى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ! .

فكتب إليه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى جواب ذلك :

أما بعد فقد أتانى كتابك ! تذكر فيه آصطفاء الله تعالىٰ محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييدَه إياه بمَنْ أيده به من أصحابه ، فلقد خَبأ لنا الدهرُ منك عَجَبا ! أفطفِقْت تخبرنا بآلاء الله عندنا ، فكنت كناقل التمر إلىٰ هَجَر أو داعى مِدْرهِ إلىٰ النِّضال ؛ وزعمتَ أن أفضل الناس فى الإسلام فلانٌ وفلان فذكرتَ أمرا إن تم آعتزلك كلُّه ، وإن نقص لم يلحقْك ثُلْمُه ؛ وما أنت والفاضل والمفضول والسائل والمسئول ! . وما للطُّلَقاءِ وأبناء الطلقاء والتمييزَ بين المهاجرين الأولين ، وترتيبَ درجاتهم ، وتعريفَ طبقاتهم ؛ هيهات لقد حَنّ قِدْح ليس منها ، وطفِقَ يحكم فيها من عليه الحُكْم لها ، ألا تَرْبَعُ علىٰ ظَلْعك ، وتعرِفُ قُصورَ ذَرْعك ، وتتأخَّر حيث أخَّرك القَدَر ، فما عليك غَلَبَة المغلوب . ولا لك ظَفَرُ الظافر . وإنك لذَهَّاب فى التِّيه ، روّاغ عن القصد . ألا ترىٰ غير مُخْبِر لك ولكن بنعمة الله أُحدِّث ، أنّ قوما آستُشْهِدوا فى سبيل الله ولكل فَضْل حتّى إذا آستُشْهِد شهيدُنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، أولا ترى أن قوما قطعت أيديهم فى سبيل الله ولكلٍّ فضلٌ حتّى إذا فُعِل بواحدٍ منا ما فُعِل بواحد منهم قيل الطَّيَّار فى الجنة وذو الجَناحَيْن ، ولولا ما نُهِى عن تزكية المرء نفسَه لذكر ذاكرٌ فضائلَ جمّةً ،

(١) المدره المقدّم فى القتال وزعيم القوم وخطيبهم .

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية فإنا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائع لنا ، لم يمنعنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا علىٰ قومك أن خلطناهم بأنفسنا : فنكَحْنا وأنكحْنا ، فِعلَ الأكفاء ولستم هناك ، وأنَّى يكون ذلك كذلك ! ومنا النبيّ ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صِبْية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حَمَّالة الحطب ، فإسلامنا قد سمع وجاهليَّتنا لا تدْفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شذَّ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأُولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ وقوله تعالىٰ ﴿ إنَّ أوْلىٰ النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوه وهَذَا النَّبيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ ولىُّ المُؤْمِنِين ﴾ فنحن مرّة أولىٰ بالقرابة وتارة أولىٰ بالطاعة . ولما ٱحتج المهاجرون علىٰ الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُوا عليهم ، فإن يكن الفَلَج به فالحقُّ لنا دُونكم ، وإن يكُنْ بغيره فالأنصار علىٰ دعواهم . وزعمتَ أنِّي لكل الخلفاء حَسَدت ، وعلىٰ كلهم بغيْتُ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فتكونَ المعذِرةُ إليك * وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارها *

وقلت إنى كنتُ أُقاد كما يُقاد الجمل المَخْشُوش حتَّى أبايع . ولعَمْر الله ! لقد أردتَ أن تذم فَحمدتَ ، وأن تفضَح فٱفْتَضحْت ، وما علىٰ المسلم من غَضَاضة فى أن يكون مظلوما مالم يكن شاكًّا فى دينه ، ولا مُرتابا فى يقينه . وهذه حجَّتِى إلىٰ غيرك قصدها ، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح لك من ذكرها .

ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأيُّنا كان أعدىٰ له وأهدىٰ إلىٰ مَقاتله : أمَنْ بذل له نُصرته فٱستقعده وٱستكَفَّه أم مَنِ ٱستنصره فتراخى عنه وبثَّ المنونَ إليه ، حتى أتىٰ قدره عليه . كلا والله ! لقد علم اللهُ المُعوِّقِينَ مِنْكُمْ والْقَائلِينَ لإخْوانِهِم هَلُمَّ إلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ البَأْسَ إلا قَلِيلا . وما كنت أعتذر من أنِّى كنت أنقم عليه

أحداثا فإن يكن الذنبُ إليه إرشادى وهدايتى له "فرُبَّ مَلُوم لاذَنْبَ له . وقد يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ" وما أردتُ إلا الْإِصْلاحَ ما ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إلا بالله عليه تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف فلقد أضحكتَ بعد ٱستعبار ! متىٰ ألفيْتَ بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين؟ أو بالسيوف مخوَّفين .

(فـ)لَبِّث قليلًا يَلحقِ الهَيْجا حَمَل * سيطلُبك مَنْ تطْلُب، ويقرُب منك ما تستَبعد، وأنا مُرْقِل نحوَك فى جَحْفَل من المهاجرين، والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامهم، ساطع قَتَامهم، مُسَرْبَلين سرابيلَ الموت . أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربهم . قد صحبتهم ذُرِّية بدرِيَّة وسُيوف هاشميَّة قد علِمْتَ مواقعَ نِصالِها فى أخيك وخالك، وجدّك، وأهلك ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس، وهو يومئذ خليفة، إلىٰ محمد بن عبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط، حين بُويع له بالخلافة وخرج علىٰ المنصور يريد ٱنتزاعها منه . من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلىٰ محمدبن عبد الله . أما بعد : فـ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولك ذمةُ الله وعهدُه وميثاقه وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تُبْتَ من قبل أن يُقدَر عليك أن أؤمِّنك علىٰ نفسك وولدك وإخوتك ومَنْ بايعك وجميع شيعتك، وأن أُعطيكَ ألفَ ألفِ درهم، وأُنزِلَك من البلاد حيث شئتَ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات، وأن أُطلق مَنْ فى سِجْنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أُتْبِع أحدا منكم بمكروه

وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إليَّ مَنْ يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿طسم ، تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتَنى ، فقد تعلم أنَّ الحقَّ حقُّنا ، وأنكم إنما أُعْطِيتُموه بنا ، ونَهضتم فيه بسَعْينا وحُظْتُموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصيَّ والإمام ، فكيف وَرِثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يَمُتُّ بمثل فَضْلنا ولا يَفْخَر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبِنا ، وإنا بَنُو أمّ أبى رسول الله : فاطمةَ بنتِ عمرو فى الجاهلية دُونكم ، وبنو آبنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسطُ بنى هاشم نسبًا ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجَم ، ولم تُعْرِق فيَّ أمّهات الأولاد . وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فوَلَدنى من النبيين أفضلُهم : محمد صلى الله عليه وسلم . ومِن أصحابه أقدمُهم إسلاما ، وأوسعُهم علما ، وأكثرهم جهادا : عليّ بن أبى طالب ؛ ومن نسائه أفضلُهن : خديجةُ بنت خويلد أوّل مَنْ آمن بالله وصلّى إلى القبلة ؛ ومن بناته أفضلُهن ، وسيدةُ نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشما ولَدَ عليا مرتين ، وأنّ عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرّتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وَلَدَنى مرّتين من قِبَل جدَّىَّ الحسن والحسين، فما زال الإلهُ يختارُ لى حتّٰى آختار لى فى النار فولَدَنى أرفعُ الناس درجةً فى الجنة، وأهونُ أهل النار عذابًا يوم القيامة، فأنا آبنُ خير الأخيار، وآبن خير الأشرار، وآبن خير أهل الجنة، وآبن خير أهل النار. ولك عهدُ الله إن دخلتَ فى بَيْعتى أن أؤمنكَ علىٰ نفسك و ولدِك وكلِّ ما أصبته إلا حدّا من حدود الله تعالىٰ، أو حقا لمسلم أو معاهَد . فقد علمت مايلزمك فى ذلك فأنا أوفىٰ بالعهد منك ، وأنت أحرىٰ بقبول الأمان منى . فأما أمانك الذى عرضت علىّ فأىُّ الأمانات هو؟ أأمان آبن هبيرة، أم أمانُ عمك عبدِالله بن علىٍّ، أم أمان مسلم والسلام .

فأجابه المنصور : من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد فقد أتانى كتابُك ، وبلغنى كلامُك، فإذا جُلُّ فخرك بالنساء، لتِضلَّ به الجُفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء . وقدجعل الله تعالىٰ العمَّ أبا، وبدأ به علىٰ الوالد الأدنىٰ . فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ﴾ .

ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالىٰ بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وعمومتُه أربعة فأجاب آثنان أحدهما أبى، وكفر آثنان أحدهما أبوك .

وأما ماذكرتَ من النساء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين علىٰ قدر الأنساب ، وحقِّ الأحساب ، لكان الخير كلُّه لآمنة بنتِ وهب، ولكن الله يختار لدينه مَنْ يشاء من خلقه .

وأما ماذكرت من فاطمةَ بنتِ أسدٍ أم علىّ بن أبى طالب، وفاطمة بنت الحسين وأن هاشما وَلَد عليا مرّتين ، وأن عبد المطّلب ولَد الحسن مرّتين ، فخير الأوّلين

والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلِده هاشم إلا مرّة واحدة ، ولم يلده عبد المطلب إلا مرّة واحدة .

وأما ماذكرت من أنك ٱبنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبىٰ ذلك فقال ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولكنكم قرابة ٱبنته ، وإنها قرابة ذرّيته ، غير أنها ٱمرأة لاتحوز الميراث ، ولا يجوز أن تَؤُمّ فكيف تُورَث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخاصِم ، ومَرَّضها سرّا ، ودفنها ليلا ، فأبىٰ الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيرَه . ثم أخذ الناسُ رجالا فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان فى أصحاب الشُّورىٰ فكلٌّ دفعه عنها ، وبايع عبدُالرحمن عثمانَ وقبلها عثمانُ وحارب أباك طلحةُ والزبيرُ ، ودعا سعدا إلىٰ بيْعته فأغلق بابَه دُونه . ثم بايع معاويةَ بعده ، وأفضىٰ أمر جدّك إلىٰ أبيك الحسن فسلمه إلىٰ معاوية بخِرَق ودراهم وخرج إلىٰ المدينة ، فدفع الأمر إلىٰ غير أهله ، وأخذَ مالا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه .

وأما قولك إن الله ٱختار لك فى الكُفْر فجُعِل أبُوك أهونَ أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ، ولا من عذاب الله هَيِّن ؛ ولا ينبغى لمسلِم يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يفتخِر بالنار . ستَرِد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

وأما قولك إنه لم تَلِدْك العجم ، ولم تُعْـرِق فيك أمَّهاتُ الأولاد ، وإنك أوسطُ بنى هاشم نسبا ، وخيرُهم أمًّا وأبا ، فقد رأيتك فَخَرت علىٰ بنى هاشم طُرًّا ، وقدّمتَ نفسك علىٰ من هو خير منك أوّلا وآخرا ، وأصلا وفصلا . فَخَرت علىٰ إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ والدِ ولده ؛ فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غدا وما وُلد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علىّ

آبن الحسين وهو لأمّ ولد، ولقد كان خيرا من جدّك حسن بن حسن. ثم آبنه محمد بن علىّ خيرٌ من أبيك وجدّته أمّ ولد . ثم آبنُه جعفر وهو خير منك ولدته أمّ ولد . ولقد علمت أن جدّك عليا حَكَّم حكمَيْنِ وأعطاهما عَهْده وميثاقه علىٰ الرضا بما حكما به فآجتمعا علىٰ خَلْعه ، ثم خرج عمُّك الحسينُ علىٰ آبن مرجانة وكان الناس معه عليه حتّى قتلوه، ثم أتَوْا بكم علىٰ الأقتاب من غير أوطية كالسَّبْى المجلوب إلىٰ الشأم. ثم خرج منكم غيرُ واحد فقتلكم بنو أمية وحَرَّقوكم بالنار وصلَّبوكُمْ علىٰ جذوع النخل حتّى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْرِكوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضَهم وديارهم بعد أن كانوا يلعَنُونَ أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة كما تُلعنُ الكَفَرة فمنعناهم وكفَّرناهم، وبينا فضله وأشَدْنا بذكره، فآتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا بما ذكرنا من فضل علىّ قدّمناه علىٰ حمزةَ والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين سلما منهم وآبتُلِي أبوك بالدماء . ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم ، وولاية زمزم ، وكانت للعباس دُونَ إخوته فنازع فيها أبوك إلىٰ عمر فقضىٰ لنا عمر بها . وتُوفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحدٌ حيًّا إلا العباس فكان وارثَه دُونَ بنى عبد المطلب ، فطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينَلْها إلا ولده . فآجتمع للعباس أنه أبو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاتمِ الأنبياء، وبَنُوه القادةُ الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا العباس أُخْرج إلىٰ بدر كُرْها لمات عَمَّاك طالب وعقيل جُوعا أو يَتَجَشَّمان جِفَان عُتْبة وشيبة، فأذهب عنهما العار والشَّنَار . ولقد جاء الإسلام والعباس يَمُون أبا طالب للأَزْمة التى أصابَتْهم . ثم فدىٰ عَقيلا يوم بدر فقدْ مُنَّاكم فى الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتمَ الأنبياء ، وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا بثأركم إذ عجزتم عنه ووضعناكم حيث لم تضَعُوا أنفسكم والسلام .

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر : إنه إنما تملك الرعيّة بالإحسان إليها، وتظْفَر بالمحبة منها؛ فإنّ طلبك ذلك بإحسانك، هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك بعنفك. وآعلم أنه إنما تُمْلَك الأبدان، فآجمع إليها القلوب بالمحبة. وآعلم أن الرعية إذا قدرَتْ على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فآجتهد أن لا تقول تسلَمْ من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى آبنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن مَنْ تختاره لولايتك رجلا كان فى وَضِيعة فرفَعْته، وذا شَرَف كان مهمَلا فآصطنعته . ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتَّضع لها ، ولا أحدا ممن يقع بقلبك أن إزالةَ سلطانك أحبُّ إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غَمْرا، كثيرا إعجابُه بنفسه، قليلا تجربتُه فى غيره، ولا كبيرا مُدْبِرا، قد أخذ الدهر من عَقْله، كما أخذت السِّنُّ من جِسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى آبنه شيرويه أيضا : إن كلمةً منك تَسْفِك دما، وأُخرى تحقِن دما، وإن سَخَطك سيفٌ مسلول على من سَخِطت عليه، وإنّ رضاك بَرَكة مفيدة على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فآحترس فى غضبك من قولك أن يُخطِئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخفّ؛ فإن الملوك تعاقب جُرْما، وتعفو حِلْما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حَفَظة البيضة ، والكُتَّاب الذين هم زَيْن المملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم، فإنا نحمد إليكم الله سالمين، وقد وضعْنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بها إتاوَتَها الموظَّفة عليها، ونحن مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحقد فيَدْهَمَكم العدوّ، ولا تحتكروا فيشمَلَكم

القحط ، وتزوّجوا القرائب فإنه أمس للرحم ، وأثبت فى النسب ، ولا تَعْدُوا هذه الدنيا شيئا ، ولا ترفُضوها ، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومخاطباتهم . فمن ذلك رسالة الصدّيق رضى الله عنه إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حين تلكّأ عن مبايعته ، على لسان أبى عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه ، مع ما انضم إلى ذلك من كلام أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علىّ عنها .

قال أبو حَيَّانَ علىُّ بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المَرْوَرُّوذىّ ببغداد ، فتصرف فى الحديث كل متصَرَّف ، وكان غزير الرواية ، لطيف الدراية ، فجرى حديثُ السقيفة ، فركب كلَّ مَرْكَبا ، وقال قولا ، وعرّض بشىء ، ونزع إلى فنّ . فقال : هل فيكم مَن يحفَظ رسالةً لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجوابَ علىّ عنها ، ومبايعتَه إياه عقيب تلك المناظرة . فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بنات الحقائق ، ومخبآت الصنادق ؛ ومنذ حفِظتها مارويتها إلا لأبى محمد المهلّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنى بيده ، وقال : لاأعرِف رسالة أعقلَ منها ولا أبينَ ؛ وإنها لتدلُّ على علم وحلم وفصاحة ونباهة ، وبُعْد غور ، وشدّة غوص — فقال له العبّادانىّ : أيها القاضى فلو أتممت المِنّة علينا بروايتها ، أسمِعْناها ، فنحن أوعى لك من المهلبىّ ، وأوجب ذِماما عليك ، فاندفع وقال :

" حدّثنا الخزاعى بمكة ، عن أبى مَيْسَرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسى بن دوأب بن المتّاح ، قال : سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لما استقامت الخلافةُ لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطانُ بها ، فدفع الله شرها ويسّر خيرها ، بلغ أبا بكر عن علىّ تلكُّؤ وشِماس ، وتهمّم ونِفَاس ،

فكره أن يتمادىٰ الحالُ فتبدُوَ العورة، وتشتعلَ الجمرة، وتتفرّق ذاتُ البَيْن؛ فدعانى بحضرته فى خلوة، وكان عنده عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه وحده فقال : يأبا عبيدة ما أَيْمَنَ ناصِيَتَك، وأبْيَنَ الخيْرَ بين عينيك؛ وطالما أعزَّ الله بك الإسلام وأصلح شأْنَه علىٰ يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمَكان المَحُوط، والمحل المَغْبوط؛ ولقد قال فيك فى يوم مشهود "لِكُلِّ أمّةٍ أمينٌ وأمينُ هذه الأمّة أبو عُبَيْدَةَ" ولم تزل للدِّين ملتجا، وللمؤمنين مُرْتَجا؛ ولأهلك ركنا، ولإخوانك ردءًا . قد أردتك لأمرٍ خَطِرٍ مَخُوف، و إصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم ينـدمل جُرْحه بيسارك و رِفْقك، ولم تُجِب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل البأس؛ وآحتيج بعد ذلك إلىٰ ماهو أمرّ منه وأعلَق، وأعسرُ منه وأغْلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه علىٰ يديك . فتأتَّ(١) له أبا عبيدة وتلطف فيه، وآنصح لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذه العصابة غيرَ آلٍ جَهْدا، ولا قالٍ حمدا، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبصِّرك، إن شاء الله . امض إلىٰ علىّ وآخفِضْ له جناحَك، وآغضُضْ عنده صوتَك، وآعلم أنه سُلَالة أبى طالب، ومكانُه ممن فقَدْناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه، وقل له البحرُ مَغْرقة، والبر مفرقة، والجو أكْلَف، والليلُ أغْدَف، والسماء جَلْواء، والأرض صَلْعاء، والصُّعود متعذِّر، والهُبُوط متعسِّر، والحق عَطُوف رءُوف، والباطل عَنُوف عَسُوف، والعُجْب قَدَّاحة الشر، والضِّغن رائد البَوار، والتعريض شِجار الفتْنة، والقِحَة ثقُوب العَداوة، وهذا الشيطان متّكئ علىٰ شِماله، متحيِّل بيمينه، نافخٌ خُصْييه لأهله، ينتظر الشَّتات والفُرقة، و يدبُّ بين الأمّة بالشحناء والعداوة، عنادًا لله عز وجل أوّلا، ولآدم ثانيًا، ولنَبِيّه صلى الله عليه وسلم ودِينِه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجور، ويُدْلِى بالغُرور، و يمنّى أهلَ الشُّرور . يُوحى إلىٰ أوليائه زُخْرُفَ القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتّى فلان للأمر تهيأ له وأتاه من وجهه .

كان علىٰ عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادةً له منذ أهانه الله تعالىٰ فى سالف الدهر لامَنْجَى منه إلا بعَضّ الناجذ علىٰ الحق، وغَضّ الطرف عن الباطل، ووطْء هامة عدوّ الله بالأشدّ فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلامِ النفس لله عزوجل فى ٱبتغاء رضاه . ولا بُدَّ الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخِيف غِبُّه؛ ولقد أرشدك من أفاء ضالَّتك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته بعتابك، وأراد لك الخير مَنْ آثر البقاءَ معك؛ ما هذا الذى تُسوِّل لك نفسُك، ويدوى به قلبْك، ويلتوِى عليه رأيك، ويتخاوصُ دونَه طَرْفُك، ويسرِى فيه ظَعْنك، ويترادّ معه نَفَسك، وتكثُر عنده صُعَداؤك، ولا يَفيضُ به لسانك . أعُجمةٌ بعد إفصاح؟ أتلبيس بعد إيضاح؟ أدينٌ غير دين الله؟ أخُلُق غير خُلُق القرءان؟ أهدْى غير هدْىِ النبي صلى الله عليه وسلم، أمثلى "تمشى له الضَّرَاءَ وتدِبُّ له الخَمَر؟"(1)، أم مثلك ينْقبِض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القَمَر؛ ماهذه القَعْقعة بالشِّنان؟ وما هذه الوعوعة باللسان؟ إنك والله جِدُّ عارفٍ بٱستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرةً إلىٰ الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنّ الصبا، وخِدْر الغَرارة، وعُنْفُوان الشَّبيبة، غافلٌ عما يُشِيب ويُريب، لاتعِى مايُراد ويُشَاد، ولا تحصِّل مايُساق ويُقاد، سوىٰ ماأنت جارٍ عليه إلىٰ غايَتِك التى إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رحلك، غير مجهول القدر ولا مجحود الفضل؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعانِى أحوالا تُزِيل الرَّواسى، ونُقاسِى أهوالا تُشيب النواصى، خائضِينَ غِمارها، راكبين تيَّارها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَح عِيابها، ونُحكم آساسها، ونُبْرِم أمْراسَها، والعيون تُحدِّج بالحسد، والأنوف تَعَطَّس بالكِبْر، والصُّدور تستَعِر بالغَيظ، والأعناق تتطاوَلُ بالفخر، والشِّفار تُشْحَذ بالمكر، والأرض تميد

(1) مثل يضرب لمن يختل صاحبه .

بالخوف ؛ لا ننتظر عند المَساء صَباحا ، ولا عنـد الصَّباح مَساء ، ولا نَدْفَع فى نحرِ آمرئ إلا بعد أن نحسُوَ الموتَ دُونه ، ولا نبلغُ مرادا إلا بعـد الإيَاس من الحياة عنده ؛ فادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأُمّ ، والخـال والعم ، والمـال والنَّشَب ، والسَّـبَد واللَّبَـد ، والهِلَّة والبِلَّة ، بِطيب أنفُس ، وقُرّة أعيُن ، ورَحْبِ أعطان ، وثَبات عزائم ، وصِحَّة عقول ، وطَلَاقة أوجه ، وذَلَاقة ألْسُن ؛ هذا مع خَفِيَّات أسرار ، ومكنُونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شيء منهـا ناكلا ، كيف وفُؤادك مشْهُوم[1]؟ ، وعُودُك معْجُوم . والآنَ قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيْرَ لك ، وجعـل مُرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ماتسمع ؛ فآرتقبْ زمانَك ، وقَلِّصْ أردانَك ، ودع التقَعُّس والتجَسُّس لمن لا يَظْلع لك إذا خَطا ، ولا يتزحْزَح عنك إذا عَطـا ؛ فالأمرُ غض ، والنفوس فيهـا مَضّ ، وإنك أديمُ هذه الأمّة فلا تحْلَمْ لِجَاجا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تنبُ آعوِجاجا ، وماؤها العذب ، فلا تَحُلْ أُجاجا . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى يا أبا بكر هو لمن يرغَبُ عنه لالمن يُجاحِش عليه ، ولمن يتَضاءَلُ عنه لالمن يتَنفَّج إليه ؛ هو لمن يُقال هو لك لالمن يقُول هو لى .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى الصِّهر ، فذكر فِتيانا من قريش فقلت أين أنتَ من علىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكْرَه لفاطمة مَيْعةَ شَبابِه ، وحَداثةَ سِـنِّه . فقلت له متىٰ كنَفَتْه يدُك ورعَتْـه عينُـك ، حفَّت بهما البركة ، وأُسْبِغت عليهمـا النِّعمة ؛ مع كلام كثيرٍ خاطبته به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لاحَوْجاء ولالَوْجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرىٰ مكان غيرك ، وأجد رائحة سِواك ، وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى ؛ ولئن كان عرّض بك رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم فى هذا الأمر ، فلم يكن مُعْرِضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

(١) بالشين المعجمة أى ذكىّ متوقد .

فما سكت عن سِواك ، وإن تلجلجَ فى نفسك شىء ، فَهَلُمَّ فالحُكم مَرْضىٌّ ، والصواب مسمُوع ، والحقُّ مُطاع . ولقد نُقِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَذِر : يسرُّه ماسرها ، ويسوءه ماساءها ، ويكيده ما كادها ، ويُرْضيه ما أرضاها ، ويُسْخِطه ما أسخطها . أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحابه ، وأقاربه ، وسُجَرائه[1] ، إلا أبانه بفضيلة ، وخَصَّه بمزية ، وأفرده بحالة . أتظنُّ أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمّة سُدًى بَدَدا ، عباهِل[2] ، مَبَاهِل ، طَلاحَى مفتونةً بالباطل ، مغبونةً عن الحق ، لا رائد ولا زائد ، ولا ضابط ولا حائط ، ولا ساقىَ ولا واقى ، ولا هادىَ ولا حادى كلا ! ، والله ما اشتاق إلى ربه تعالى ، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقُرْبه ، إلا بعد أن ضرب المدى ، وأوضح الهُدى ، وأبان الصُّوىٰ ، وأمّن المسالك والمَطارح ، وسهل المبارك والمَهايع ، وإلا بعد أن شَدَخ يافوخ الشرك بإذن الله ، وشَرَم وجه النفاق لوجه الله سبحانه ، وجَدَع أنفَ الفتنة فى ذات الله ، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله ، وصدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل .

وبعد ، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بُقعة واحدة ، ودار جامعة ، إن استقالونى لك ، وأشاروا عندى بك ، فأنا واضعٌ يدى فى يدك ، وصائرٌ إلىٰ رأيهم فيك . وإن تكن الأخرىٰ فادخُل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العونَ علىٰ مَصالحهم ، والفاتحَ لَمغالِقهم ، والمرشد لضالَّتهم ، والرادع لغَوَايتهم . فقد أمر الله تعالىٰ بالتعاوُن علىٰ البر والتقوىٰ ، والتناصُر علىٰ الحق . ودَعْنا نقضى هذه الحياةَ الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ ، ونَلْقَ الله تعالىٰ بقلوب سليمة من الضِّغْن .

وبعد فالناس ثُمامةٌ فارْفُق بهم ، واحنُ عليهم ولِنْ لهم ، ولا تُشْق نفسَك بنا خاصَّة

---

(١) بالسين المهملة جمع سجير كأمير وهو الصديق .

(٢) بالباء الموحدة فى الوزنين ومعناهما مهملة . أنظر اللسان .

فيهم، وأَتْرُكَ ناجِمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرِّ واقعا، وباب الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما نقول شهيد، وبمـا نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تأهّبت للنهوض، قال عمر رضى الله عنه كُنْ لدىٰ الباب هُنيهة فلى معك دَوْر من القول، فوقفت وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحقنى بوجه يَنْدىٰ تهللا، وقال لى قل لعلىٍّ الرُّقاد مَحْلَمه، والهوىٰ مَقْحمه، وما منا إلّا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاعٌ أو مقسوم، ونبأٌ ظاهر أو مكتوم، وإن أَكْيَس الكَيْس من منح الشارد تألُّفا، وقارب البعيد تلطُّفا، ووزن كلَّ شيء بميزانه، ولم يخلط خبره بعِيانه، ولم يجعل فِتْره مكان شِبره دِيناً كان أو دُنْيَا، ضلالا كان أو هدًى. ولا خير فى علم مستعمِلٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مشوبةٍ بنُكْر. ولسنا كجلدة رُفْغ البعير بين العِجَان والذنَب، وكل صالٍ فبناره، وكل سيل فإلىٰ قَراره. وما كان سكوت هذه العصابة إلىٰ هذه الغاية لعِىّ وشَىّ، ولا كلامها اليوم لفَرَق أو رفق. وقد جدع اللهُ بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كلِّ ذى كِبْر، وقصمَ ظهر كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بَعْدَ الحَقِّ إلّا الضَّلَال. ما هذه الخُنْزُوانة التى فى فَرَاش رأسك؟ ما هذا الشَّجا المعترضُ فى مَدَارج أنفاسك؟ ما هذه القَذَاة التى تغشَّت ناظرَك؟ وما هذه الوَحَرة التى أكلتْ شراسيفَك؟ وما هذا الذى لبِست بسببه جلد النَّمِر، وآشتملت عليه بالشحناء والنُّكُر، ولسنا فى كِسْرويَّة كِسرىٰ، ولا فى قَيْصَريَّة قيصر! تأملْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرا لسُيُوفنا، ودريئة لرِماحنا، ومرمًى لطِعَاننا، وتِبعا لسُلطانِنا؛ بل نحن فى نور نُبُوّة، وضياء رسالة، وثمرةِ حكمة، وأثَرة رحمة، وعُنْوان نِعمة، وظل عِصمة، بل أمّة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونةٍ علىٰ الرَّتْق والفَتْق، لهـا من الله قلب أبِىّ، وساعدٌ قوىّ، ويدٌ ناصرة، وعينٌ باصرة. أتظن ظنا ياعلىّ أنّ أبا بكر وثب علىٰ هـذا الأمر مُفْتاتا علىٰ الأمة خادعا لهـا،

أو متسلطا عليها ؟ أتُراه حل عُقُودها وأحال عقولها؟ أتراه جعل نهارها ليلا ، ووزْنها كيْلا ، ويقَظَتها رُقادا ، وصَلاحها فَسادا ؛ لا والله سلا عنها فولِهَتْ له ، وتطامن لها فاصِقتْ به ، ومال عنها فمالت إليه ، وٱشمأزّ دونها فاشتملت عليه ، حَبْوة حباه الله بها ، وعاقِبة بلَّغه الله إليها ، ونعمة سَرْبَلَه جَمالها ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها ، وأُمّةٌ نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيَرة .
وإنك بحيث لايُجهل موضِعُك من بيتِ النبوّة ، ومعدِن الرسالة ، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله ، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمنكِب أضخَم من منكبك ، وقُرْبٍ أمَسَّ من قرابتك ، وسنّ أعلىٰ من سنك ، وشيبةٍ أروعَ من شيبتك ، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية ، وفرعٌ فى الإسلام ، ومواقفُ ليس لك فيها جمل ولا ناقه ، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا ساقه ، ولا تَضرِبُ فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تخرُج منها ببازل ولا هُبَع . ولم يزل أبو بكر حَبَّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعِلاقة نفسه ، وعَيْبة سره ، ومفْزَع رأيه ومشورَته ، وراحةَ كفه ، ومَرْمَق طَرْفه . وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شُهْرته مغنية عن الدليل عليه .
ولَعَمْرى إنك أقرب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، ولكنه أقربُ منك قُرْبة ، والقَرابة لحم ودم ، والقُربة نفس ورُوح . وهذا فرقٌ عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون ، ومهما شككت فى ذلك ، فلا تشكَّ أن يدَ الله مع الجماعه ، ورضوانَه لأهل الطاعه ، فٱدخل فيما هو خير لك اليوم ، وأنفع لك غدًا ، وٱلفِظْ مِن فيك ما يعْلَق بلَهاتِك ، وٱنفُث سخيمةَ صدرك عن تُقَاتك ، فإن يكُ فى الأمد طُول ، وفى الأجل فسحة ، فستأكله مريئا أو غير مرىء ، وستشربه هنيئا أو غير هنىء ، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسا منك ، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعا فيك يَمُضُّ إهابَك ، ويعرُك أديمك ، ويُزْرى علىٰ هديك . هنالك تقرَع السنّ من ندم ،

وتجرّع المـاء ممزوجا بدم، وحينئــذ تأسىٰ علىٰ ما مضىٰ من عمرك ، ودارج قوتك، فتودّ أن لو سُـقيت بالكأس التى أبيْتَها، ورُدِدت إلىٰ حالتك التى آستغويتها ، ولله تعالىٰ فينا وفيــك أمر هو بالغُه ، وغيب هو شاهــده ، وعاقبــة هو المرجوّ لسَرّائها وضرّائها ، وهو الولىّ الحميد، الغَفُور الودود .

قال أبو عبيدة، فتمشيت مترملا أنوء كأنمـا أخطو علىٰ رأسى، فَرَقًا من الفُرقة، وشفقًا علىٰ الأمّة، حتّٰى وصلْت إلىٰ علىّ رضى الله عنه فى خلاء، فآبتثثته بَثّى كلَّه، وبرئت إليه منــه ، ورفَقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسَرتْ فى مفاصله حُمَيَّاها ، قال : "حلَّتْ مُعْلَوِّطه، وولَّت مُخْرَوِّطه" ، وأنشأ يقول :

إحدىٰ لَيَالِيكِ فَهِيسِى هِيسِى * لاتَنْعَمِى اللَّيْــلَةَ بالتَّعْرِيس

نعم ياأبا عبيدة أكلُّ هذا فى نفس القوم، ويُحِسُّون به، ويَضْطبِعون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لاجوابَ لك عنــدى إنمـا أنا قاضٍ حقّ الدِّين ، وراتقٌ فتقَ المسلمين، وسادّ ثُلْمةَ الأمّة . يعلم الله ذلك من جُلْجُلان قلبى، وقَرارة نفسى .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هذا البيتِ قصدًا للخلاف، ولا إنكارا للمعروف، ولا زِرايةً علىٰ مُسلم؛ بلْ لمـا قد وَقَذنِى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِرَاقه ، وأودعَنِى من الحُزْن لفَقْده . وذلك أننى لم أشهد بعده مَشْهدا إلاجدّد علىّ حُزْنا،وذكَّرنى شَجَنا. وإن الشوق إلىٰ اللَّحاق به كافٍ عن الطَمَع فى غيره. وقد عكفتُ علىٰ عهد الله أنظُر فيه ، وأجمع ماتفرّق ، رجاءَ ثواب مَعَدٍّ لمن أخلص لله عملَه ، وسلَّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيِه. علىٰ أنى ماعلمتأن التظاهر علىّ واقعٌ، ولا عن الحق الذى سبقَ إلىّ دافع؛ وإذ قد أُفْعِم الوادى بى، وحُشِد النادى من أجلى، فلا مَرْحبا بمـا أساء أحدا من المسلمين وسرَّنى . وفى النفس كلام لولا

سابقُ عقــد ، وسالفُ عهد ، لشفَيْت غيظى بخِنْصِرى وبِنْصِرى ، وخُضْت لُجَّته بأخْمَصِى ومَفْرِقى ، ولكنني مُلْجَم إلىٰ أن ألقىٰ الله ربى ، وعنده أحتسِب ما نزل بى . وإنى غادٍ إلىٰ جماعتكم ، مبايعٌ صاحبَكم ، صابرٌ علىٰ ما ساءنى وسرّكم ﴿ لِيَقْضِىَ اللهُ أمرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ .

قال أبو عبيدة : فعُدْت إلى أبى بكر رضى الله عنــه فقَصَصْت عليه القول علىٰ غَرِّه ، ولم أختزل شيئا من حُلوه ومُرّه ، وبَكَّرت غُدوةً إلىٰ المسجد ، فلما كان صَباح يومئــذ وإذا علىّ مخترق الجماعة إلىٰ أبى بكر رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتًا(١) ، وٱستأذن للقيام فمضىٰ وتبعه عمر مُكْرِما له ، مستأثرا لمــا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنه : ماقعدتُ عن صاحبكم كارهًا ، ولا أتيتُه فَرِقا ، ولا أقول ما أقول تَعِــلة . ولإنى لأعرف مُنتهىٰ طَرْفى ومَحَطّ قدمى ومَنْزَع قوسى ، ومَوقِع سهمى ؛ ولكن قد أَزَمْت علىٰ فأسى ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفْكِفْ غَرْبك ، وٱستوقِفْ سِربك ، ودَع العِصِىَّ بلِحائها ، والدِّلاء علىٰ رشائها . فإنا مِنْ خلفها وورائها ، إن قدَحْنا أورينا ، وإن متَحْنا أرْوَيْنا ، وإن قَرَحنا أدمينا ، ولقد سمعتُ أماثيلك التى لغَزْت بهــا عن صدر أُكِل بالجَوىٰ ، ولو شئت لقلت علىٰ مقالتك ما إن سمعتَه ندمت علىٰ ما قلت . وزعمت أنك قعدتَ فى كِنِّ بيتك لمــا وقَذَك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فقدِه ، فهو وقذك ولم يَقِذْ غيرك ؟ بل مُصابُه أعظم وأعمُّ من ذلك ، وإنَّ من حق مُصابه أن لا تَصدَع شَمْل الجماعة بفرقةٍ لا عصام لها ، ولا يُؤْمن كيد الشيطان فى بقائها . هذه

---

(١) أى حليما وقورا .

العَرَب حولنا، والله لو تداعتْ علينا فى صُبْح نَهار لم نلتقِ فى مَسَائه . وزعمت أن الشوقَ إلىٰ اللَّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه، وموازَرة أوليائه، ومعاوَنتهم . وزعمت أنك عَكَفت علىٰ عهد الله تجمعُ ما تفرَّق منه؛ فمن العُكُوف علىٰ عهد الله النصيحة لعباد الله، والرأفةُ علىٰ خلق الله، وبذل ما يَصْلُحُون به، ويَرْشُدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهُر واقع عليك وأىّ حق لُطَّ(١) دُونَك . قد سمِعتَ وعلمتَ ما قال الأنصار بالأمس سِرّا وجَهرا، وتقلبتَ عليه بَطْنا وظَهرا، فهل ذكَرَتْ أو أشارَتْ بك أو وجدْت رِضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه ؟ أو همّ فى نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلُّوا من أجْلك، وعادوا كُفَّارا زُهْدا فيك، وباعوا اللهَ تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقِيل بن زياد الخزرجىُّ فى نفَر من أصحابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقُوب الخزرجىّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولىٰ بها من غيره، ويُنْكِر علىٰ مَنْ يعقد الخلافةَ، فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القول فى نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحىَ ويتوكَّف مناجاة المَلَك . فقلتُ ذاك أمرٌ طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أكان الأمر معقودا بأُنْشُوطه، أو مشدودا بأطراف لِيطه ؟ كلا ! والله لا عجماءَ بحمد الله إلا أفصحت، ولا شوكاء إلا وقد تفتَّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابقُ عَقْد، لشفيتُ غيظى؛ وهل ترك الدينُ لأهله أن يشفُوا غيظهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهليَّة وقد استأصل الله شأْفَتَها واقتلع جُرْثُومتها، وهوّر ليلَها، وغوّر سيْلَها، وأبدل منها الرَّوْح والرَّيْحان، والهُدَى والبُرهان . وزعمت أنك مُلْجَم؛ ولعمرى إن مَن اتقى الله، وآثر رِضاه، وطلب ما عندهُ، أمْسكَ لسانه وأطبق فاه، وجعل سَعْيه لما وراه .

---

(١) لُطَّ . أى جحد . ووقع فى بعض النسخ لك وفى بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضى الله عنه : مَهْـلًا ياأبا حفص والله مابذَلْت مابذَلْت وأنا أريد نَكْثه، ولا أقْررت ما أقْررت وأنا أبتغى حِولا عنه . وإن أخسر النـاس صفقةً عنـد الله مَنْ آثَرَ النفاق، وآحتضَنَ الشِّقاق وفى الله سَلْوة عن كل حادث، وعليه التوكُّل فى جميع الحوادث . ارجع ياأبا حفص إلىٰ مجاسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللّبان، فَصِيح اللّسان؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدُّ الأزر، ويَحُط الوِزر، ويضع الإصْر، ويجمع الأُلْفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فآنصرف عليّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعبُ ما مرّ عليّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضى الله عنها فى الآنتصار لأبيها .

يروىٰ أنه بلغ عائشـةَ رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلتْ إلىٰ أزْفَلةٍ من الناس فلمـا حضروا، أسدَلَت أستارَها، وعلَتْ وِسادَها . ثم قالت أبى : وما أبِيَه! أبى والله لاتَعْطُوه الأيدى، ذاك طَوْدٌ منيف؛ وفَرْع مَديد، هيهاتَ كذبَتِ الظُّنون، أنجحَ إذ أكْدَيتم، وسَبَق إذ ونَيْتم * سَبْقَ الجوادِ إذا آستولىٰ علىٰ الأمد * فتىٰ قريش ناشئا، وكهفها كَهْلا، يفُك عانِيَها ويَرِيشُ مُمْلِقَها، ويرأبُ شَعْبها، ويلُمُّ شَعَثها حتّى حَلِيَتْه قلوبُها، ثم آسْتَشرىٰ فى دِين الله فما بَرِحتْ شكيمتُه فى ذات الله عز وجل حتّى آتخذ بفِنائه مَسْجِدا يحيى فيه ما أمات المبطلون؛ وكان رحمه الله غَزِير الدَّمْعة، وقِيذَ الجوانح، شَجِىَّ النَّشيج، فانقضَّتْ إليـه نِسوانُ مكةَ وولْدانُها يَسْخَرون منه ويستهزئون به (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويمُدُّهُم فى طُغْيانهم يَعْمَهُون) فأكبرتْ ذلك رِجالاتُ من قريش فحنَت قِسِيَّها وفوّقتْ سِهامها وآنتثلوه غرضا، فما فَلُّوا له صَفاة، ولا قَصَفُوا له قناة، ومرَّ علىٰ سِيسائه، حتّي إذا ضرب الدِّينُ بجِرانه،

ورسَتْ أوتاده ، ودخل الناسُ فيه أفواجا ، ومن كل فِرْقة أرسالا وأشتاتًا ، آختار الله لنبيِّه ما عنـده ؛ فلما قبض الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم ضربَ الشَّيطانُ رُواقَه ، ومدّ طُنُبه ، ونَصَب حبائله ، وأجْلب بخَيْله ورَجْله ، وآضطربَ حبلُ الإسـلام ، ومَرِج عهـدُه وماجَ أهلُه ، وبُغِي الغوائل ، وظنَّتْ رجال أن قد أ كثبتْ أطماعَهم نُهَزُها ولاتَ حينَ الذى يرجون ، وأنَّى والصـدّيق بين أظهُرهم . فقام حاسِرا مشَمِّرًا ، فجمع حاشِيَتَيْه ورَفَع قُطْرِيْه ، فردّ رسَنَ الإسـلام علىٰ غَرْبه(١) ، ولَمَّ شـعثه بِطِبِّه ، وآنتاشَ الدين فنعَشَه ، فلما أراح الحقَّ علىٰ أهله ، وقرَّر الرؤُوسَ علىٰ كواهلها ، وحَقَن الدماء فى أُهُبِها ، أتَتْه منيته ، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمَعْدَلَة . ذاك آبنُ الخطاب لله دَرّ أمّ حَملتْ به ودرّتْ عليه ! لقد أوحدَتْ به ، ففنَّخَ الكَفَرة وديَّخَها ، وشرَّد الشِّرك شَـذَرَ مَذَرَ ، وبعَج الأرضَ وبَخَعها فقاءتْ أُكْلَها ، ولفظَتْ خَبْأها ، تَرْأَمُه ويَصْدِف عنها ، وتصدّىٰ له ويَأْباها . ثم وَزَّع فيها فيأها ووَدَّعها كما صحِبها . فأرُونى ماذا تَرْتَئُون وأىّ يومَىْ أبى تنقِمُون : أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظَعْنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هـذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلتْ علىٰ الناس بوجهها فقالت أنشُدُكم الله هل أنكرتم ممـا قلت شيئا ؟ قالوا آللهم لا .

ومن ذلك كلام أمّ الخَيْر : بنت الحُرَيش البـارقيّة يوم صِفِّين فى الآنتصار لعلىّ رضى الله عنه .

يروىٰ أن معاوية كتب إلىٰ واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحريش البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) فى بعض الكتب فردّ نشر الدين علي غره ولم شعثه بطبه .

عليه كتابُه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعةٍ ولا معتلة بكذب! ولقد كنتُ أُحِبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صَدْري . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير : إن أمير المؤمنين كتب إليَّ أنه يجازيني بقولكِ فيّ بالخير خيرا و بالشر شرا، فما عندكِ؟ : قالت ياهذا لا يُطْمِعنَّك بِرُّك بي أن أُسُرّك بباطل، ولا تُؤْيِسْك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق . فسارتْ خير مَسِير حتّى قدمت علىٰ معاوية فأنزلها مع حريمه ، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله و بركاته . قال لها وعليك السلام يا أمّ الخير، و بالرغم منك دَعَوْتِيني بهذا الاسم . قالت مَهْ يا أمير المؤمنين ! فإن بَدِيهة السلطان مَدْحَضة لما يجب علمه ﴿ولِكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ﴾ . قال صدقت . فكيف حالك ياخالَة ؟ وكيفَ كنتِ في مَسيرِك ؟ . قالت لم أزَل في عافيةٍ وسلامةٍ حتّى صرتُ إليك فأنا في مجلس أنِيق ، عند مَلِك رفيق — قال معاوية بحُسن نيتي ظفِرتُ بكم — قالت ياأمير المؤمنين أعيذك بالله من دَحضِ المَقال وما تُرْدِي عاقبتُه قال ليس هذا أردنا . أخبِريني كيف كان كلامُك يوم قُتِل عَمّار بن ياسر؟ قالت لم أكن والله زوّرته قبْلُ ولا روَّيته بعد . وإنما كانت كلماتٌ نفَثَهن لساني حينَ الصَّدْمة فإن شئتَ أن أُحْدث لك مقالا غير ذلك فعلت — قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلىٰ أصحابه فقال أيكم يحفَظ كلام أمّ الخير فقال رجل من القوم أنا أحفَظه يا أمير المؤمنين كحفظي سورة الحمد — قال هاتِه — قال : نعم كأني بها ياأمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها بُرْد زبيديّ كثيفُ الحاشية ، وهي علىٰ جمل أرْمكَ وقد أُحِيط حولها، و بيدها سَوْط منتشر الظفر(١)، وهي كالفحل يهدر في شِقشِقته تقول :

(١) لعله الضفر بالضاد المعجمة أي الفتل .

﴿ يأيها الناسُ اتّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ شيءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحقَّ ، وأبان الدليـــل ، ونوّر السبيل ، ورفع العِلْم ، فلم يَدَعْكم فى عمياءَ مُبْهمة ! ولا سوداءَ مدلهِمَّة فإلىٰ أين تريدون رحمكم الله . أفِرارا عن أمير المؤمنين ،أم فِرارا من الزَّحْف ، أم رغبةً عن الإسلام ، أم ٱرتدادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنبلُوَنَّكُمْ حتّى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصابِرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعتْ رأسها إلىٰ السماء وهى تقول .

قد عِيل الصبر، وضَعُف اليقين، وٱنتشرت الرَّغْبة، وبيَدِك يارب أزِمَّةُ القُلوب فاجمع الكلمة علىٰ التقوىٰ، وأَلِّف القلوب علىٰ الهــدىٰ، هَلُمُّوا رحمكم الله إلىٰ الإمام العادل،والوصىّ الوفِىّ ، والصدّيق الاكبر! إنها إحنٌ بدريّه ،وأحقادجاهليه ، وضغائن أُحُديه ، وثب بها معاوية حينَ الغفلة ليُدْرِك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قاتِلُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ إنَّهُمْ لا أيْمــانَ لَهُمْ لَعلَّهُمْ يَنْتَهُون ﴾ . صبرًا معشرَ المهاجِرِين والأنصار، قاتلوا علىٰ بصيرة من ربكم، وثَبَات من دينكم ، وكأنى بكم غدًا قد لقِيتم أهلَ الشام كحُمُر مستنفِرة ، فرَّتْ من قَسْورة . لا تدرى أين يُسْلَك بها من فِجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتَرُوا الضــلالة بالهدىٰ ، وباعوا البصــيرة بالعمىٰ وعَمّا قليل ليُصْبِحُنَّ نادمين ، حين تَحُلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة ! إنه والله مَنْ ضــلَّ عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل فى النار . أيها الناس إن الأكياس ٱستقصروا عمر الدنيا فرفَضُوها واستبطــُوا مدّة الآخرة فسعَوْا لهــا . والله أيها الناس لولا أن تبطُلُ الحقوق ، وتعطَّلَ الحُدود ، ويظهرَ الظالمون ، وتقوىٰ كلمة الشيطان ، لمــا ٱخترنا ورود المنايا علىٰ خَفْض العيش وطِيبه ؛ فإلىٰ أين تريدون رحمكم الله عن ٱبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوْج ابنته وأبى ٱبنيه ؟ خُلق

من طِينَتِه ، وتفرّع عن نَبْعته ، وخصّه بسِرّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى علىٰ سَنَن ٱستقامته ، لا يعرّج لراحة اللذّات ، وهو مُفَلّق الهام ، ومكسّر الأصنام إذ صلّى والناسُ مشرِكون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتّى قَتل مُبارزى بدر ، وأفنىٰ أهل أحد ، وفرّق جمع هوازن ، فيالها وقائع ! زرعتْ فى قلوب قوم نفاقا ، ورِدّة وشِقَاقا ، وقد ٱجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلى ! والله لو قتلتكِ ما حَرِجْت فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك علىٰ يَدَىْ مَنْ يُسْعدنى الله بشقائه — قال هيهاتَ يا كثيرة الفُضُول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : ٱستخْلَفه الناسُ وهم كارهون ، وقَتَلوه وهم راضون — فقال إيهًا يا أم الخير هذا والله أصلكِ الذى تبنين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفىٰ بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سَبّاقا إلىٰ الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين فى طلحةَ بنِ عبيد الله؟ — قالت وما عسىٰ أن أقول فى طلحة ٱغتيل من مَأْمنه ، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ — قال فما تقولين فى الزبير؟ قالت ياهذا لا تَدَعْنى كَرَجِيع الضَّبُع يُعْرَك فى المِرْكَن — قال حقا لتقولنّ ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ٱبنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوَارِيّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سبّاقا إلىٰ كل مكْرُمة فى الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يامعاوية فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها أن تسعَنِى بفضلِ حلمك ،

وأن تُعفينى من هـذه المسائل، وٱمض لمـا شئت من غيرها — قال نعم وكرامةً قد أعفيتك، وردّها مكرمة إلىٰ بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانيَّة يوم صفِّين أيضا .

يروىٰ أنها ذُكِرت عند معاوية يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه ياأمير المؤمنين — قال فأشيروا علىّ فى أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بئس الرأى أيحسُن بمثلى أن يقتـل ٱمرأة ؟ . ثم كتب إلىٰ عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثِقةٍ من ذوى مَحْرِمها وعِدّة من فُرْسان قومها ، وأن يمهِّد لهـا وِطاء لينا، ويستُرَها بستر خَصِيف، ويُوسع لهـا فى النفقة . فلما دخلتْ علىٰ معاوية، قال مرحبا بك وأهلا ! قَدِمتِ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير ياأمير المؤمنين أدام الله لك النعمة ! — قال كيف كنتِ فى مَسيرِك ؟ قالت ربيبة بيتٍ أو طِفْلا مُمَهَّدا — قال بذلكِ أمرناهم . أتدرين فيم بعثت إليك — قالت وأنّىٰ لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألست الراكبة الجملَ الأحمر، والواقفةَ بين الصفَّيْن بصفِّينَ تَحُضِّين الناس علىٰ القتال، وتُوقدين الحرب؟ فما حملك علىٰ ذلك؟ — قالت ياأمير المؤمنين مات الرأسُ، وبُتِر الذَّنَب، ولن يعود ماذهب، والدهر ذو غِيَرٍ، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لهـا معاوية أتحفظين كلامَكِ يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أُنْسِيته — قال لكنى أحفَظُه لله أبوك حين تقولين :

أيهـا الناس ارعَوُوا وٱرجعُوا ! إنكم أصبحتم فى فتنة غَشَّتْكم جَلابِيبَ الظُّلَم، وجارتْ بكم عن قَصْد المحجَّة . فيالها فتنة عمياء، صمـاء، بَكْماء لا تسمَعُ لناعقها، ولا تَسْلَسُ لقائدها . إن المصباح لايُضىء فى الشمس، والكواكب لاتنير مع القمر، ولا يقطَع الحديدَ إلا الحديد . ألا منِ ٱسترشَـد أرشدناه، ومن سألنَـا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلبُ ضالَّتــه فأصابها ! فصَـبْرا يامعاشر المهاجرين والأنصار علىٰ الغُصَص، فكأنْ قد ٱندمل شَعْب الشَّتات، وٱلتأمت كلمة التقوىٰ، ودمَغ الحقُّ باطـله ! فلا يجهَلنّ أحد فيقولَ كيف العدل وأنّى : لِيَقْضِى اللهُ أمرًا كان مفعولا . ألا و إن خِضاب النساء الحِنَّـاء ، وخِضَاب الرجال الدِّماء ! ولهذا اليوم مابعده ، والصـبر خير فى عواقب الأمور . إيهـًا لحرب قُدُما غير ناكصين، ولا متشاكِسين .

ثم قال لها ياز رفاء لقد شَرِكْت عليا فى كل دم سَفَكه — قالت أحسن الله بشارتَكَ، وأدام سلامتك ؛ فمثلُك من بَشَّر بخير وسر جليسَه — قال ويَسرك ذلكِ؟ — قالت : نعم سُرِرتُ بالخبر فأنّى لى بتصـديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حُبِّكم له فى حياته ! اذكرى حاجتك . قالت ياأمير المؤمنين آليت علىٰ نفسى أن لاأسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا ، ومثلك من أعطىٰ من غير مسألة، وجاد من غير طِلْبة — قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

وقريب من ذلك كلام عكرشةَ بنت الأطْرش يوم صِفِّين أيضا .

يروىٰ أنها دخلتْ علىٰ معاوية متوكِّئة علىٰ عُكَّازٍ لهـا فسلمتْ عليـه بالخلافة ، ثم جلستْ — فقال لهـا معاوية : الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين؟ قالت : نعم إذ لاعلىّ حىّ ! — قال ألستِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بِصفِّين ؟ وأنتِ واقفـة بين الصفين تقولين : أيها الناس ! علَيْكُم أنفُسَكُم لا يضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ . إن الجنـة لا يحزَنُ مَنْ قطَنها ، ولا يَهْرَم مَنْ سكَنَها ، ولا يموت مَنْ دخلها ؛ فٱبتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم هُمُومها . وكونوا قوما مستبصِرين فى دينهـم مستظهِرين علىٰ حقهم ؛ إن معاويةَ دَلَف إليكم بعجم العرب ، لايفْقَهُونَ الإيمـان ، ولا يدرون ما الحِكْمة . دعاهم إلىٰ الباطل فأجابوه ، وٱستدعاهم إلىٰ الدنيا فلبَّوْه .

فاللهَ اللهَ عباد الله فى دين الله ! وإياكم والتواكُلَ فإن ذلك ينقض عُرىٰ الإسلام، ويطفئ نور الحق. هذه بَدْر الصغرىٰ، والعقبة الأخرىٰ؛ يامعشر المهاجرين والأنصار آمضوا علىٰ بصيرتكم، واصبِروا علىٰ عزيمتكم. فكأنّى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُر الناهقة تقصَع قَصْعَ البعير :

ثم قال : فكأنى أراكِ علىٰ عصاكِ هذه قد آنكفأ عليكِ العسكران يقولون هــذه عكرشةُ بنت الأطرش فإنْ كدتِ لتَقُلِّين أهل الشام لولا قَدَرُ الله وكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَقْــدُورا، فمــا حملك علىٰ ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره ﴿يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره أمرا لايحب إعادته — قال صدقتِ فاذكرى حاجتك — قالت كانت صدقاتُنا تؤخَذ من أغنيائنا فتُرَدّ علىٰ فقرائنا وقد فقدنا ذلك، فما يُجْبَر لنا كسير، ولا يُنْعَش لنا فقير. فإن كان عن رأيك فمثلك من آنتبــه من الغــفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فمــا مثلك من آستعان بالخَوَنة ولا آستعمل الظَّلَمة — قال معاوية : ياهذه، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغور تنفتق، وبُحُور تتدفق. — قالت سبحان الله! والله مافرض الله لنا حقًّا فجعل فيه ضررا لغيرنا وهو علّام الغيوب — قال معاوية هيهاتَ ياأهل العراق نَبَّهكم علىٌّ فلن تُطاقوا. ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

والشاهد فى هــذه الحكايات كلام هؤلاء النسوة مع ما فيها : من المراجَعات ، والمخاطَبات، والمقاولات، والمحاوَرات، الصالحة للاستشهاد للفصل المتقدّم قبــل ذلك. وهذا باب متسع لايسع استيفاؤُه، ولا يمكن استيعابه وفيما ذكرنا مَقْنع.

ومن ذلك ماروى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ! أرســل إلىٰ معاويةَ بالشام كتابا صحبة صعصعةَ بن صُوحانَ، فسار به حتّٰى أتىٰ دمشق؛ فأتىٰ باب معاوية فقال لآذنه : آســتأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ وبالبــاب جماعةٌ

من بنى أميّة ، فأخذته النِّعال والأيدى لقوله : "أمير المؤمنين" . وكثُرتْ عليه الجَلَبة ، فاتّصل ذلك بمعاوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يابن أبى سُفيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أمَا إنه لو كانت الرسل تُقْتَل فى جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية فى الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف طَبْعا أو تكلفا — فقال له ممن الرجل — قال من نِزَار — قال وما كان نزَار قال كان اذا غزا انكمش ، واذا لقى افترش (١) ، واذا انصرف احترش . قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل النِّجاد ، ويعُول العباد ، ويضْرِب ببقاع الأرض العِماد — قال : فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من جَدِيلة — قال وما كان جدِيلة ؟ — قال كان فى الحرب سَيْفا قاطعا ، وفى المَكْرُمات غيثا نافعا ، وفى اللقاء لَهَبا ساطعا — قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال وما كان عبد القيس ؟ — قال كان حَسَنا أبيضَ وهابا ؛ يقدّم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المَرَق ، طيب العَرَق ، يقوم للناس مَقام الغيث من السماء — قال ويحك يابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحى من قُريش مجدا ولا فخرا ، — قال بلىٰ والله يابن أبى سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر ، والسرير والمِنْبر ، والملك إلىٰ المحشَر ؛ ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل علىٰ قريش كلها ، قال صدقت يابن صُوحان إن ذلك لكذلك فعرف صَعْصَعة ما أراد ؛ فقال ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد . بَعُدتم عن أنف المرعىٰ ، وعلَوْتم عن عَذْب الماء — قال ولِمَ ذلك ويْلَك يابن صُوحان ! فقال الويل لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم — قال قم فأخرجوه — فقال : صعصعة الوَعْد بينى

(١) أى جدّ . الأصمعى انكمش فى أمره وانشمر وجدّ بمعنى واحد . وقوله افترش أى صرع . يقال لقى فلان فلانا فافترشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أى كسب أو صاد .

و بينك لا الوعيد مَنْ أراد المُناجَزة يَتْبَل المحاجزة[1] — فقال معاوية لشيء مّا سوّده قومُه ووددْت أنى من صُلْبه ؛ ثم ٱلتفت إلىٰ بنى أمية فقال : هكذا فلْتكُن الرجال .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بنَ عثمان بن عفّان رضى الله عنه دخل علىٰ معاوية وابنُه يزيدُ إلىٰ جانبه فقال له : ائتَمَنك أبى ، وٱصطَنَعك حتّى بلّغك باصطناعه إياك المدىٰ الذى لا يجـارىٰ ، والغايةَ التى لا تُسامَى ؛ فما جازيتَ أبى بآلائه حتّى قدّمت هذا علىّ ، وجعلت له الأمر دُونى . "وأومأ إلىٰ يزيد" والله لأبى خيرٌ من أبيه وأمى خير من أمّه ولأنا خير منه ! — فقال له معاوية . أمّا ما ذكرتَ يابن أخى من تواتُر آلائكم علىّ ، وتظاهُر نَعْمائكم لدىّ ، فقد كان ذلك ووجب علىّ المكافأة والمجازاة ، وكان من شُكرى إياه أن طلبتُ بدمه حتّى كابدت أهوال البلاء ، وغَشِيتُ عساكر المنايا إلىٰ أن شُفِيت حَزازات الصدور وتجلّتْ تلك الأمور . ولست لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزارى عليها فى التقصير .

وذكرت أنّ أباك خير من أبى هـذا "وأشـار بيده إلىٰ يزيد" فصـدقت لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ! أكْرَم كريما ، وأفضَـل قديمـا ، وأقربُ إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم رحما . وذكرت أن أمّك خير من أمه فلعمرى إنّ ٱمرأةً من قريش خيرٌ من ٱمرأة من بنى كلب . وذكرت أنك خير من يزيد فوالله يابن أخى ما يسرّنى أن الغُوطة عليهـا رجال مثلُ يزيدَ . فقال له يزيدُ "مَهْ يا أمير المؤمنين ! ٱبنُ أخيك ٱستعمل الدالَّة عليك ، وٱستعْتَبك لنفسه ، وٱستزاد منك فَزِدْه وأجْمِل له فى ردّك ، وٱحمل علىٰ نفسك ، وولّه خُراسان بشفاعتى وأعِنْه بمال يظهر به مُرُوءَته" فولاه معاوية خراسان ، وأجازه بمـائة ألف درهم ؛ فكان ذلك أعجبَ ما ظهر من حلم يزيد .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة . ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المنشئ .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه دَيْنا لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بنُ أبى سفيان قد تزوّج ٱبنة يعلى أخى زيد بن منبّه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الْحَقْ بِصِهرك "يعنى عتبة" فقدم عليه مصر فقال : "إنى سرت إليك شهرين أخوض فيهما المَتالف : ألبَس أرديَةَ الليل مرّةً وأخوض فى لجج السراب أخرى، مُوقَرا من حُسْن الظن بك، وهاربا من دهر قَطِم، ودَيْن أزِم، بعد غِنًى جدَعْنا به أنوفَ الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مَهْربا وعليك معوّلا — فقال عتبة : مرحباً بك وأهلا ! إن الدهر أعاركم غِنًى وخلطكم بنا ثم ٱستردّ وأخذ ما أمكنه أخذُه، وقد أبقى لكم منا مالاضِيقةَ معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله" فأعطاه ستين ألفا كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزّى بن زُرارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوَبَر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال ياأمير المؤمنين لم أزل أهُزُّ ذوائب الرجاء إليك، ولم أجد معوّلا إلا عليك، أمتطِى الليل بعد النهار، وأسِمُ المَجاهل بالآثار، يقودُنى إليك أمل، ويسوقُنى إلَيْك بلوى، والمجتهد يُعْذر، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحطُطْ عن راحلتك رَحْلَها .

وخرج عبد العزّى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارةُ عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزرارة : أتانى اليوم نَعْىُ سيد شَباب العرب — قال زرارة ياأمير المؤمنين هو ٱبنى أو ٱبنك؟ — قال بل ٱبنك فقال "للموت ما تلد الوالدة" . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وِللْمَوْتِ تغذُو الوالدتُ سِخَالَها * كما لِخَراب الدَّهْرِ تُبْنَى المَسَاكِنُ

ومن ذلك ما يروى، أن مروانَ بن الحكم، وهو والٍ على المدينة فى خلافة معاوية حبس غلاما من بنى ليث فى جِناية جناها بالمدينة، فأتته جدّة الغلام " وهى أمّ

سِنانٍ بنتُ جشمية بن خرشــة المذحجية (١)، فكلمتْه فى الغلام ، فأغلظ لهـا مروانُ ، فخرجت إلىٰ معاوية فدخلتْ عليه فآنتسبتْ له فعرفها، فقال : مرحبا بابنة جشمية ما أقدمك أرضَنا ؟ وقد عهدتُكِ تَشْتِمينا، وتُحضِّين علينا عدوَّنا، قالت : ياأمير المؤمنين! إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأعلاما ظاهرة، لايَجْهَلون بعد علم، ولا يَسْفَهُون بعد حِلْم ، ولا يشتُمون بعد عفو ، وإن أولىٰ الناس بآتباع ماسنّ آباؤه لأنتَ، قال "صدقتِ نحن كذلك فكيف قولك :

عَزَب الرُّقادُ فمُقْلَــتِى لاتَرْقُـدُ * واللّيْـــلُ يُصْدِرُ بالهُمُومِ ويُورِد
ياآلَ مذحِجَ لامُقـامَ فشمِّروا * إنّ العَـدُو لآل مَذْحِجَ يقْصِـد
هــذا علِىٌّ كالهـلال تحفُّـــه * وَسَطَ السماء من الكواكب أسعُدُ
خَـيْرُ الخلائقِ وآبنُ عَمِّ محمدٍ * إنْ يَهْدِكُمْ بالنُّور منْـهُ تَهْتَدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِد الحُروبَ مظَفَّرا * والنَّصْرُ فَــوْقَ لِوائِهِ ما يُفْـقَدُ"

قالت قد كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنـا خَلَفا بعده، فقال رجل من جلسائه كيف ياأمير المؤمنين؟ وهى القائلة :

إمّا هلَكْتَ أبا الحُسَيْنِ فلَمْ تَزَلْ * بالحقّ تُعْـرَفُ هاديًا مَهْـدِيًّا
فآذهبْ عليْكَ صلاةُ ربِّكَ مادعَتْ * فَوْقَ الغُصونِ حَمـامةٌ قُمْــرِيًّا
قَدْ كُنْت بَعْـدَ محمّدٍ خَلَفا لَنَـا * أوصىٰ إليكَ بنـا وكُنْتَ وَفِيًّا
واليـومَ لاخَلَفٌ يُؤَمَّل بَعْــدَه * هيهـاتَ نَأْمُلُ بعـدَهُ إنسـيًّا

قالت ياأمير المؤمنين : لسانٌ نطق، وقولٌ صدق، ولئن تحقق فيك ماظنناه، فحظُّك الأوفر، والله ما أورثك الشَّنَآنَ، فى قلوب المســلمين إلا هؤلاء، فأدْحِض

(١) لم نعثر على آسم بهذه الصيغة فليحرر .

مَقالتهـم، وأبْعِدْ منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تَزْدَدْ من الله قُرْبا ، ومن المسـلمين حُبًّا . قال وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : سـبحان الله ! والله ما مِثْلُك من مُدِح بباطل، ولا آعتُذِر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا . كان علىّ والله أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك . قال ممن ؟ . قالت من مروان وسعيد بن العاص — قال وبم آستحققت ذلك عندك؟ — قالت بسَعةِ حلمك، وكريم عَفْوك — قال وإنهما يَطْمعَان فى ذلك — قالت هما والله من الرأى على ما كنتَ عليه لعثمانَ بن عفّان — قال لقد قاربت فما حاجتك ؟ — قالت : ياأمير المؤمنين ! إن مروان تَبَنَّكَ(١) فى المدينة تَبَنُّكَ من لا يريد منها البَرَاح، لا يحكُم بعدل، ولا يقضِى بسُنَّة؛ يتتبع عَوْرات المؤمنين؛ حبس آبن آبنى فأتيتـه فقال كَيْت وكَيْتَ ، فأسمعتُه أخشن من الحجر، وألقمته أمرّ من الصَّبِر، ثم رجعت إلىٰ نفسى باللائمة، وقلت لِمَ لا أصرِف ذلك إلىٰ مَنْ هو أولىٰ بالعفو منه؛ فأتيتك يا أمير المؤمنين، لتكون فى أمرى ناظرا، وعليه مُعْدِيا — قال صدقت لا أسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه — قالت ياأمير المؤمنين وأنّى بالرجعة وقد نَفِد زادى، وكلَّتْ راحلتى، فأمر لها براحلة موطّأة وخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ماروى أن معاوية حج فسأل عن آمرأة من بنى كنانة كانت تنزِل الحَجُون يقال لها الدارِميَّة، وكانت سوداءَ كثيرةَ اللحم ، فأُخْبِر بسلامتها فجىء بها، فقال ما حالكِ يا آبنة حامٍ؟ — قالت لستُ لحامٍ أُدعىٰ، إن عِبْتنى أنا آمرأة من بنى كنانة — قال: صدقتِ أتدرين لِمَ أرسلت إليك؟ قالت لا يعلم الغيب إلا الله — قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببْتِ عليـا وأبغضتينى ، وواليتيه وعاديْتِنى ؟ — قالت أو تُعْفِينى

(١) أى أقام اقامة من اخ .

ياأمير المؤمنين — قال لا أُعْفيك — قالت أما إذا أبيت، فإنى أحببت عليا علىٰ عَدْله فى الرعية، وقَسْمه بالسوية، وأبغضتك علىٰ قتالك مَنْ هو أولىٰ بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق، وواليتُ عليا علىٰ ماعُقِد له من الوِلَاية، وعلىٰ حبِّه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك علىٰ سفكك الدِّماء، وجَوْرك فى القضاء، وحكمك بالهوىٰ — قال ولذلك ٱنتفخ بَطْنُك، وعظُم ثدياك، وربَتْ عجيزَتُك — قالت ياهذا بهند كانت تضرب الأمثال، لابى — قال ياهذه ٱربَعى فإنا لم نقل إلا خيرا إنه إذا ٱنتفخ بطن المرأة تَمَّ خلْق ولدها، وإذا عظُم ثدياها تَروى رضيعها، وإذا عَظُمت عجيزتها رزُن مجلسها فرجعت وسكَنَتْ — قال لها فهل رأيت عليا؟ قالت لقد كنت رأيتُه — قال كيف كنت رأيتِيه، قالتْ رأيته لم يفتنه المُلْك الذى فتنك، ولم تشغله النِّعمة التى شغلتك — قال لها: فهل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم، والله كان يجلُو القلوبَ من العمىٰ، كما يجلو الزيت الطَّست من الصدإ — قال: صدقت فهل لك من حاجة؟ قالت: وتفعل إذا سألتك؟ — قال نعم — قالت: تعطينى مائة ناقة حمراءَ فيها فحلُها وراعيها — قال تصنعين بها ماذا؟ — قالت أُغذِّى بألبانها الصِّغار، وأستحيى بها الكِبارَ، وأُصْلح بها بين العشائر — قال فإن أعطيتك ذلكِ فهل أحُلُّ عندك مَحَلَّ على؟ — قالت ماءٌ ولا كصَدّاء، ومرعًى ولا كالسَّعْدان، وفتًى ولا كمالك، ياسبحان الله أو دُونَه، فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أَعُدْ بالحِلْم مِنِّى إليكُمُ * فَمَنْ ذَا الَّذى بَعْدِى يُؤَمَّلُ لِلحِلْمِ؟
خُذِيها هنيئًا وٱذْكُرِى فِعْل ماجِدٍ * جَزَاكِ علىٰ حَرْبِ العَدَاوةِ بالسِّلْمِ.

ثم قال: أما والله! لوكان عليا ما أعطاكِ منها شيئا — قالت والله ولا وبَرَةً واحدة من مال المسلمين.

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنتَ صفوانَ آستأذنت على معاوية فأذن لها فدخلتْ عليه، وعليها ثلاثةُ دُروع بُرود تسحَبها ذراعا، قد لاثتْ على رأسها كَوْرا كالمِنْسَف فسلَّمت وجلست، فقال لها معاوية كيف أنتِ يا آبْنةَ صفوان؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين — قال كيف حالك؟ — قالت كَسِلْت بعد نَشاط — قال شتَّان بينك اليومَ وحينَ تقولين :

يازَيْدُ دُونَكَ صارِمًا ذَا رَوْنَقٍ * عَضْبِ المَهَزَّةِ لَيْسَ بالخَوَّار

أَسْرِجْ جَوادَكَ مُسْرِعًا ومشمِّرًا * للحرْبِ غيْرَ مُعَوَّد لِفِرَار

أَجِبِ الإمامَ وذُبَّ تَحْتَ لِوَائِهِ * والقَ العَدُوَّ بِصارِمٍ بَتَّارِ

ياليْتَني أصبحْتُ لستُ قَعِيدةً * فأَذُبَّ عَنْهُ عَساكِرَ الفُجَّار

قالت قد كان ذلك، ومثلك مَنْ عفا عمَّا سلف ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منه﴾. قال هيهاتَ، أما والله لو عاد لعُدتِ، ولكنه اخْتُرِم منك — قالت أجل! والله إني لعلى بينة من ربي وهُدًى من أمري — قال كيف كان قولك حين قتل؟ — قالت أُنْسِيته؛ قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

ياللرِّجال لِعُظْمِ هَوْلِ مُصيبةٍ * فَدَحتْ فلَيْسَ مُصابُها بالحائِل

الشَّمسُ كاسِفةٌ لفَقْدِ إمامنَا * خَيْرِ الخلائِق والإمامِ العادِل

حاشى النبيَّ لقد هَدَدتَ قُواءنا (١) * فالحقُّ أصْبح خاضِعًا للباطِل

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل، آذكُرِي حاجَتَك — قالت أما الآن فلا، وقامتْ فعثَرتْ، فقالت تَعِس شانئٌ علىّ! فقال زعَمتِ أن لا؛ قالت هو كما علمتَ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة، وقال إذا ضيَّعتُ الحلْمَ فمَنْ يَحْفَظه؟

(١) جمع القوة قوى مقصور و إنما مد للضرورة.

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ عدىّ بن أرطاةَ : أن ٱجمع بين إياس بن معاوية والقاسمِ بن ربيعة فولِّ القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، وكانا غير راغبين فى القضاء . فقال إياسٌ : أيها الرجلُ سَلْ عنى وعن القاسم فقيهَى المصر الحسنَ وٱبنَ سِيرين، وكان القاسم يأتى الحسنَ وٱبنَ سيرين، وإياسٌ لايأتيهما، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به، فقال له : لاتسأل عنى ولا عنه، فوالله الذى لاإله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء، فإن كنتُ كاذبا فما أشير عليك أن تولينى وأنا كاذب، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفْتَ به علىٰ شفير جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدىّ : أما إذ فهمتها فأنت لها فٱستقضاه .

ومن ذلك : ماحكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطَب أبو جعفر المنصور، فحمِد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال : أيها الناس ٱتقوا اللهَ، فقام إليه رجل من عَرْض الناس، فقال أُذَكِّرك الذى ذكَّرتنا به . فأجابه أبو جعفر بلا فكر ولا روِيّة : سمْعًا سمْعا لمن ذكَّر بالله ، وأعوذ بالله أن أذَكِّرك به وأنساه فتأخُذُنى العِزَّة بالإثم ؟ لقد ضَلَلْت إذًا وَمَا أنَا مِنَ الْمُهْتَدِين، وأما أنت فوالله ما اللهَ أردتَ بهذا، ولكن ليقال قام فقال، فعُوقِب فصبَر، وأهْوِنْ بها لو كانت ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا ٱنْبَتَّتْ . ثم رجع إلىٰ مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : مايحكىٰ عن الربيع قال : كنا وقوفا علىٰ رأس المنصور، وقد طُرِحت للمهدىّ بن المنصور وسادةٌ إذ أقبل صالح بن المنصور، وكان قد رَشّحه أن يولّيه بعض أمره ، فقام بين السِّماطين والناس علىٰ قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فمدّ

المنصورُ يدَه إليه، ثم قال يا بُنَىّ ! وٱعتنقه، ونظر فى وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكر مقَامه ويصف فضلَه ، فكلهم كره ذلك وهاب المهدىّ، فقام شبة بن عقال التميمىّ، فقال : "لله درّ خطيب قام عندك ياأمير المؤمنين ! ما أفصحَ لسانَه ! وأحسن بيانَه ! وأمضى جَنانَه ! وأبلّ ريقَه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لايكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه، والمهدىّ أخوه، وهو كما قال زُهَير بن أبى سُلْمىٰ :

يَطْلُبُ شأْوَ ٱمْرأَيْنِ قَدّمَا حسنًا * بَذَّا الملوكَ وبَذَّا هذه السُّوَقَا

هُوَ الجَوَادُ فإن يَلْحَق بشَأْوِهما * علىٰ تَكَالِيفِه فمثلُهُ لَحِقا

أوْ يَسْبِقاهُ علىٰ ما كان من مَهَل * فمثلَ ما قدّما مِنْ صَالح سبقا

قال الربيع : فأقبل علىّ بعضُ من حضر، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلُّصا[1] أرضىٰ أميرَ المؤمنين ، ومدح الغلام، وسلِمَ من المهدىّ . فالتفت إلىّ المنصور ، وقال : ياربيع لاينصرِفُ التميمى إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أنّ رجلا دخل علىٰ المهدىّ ولىّ عهد المنصور ، فقال ياأمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصورَ شَتَمَنى وقذف أمى، فإما أمرتنى أنْ أحلّله ، وإما عوَّضتنى فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شتمت عدوّه بحضرته ، فغضب — فقال ومَنْ عدوّه الذى غضب لشتمه — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمسُّ به رَحِما، وأوجبُ عليه حقا، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رَحِمه ذَبَّ، وعن عرضه دَفَع، وما أساء مَنِ ٱنتصر لٱبن عمه — قال فإنه كان عدوَّه — قال فلم ينتصر للعَدَاوة ، إنما ٱنتصر للرحم ، فأُسْكِت الرجل ، فلما ذهب ليوَلّى قال : لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلَغَ من هذه الدعوىٰ؟ — قال نعم، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

(١) فى الضوء محاجيا .

ومن ذلك ما حكى : أن المنصور قال لبعض قوّاده : صدق الذى قال "أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ" فقال له أبو العباس الطوسى : أما تخشىٰ يا أمير المؤمنين أن يلوّح له غيرُك رغيفا فيتبعَه ويَدَعَك .

ومن ذلك ما يحكى : أنه وفد أهل الحجاز من قريش علىٰ هشامِ بنِ عبد الملك بن مَرْوان ، وفيهم محمد بن أبى الجَهْم بن حذيفة العَدَوى ، وكان أعظمهم قدرا ، وأكبَرَهم سنا ؛ فقال — أصلح الله أمير المؤمنين ، إنّ خُطباء قريش قد قالت فيك ، وأقلّتْ وأكثرتْ وأطنبت ، وما بلغ قائلُهم قدرَك ، ولا أحصىٰ مُطْنِبهم فضلك ؛ وان أذنتَ فى القول قلت — قال قُلْ وأَوْجِز — قال تولّاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنىٰ ، وزينك بالتقوىٰ ، وجمع لك خير الآخرة والأولىٰ ! إن لى حوائج أفأذكرها ، قال هاتها — قال كبِرتْ سِنّى ودقّ عظمى ، ونال الدهر منى ؛ فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يَجْبُرَ كَسْرى ، وينفِىَ فقرى — قال : وما الذى ينفى فقرك ويجبر كسرك ؟ — قال ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار . فأطرق هشام طويلا ، ثم قال : هيهات يآبن أبى الجَهْم ، بيتُ المال لا يحتمل ماسألت — فقال : أما إن الأمر لواحد ، ولكن الله آثرك لمجلسك فإن تعطنا فحقّنا أدّيت ، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوَيْت ؛ إنّ الله جعل العطاء مَحبّة ، والمنع مَبْغضة ، ولأنْ[1] أُحِبَّك أحبُّ إلىّ مِنْ أن أُبْغِضَك — قال : فألف دينار لماذا ؟ — قال أقضى بها دينا قد حُمّ قضاؤه ، وحَنَانِى حَمْله ، وأضرَّبى أهلُه — قال : فلا بأسَ تُنفِّس كُرْبة ، وتؤدِّى أمانة ؛ وألفُ دينار لماذا ؟ — قال أُزَوِّج بها مَنْ بلغ من وَلَدى — قال : نعم المَسْلك سلكت ، أغْضَضْت بصرا ، وأعففْت ذكرا ، ورَوّجْت نسلا ؛ وألف دينار لماذا ؟ — قال

(١) فى الأصل . ولئن وهو خطأ فى الرسم .

أشترِى بها أرضا يعيشُ بها وَلَدى ، وأستعين بفضلها علىٰ نوائب دهرى ، وتكون ذُخرا لمن بعدى ؛ قال : فإنا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ اللهُ علىٰ ذلك ، وخرج — فقال هشام : مارأيت رجلا أوجز فى مَقال ، ولا أبلغ فى بيان منه ، وإنا لنعرِف الحقَّ إذا نزل ، ونكره الإسراف والبَخَل ، وما نُعْطى تبذيرا ، ولا نمنع تقتيرا ، وما نحن إلا خُزَّان الله فى بلاده ، وأمناؤه علىٰ عبادِه ، فإن أذِن أعطينا ، وإذا مَنَع أبينا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحِقُّ ، ماجَبَهْنا قائلا ، ولا رددْنا سائلا ؛ فنسأل الذى بيده ما آستَحْفَظنا أن يُجْرِيَه علىٰ أيدينا فإنه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويَقْدِر ، إنَّه كانَ بِعِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلَّمْتَ فأبْلغتَ ، وما بلغ فى كلامه ما قَصَصْتَ ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُقْتدى .

والحكايات والأخبار فى ذلك كثيرة ، والإطناب يُخْرِج عن المقصود ، ويؤدّى إلىٰ المَلَال ، وفيما ذكرنا من ذلك مَقْنَع والله أعلم .

المقصـــد الثالث

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف علىٰ مَن تعاطىٰ صناعة النثر والنظم أنه لا يستقِلُّ أحد باستخراج جميع المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام مَنْ تقدّمه : لآقتباس مافيه من المعانى الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وآصطلاحهم ، فيَنْسِج علىٰ منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتواردُ الكتّاب والشعراءِ علىٰ المعانى غير مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنىٌّ على أصل واحد من وزن وقافية ، فإنه إذا وقف علىٰ المعنىٰ وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ؛ مثل أن

يكتب فى تهنئة بمولود: قد جعلك اللهُ من نَبْعة طابتْ مَغارِسها، ورسخَتْ عُروقها، فالزيادةُ فيها زيادةٌ فى جوهَر الكرم، وذخيرةٌ نفيسة لذوى الإقبال، فتولّى الله نِعمَه عندك بالحراسة الوافيه، والوِلاية الكافيه. وقد بلغنى الخبر بحُدُوث الولد المبارك، والفَـرْع الطيب، الذى عَمَر أفنيةَ السياده، وأضحك مطْلَع السعاده، فتباشرتُ بذلك وٱبتهجتُ به، فجعله الله بَرّا تقيًا، سعيدا حميدا، يتقيّل سلَفَه، ويقتفى أثَرهم، وأيمَنَ به عددك، وكثَّر به ذرّيتك، وأوْزعَك الشكرَ عليه، وأجارك فيه من الثُّكْل برحمته.

فيأخذ آخَرُ المعنىٰ، ويورده بألفاظ أخرىٰ، فيقول: قد جعلك الله من شجرة زكَتْ غُصُونها، وفرع شَرُفت مَنَابته، فالنمّو فيها نعمة كاملةُ السعادة، وغِبْطةٌ شاملة السرور، فتولّى الله فضلَه عليك بالحِفَاظ الراعى، والدِّفاع الكالِى؛ وقد ٱتصل بى خبر السليل الرضِىّ، والولد الصالح الذى جدّد فوائدَ السيادة، وثبّت أساس الرفعة، فاغتبطْتُ به وٱستبشرتُ، جعله الله تعالىٰ ولدا ميْمُونا، ونجلا سعيدا، يسلك مَنَاهج سلَفه، ويحْذُو فى المحاسن حذوهم، وزاد به فى ثروتك، وأراك فيه غايةَ أملك، وسرّك بوجوده، وأسعدك برؤيته.

فالمعنى والفصل واحد، والألفاظ مختلفة. وكذلك ما يجرى هذا المجرى وما فى معناه.

قلت: ولا ينهض بمثل ذلك إلا مَنْ رسَخَتْ فى صنعة الكتابة قدمه، وٱمتزَج بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمه ودَمُه؛ وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز فى القرءان الكريم، فإن القِصَّة الواحدة تتكرر فيه مرارا فى سُوَر متعدّدة، تردُ فى كل سورة بلفظ وتركيب غير الذى وردت به فى الأخرى، مع ٱستيفاء حدِّ البلاغة ونهاية أمَدِ الفصاحة؛ ولذلك قلّ مَنْ سلك هذا المنهج، أو ٱرتقى هذه الذِّرْوة، وقد أتىٰ علىّ بن

حمزة بنِ طلحة فى كتابه "الاقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعَجَب العُجاب، فإنه قد استحسن كلامَ الخطيب ابن نُباتة الفارقىّ، والأمير قابوس الخُراسانىّ، والوزير أبى القاسم المقرى، والصاحب ابن عباد، وأبى إسحاق الصابى، الذين هم رؤساء الكتابة، وأئمة الخطَابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخُطَب الموجَزة الرائقة، فجرّد معانيَها من ألفاظها، واخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تميق، ومراعاة ترصيف، على أتم نظام، وأحسن التئام .

وهاتان نسختا كتابين، الأُولىٰ منهما كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ابن بُوَيه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عَضُد الدولة يخبره بمولود وُلِد له . والثانية عارض بها علىُّ بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابى فى ذلك بألفاظ أُخْرىٰ مع اتحاد المعنىٰ .

فأما التى كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة إلىٰ عضد الدولة فهى :

"وصل كتابُ سيِّدى الأميرِ عضد الدولة أطال الله بقاءه بالخبر السارّ للأولياء، الكابتِ للأعداء، فى الولد الحبيب الأثير، والسيد المُقبِّل الخطير، الذى زاد الله به فى عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالَنا والآمال لنا ؛ فأخذ ذلك منى مأْخَذ الاغتباط ونزل عِنْدى أعلىٰ منازل الابتهاج، وسألت الله تعالىٰ أن يختصه بالبقاء الطويل، والعُمُر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير نامية بنموّه، ناشية بنشوّه : ليكون كلُّ يوم من أيامه مُمِدّا له من فضله عاده، وواعدًا له من غَدِه بزياده، ومُحدِثا لديه منْحةً تتضاعف إلىٰ ما سبق من أمثالها، ومجدّدا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها ؛ وأن يريه إياه غرّةً فى وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمنزلته، قائما للملك قيامه، وسادّا منه مكانه ؛ ويهَبَ له بعد الأكابر النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجاراة المشفوع، فى فائدة تقـدم بمَقْدَمه، وعائدة تَرِد بمورِده؛ ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض آتصالها، أو فَتْرة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنغصها، أو رزيّة تَثْلِمها، أوتنقصها. إلا أنها(١) الأمدالأبعد والعمر الأطول؛ ثم تُفْضِى به غَضَارة هذه الدار الدنيا، إلىٰ قرارة الدار الأخرىٰ، مبوّأ أوْفَى مراتبها، مبلَّغا أقصىٰ مبالغها، حالّا أرفع درجاتها، مختصا بأنعُمها، مبتهجا بها، مستثمرا ما قدّمه لصالح سعيه، ومستوفِيًا ما أفاءه عليه مَتْجَرُه الرابح، وآثاره البادية لإنفاقه فى أيام نظرى(٢) التى آستشعرتْ نُورا من سـنائه، وآنستْ جمالا من بهائه، وثابَتْ مصالحها ببركتِه، وتوافتْ خيراتها بيمينه؛ وآعتقدتُ أن السعادات طالعةعلىّ بمطْلَعه، وأسبابها ناجمة إلىّ بمَنْجَمه؛ فلو آستطعت أن أكون مكان كتابى هذامشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضُدِ الدولة أطال الله بقاءه ومقبِّلا لبساطه، لكنت أولىٰ عبيده بالمسارعة إلىٰ بابه، وأحقّهم بالمبادرة إلىٰ فِنائه : لأننى معوّق عن تلك الخدمة بخدمة أنافيها من قبله، ومقيم بهذه الحضرة، إقامةَ المتصرفين تحت أمره، وقد وفَّيت نعمةالله تعالىٰ، الواهبِ منه أيده الله تعالىٰ مايُقِرّ عينَ الولِىّ، ويُقْذِى عينَ العدوّ ويطرفها، حقَّها من الشكر المترى للمُقـام والمزيد، بدوام العز والتأييـد؛ وأسأل الله تعالىٰ أن يجعل ذلك مَقْبولا عنه، ونافعًا له، وعائدًا عليـه وعلينا بطُول العُمُر وبباهى النُّشُوّ والنمـاء، وأن يعرّف سيدى الأمير عضدَ الدولة أيده الله بركةَ مولده، ويُمْنَ مورده، ويبقيه حتّى يراه والأمراءَ السابقين أيدهم الله تعالىٰ آباءَ أمثالهم، وأشياخ ذريتهـم، مُبلَّغا فى كل منهم أفضلَ مارَشَّحته له أمانيه، وأعلىٰ ما آنبسطت آماله فيه، بقدرته.

وأنا أتوقع الكتاب بمـا يقـرّر عليه آسم الأمير السـيد وكنيته، أعلاها الله تعـالىٰ لأستأنف إقامة الرسم فى مكاتبته، وتأديةَ الفرض فى خدمته؛ وسيدى عضد الدولة،

(١) لعله الى إنهاء كما يفيده السياق. (٢) كذا فى الأصول وليحرر.

أطال الله بقاءه، أعلىٰ عينا فيما يراه بمطالعتى بذلك وبكل ما يُولِيه الله من مستأنَف نِعَمه، ويجدّده له فى حادث مواهبه له، لآخُذَ بحظى منهما، فأضربَ بسهمى فيهما، وتصريفى بين أمره ونهيه، وتشريفى بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالىٰ .

وأما التى عارضها بها علىّ بن حمزة بن طلحة فهى :

وصلنى كتابُ سيدى الأمير عضد الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشرىٰ المبتَسِمة عن ناجذ السعد الآنف، والنُّعْمَى المنتَسِمة عن صَبا المجد المتضاعف ؛ التى أشرقتْ مطالع الإقبال عن مُحَيَّاها، وتضوعتْ نَفَحاتُ دَرْك الآمال عن رَيَّاها ، وصدقت من الأولياء ظُنونهم المرتقَبه، وآنتخبَتْ من الأعداء عُيونَهم المرتعِبه ؛ بالولد النجيب الخطير، الأمير الحبيب الظَّهير، المجيد المعمَّر، المقَيَّل المؤمَّر، الذى كثر الله به عدَدَنا معشر أهليه، وعُدَدنا بما نرتقبه منه ونُراعيه، وهو تكرِمة تُحقِّق ظنوننا بما له نرتجيه، وما نؤمِّله من السعادة المقبلة فيه؛ فاستفزّتنى غِبْطة آستحوذتْ علىٰ جوامع لُبِّى ، وتملكتنى بهجةٌ ثوتْ فى مَرابع قلبى؛ وطفِقتُ مبتهلا، وتضرَّعت متوسلا، إلىٰ ذى العَرْش المجِيد، الفَعَّالِ لِمَا يُرِيد، أن يجمع له بين العُمُر المديد، والجدّ السعيد، كِفاءَ ماقرن له بين المجد العتيد، والمُلْك الوطيد؛ وأن يجعل تحيَّاتِ أياديه لدىٰ سيدى الأمير متضاعفة الأعداد، مترادفة الأمداد، مبشرة بنُجَباء الأولاد، يربى آنفُها علىٰ السالف بسعده، ويُلْهِى عن تالدها الطارفُ بعلو مجده ؛ وأن يريه إيَّاه علىٰ مَفْرَق دولته، وغُرَّة تُشْرق فى جبهة ذرّيته، وناهضا بأعباء مملكته، وقائما بنصرة دَعْوته، حتّٰى يرىٰ أولاد أولاده جُدُودا، مظفرا سعيدا، وأن يُتْبعه أترابا من الإخوة النجباء، الأماجد السعداء، متجارين فى حَلَبات علو الهمم، متبارين فى مَزِيَّات إيلاء النعم ؛ ليترايدَ آزدحام وُفُود السعادة فى عَتَبات بابه، ويترافد آقتحام جنود الإقبال رحيب جَنَابه، ويحرُسَ لديه ماخوّله من مواهبه وأياديه، ويحفظ عليه مابه فَضَّله من مناقبه

ومعاليه ؛ ويقِيه من كيد عاند إذا عند ، ويحميه من شَرِّ حاسدٍ إذا حسد ؛ وأن يؤتيه عائدتى العاجلة والعقبىٰ ، ويُحْظِيه بسعادتى الآخرة والأولىٰ ؛ وأن يجعل سعيه فى مصالح عباده مشكورا ، ونظَرَه فى مَنَاجِح بلاده مبرورا ؛ وأن يُغَادر مَتَاجِر بره وتقواه رابحه ، كما جعل خواطرَ سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعدله نواضر ، ونواظر الأنام إلىٰ فضــله نواظر ؛ ومصالحهــم بيُمْنه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وســعادته مواتيه ؛ وإنى لأعتقد أن مَقِيلى فى أفياء السعاده ، ونَيْلى كلَّ مأمول وإراده ، وتوفيق فيما أُوفَّق فيه ، بمــا أعتمِده وآتيه ، جَدْول من تَيَّار فضــله وسعادته ، مَنُوط العُرىٰ بسموّ همتِه ؛ وأودّ أن أكونَ عوضًا عن كتابى هذا إليه ، وخِطابِى الوارد آنفا عليه ؛ لأسعدَ بالآلاء غُرَّته ، وأحظىٰ بالأشرف من خِدْمته ؛ أدام الله أيام دولتــه : لأنى أجدر عبيده بالمهاجَرة إلىٰ بابه ، وأولىٰ خَدَمه بالمبادرة إلىٰ جنابه ؛ ولولا تحلى أعباءَ خدمته التى طوّقنيها ، وكونى نائبه لدىٰ هــذه الحضرة فيهــا ، ثاويا بأوامره ونواهيه فى مَغَانيها ، لَمَــا شَقَّ غبارى من أمّ ذُراه ، ولا ٱتّبع آثارى مُسرِعٌ رام لُقْياه . ولقد قمت بالواجب علىّ للنعمة أيده الله المُنْزلةِ إلىّ ، والمَوْهِبــة بمَقدَمه كلأه الله المُكْمَلة لدىّ ، التى أضحت بها نواجذ المخلِص ضاحكةً مســتبشره ، وأمستْ بسببها وجوه الكاشحيـــن عابسةً مستبسره : من وافر شكرٍ يمترِى المَزِيد ، وعتقِ الإماء والعبيد ، والصدقة الدارّة علىٰ التأبيد ؛ وأنا أرغب إلىٰ الله تعالىٰ رغبةَ متوسل إليه ، آمل بمــا لديه ، أن يجعل بركة كل خير درّتْ به أخلافه ، وكَرّت لأجله أحلافه ، عائدةً عليه ، ومَيامِنَه ثائبة إليه ، مؤذنة بتعميره مَلِكا حُلاَحِلا ، لايلقىٰ مؤمّلوه لِيَمِّ فضله ساحلا ؛ وأن يمدّ لســيدى عضدِ الدولة فى البقاء ، ويمتعه به وبسابقيه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصْوىٰ ماتسمو إليه هممه وأمانيه . وإنى لمتوكف لمــا يصلنى من كتاب ينبئُ عن ٱسمه الكريم وكِنيته ، لأعتمد ما أستوجبه فى خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضـد الدولة أدام الله عُلاه، ولىّ مايستصوبه ويراه: من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم، وأوانف المواهب الغاليـة القـيم، لآخذ وافر سهمى من السرور، وجزيل قَسْمى من الجَـذَل والحبور، وتصريفى بين أمره الممتثل المطاع، ونهيه المقابَل بالاّتباع، إن شاء الله تعالىٰ.

النـــوع العـاشر

الاّستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعارَ العرب وما توفرت دواعى العلمـاء بها علىٰ آختياره: كالحماسة، والمفَضَّليَّات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك؛ وفهم معانيها وآستكشاف غوامضها، والتوفر علىٰ مطالعة شروحها؛ ويلتحق بذلك شـعرُ المولَّدين من العرب، وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام: كجرير والفرزدق، والأخطل وغيرهم؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلقين من المحدَثين: كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وآبن الرومى، والمتنبى ونحوهم؛ وفيه مقصدان:

المقصـــد الأوّل

(فى بيان آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة الموادّ، وصحة الاّستشهاد، وكثرة النقل، وصَقْل مرآة العقل، وآنتزاع الأمثال، والاّحتذاء فى آختراع المعانى علىٰ أصح مثال؛ والاّطلاع علىٰ أصول اللغـة وشواهدها، والاّضطلاع من نوادر العربيـة وشواردها. وقد كان الصدر الأوّل يعتنون بذلك غاية الاّعتناء. قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه "كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لايكاد يَعْرِض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر". وذكر صاحب "الريحان والريعان" عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعلىّ يجيدون الشعر وعلىّ أشعر الثلاثة . قال : وكان عمر بن الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدّمها بين يدى حاجته يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعىّ رضى الله عنه أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعىّ رضى الله عنه .

وَلَوْلا الشِّعرُ بالعُلماء يُزْرى * لكُنْتُ اليومَ أشعرَ من لَبِيد

فإنه يريد مَنْ صرف همته إلى الشعر، بحيث صار شأنَه وديدنَه ، وهو المعنىّ بقوله صلى الله عليه وسلم "لَأَنْ يَمْلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَه قَيْحا خَيرٌ مِنْ أَنْ يَمْلَأَه شِعْرا" أى أراد صرف همته إليه حتّى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إنَّ منَ الشِّعْر لَحِكْمَةً" . وكان عمر رضى الله عنه يسمع البيت يُعجبه فيكرره مراتٍ كما ذكره الحافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنبارىّ فى كتاب "طبقات الأدباء" فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنبارىّ : أنه كان فقيها ، عالما ، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدّة من الخلفاء . ثم حكى عن ولده أبى طالب أنه قال كنت مع والدى فى جَنازة بعض أهل بغداد من وجوه الناس وإلى جانبه أبو جعفر الطبرىّ ، فأخذ أبى يعظ صاحبَ المُصيبة ويُسَلِّيه ، ويُنْشد أشعارا ، ويروِى له أخبارا ، فداخله الطبرىُّ فى ذلك ، ثم اتسع الأمر بينهما فى المذاكرة ، وخرجا الى فنون كثيرة من الأدب والعلم استحسنها الحاضرون وأُعجِبوا بها ، وتعالى النهار وافترقنا ، فقال لى أبى يا بُنَىَّ مَنْ هذا الشيخ الذى داخلنا فى المذاكرة؟ فقلت : يا سيدى كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبرىّ ، فقال إنا لله ! ما أحسنْتُ عِشرتى معه ، فقلت كيف ياسيدى ؟ قال : ألا نبَّهتنى فى الحال ،

فكنت أذاكره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والآتساع فى صنوف العلوم ، ماذاكرته بحسبها ؛ ومضت علىٰ ذلك مدة لحضرنا فى حقٍّ آخر وجلسنا ، وإذا بالطبرىّ قد دخل إلىٰ الحقّ . فقلت له : أيها القاضى هذا أبو جعفر الطبرىّ قد جاء مقبلا ، فأومأ إليه بالجلوس عنده ، فعدل إليه وجلس إلىٰ جانبه ، وأخذ يجاريه ، فكلما جاء إلىٰ قصيدة ذكر الطبرىّ منها أبياتا ، قال أبى : هاتها ياأبا جعفر إلىٰ آخرها فيتلعثم الطبرىّ فينشدها أبى إلىٰ آخرها ، وكلما ذكر شيئا من السِّيَر ، قال أبى هذا كان فى قصة فلان ، ويوم بنى فلان ، مرّ يا أبا جعفر فيه فربما مرّ فيه ، وربما تلعثم ، فيمرّ أبى فى جميعه . ثم قمنا ، فقال لى أبى : الآن شفيتُ صَدرى .

وأما أشعار المحدثين ، فللطف مأخذهم ، ودوران الصناعة فى كلامهم ، ودقة توليد المعانى فى أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخَطابة ، والكتابة ؛ وخصوصا المتنبى ، الذى كأنه ينطق عن ألسنة الناس فى محاوراتهم ، وكثر الآستشهاد بشعره حتّى قلّ من يجهله ؛ فإذا أكثَرَ المترشّحُ للكتابة من حفظ الأشعار وتدبُّر معانيها ، ساقه الكلام إلىٰ إبراز ذخيرة ما فى حفظه منها ، فاستعملها فى محلها ، ووضعها فى أماكنها ، علىٰ حسب مايقتضيه الحال فى إيرادها وآقتباس معانيها .

المقصد الثانى

(فى كيفية آستعمال الشعر فى صناعة الكتابة)

علم أن للكاتب فى آستعمال الشعر فى كتابته ثلاث حالات :

الحالة الأولىٰ

(الآستشهاد)

وهوأن يُورد البيتَ من الشعر، أو البيتين، أو أكثرَ فى خلال الكلام المنثور مطابقا لمعنىً ما تقدّم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه كما يشترط فى الآستشهاد بآيات القرءان والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوَزْنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلىٰ التنبيه عليه. وأكثر مايكون ذلك فى المكاتَبَات الإخوانيات: مثل ما كتب به القاضى الفاضل إلىٰ بعض إخوانه يستوحِشُ منه، ويتشوّق إليه:

فيارَبِّ إن البَيْنَ أضحتْ صُرُوفُه * علىّ، ومالِى مِنْ مُعِينٍ فكُنْ معِى
علىٰ قُرْبِ عُذَّالِى وبُعْدِ أحِبَّتِى * وأمْواهِ أجْفانِى ونِيرانِ أضْلُعِى!

هذه تحية القلب المعذَّب، وسريرةُ الصبر المُذَبْذَب، وظُلامةُ عزم السلوِّ المكذَّب، أصدرتها إلىٰ المجلس وقد وَقَدَ فى الحشا نارُها، الزفيرُ أوارها، والدُّمُوع شَرارُها، والشوق آثارها، وفى الفؤاد ثارُها:

لَوْ زارنِى مِنْكُمْ خيالٌ هاجِرٌ * لَهَدَتْه فى ظَلْمائه أنْوارُها

أسفًا على أيام الآجتماع التى كانت مواسمَ السرور والأسرار، ومباسمَ الثغور والأوطار، وتذكُّرًا لأوقات عَذُب مَذاقها، وآمتدّ بالأُنس رواقها، وزوّجت بكرها، ودوعب ذكرها:

واللهِ ما نَسِيَتْ نَفْسِى حَلاوتَها! * فَكَيْفَ أذْكُرُ أنّى اليَوْمَ أذكُرُها؟

ومذ فارقت الجَناب، لازال جَنا جَنابِه نَضِيرا، وسَنا سَنائه مستطيرا، ومُلْكه فى الخافقين خافقَ الأعلام، وعزُّه علىٰ الجديدين جديدَ الأيام، لم أقف منه علىٰ

كتاب تَخْلُف سطورهُ ما غسل الدمعُ من سَواد ناظرى ، ويُقْـدِم ببياض منظومه ومنثوره ما وَزَّعه البين من سُوَيداء خاطرى

ولم يَبْقَ فى الأحشاءِ إلّا صُبَابةٌ * من الصَّبْر تجرى فى الدُّموع البَوَادِر

وأسأله المَنَاب ، بشريف الجناب ، وأداءَ فرض ، تقبيل الأرض ، حيث تلتقى وفود الدنيـا والآخره ، وتعمُر البيوتَ العامره ، المننُ الغامره ، وفضـلُ الظل غير منسوخ بهجيره ، ويُبَشِّر المجدُ بشخص لا تسمَح الدنيا بنظيره :

تَظَاهرَ فى الدُّنيا بأشْرَفِ ظاهرٍ * فلم نَرَ أنْقىٰ منـه غيْرَ ضَميره !

كَفَانِىَ فخرا أنْ أُسَمّى بعَبْـدِه * وحَسْبِىَ هَدْيًا أنْ أسِيرَ بنُورِه !

فأىُّ أميرٍ ليس يَشْرُف قـدرُه * اذا ما دَعاه صـادِقًا بأمـيره ؟

وإنى فى السؤال بكتُبُهُ أن يوصِّلها ليُوصِل بها لدىّ تهانى تملأ يدّى ويُودِع بها عندى مَسَرَّةً تقدَح فى الشكر زَنْدِى .

عَهِدتُكَ ذا عَهْدٍ هو الوَرْدُ نَضْرةً * وما هُوَ مثلُ الوردِ فى قِصَرِ العَهْدِ

وأنا أترقب كتابه آرتقاب الهـلال : لتُفْطِر عين عن الكَرىٰ صائمه ، وتَرِدَ نفس عن موارد المـاء حائمه اه .

بل ربمـا كان كُلُّ المكاتبة أو جلها شعرا ، وقد يكون صدر المكاتبة شعرا وذيلُها نثرا ، وبالعكس . وقد يكون طَرَفاها نثرا وأوسطُها شـعرا ، وعكس ذلك بحسب مايقتضيه الترتيب ، ويسوق إليه التركيب ، وربمـا آكتفى بالبيت الواحد من الشعر فى الدلالة علىٰ المقصـد وبلوغ الغرض فى المكاتبة : كما كتب بعض ملوك الغرب إلىٰ من كرر كُتُبه ورسله إليه بقول المتنبي :

ولا كُتْبَ إلا المَشْرَفيَّةُ عِنْـدَه * ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ العرمْرَمُ

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلَّ أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور ، وقد تجىء التلقيحات بأبيات الشعر فى غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن ، وتنقيح الفكر كالرسائل الموضوعة فى صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك؛ وقد أودعت المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء جملةً من الأبيات الشعرية، أوردتها مورد الآستشهاد علىٰ ما يقتضيه المقام ، ويسوقُ إليه سياقُ الكلام ، علىٰ ماسلف ذكره عند الكلام علىٰ فضل الكتابة فيا تقدّم . وعند مطالعة كلامهم، والوقوفِ علىٰ رسائلهم، ترىٰ من أصناف الآستشهادات ما يروقك نظره، ويُطربك سمْعُه .

الحـالة الثـانيـــة

(التضمين)

وهو أن يضمَّن البيتُ الكامل من الشعر أو نصفُ البيت لبعض القرينة . أما تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به القاضى الفاضل :

وصل من الحضرة

كتابٌ به ماءُ الحياةِ ونَقْعُه الـ * ـحَيَا فكأنّى إذ ظَفِرْتُ بِهِ الخِضْر

فوقفت عنده منه علىٰ

عقود، هى الدُّرّ الذى أنتَ بَحْرُه * وذلِكَ ما لا يَدَّعِى مثْلَه البحرُ

ورتعت منه فى

رياض يدٍ تجنى وعينٍ وخاطرٍ * تَسابَقَ فيها النَّوْر والزَّهْرُ والثَّمْر

وكرعت منه فى حياض

تَسُرُّ مجانيها إذا ما جَنىٰ الظَّمَا * وتُرْوِى مجارِيها إذا بَخِل القَطْرُ

وما زلت منه أنشده

كأنّى سارٍ فى سَرِيرة ليـلةٍ * فلمّا بَدَا كبَّرْتُ إذ طَلَعَ الفَجْرُ

و وافىٰ علىٰ ما كنت أعهد

نَخِلْتُ بأن العَيْنَ من سُحْبِ كَفِّه * فَمِنْ ذا ومِنْ ذا فيه يَنْتثِر الدُّرّ

وآسترجع فائت الدماء من مَوْرِده

وما كان عِنْدِى بَعْدَ ذَنْبِ فِراقِهِ * بأنِّى أرىٰ يَوْمًا بِهِ بَعْـد الدَّهْرُ

ونَفَّس عن النَّفْس بأبيض أثمادِه وعَنّ العَيْن بأسْوَد إثمده

به لَهُما سَبْحٌ[1] طويل فهـذه * علىٰ خاطرٍ بَرْدٌ ، وفى خَطَرٍ بَدْرُ

وجدّد إليه أشواقا جَدِيدُها

يَمُرّ بِهِ ثَوْبُ الجَدِيدَيْنِ دائمًا * فيَبْلىٰ ولا يَبْلىٰ و إن بَلِيَ الدَّهْرُ

وذَكَّرَ أيامًا لا يزالُ يَستعِيدُها :

وهيهاتَ أن يَأْتِي من الأمرِ فائتٌ * فدَعْ عَنْكَ هذا الأمْرَ قَدْ قُضِى الأمْرُ

وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاىَ بعدما ... * أجابَ المُنادِى للصَّلاةِ فأعْتَمَا

فلما آستقرّ لدىّ ... ... * تجلّى الّذى مِنْ جانِبِ البَدْرِ أظْلَمَا

فقرأته ... ... * بِعَيْنٍ إذا آسْتَمْطَرْتُها أمْطَرَتْ دَمَا

وساءلته ... ... * فَسَاءلْتُ مَصْرُوفًا عن النُّطْقِ أعْجَمَا

(١) فى نسخة سمح . وفى أخرى سح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير إلىٰ الآية الكريمة (إن لك فى النهار سبحا طويلا) .

ولم يردّ جوابا، ... ... * وَمَا ذَا عَلَيْـهِ لَوْ أجابَ الْمُتَيَّما ؟

وردّدتُه قراءةً، ... ... * فَعُوجِلْتُ دُونَ الحِـلمِ أنْ أتَحَلَّمَـا

وحفِظته، ... ... * كَمَا يَحْفَظُ الحُـرُّ الحَـدِيثَ الْمُكَتَّمَا

وكرّرته، ... ... * فَمِـن حَيْثُ ما واجَهْتُـه قدْ تَبَسَّما

وقبَّلتـه، ... ... * فَقَبَّلْتُ دُرًّا فى العُقود مُنَظَّـمَا

وقُمْتُ له، ... ... * فكُنْتُ بمَفْـرُوضِ المَحَبَّـةِ قَيِّما

وأخلصتُ لكاتبه، ... ... * ولَيْس علىٰ حُكْمِ الحَوَادِث محـكما

ولم أصدّقه ! ... ... * ولٰكِنَّــه قَدْ خالَطَ اللَّحْمَ والدَّمَا

وأرّخت وصوله، ... ... * فَكَانَ لايدى[(1)] الوسائم موسِما

وشفيتُ به غليـل ... ... * فؤادٍ أُمَنِّيـــهِ وقَدْ بَلَغَ الظَّـما

وداويت عليل ... ... * حَشًا ضَرَّما فيـه من النار ضَرَّمَا

فأما تلك الأيام التى ... ... * حَمَاهـا علىٰ اللَّوْمِ المُقامُ علىٰ الحِمَـا

والليالى العِذاب التى ... ... * مَلأت بحُورَ الليــلِ بِيضًا وأنْجُما

وأرسلتُ الزفرة ... ... * فلَوْ صافَحَتْ رَضْوىٰ لَرُضَّ وهُدِّما

وأسبلتُ العبرة ... ... * كما أنشأ الأفقُ السحابَ المُدَيَّمـا

وخطبت السَّلْوة ... ... * فأسألُ مَعْـدومًا وآمُـل مُعْـدِما

فأما الشكر فإنما ... ... * أفُضُّ به مِسْـكًا عَلَيْـهِ مُخَتَّما

وأقوم منه بفرض ... ... * أرانى بِهِ دُونَ البرِيَّةِ أقْـوما

وأوفى واجب فرض ... ... * وكَيْفَ تُوَفِّى الأرْضُ قَرْضًا من السما

(١) كذا فى الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينــة الكاملة علىٰ البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالى ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه ... * وقد عشت دهرا لا أعدُّ اللّياليا

وبعد أن انتظرتُ القيظَ والشتاءَ لفصل ربيعه ... ... * فما للنوىٰ ترمى بليلىٰ المراميا؟

واستروحت إلىٰ نسيم سَحَره ... * إذا الصَّيفُ ألقىٰ فى الدِّيارِ المَرَاسيا

ومددتُ يدى لاقتطافِ ثمـرِه ... * فلله ما أحـلىٰ وأحمىٰ المجانيـا !

ووقفت علىٰ شكواه من زمانه ... * فبتُّ لِشَكْواهُ مِنَ الدَّهْرِ شـاكِيَا

وعجبت لعمىٰ اللحظ عن مكانه ... * وقَدْ جَمَع الرحْمٰنُ فِيهِ المَعَانيَـا

وتوقَّعت له دولةً يعلوبها الفضل ... * إذا هزّ مِنْ تِلْكَ اليراعِ عوَاليا

ورتْبةً يرتقِى صَهْوتَها بحُكْمِ العدل ... * فربَّ مَرَاقٍ يُعْتَدَدْنَ مَهَـاوِيا

وإلىٰ الله أرغبُ فى إطلاع سعوده ... * زَوَاهِرَ فى أفْقِ العَـلاءِ زَوَاهِيـا

وفى إنهاض عثرات جُدودِه ... ... * فقد عثَّرَتْ بعـد النُّهوضِ العواليا

وربمـا رُكِّب نصف البيت علىٰ نصف القرينة ، كما ذكرتُ فى المفاخرة بين السـيف والقلم فى الكلام علىٰ لسان السيف فى مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن ذُكرت فى التنزيل ، وتمسكْتَ من الامتنان بك فى قوله ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشُبهة التفضيل ، فقد حَرَّمَ الله تعالىٰ تعلُّم خطك علىٰ رسوله ، وحَرَمك من مسِّ أنامله الشريفة ما يُؤسىٰ علىٰ فوته ويُسَرّ بحصوله ؛ لكنى قد نِلْت من هـذه الرتبة أسنىٰ المقاصد ، وشهِدت معه من الوقائع مالم تُشاهِدْ ، وحَلَّانى من كفه شَرفا لا يزول حَلْيُه أبدا ، وقمت بنصره

فى كل مُعْتَرَك . ، * فَسَلْ حُنَيْنًا وسَــلْ بَدْرا وسَلْ أُحُدا * ؛ فركّبت نصفَ بيت البردة علىٰ نصــف قرينــةٍ . وما ذكرته فى الرسالة التى كتبتها للمقرّ الفتحىّ صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد لبس شرفا لا تطمع الأيام فى خلعــه ، ولا يتطلّع الزمان إلىٰ نزعه ، وآنتهى إليه المجد فوقّف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليــه وعطف ، وحلّت الرياسةُ بفِنَائه فآستغنَتْ به عن السِّوىٰ ، وأناخت السيادة بأفيائه * فألقتْ عصَاها وآستَقَرَّ بها النوى *

وقد يضمِّن الكاتب بعض القرينة نصفَ بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتًا كاملة الأجزاء علىٰ نَمَط أنصاف الأبيات التى يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن عمر بن يوســف القرطبىّ فى رسالته للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد تغمدهمــا الله برحمته فى قوله :

وينهىٰ ورود عذرائه التى ... * لَهَا الشَّمْسُ خِدْنٌ والنُّجُومُ وَلائدُ

وحسنائه التى ... ... * لهَــا الدُّرّ لفظٌ والدَّرارِى قلائدُ

ومشرفته التى ... ... * لهَــا مِنْ بَراهِين البيَانِ شَواهِدُ

وكريمته التى ... ... * لهَــا الفَضْل وِرْد والمعالِى مَوارِدُ

وآيتها الكبرىٰ التى دلّ فضلُهــا * علىٰ أنَّ مَنْ لم يَشْهَدِ الفَضْلَ جاحِدُ

وأنكَ سَـيْفٌ سَـلَّهُ اللهُ للهدىٰ * وليس لسَـيْفٍ سَــلَّهُ اللهُ غامِدُ

وقد يخالف بين قوافى أنصاف الأبيات التى يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين فواصل القرائن : كما فى قول البديع الهمذانى

أنا لقرب دار مولاى ... ... * كما طَرِب النَّشْوَانُ مالَتْ بِهِ الخَمْــرُ

ومِنَ الأرتياح إلىٰ لقائه ... ... * كما آنتَفَضَ العُصْــفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

ومن الامتزاج بولائه ... ... * كما التقت الصَّهْباءُ والباردُ العَذْبُ

ومن الابتهاج بمزاره ... ... * كما اهتزَّ تحت البارح الغُصُن الرَّطْبُ

إلىٰ غير ذلك من فنون الامتزاج التى يزاوج فيها بين المنثور والمنظوم، وينتهى فيها الكاتب إلىٰ ما يبلغ به القدَر المحتوم .

أما تضمين بعض أبيات العرب فى بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضى الأرّجانىّ فى قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهْدِ إلىٰ الوزير المدح يَجْمُلْ * لَكَ المِرْبَاعُ مِنْها والصَّفَايَا

وَرَافِقْ رُفْقَةً رَحلُوا إليــه * فآبُوا بالنِّهَاب وبالسَّبَايَا

وقُلْ للراحلين إلىٰ ذُرَاه * ألَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا

ولا تَسْلُكْ سِوىٰ طُرُقِى فإنى * أنا ٱبْنُ جَلا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله قد أشار فى كتابه "حسن التوسل" إلىٰ التمثيل بذلك لما نحن بصدده .

الحالة الثالثة

(الحَلّ)

وهو أن يعمِد الكاتب إلىٰ الأبياتِ من الشّعر ذواتِ المعانى فيحُلَّها من عُقُل الشعر، ويَسْبُكها فى كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادّة الثالثة للكتابة بعد القرءان الكريم والأخبار النبوية، علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصا أشعارَ العرب فإنها ديوان أدَبهم، ومستودَع حِكَمهم، وأنفَس علومهم فى الجاهلية؛ به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكثر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غَزُرت لديه الموادّ، وترادفت عليه المعانى، وتواردتْ علىٰ فكره، فيسهُل عليه حينئذ حَلُّها، ووضْعُها

فى مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والريعان":
وهو شأنُ حُذَّاق الكتّاب فى زماننا، وفيه من الجمـال فنون .

منها أنه يدل علىٰ حَفَالة أدب المُجيد ، وٱتِّساع الحفظ، والتيسير والتأتّى لسبْك اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشْهَر منها إلا النـادر للغاية فى الحُسْن ، فهى إذا حُلّت يحاورها المنشئ بما يناسب حسنها فى البراعه ، وهذا كثير فى هـذه الصناعه . قال فى "المثل السـائر" وإنمـا جعل المنظوم مادّة للمنثور بخلاف العكس لأن الأشـعار أكثر، والمعانِىَ فيها أغزر ، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهـل الفصاحة كان جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنثور فى كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثر فإنه لم يُنْقَل عنهم بل المنقول عنهم الشـعر فأودعُوا أشعارَهم كل المعـانى كما قال الله تعالىٰ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ . ثم جاء الطِّراز الأوّل من المُخَضْرَمين فلم يكن لهم إلا الشعر . ثم ٱستمرّ الحال علىٰ ذلك فكان الشعر هو الأكثَر، والكلامُ المنثور بالنسبة إليه قطرةٌ من بحر، فلذلك صارت المعانى كلها مُودعة فى الأشعار . قال فى "حسن التوسل" والحَلُّ باب متسع علىٰ المجيد مجَاله ، وتتصرّف فى كلام العارف به رويته وٱرتجاله .

قال صاحب "الريحان والريعان" وأول مَن فك رِقابَ الشعر، وسرَّح مقيَّده إلىٰ النثر، عبد الحميد الأكبر، كاتب بنى أمية إلىٰ ٱنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه غير المطبوع المتصرِّف فعقده وأفسده كما قال القائل : وبعضهم يُحُلُّ فيعقِد . قال : وكيفيـة الحل أن يتوخّى هـذا البيت المنظومَ وحَلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيبَ تلك الفرائد وما شابهها ترتيبَ متمكّن لم يحظُره الوزن ولا ٱضطرّته القافية ، ويبرزَها

فى أحسن سلك، وأجمل قالَبٍ وأصح سبك، ويُكَمِّلها بما يناسبُها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة، ويتخير لها القرائن. وإذا تم معه المعنىٰ المحلول فى قرينة واحدة فيفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، مايناسبه. وله أن ينقُل المعنىٰ إذا لم يفسده إلىٰ ماشاء؛ فإن كان نسيبا وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل؛ وكذلك غيره من الأنواع. وإذا أراد الحل بالمعنىٰ فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرةٍ عنها، فمتىٰ قصَرَتْ ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدّ مَعِيبا. وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدبير الفصاحة، وآجتناب ماينقُص المعنىٰ أو يحُطُّ رتبته.

قال: وهذا الباب لاتنحصر المقاصد فيه، ولا حجر علىٰ المتصرف فيه.

ثم حل الأبيات الشعرية وآستعمالها فى النثر علىٰ ثلاثة أضرب:

الضــــــرب الأوّل

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فينثُره بلفظه، وهو أدنىٰ مراتب الحَلّ)

قال فى "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد فى نثره علىٰ أنه أزال رونق الوزن وطَلَاوة النظم لاغير. قال ومثَلُه كمن أخذ عِقْدا قد أُتقِن نظمه، وأُحْسِن تأليفه، فأوهاه وبدّده؛ وكان يقوم عذره فى ذلك لو نقله عن كونه عِقدا إلىٰ صورة أخرىٰ مثله أو أحسنَ منه. وأيضا فإنه إذا نثَر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورَ السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شىء.

وبالجملة فحل الشعر بلفظه لايخرج عن حالين:

الحال الأوّل — أن يكون الشعر مما يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وله فى حله طريقان:

الطريق الأوّل ــ أن يَحُله بالتقـديم والتأخير من غير زيادة فى لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتاب أنه حلّ قول البحترى :

أطِلْ جَفْوةَ الدُّنْيا وتَهْوِينَ شأنِها * فما الغافِلُ المَغْرُورُ فِيها بِعاقِل
يُرَجّى الخُلُودَ مَعْشَرٌ ضَلَّ سَعْيُهُمْ * ودُونَ الّذِى يَرْجُونَ غَوْلُ الغَوائِل
إذا ماحَرِيزُ القَـوْمِ باتَ وما لَهُ * مِنَ اللهِ واقٍ فهو بادِى المَقاتِل

فقال فى نثرها : أطِلْ تهوينَ شأنِ الدنيا وجَفْوتَها، فما المغرورُ الغافل فيها بعاقل. ويرجو مَعْشَر ضلَّ سعيُهم الخلودَ، وغولُ الغوائل دون مايرجُون . وإذا بات حرِيزُ القوم وماله من الله واقٍ فهو بادى المَقَاتل . فلم يزد فى ألفاظها شيئا .

الطريق الثانى ــ أن يَحُلَّه بزيادة علىٰ لفظه كما حكىٰ الجاحظ عن قليب المعتزلىّ أنه سمع منشدا يُنْشد للعتبىّ .

أفْلَتْ بِطَالَتُه وراجَعهُ * حِلْم وأعقَبَهُ الهَوىٰ نَدَما
ألْقىٰ عليه الدَّهْرُ كَلْكَلَه * وأعاره الإقتار والعَدَما
فإذا ألمّ بِهِ أخُو ثِقَةٍ * غَضَّ الجُفُونَ وجَمْجَمَ الكَلِمَا

فنثرها فقال يستعطف بعض الملوك علىٰ رجل من أهله : جعلنى الله فِداكَ ليس هو اليوم كما كان، إنه وحياتِك أفلَتْ بَطَالته، إى والله وراجعه حلمه، وأعقبه وحقك الهوىٰ ندما . أخنى الدهرُ عليه والله بكلكله، فهو اليوم إذا رأىٰ أخا ثقةٍ غضَّ بصره وجمجم كلامه . فزاد فى نثره ألفاظا علىٰ ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض شُعراء الحماسة :

وألدَّ ذِى حَنَـقٍ عَلَىّ كأنَّمـا * تَغْلِى عَداوةُ صَـدْرِه فى مِرْجَل
أرْجَيتُه عَنِّى فأبصرَ قصْـــدَه * وكَوَيْتُـه فَوْقَ النَّواظِرِ مِنْ عَلِ

فقال فى نثره : فكَمْ لقِيَ ألدّ ذا حَنقٍ كأنه يَنْظُر إلىٰ الكواكب من عل وتغلى عداوة صدره فى مِرْجَل فكواه فَوْقَ ناظِرَيْه، وأكبَّه لِفَمِه ويديه .

الحال الثانى — أن يكون الشعر ممـا لا يمكن حَلُّه بتقديم بعِض ألفاظه وتأخير بعضها ، فيحتاج فى نثره إلىٰ الزيادة فيه ، والنقص منـه ، وتغيير بعض ألفاظه حتّٰى يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الفَتىٰ نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤادُه * فَلَمْ يَبْـقَ إلَّا صُورَةُ اللَّحم والدَّمِ

فإن المصراع الثـانى من البيت لا يمكنُ حلُّه بالتقـديم والتأخير لأنك تقول فى المصراع الأوّل : فُؤاد الفـتىٰ نصف ولسانه نصف ولا يمكن ذلك فى المِصراع الثانى حتّٰى تزيد فيه أو تنقُص منه فتقول مثلا فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانُه نصف علىٰ ماتقدّم . ثم تقول وصورته من اللحم والدم فضلةٌ لاغَناء بها دُونَهما ، ولا معوّل عليها إلا معهما .

قال فى " الصـناعتين " : و زيادة الألفاظ التى تحصـل فيه ليست بضائرة لأن بسـط الألفاظ فى أنواع المنثو ر شائع ؛ ألا ترىٰ أنها تحتـاج إلىٰ الآزدواج ؛ ومن الآزدواج ما يكون بتكرير كلمتـين لهما معنًى واحدٌ وليس ذلك بقبيح ؛ إلا إذا آتفق لفظاهما ؛ إلا أن أكثَرَ مايحسُن فيه إيراد المعنىٰ علىٰ غاية مايمكن من الإيجاز ، ومعنىٰ قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل فى قوله * لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * والمصراع الثانى تذييل للمصراع الأوّل . قال : فإذا أردت أن تَحُلَّه حلا مقتصرا بغير لفظه ، قلت الإنسان شَطْران : لسان وجنان ، وقريب من ذلك قول أبى نُوَاس .

أَلَا يابْنَ الذين فَنُوا وبادُوا * أمَا واللهِ ماذَهَبُـــوا لِتَبْقَىٰ

فإن المِصراع الأوّل يمكن حله بأن تقول ألا يابن الذين بادوا وفَنُوا فيكون مستقيما . أما المصراع الثانى فإنه إن قُدِّم فيه أو أخر بأن قيل ماذهبوا لتبقىٰ أما والله فإنه لايستقيم فتحتاج فى نثره إلىٰ تغيير وزيادة فتقول : ألا يا آبن الذين ماتوا ومضَوْا وظعَنُوا ونأَوْا أما والله ماظعنوا لتقـيم ، ولا راموا لتَرِيم ، ولا مُوِّتُوا لتحْيَا ، ولا فَنُوا لتبقىٰ . قال فى "الصناعتين" وفى هذه الألفاظ طول وليس بضائر علىٰ ما تقدم . قال : وإن أردت آختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصـبك فى أبيك إلا لِيُصيبَك فيك .

الضـــرب الثـانى

(وهو أعلىٰ من الضرب الأوّل أن ينْثِر المنظوم ببعض ألفاظه ويَغْرَم عن البعض ألفاظا أُخَر . ويحسن ذلك فى حالين)

الحال الأوّل — أن يكون فى الشِّعر ألفاظ لايقوم غيرُها من الألفاظ مَقامها بأن تكون مثلا سائرا أو جارية مجرىٰ المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لو كُنْتُ مِنْ مازِنٍ لم تَسْتَبِح إبِلِي * بَنُو اللَّقِيطةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبانَا

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مَقامَه لكونه علَما علىٰ قوم مخصوصين فيحتاج الناثر أن يبقيه بلفظه ، كما فعل "ضياء الدين بن الأثير" فى قوله فى نثر البيت المذكور : لست ممن تسبيح إبلَه بنو اللقيطه ، ولا الذى إذا هَمَّ بأمر كانت الآمال إليـه وسيطه ؛ ولكنى أحمِى الهَمَل ، وأفوت الأمل ، وأقول سَبق السَّيْفُ العذَل . وكذلك كل ماجرىٰ هذا المجرىٰ ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها، وأحاط من البلاغة بجوانبها، فيبقيه على حاله ، ويقرنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد نقحه وصححه، فقرنه بمالا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة، ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه يسلك مضيقا، لما فيه من التعرّض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن ناثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثال يُضْطَّر إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَذَّاء تَمْلأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً * وبَلاغةً وتُدِرّ كُلَّ وَرِيدِ

ثم قال : فقوله تملأ كل أذن حكمةً من الكلام الحسن، وهو أحسن مافى البيت وأشهر، فلو قال قائل لمن هذا؟ قيل وهل يَخْفَى القَمَر، وإذا عُرِف الكلام صارت المعرفة له علامه، ولم يُخْشَ عليه سرقة إذ لو سُرِق لدلت عليه الوَسَامه، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كُلَّ أذن حكمه ، ويجعل فصاحة كلِّ لسان عُجْمه . فبقّى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة. ونحو ذلك ماذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى : أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقاليد فقال : * فكَمْ مُلَّ ضَوْءُ الصُّبح مِمَّا يُغيره * ثم قال : وظلامُ النَّقْع مما يُثيره . وقال أيضا : وفُلَّ حَديدُ الهِنْدِ مما يُلاطِمه * ثم قال : والأجل مما يسابِقه إلى قبض النفوس ويُزاحِمه . والقرينتان الأوليان نصفا بيتين للتنبى فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثـالث .

(وهو أعلىٰ من الضربين الأوّلين أن يأخذ المعنىٰ فيكسُوَه ألفاظا من عنده
ويصُوغَه بألفاظ غير ألفاظه)

قال فى "المثـل السائر" : وثَمَّ يتبيَّنُ حِذق الصائغ فى صياغته ؛ فإن ٱستطاع الزيادة علىٰ المعنىٰ فتلك الدرجة العاليـة ، وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ؛ ليكون أولىٰ بذلك المعنىٰ من صاحبه الأوّل .

ولْتعلم أن الأبياتَ الشعريةَ فى حلها بالمعنىٰ لهـا حالان .

الحال الأوّل — أن يكون البيت الشعر ممـا يتسع المَجالُ لناثره فى نثره فيورده بضروب من العبـارات . قال ٱبن الأثير "وذلك عنـدى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدّة من الأجوبة". فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبي :

لا تَعْذِلِ المُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِهِ * حتّٰى تكُونَ حَشَاكَ فىأحْشَائِهِ

فهذا البيت يُتَصَرَّف فى نثره فى وجوه من المعانى . وقد نثر ٱبن الأثير هذا البيت فقال : "لاتعذِلِ المحبَّ فيما يهواه ، حتّٰى تطوِىَ القلب علىٰ ما طواه" . ونثره علىٰ وجه آخر فقال : "إذا ٱختلفت العينانِ فى النظر ، فالعذل ضرب من الهَذَر" . وكذلك قول المتنبي أيضا :

إنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجاً بدموعِه * مثلُ القتِيلِ مضَرَّجا بِدِمائه

نثره ٱبن الأثير فقال : "القتيل بسيف العُيُون ، كالقتيل بسيف المَنُون ؛ غير أن ذلك لا يُجَرّد من غِمْدِه ، ولا يُقادُ صاحبه بعَمْده" . فزاد علىٰ المعنىٰ الذى تضمنه البيت عدمَ القود بالعَمْد . ونثره علىٰ وجه آخر فقـال : "دمُ المُحِب ودم القتيل ، متفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بونا ، سوىٰ أنهما يختلفان لونا". قال وهذا أحسن من الأوّل .

وعلىٰ هذا النهج يجرى قول ٱبن الرومى فى وصف الحديث :

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلَالُ لَوَ ٱنَّهُ * لم يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْـلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

نثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ فى وصف السيوف فقال : وكفىٰ السيوفَ فخرا أنها للجَنَّة ظلال، وإلىٰ النصر مآل؛ وإذا كان من بيان الحديث سِحْر، فإنَّ بيان حديثها عمن كَلَّمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلىٰ وصف الأسنة فقال : حَسْبُ أَلِسنة الأَسِنَّة شرفا أنَّ كَشْف خبايا القلوب يُذَمُّ إلا منها، وأن بثَّ أسرار الضمائر تُكْرَه روايته إلا عنها؛ فمكرَّر حديثها فى ذلك لا يُفْضِى إلىٰ ملَاَل، وإذا لم يكن حُسْنُ حديثها الذى يَسْحَر الألباب مما يحِلُّ ، فليس فى الحديث سِحْرٌ حلال .
ثم نقله إلىٰ وصف البلاغة فقال : البلاغة تَسْحَر الألباب حتّٰى تخيل العرض جوهرا وتُحِيل الهواءَ المُدرَك بالسمع لٱنسجامه وعُذُوبته فى الذوق نهرا ؛ لكنه سِحر لم يَجْنِ قتلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرّز، فيتأوَلَ فى حِلّه ، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلة للمستوفِز، فهذا أُنْشُوطة نَشَاط البليغ وحَلُّ عِقال عقله . ونقله إلىٰ وصف الكتابة . فقال : خَطُّه شَرَك العقول ، وفتنة تَشغَل المطمئن بملاحة المرْئِىّ المكتوب ، عن فصاحة المسموع المَقُول؛ ولو لم يكن البيان سحرًا، لما تجسَّدت منه فى طِرْسه هذه الدُّرَر، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالا ، لما ٱنجلىٰ ظَلامُ النِّقْس عما يُهتدىٰ به من هذه الأوضاح والغُرَر .

الحال الثانى — أن يكون البيت الشعر مما يَضِيق المَجَال فيه فيعسُر علىٰ الناثر تبديل ألفاظه، وذلك قليل بالنسبة إلىٰ ما يتسع فى حَلّه المَجَال. قال فى "المثل السائر" وسببه أن المعنىٰ ينحصر فى مقْصِد من المقاصد حتّٰى لا يكاد يأتى إلا فذًّا . فمن ذلك قول أبى تمام الطائىّ من قصيدة .

تَرَدَّى ثِيَـابَ المَـوْتِ حُمْرًا فَمَـا أَتَىٰ * بِهَا اللَّيْلُ إلَّا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ

فإن أبا تمـام قصـد المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب بين الأحمـر والأخضر، وجاء ذلك واقعا علىٰ المعنىٰ الذى أراده : من لون ثياب القتلىٰ وثياب الجَنَّة ؛ فإن ثيابَ القتلىٰ حُمْر وثياب الجنة خضر .

قال ٱبن الأثير : فإذا فُكَّ نظم هـذا البيت وأريد صوغُه بغير لفظه لم يمكن ؛ فيجب علىٰ الناثر أن يحسن الصنعة فى فكّ نظامه ؛ لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه ؛ فإن كان عنـده قوّةُ تصرُّف، وبَسْـطة عبارة، فإنه يأتى به حسنا رائقا . وقد نثر هذا البيت فقال : لم تكسُه المنايا نَسْج شِفَارها ، حتّى كستْه الجنةُ نَسْج شِعارها : فبُدِّل أحمرُ ثوبه بأخضره، وكأسُ حِمَامه بكأس كَوْثَرِه . قال : وهـذا من الحُسْـن علىٰ غاية يكون كَمَدُ حسُودها، من جُمْلة شُهودها . ومن ذلك قول أبى الطيّب :

وَكَانَ بِهامِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عَلَيْها تَمَـائِمُ

فإن أبا الطيّب بنىٰ بيته علىٰ واقعة مخصوصة . وذلك أنَّ حِصْنا من حصون سيف الدولة قصده الروم، وٱنتزعوه، وخرَّبوه؛ فنهَدَ سيفُ الدولة إليه وٱسترجعه، وجدّد بناءه، وهزم الروم، ونصب جملةً من جُثَث القتلىٰ علىٰ السور؛ فنظم أبو الطيّب فى هذا قصيدا أوّله .

* علىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتِى العَزائمُ *

ولمـا ٱنتهى إلىٰ ذكر الحِصن ، جاء بهـذا البيت فى جملة أبيات ، فشرح صورة الحال، فى ٱرتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتـلىٰ عليه ؛ وأبرز ذلك فى معنىٰ التمثيل بالجنون والتمـائم . وهـذا لا يمكن تبديل لفظه؛ فيجب علىٰ الناثر حسـن الصنعة فى حله ونثره . وقد نثره ٱبن الأثير أيضا فقال : سرىٰ إلىٰ حصن كذا مستعيدًا منه سَبِيَّة نزعها العدوّ ٱختلاسا ، وأخذها مُخادَعة لا ٱفتراسا ؛ فمـا نزلها حتّى ٱستقادها،

ولا نازلها حتّى آستعادها ؛ فكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم ؛ ثم قال : وفى هذا من الحسن ما لا خفاء فيه . فمن شاء أن ينثُر شعرا فلينثُرْ هكذا و إلا فليترك . ثم نقله إلىٰ معنى آخر ، وأبرزه فى صورة أخرىٰ فأضاف إليه البيت الذى قبله من القصيدة فصار علىٰ هذه الصورة .

بَنَاهَا فأعْلىٰ والقَنَا تَقْرَعُ القَنَـا * ومَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَـا مُتَلَاطِمُ

وكانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْـلىٰ عليها تَمَـائِمُ

ثم نثرهما فقال : بناها والأسنة فى بنائها متخاصمه ، وأمواج المنايا فوق أيدى البانِينَ متلاطمه ؛ وما أجلَتِ الحربُ عنها حتّى زُلْزِلت أقطارها برَكْض الجياد ، وأُصيبتْ بمثل الجنون فعُلِّقت عليها تمائمُ من الرءوس والأجساد . ولا شك أن الحربَ تُعرِّد[1] عمن عزَّ جانبُه ، وتقول ألا هكذا فليَكسِب المجدَ كاسبه . قال وهذا أحسن من الأول وأتمُّ معنًى . ثم تصرف فيه بزيادة علىٰ هذا المعنىٰ فقال : بنـاها ، ودُونَ ذاك البناءِ شَوْكُ الأسَل ، وطُوفانُ المنايا الذى لا يقالُ سآوِى منـه إلىٰ جبل ؛ ولم يكن بناؤها إلا بعـد أن هُدِمت رءوس عن أعناق ، وكأنمـا أصيبت بجنون فعُلِّقت القتلىٰ عليها مكان التمـائم أو شِينت بعطَل فعُلِّقت مكان الأطواق . قال وهـذا الفصـل فيه زيادة علىٰ الفصل الذى قبله .

قلت : وكما ينبغى الإكثار من حفظ الأشعار علىٰ ما تقدّم ليوردَها فى خِلال كلامه آستشهادا وتضمينا أو يَحُلَّها و يقتبسَ معانيها فى نثره علىٰ ماتقدم بيانه كذلك ينبغى له معرفة المشاهير من الشعراء الطائرى السمعة : من شعراء الجاهليـة كآمرئ القيس آبن حُجْر ، والنابغـة الذُّبيـانى ، وطَرَفة بن العَبد ، وأوْس بن حَجَر ، وزُهَير آبن أبى سُـلمىٰ ، والأفوه الأودى ، والمتلمس ، والأعشىٰ ، وعلقمةَ بن عَبَدَة ، وعمرو

(١) أى تفرّ وتجبُن يقال عرّد الرجل عن قرنه إذا فر ونكل . انظر اللسان .

ٱبن كُلْثوم، والمرقِّش، والنمر بن تَوْلب، ومُهَلْهِل، وطُفيل الغَنَوىّ، وعُرْوة بن الورد، وقيس بن الخَطِيم، والشَّمّاخ بن ضِرار، وعنـترة، والسَّمَوْءل بن عادِيا، ومن جرىٰ مجْراهم .

ومن المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهليَّةَ والإسلام جميعا : كحسَّان بن ثابت رضى الله عنه، ولَبِيد بن أبى ربيعة، وكعب بن زُهَير، وزيد الخيل الطائى، والنابغة الجعدىّ، وأميَّـةَ بن أبى الصلت، والحُطَيْئة، وعمرو بن معدى كرب، والزِّبرِقان ٱبن بدر التميمىّ، والعبَّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ، والخَنْساء بنت عمرو بن الشَّريد، ومن فى معناهم .

ومن المولَّدين، وهم الذين وُلِدوا من العرب فى الإسلام : كالفرَزْدق، وجَرير والأخطل، والقَطَامىّ، والكُمَيْت بن زيد الأسدىّ، والمُساوِر بن هند، وعدىّ بن الرِّقاع، وكُثَيِّر عَزَّة، وعُمَر بن أبى ربيعة، والراعى، وٱبن مُقْبِل، وٱبن مُفَرِّغ، وليلىٰ الأخيليَّة، ومن ٱنخرط فى سلكهم .

ومن المُحْدَثين، وهم الذين أتَوْا بعـد المولَّدين كإبراهيم بن هِرْمةَ، وٱبن أُذَينة، وأبى نُوَاس، وأبى العَتاهِيَة، وطُفَيل الكنانىّ، وسِلْم الخاسر، وٱبن ميَّادة، وصالح ٱبن عبد القُدّوس، وأبى عُيَينة، والعبَّاس بن الأحنف، والعتَّابىّ، وأشجَع السُّلَمىّ، والعَكَوّك، وٱبن أبى زُرْعة الدِّمشقىّ، وأبى الشِّيص، والحمدونىّ، والعُتبىّ، ودِعْبِل الخُزَاعىّ، وإسحاق بن إبراهيم المَوْصِـلىّ، وإبراهيم بن إسحاق الموصـلىّ، وأبى علىّ البصـير، وأبى تمَّـام الطائىّ، وأبى عُبَـادة البُحْتُرىّ، وأبى الطيِّب المتنبى، وٱبن بسَّام، والسرىّ الموصـلىّ، وأبى الفتح كُشَاجِم، وأبى الفتح العَبْسىّ، وأبى الفرج الببغا، وٱبن الساعاتى، وٱبن قلاقِس، والواوا الدِّمَشْقىّ، والعفيف التلمسانىّ، وٱبنه، وٱبن سَنَا الملك، وٱبن شمس الخلافة، وٱبن النبيه، والصفىّ الحلِّىّ ونحوهم .

ومعرفة الفرسان منهم : كآمرئ القيس، وخُفَاف بن نُدْبة، والزِّبْرقان بن بدر وعَنْترَة، وعمرو بن معدى كرب، ودُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن كان منهم راجلا يسعىٰ علىٰ رجليه كسُلَيك بن السُّلَكة، وآبن بَرَّاقة، وتأبط شرًّا، والشَّنْفرىٰ وغيرهم .

ومن تقدّم منهم فى نوع من الشعر، كمعرفة طفيل الغنوىّ بوصف الخيل، وأمية بن أبى الصلت فى أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة فى وصف النساء ، وعُتَيبة بن مِرْداس بمراكب الإبل، وكُثَيِّر فى الأمثال، والفرزدق فى الأخبار ، وجرير فى المعانى .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظا : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة، ومعرفة أىّ القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهُذيل؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعرا مُفْلِقا كلهم يَعْدُو على رجليه، ليس فيهم فارس؛ وأىّ قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كشَيْبانَ، وكلب؛ فقد قيل إنه ليس فى الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب فى الجاهلية شاعر قديم علىٰ أنها مثل شيبان أربع مرات .

وقد ذكر آبن رشيق فى "عمدته" عن عبد الله بن سلام الجُمَحىّ وغيره : أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة فكان منهم مُهَلْهِل بن ربيعة، وهو خال آمرئ القيس بن حُجْر ، ويقال إنه أوّل من قصَّد القصائد والمُرَقِّشان الأكبرُ والأصغر ، وطَرَفة بن العبد ، وعمرو بن قَمِيئة، والحارث بن حِلِّزة، والمتلمس، والأعشىٰ ، والمسيَّب بن عَلَس وغيرهم ؛ ثم تحوّل الشعر إلىٰ قيس فكان منهم النابغتان الذُّبيانىّ والجَعْدىّ، وزُهَير بن أبى سُلْمىٰ، وآبنُه كعب، ولبيد، والحطيئة، والشَّمَّاخ . ثم آستقرّ الشعر فى تميم فكان منهم أوسُ بن حَجَر، ولم يتقدّمه أحد حتّى كان النابغةُ وزهير فأخملاه .

قلت : والمراد أن الشعر غلب فى هـذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المجيدون؛ وإلا فالشعر موجود فى قبائل العرب قبل ذلك : كحِمْير وكَهْلان من اليمن ؛ بل فى عادٍ وثمودَ علىٰ ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، آستعان به فى المساواة بمن شاء منهم فى التقريظات والتفضيل عليه كما كتبت فى تقريظ شاعر : فامرؤ القيس يَغْرَق فى مِقْياس معانيـه ، والنابغة الذُّبيانِىُّ يقْصُر عن أن يبلغَ مدىٰ شأوه أو يُدانيه ، وزُهَيْر يقتطف زَهَرات البلاغة من أفانينه ، وأوسُ بن حَجر يَنْسِج علىٰ مِنْواله و يأتمُّ بقوانينه ، وطُفَيل الغنوىّ يتطفَّل علىٰ موائد شعره ، وطَرفَة بن العبد يقصُر عنه فى شيوع ذِكْره ، والأعشىٰ يعشو إلىٰ ضوء ناره ، وعمرو بن كُلثوم يسعىٰ إلىٰ بابه ويقف بِفناء داره ، وكُثَيِّر فى أمثاله لا يعدّ من أمثاله ، وجَرير فى مَفَاخره يتمسك من الفَخار بأذياله ، والفَرَزْدَق فى أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلو رآه عبدُالملك بن مروان لآختاره علىٰ الأخطل ، أو آجتمع مع أبى نُوَاس لدىٰ الأمين لقال هذا هو المقدّم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمّام ، لآعترف له بالتمـام ؛ أو بَصُر به أبو عُبَـادة لقال أنا له عبـد وغلام ؛ أو عاصره المتنبى لآعترف بفضله ، أو آبن الساعاتى لقال لا يأتى الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ .

وكذلك ينبغى أن يعرف مصـطلَح أهـل العروض الذى هو ميزان الشـعر مثل الوَتِد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ، وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالخَبْن ، والخَبْل ، والقبض وغيرها : ليـدخلها تضاعيفَ كلامه عند آحتياجه إلىٰ ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى أوّل ألفيته فى العروض .

الحمدُ للهِ المليكِ الغافرِ * ذى الطَّوْلِ والفضلِ المديدِ الوافِرِ
سبحانَهُ ماذا يقول البارعُ * فى كاملٍ ليس له مُضَارِعُ
ورِزقه فى عَدْله بسيطُ * وعلمه بخلقه مُحِيطُ

وما ينخرط فى هذا السلك من الكلام المنثور أيضا .

النوع الحادى عشر
(الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصِدان)

المقصد الأوّل
(فى وجه آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ النظر فى كتب[1] الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميدانىّ ، والمفَضَّل بن سلمة الضبِّىّ ، وحمزة الأصبهانىّ ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولَّدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلىٰ غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدَثين الواردة فى أشعارهم : كأبى العَتَاهِيَة ، وأبى تمَّام ، والمتنبى ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدَثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أمّا فى شعر المولدين فلجريهم علىٰ أسلوب العرب ، وركوب جادّتهم ؛ وأما المحدَثين فللطافة مأخذهم ، وآستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرىٰ النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة علىٰ ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنِى عليه ، وذلك أن المثل له مقدّمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

(١) لعل لفظ كتب زائد من قلم الناسخ .

الألفاظ الواردة فى المَثَــل دالة عليها، معــبرة عن المراد بها، بأخصَر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقــدّمات المعلومة، والأسـباب المعروفة، لمــا فهم من هــذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطوّلات؛ وأما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمــات مختصرة، تورَد للدلالة علىٰ أمور كاية مبسوطة، كما تقدّمت الإشارة إليه، وليس فى كلامهــم أوجز منها . ولمــا كانت الأمثال كالرموز والإشارة التى يلَوَّح بها علىٰ المعانى تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره آختصارا . وحيث كانت بهــذه المكانة لا ينبغى الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هى وَشْى الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْى المعانى، والتى تخيرَّتْها العرب، وقدّمتها العجم، ونُطِق بها فى كل زمان علىٰ كل لسان، فهى أبقىٰ من الشــعر، وأشرف من الخَطابة، لم يَسِرْ شىء كسيرها، ولا عَمَّ عمومَها، حتّٰى قالوا : أَسْيَرُ من مَثَل، قال الشاعر :

ما أنْتَ إلّا مَثَلٌ سائرُ * يَعْرِفُه الجاهِلُ والخابِرُ

وقد ضرب الله تعالىٰ الأمثال فى كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فِى السَّماءِ﴾، وقال تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكا لا يَقْدِر عَلىٰ شَىْءٍ وَمَنْ رَزَقْناه مِنّا رِزْقًا حَسَنا﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهما أبكَمُ لا يَقْدِرُ علىٰ شَىْءٍ وهُوَ كَلٌّ علىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا قَرْيةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها للنّاسِ وما يَعْقِلُها إلّا الْعالِمُونَ﴾ إلىٰ غير ذلك من آى القرءان .

وضرب رسولُ الله صــلى الله عليه وسلم الأمثالَ فقال " ضَرَبَ اللّٰهُ مثلًا صِراطًا مستقيما، وعلىٰ جَنْبَىِ الصِّراطِ أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعَلىٰ الأبواب سُتُور مُرْخاةٌ، وعلىٰ رَأْسِ الصِّراطِ داعٍ يقول ٱدْخُلُوا الصِّراطَ ولا تُعَرِّجُوا : فالصِّراطُ الإسلامُ، والسُّتُور

حدُودُ الله ، والأبوابُ محارِمُ الله ، والداعى القرءانُ " إلىٰ غير ذلك من الأمثال التى ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام علىٰ أمثال القرءان وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم، ما تقدّم من الكلام علىٰ القرءان الكريم والأخبار .

ثم هى علىٰ ضربين : قريبِ الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين النـاس؛ وبعيد الفهم لخفائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران علىٰ الألسنة مثل قولهم ، "عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ" ، وهو مثل يُضرَب للترغيب فى السير فى الليل، والحث عليه؛ وأول من أرسله مثلا خالد بن الوليد رضى الله عنـه ، قاله فى صبح ليلة قطع فيها مفازةً كانت فى طريقه من العِراق إلىٰ الشام؛ وقولهم "أساءَ سَمْعًا فأَسَاءَ جابَةً" . وأول من قال ذلك سُهَيْل بن عمرو وكان تزوّج صفِيَّةَ بنتَ أبى جهل فولدت له ٱبنَه أنَسا ، فرآه الأخنسُ بن شَرِيق الثقفىُّ معه فقال من هذا ؟ فقال سُهَيل ٱبنى — فقال الأخنس حَيَّاك الله يابُنَىَّ ! أين أُمُّك؟ فقال: لا والله ما أُمِّى ثَمَّ، ٱنطلقتْ إلىٰ بيتِ أمّ حنْظلةَ تطحَن دقيقا — فقال أبوه أساء سمعًا فأساء جابة — فلما رجعا قال أبوه فضَحَنى ٱبنكِ اليومَ قال كذا وكذا — فقالت إنمـا ٱبنى صبىٌّ وأنت لا تحبـه — فقال " أشبهَ ٱمرُؤ بعضَ بَزِّه " فأرسلها مثلا .

والبعيد من الفهم، مثـل قولهم " إنْ يَبْغِ علَيْكَ قَوْمُكَ لايبغ عليك القَمَر " . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عِنادا . والأصل فى ذلك كما ذكره المفضَّل بنُ سلمَة الضبىّ أن بنى ثعلبة بن سـعدِ بنِ ضبّة فى الجاهليـة تراهنُوا علىٰ الشمس ، فقالت طائفة : تطلُعُ الشمس والقمرُ يُرىٰ ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلُع الشمس ، فتراضَوْا برجل جعلوه بينهم حَكَمًا، فقال واحد منهم : إن قومى يبغون علىّ ، فقال الحكَم إن يَبْغ عليك قومك لا يبْغ عليك القمر ، فجرتْ مثـلا . ومن المعلوم أن قول القائل إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ، إذا أُخذ علىٰ حقيقته

من غير نظر إلىٰ القرائن المنوطة به، والأسـباب التى قيل من أجلها، لا يعطى من المعنىٰ ما قد أعطاه المَثَل ؛ بل ما كان يُفهَم من هذا القول معنًى يفيد لأن البغى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا، فكان يصـير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر— وهو كلام مختل المعنىٰ ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس فى تصنيف كتب الأمثال، فمن ذلك الأمثال لأبى عبيد، وهو مرتب علىٰ ترتيب الوقائع التى تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميدانىّ ، وهى مرتبة علىٰ حروف المعجم وفى آخرها جملة من أيام حروب العرب، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة فى هذا الباب : كأمثال الضبىّ، والقمىّ، وغيرها .

وأما الأمثـال الواردة نظما، فهى كلمات ٱستُحسِنت فى الشعر . وطابقتْ وقائع عامّةً جاريةً بين الناس ، فتداولهـا الناس ، وأجروها مجرىٰ الأمثال النثرية . وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل بقول طَرَفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سَتُبْدِى لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَـارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ويروىٰ أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخْرِجه عن الوزن، ويُحِيله عن طريق الشعر فكان يقول : "وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأخبـارِ" فرارا من قول الشعر المُنَزِّهِ عنـه مَقامهُ العلىّ، وشرفه الرفيع ، لكن ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسـلم قال : "أَصْدَقُ كَلِمةٍ قَالَهـا شاعرٌ كَلمةُ لبِيد :

* أَلَا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ * "

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم، إنما هو نظْم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك فى كتابى المسمّى "بالغيوث الهوامع، فى شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع" فى الفقه فراجعه هناك ، ويروىٰ أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّــه * علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

ثم قال : لمن هذا؟ فقيل له للنابغة، فقال : ذاك أشعرُ شعرائكم ؛ والمثل السائر فيه فى قوله : أىُّ الرِّجَال المهَذَّبُ ؛ وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثيرٌ، ولذلك وقع فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم مايستظرف ويستحلىٰ كقول القاضى الأرّجانى :

تَأَمَّلْ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدْغِ خَالًا * لِتَعْــلَمَ كَمْ خَبَـايَا فى الزَّوَايَا

يشير بذلك إلىٰ المثل الجارى علىٰ ألسنة الناس فى قولهمْ "فى الزَّوايا خَبَايَا" وهو من الأمثلة المستفيضة علىٰ ألسنة العامّة الشائعة بينهم، وقول ٱبن عبد ربه .

قالُوا شَبَابُكَ قَدْ وَلّى فقُلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ علىٰ كَرِّ الجَدِيدَينِ؟
صِلْ مَنْ هَوِيتَ وإنْ أبدىٰ مُعَاتَبَةً * فَأَطْيَبُ العَيْشِ وَصْلٌ بينَ إلْفَيْنِ!
وٱقطَعْ حَبَائِلَ خِدْنٍ لا تُلَائِمُـهُ * فرُبَّمَـا ضَاقَتِ الدُّنيَـا بِٱثْنَيْنِ.

وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أهْوَاهُ بَعْدَ القِلىٰ * شَــقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
وأَصْــبَحَ الدَّاخِلُ ما بيْنَنَــا * كَسَــاقِطٍ بينَ فِرَاشَــيْنِ
قَدْ أُلْبِسَ البَغْضَاءَ مِنْ ذَا وذَا * لا يَصْلُحُ الغِــمْدُ لِسَــيْفَيْنِ
ما بَالُ مَنْ لَيْسَــتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أنفًـا بيْنَ عيْنَيْنِ؟

قال الأصمعى : ولم أجد فى شـعر شاعر بيتا أوّله مَثَـل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيتُ الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الخيْرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ * لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

و بيتا آمرئ القيس :

وأَفْلَتَهُنَّ عِلْباءُ جَرِيضًا * ولَوْ أدْرَكْتَهُ صَفِرَ الوِطَابُ

وَقَاهُمْ جَدُّهم بِبَنِى أَبِيهِـمْ * وبالأَشْقَيْنَ ما كانَ العِقَابُ

قال صاحب العقد : "ومثل هذا كثير فى القـديم والحديث، ولا أدرى كيف أغفل القديمَ منه الأصمعىُّ، ومنه

* سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدّم؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعةُ علىٰ ألسـنة الحيوانات، فكما روى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، حين رأىٰ خلاف أصحابه وتَخَاذُلَهم، تمثل بقولهم "إنّمـا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأَبْيَضُ" يعنى إنمـا خُذِلت يَوْمَ خُذِل عثمانـــ ؛ وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : آصطحب أسـدٌ، وثور أحمر، وثور أبيض، وثور أسـود فى أَجَمَة؛ فقال الأسد للأحمر والأسود : هـذا الأبيض يَفْضَـحُنا بلونه، ويُطْمِع فينا مَنْ يقصِـدنا ! فلو تركتمانى آكُلُه، أمِنَّا فضيحةَ لونه؛ فأذِنَا له فى ذلك فأكله؛ ثم قال للأحمر : هـذا الأسودُ يخالِفُ لونى ولونَكَ ولو بقيتُ أنا وأنت ، ظنك مَنْ يراك أسدا مثلى فدعنى آكُلْه، فسكت عنه فأكله؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت، وأريد أن آكلك ! فقال إنـــ كنتَ فاعلا ولا بدّ ، فدعنى أصعَدُ تلك الهَضْبة، وأَصيحُ ثلاثة أصوات، فقال: آفعل ماتريد، فصعِدوصاح ثلاثة أصوات: "ألا إنّمـا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأبيضُ" فجرت مثلا .

ويحكىٰ أن عبد الملك بن مَرْوان حج وقدم المدينة ، فقال علىٰ المنبر : ياأهل المدينة إنكم قُتِل عثمانُ بين أظهركم فنحن لانحبكم ! وأرسلنا مَسْلمة بن عُقْبة فقتلكم فى وَقْعة الحرّة ، فأنتم لاتحبّونا ، فمثلنا ومثلكم كما قال النابغة :

كما لَقِيتْ ذاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفها * وكانتْ تُرِيه المَالَ غِبًّا وظاهرَهْ

فَلَمَّا رأىٰ أنْ قَدْ تَثَمّر مالُه * وأثّل مَوْجودًا وسَدَّ مفَاقِرَهْ

أَكَبَّ علىٰ فأس يحُدّ غُرَابَها * مُذَكَّرةٍ مِنَ المَعَاوِلِ باتِرَهْ

فلَمَّا وَقَاها اللهُ ضَرْبَةَ فأْسِه * ولله عَيْنٌ لا تُغَمَّضُ ناظِرَهْ

فقالَ تَعالَىْ نَجْعَلِ اللهَ بيْنَنا * علىٰ مالِنَا أو تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ

فقالَتْ يَمِينَ اللهِ أفعلُ إنّنِى * رأيْتُكَ سُخْرِيًّا يمينُكَ فاجِرَهْ

أَبىٰ لِىَ قَبْرٌ لا يَزَالُ مُقَابِلى * وضَرْبَةُ فأْسٍ فوْقَ رَأْسِىَ فاقِرَهْ

وهذه الحكاية مشهورة فى الموضوعات علىٰ ألسُن الحيوان ، وهى أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا يرعيان فيه ، فخرجتْ حية من تحت الصَّفا وفى فمها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما ؛ فقال أحدهما لابدّ من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ! فنهاه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس فى يده ، فشجَّها وشدّتْ عليه فقتلته ، فدفنه أخوه مُقابِلَها ؛ فلما خرجَتْ قال لها هل لكِ أن نتعاهدَ علىٰ المودّة وعدم الأذية ، وتعطينى ذلك الدينار كل يوم؟ فقالت : لا ! — قال ولِم؟ — قالت لأنك كلما نظرت إلىٰ قبر أخيك لاتصفو لى ، وكلما ذكرتُ الشجَّةَ التى فى رأسى لاأصْفُو لك .

المقصد الثانى

(فى كيفية ٱستعمال الأمثال فى الكتابة)

فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، ٱنقادتْ إليه معانيها ، وسِيقت إليه ألفاظها ، فى وقت الٱحتياج إلىٰ نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها فى مكانها ، وآستشهد بها فى موضعها . والطريق فى آستعمالهـا فى النثر ، كما فى حل الأشعار وآستعمالهـا ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفت وآشتهرت .

فمما آستعمله أهــل الصناعة من الأمثال المنثورة وأوردوه فى كلامهم قول المقــرّ الشهابى" آبن فضـل الله فى " التعريف " فى وصية أمير مكة المعظمة " ولأنه أحقُّ بنى الزَّهْراء بمـا أبقَتْه له آباؤه ، وألقَتْه إليه من حديث قُصَىٍّ جدِّه الأقصىٰ أبناؤه ؛ وهو أجدر مَنْ طَهَّر هذا المسجد من أشياءَ تَنَزَّهَ أن يلحق به خُش عابِها ، وشَنْعاءَ هو يعْرِف كيف يتَتَبَّعُها " وأهلُ مَكَّةَ أخْبَرُ بشِعَابِها " ، فاستعمل المثل السائر فى قوله : وأهــلُ مكة أخبر بشعابها ؛ وقد وقع هذا المثــل فى كلامه أحسن موقع ، وجاء علىٰ أجمل نظام : لأنه قد أتىٰ به فى مكانه اللائق به ، ومحله المخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله فآستعمله فى غير هــذا المعنىٰ ، لجاء منحطًّا عن هذه الدرجة ، وقاصرا عن رتبتها ، فقال فى وصية خطيب ، : و وصايا هذه الرتبة متشعبه ، وهو كأهل مكة أخبرُ بِشِعابِها ، وأحوالها مترتبه ، وهو علىٰ كل حال أدرَبُ وأدرىٰ بها ؛ إلا أنه قد ظَرَّف بذكر الجناس الآشتقاقى" فى قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبى" رحمــه الله فى خطبة تقليد بفتوّة عن ملك : " ونشهد أن محمدا عبده و رسوله " ، الذى نُورُ شريعته جَلِىّ ، وجاهُ شَفاعته ملِىّ ، و بسيفه و به جاء النصر والشرف من آنتمائنا إليه ، فلا سَيْفَ إلا ذُو الفَقَار ولا فَتَى إلَّا علىّ . وهذا علىٰ ماهو شائع علىٰ الألسنة ، وأن ذلك قيل فى يوم ضَربَ علىّ رضى عنه كافرا آسمُه مَرْحَب ، فشقَّ البيضة علىٰ رأسه نصفين ، وتمـادىٰ السيف فيه وفى جواده فشقَّهُما كذلك وخَلَص السيفُ بينهمافغاص فى الأرض شِبْرَيْنِ ؛ إلا أن المعروف عند المحدّثين وأصحاب السير أن ذا الفقار آسم سيف للنبىّ صلى الله عليه

وسلم ، ٱصطفاه من خيبر لنفسه حينَ ٱصطفى صفيَّة بنتَ حُيَيّ بن أخْطَبَ رضى الله عنها ، ولعله صلى الله عليه وسلم ، أعطاه علياً رضى الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته فى المفاخَرة بين السيف والقلم فى الكلام علىٰ لسان القلم : وهو "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك ، وعُذَيقها المُرَجَّب ، وكَرِيمها المبجل ، وعالمها المهذب". فالقرينة الأُولىٰ فيها مَثَلان ، وأول من قالها الحُباب بن المنذر الأنصاريّ يومَ السَّقيفة ، حينَ ٱجتمع الأنصار إلىٰ سعد بن عُبادة ، يوم مات النبيّ صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعدة ، وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة ٱبنُ الجرَّاح ، وقال الحُباب بنُ المنذر : مِنَّا أمير ومنكم أمير ، إلىٰ أن كان من كلامه هذان[1] المثلان . والجُذَيل تصغير جِذْلٍ ، واحد الأجْذال ، وهى أصول الشجر العظام ، وكانت العرب إذا جَرِبت الإبل نصبت لها جِذْلا فى باطن الوادى تحتكُّ فيه ، فلذلك قال جُذَيلُها المحكَّك ، أراد أنه يُستشفىٰ برأيه ، كما تستشفِى الإبل بالحك فى ذلك الجِذْل ، والعَذْق بفتح العين النخلة بحملها ، وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناء يمنعُها من السُّقوط ، فذلك هو الترجيب ، أراد أنه كريم فى قومه عزيز عليهم . وما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم أيضا علىٰ لسان السيف وهو : "فالشمس من شُعاعى فى خَجَل ، والليل من ضوئى فى وَجَل ، وما أسرعتُ فى طلب ثأر إلا قيل فات ما ذُبح ، وسبق السيفُ العَذَل". ففى القرينة الأخيرة مَثَلان أحدهما "فات ما ذبح" وهو مثل يضرَب لمن طلب الشيءَ بعد فَواته ، وأصله أن بعض الملوك رأىٰ مع أعرابىٍّ بازيا ، فأعجبه فأرسل فى طلبه قاصدا ، فأتىٰ الأعرابىّ ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فذَبح البازى وطبخه وقدّمه إليه ، غير عالم بقصده ، فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابى

(١) فى الأصل هذين المثلين ولعله سبق قلم من الناسخ .

أمْرَ البـازى وما كان من طلب الملك له ، فقـال "فات ماذُبح" إنك أتيتنى ولم يكن عندى ما أضيفك به ، فذبحت البازى وطبختـه ؛ وهو الذى قدّمته إليك .

والمثل الثانى "سَبَقَ السـيفُ العَذَل" وهو مثل لمن يلوم علىٰ فعل شىء بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حُلَّ من الأمثال الواردة نظما، وآستعمل فى النثر، قول القاضى شهاب الدين آبن فضـل الله فى " التعريف " فى وصـية أمير مكة المعظمة أيضا فى الوصية علىٰ وُفُود الحجيج : "وكل هؤلاء إنمـا يأتون فى ذِمَام الله ببيته الذى مَنْ دخله كان آمنا ، وإلىٰ محل آبن بنت نبيّـه الذى يلزمه من طريق بِرِّ الضـيف ما أُخِذَ لَهُم، وإن لم يكن ضامِنا ؛ فليأخذ بمن أطاع مَنْ عصىٰ ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد، فإن العبد لا يردَعُه إلا العصا ، فقوله فان العبد لا يردعه الا العصـا يشـير به إلىٰ قول آبن دريد فى مقصورته .

واللَّومُ للحُـــرِّ مُقـيمٌ رادِعٌ * والعَبْدُ لا يَرْدَعُه إلَّا العَصَا

وقد آشتهر النصف الثانى من هذا البيت حتى جرىٰ مجرىٰ المثل ولعله كان مثلا سائرا قبل أن ينظمه آبن دُرَيد .

ومنه قول الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة رحمه الله من توقيع بنَظَر مدرسـة بعد أن قدّم أن أهلها رفعوا قِصَصهم فى طلب ذلك الناظر : "وكيف لا وهو نِعْمَ الناظرُ والإنسان، وفى مصالح القول والعمل ذو اليدين واللِّسان، وذو العزائم الذى تقيَّدتْ فى حُبه الرُّتَب ومن وجد الإحسان" يريد البيت المشهور :

* ومَنْ وجَدَ الإحسانَ قيْدًا تقيَّدا *

وقد أتىٰ فيه بالآكتفاء، فزاد فى كلامه حُسنا وطَلَاوة .

وأعلىٰ منـه وأوقع فى النفوس قوله بعـد ذلك فى التوقيع المذكور "فاقتضىٰ علو الرأى أن يجاب فى طلبه إليهم سُؤالُ القوم، وأن يتصل أمسُ الإقبال باليوم؛ وأن

يَعْرُب ، بن يَشْجُب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ٱبن تَارح ،وهو آزَر ، بن أرْغو ، بن فالغ ، بن عابَر ، بن أرفَخْشَذ ، بن سام ، بن نوح عليه السلام ، ٱبن يرد ، بن مهليل ، بن قينن[1] ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .

قال النووىّ : "والٱتفاق علىٰ هذا النسب الشريف إلىٰ عدنان ، وليس فيما بعده إلىٰ آدم طريق صحيح " وفيما بعد عدنان ، إلىٰ إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ، قال القضاعىّ فى "عيون المعارف فى أحكام الخلائف" وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال "لا تُجاوِزُوا مَعَدَّ بنَ عَدْنانَ ، كَذَبَ النَّسَّابُون ، ثم قرأ وقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ولو شاء أن يُعلّمه لعَلَّمه " قال : والصحيح أنه من قول ٱبن مسعود رضى الله عنه .

المقصد الثانى

(فى أنساب العرب ، وفيه مَهْيَعان)

المهيع الأوّل

(فى أمور تجب معرفتها قبل الخوض فى النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك مَنْ يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهرىّ "العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سُكَّان البادية ، والنسبة إلىٰ العَرَب عَرَبىّ ، وإلىٰ الأعراب أعرابىّ" والتحقيق إطلاق لفظ العرب علىٰ الجميع ، وأن الأعراب نوع من العرب ، ثم ٱتفقوا علىٰ تنويع العرب إلىٰ نوعين عارِبَة ومُسْتَعْرِبة . فالعاربة هم العرب الأُوَل الذين فهَّمهم الله اللغة العربيـة ٱبتداءً فتكلموا بهـا . قال

(١) فى القاموس قينان بن أنوش بن شيث .

الجوهرىّ "وقد يقال فيهم العَرب العَرْباء" . والمستعْرِبة هم الداخلون فى العربيَّة بعد العجمية . قال الجوهرىّ "وربما قيل لهم المتَعرِّبة" . وقد آختلف فى العاربة والمستعربة فذهب آبن إسحـاق والطبرىّ إلىٰ أنـ العاربة هى عادٌ وثمودُ وطَسْم وجَدِيسُ وأُمَيم وعَبِيل والعَمالقة وعَبْد ضَخْم وجُرْهُم الأولىٰ ، ومَنْ فى معناهم . والمستعرِبةُ بنو قَحْطان بن عابر بن شالخ بن أرفَخْشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغـة عابر وإسمـاعيل كانت سريانية أو عبرانية ، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان فى زمانهم كعادٍ ونحوهم ، وتعلم إسمـاعيل العربية من جُرْهُم من بَنِى قحطانَ النازلين علىٰ إسماعيل وأمّه بمكة . وذهب آخرون منهم المؤيَّد صاحب حماه إلىٰ أن بنى قَحْطان هم العاربة ، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط ، والذى رجحه صاحب العبر الأوّل .

ثم قد قسم المؤرّخون العرب أيضا الىٰ بائدة وغيرها ، فالبائدةُ هم الذيـن بادُوا ودَرَستْ آثارُهم كعادٍ ، وثمودَ ، وطَسْم ، وجَديس ؛ وغير البائدة هم الباقون فى القرون المتأخرة بعـد ذلك من القَحْطانية : كطيئ ، ولخَمْ ، وجُذَام ونحوهم ، ومن العَدْنانية كفَزَارة وسُلَيم وقريش ، ومن فى معناهم . ثم قد عدّ الماوردىّ وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات :

الطبقةُ الأُولى ـــ الشَّعْب بفتح الشين وهو النَّسَب الأبعد الذى تُنْسب إليه القبائل كعَدْنانَ ، ويجمع علىٰ شُعوب ؛ وسمى شَعْبا لأن القبائل تتشعَّب منه .

الطبقة الثانية ـــ القَبِيلة ، وهى ما آنقسم فيـه الشعب كربيعة ومضر ، وتجمع علىٰ قبائل ، وسميت قبيلةً لتقابل الأنساب فيها ، وربمـا سميت القبائل جَمَاجِم .

الطبقة الثالثة ـــ العِمارة بكسر العيـن ، وهى ما آنقسم فيـه أنساب القبيلة كقُرَيش وكِنَانة وتجمع علىٰ عمَائر وعِمَارات .

الطبقة الرابعة — البَطْن وهى ما ٱنقسم فيه أنساب العِمَارة كبنى عبـدِ مناف، وبنى مَخْزوم وتجمع علىٰ بطون وأبطُن .

الطبقة الخامسة — الفَخِذ، وهى ما ٱنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم، وبنى أُمَيَّة، وتجمع علىٰ أفخاذ .

الطبقة السادسة — الفصيلة — بالصاد المهملة — وهى ما ٱنقسم فيه أنساب الفَخِذ كبنى العَبَّـاس وبنِى أبى طالب، وتجمع علىٰ فصائل؛ فالفخذ يجمع الفصائل، والبطن تجمع الأفخاذ، والعمارة تجمع البطون، والقبيـلة تجمع العمائر، والشَّعْب يجمع القبائل . قال النووىّ وزاد بعضهم العَشِيرة قبل الفصيلة، قال الجوهرىّ "وعَشِيرة الرجل رَهْطه الأدْنَوْن" وحكىٰ أبو عبيدة عن ٱبن الكلبىّ عن أبيه تقـديم الشعب علىٰ القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم الفخذ، فأقام الفصيلة مقام العمارة فى ذكرها بعد القبيلة، والعمارة مقام الفصيلة فى ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور علىٰ الألسـنة من الطبقات الست المذكورة القبيـلة، ثم البطن، وقَلَّ أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة، وربما عَبَّروا عن كل من الطبقات الست بالحىّ، إما بالعموم مثل أن يقال حىّ من العرب، وإما علىٰ الخصوص مثل أن يقال حىّ من بنى فلان .

وممـا يجب علىٰ الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأوّل — قال المـاوردىّ إذا تباعدت الأنساب، صارت القبائل شعوبا، والعمائر قبائل؛ يعنى وتصير البطون عمائر، والأفخاذ بطونا، والفصائل أفخاذا، والحادثُ من النسب بعد ذلك فصائلَ .

الثانى — قد ذكر الجوهرىُّ أن القبيلة هم بنو أبٍ واحد، وقال ٱبن حزم جميع قبائل العرب راجعة إلىٰ أبٍ واحد سوىٰ ثلاث قبائل : وهى تَنُوخ، والعُتَق، وغَسَّان

فإن كل قبيـلة منهم مجتمعة من عدّة بطون ، وذلك أن تَنُوخا آسم لعشر قبائل آجتمعوا وأقاموا بالبحرين، فسُمّوا بتَنُوخ أخذا من التَّنُّخ وهو المُقَام؛ والعُتَق جمعٌ آجتمعوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فظفِر بهم فأعتقهم فسُمّوا بذلك . وغَسّان عدّة بطون من الأزد نزلوا على ماء يسمّى غَسّان فسُمّوا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه بأن يُشْهَر آسمه بهم لرياسة، أو شجاعة، أو كثرةِ ولد، أو غيره فتُنْسَب بنُوه وسائر أعقابه إليه ، وربما آنضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته ونحوهم ، فيقال فلان الطائىّ، فإذا أتى من عقبه مَن آشتهر منهم أيضا بسببٍ من الأسباب المتقدّمة نُسبت إليه بنُوه، وجعلت قبيلة ثانية؛ فإذا آشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم، وقُريش، ومُضَر، وعدنانَ، جاز لمن فى الدرجة الأخيرة من النسب أن يُنْسب إلى الجميع : فيجوز لبنى هاشم أن يُنْسَبوا إلى هاشم ، وإلى قريش، وإلى مضر، وإلى عدنان: فيقال فى أحدهم الهاشمىّ، والقُرَشىّ، والمُضَرىّ، والعدنانىّ؛ بل قال الجوهرىّ : إن النسبة إلى الأعلى تغنى عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت فى النسبة إلى كلب بن وَبَرَة الكَلْبىّ آستغنيت أن تنسُبه إلى شىء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع فى النسب بين الطبقة العُلْيا والطبقة السُّفلى . ثم بعضهم يرى تقديم العُلْيا على السفلى : مثل أن يقال القرشىّ العَدَوىّ وبعضهم يرى تقديم السفلى على العليا، فيقال العدوىّ القرشىّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحِلْف والمُوالاة فينسب إليهم : فيقال فلان حَلِيفُ بنى فلان أو مَوْلاهم .

الخامس — إذا كان الرجلِ من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرىٰ ، جاز أن ينسب

إلىٰ قبيلته الأُولىٰ، وأن ينسب إلىٰ القبيلة الثانية التى دخل فيها ، وأن ينسب إليهما جميعا مثل أن يقال التميمىّ ثم الوائلىّ، أو الوائلىّ ثم التميمىّ وما أشبه ذلك .

السادس — القبائل فى الغالب تسمّى باسم أبى القبيلة : كربيعة ومُضَر، والأَوْس والخَزْرج، وما أشبه ذلك. وقد تسمّى القبيلةُ باسم الأم : كخِنْدِف، وبَجِيلة ونحوهما؛ وقد تسمّى باسم خاصّةٍ خَصّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب علىٰ القبيلة لحدوث سبب كغَسّان (١) ، حيث نزلوا علىٰ ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع — أسماء القبائل فى اصطلاح العرب علىٰ خمسة أضرب :

أوّلها — أن يطلق علىٰ القبيلة لفظ الأب كعاد، وثمود، ومَدْيَن، ومَنْ شاكلهم؛ وبذلك ورد القرءان الكريم (وإلىٰ عَادٍ . وإلىٰ ثَمُودَ . وإلىٰ مَدْيَنَ) يريد بنى عاد، وبنى ثمود، وبنى مَدْيَنَ ، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك فى الشُّعوب والقبائل العِظام بخلاف البطون والأفخاذ ونحو ذلك .

وثانيها — أن يطلق علىٰ القبيلة لفظ البنوّة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ .

وثالثها — أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالِبِيِّين والجَعَافِرة ونحوهما؛ وأكثر مايكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها — أن يعبّر عنها بآل فلان : كآل ربيعة، وآل فَضْل، وآل مُرّ، وآل على ، وماأشبه ذلك؛ وأكثر مايكون ذلك فى الأزمنة المتأخرة، لاسيما فى عرب الشام فى زماننا . والمراد بالآل الأهل .

---

(١) كذا فى الأصل ويظهر أن فيه سقطا .

وخامسها — أن يعبر عنها بأولاد فلان، ولا يوجد ذلك إلا فى المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قُريش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عمّا يدور فى خزانة خيالهم مما يُخالطونه ويُجاورونه ؛ إما من الحيوان المفترِس كأسَدٍ، ونَمِر ؛ وإما من النبات كنبت، وحَنْظلَة ؛ وإما من الحشرات كحَيَّة، وحَنَش ؛ وإما من أجزاء الأرض كفِهْر، وصَخْر ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككَلْب، وحَنْظلَة، ومُرَّة، وضِرار، وحَرْب، وما أشبه ذلك ؛ وتسميةُ عبيدهم بمحبوب الأسماء : كفَلاح ونَجَاح، ونحوهما. والمعنى فى ذلك ما حكى أنه قيل لأبى الدُّقيش[1] الكلابى : لِمَ تُسَمُّون أبناءكم بِشَرّ الأسماء نحو كلب وذِئب، وعبيدَكُم بأحسن الأسماء نحو مَرْزوق ورَباح؟ فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدَنا لأنفُسنا (يريد أن الأبناء مُعدّة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد معدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان فى القبيلة اسمان متوافقان : كالحارث والحارث، وأحدهما من ولد الآخر أو بعده فى الوجود عبَّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر، وعن الولد أو المتأخر منهما بالأصغر ؛ وربما وقع ذلك فى الأخوين إذا كان أحدهما أكبر من الآخر .

المهيع الثانى

(فى معرفة تفاصيل أنساب العرب)

واعلم أن العرب على قسمين :

---

(١) أهمله فى الأصل وصوابه الإعجام .

القسم الأوّل

(العـــرب البـائدة)

وهم الذين بادُوا ، ودَرسَت آثارهم ، وآنقطعت تفاصـيل أخبارهم إلا القليل ؛ والمشهور منهم قبائل :

القبيلة الأولى — عاد ؛ وهم بَنُو عادِ بنِ عَوْص بنِ إرَم بنِ سـام بن نوح عليه السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعُمَانَ : من البحرين إلىٰ حضرموت والشِّحْر ؛ وهم الذين بعث الله تعالىٰ إليهم هُودا عليه السـلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود، وهم بنو ثمود بن جاثر،(ويقال كاثر بالكاف بدل الجيم) آبن إرَم بن سام بن نوح عليه السـلام، وكانت منـازلهم بالحِجْر ووادى القُرَىٰ، بينَ الحجـاز والشام؛ وكانوا يَنْحِتُون بُيوتَهم من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله تعالىٰ إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله بصَيْحة من السماء كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلة الثالثة — العَمَالقة، وهم بنو عِمْليق، (ويقال عِمْلاق) بن لاوَذ بن إرَم بن سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يُضْرَبُ بهم المَثَلُ فى الطول والجُثْمان . قال الطبرىّ وتفرّقت منهـم أمم فى البلاد، فكان منهم أهـل عُمَان، والبحرين، والحجاز، وملوك العِراق، والجزيرة، وجَبَابرةُ الشام، وفَرَاعِنَة مصر.

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طَسْم . قال آبن الكلبىّ وهم بنو طسم آبن لاوَذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السـلام . وذكر الجوهرىّ أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلُهم الأحقافَ باليمن . وذكر فى "العبر" أن ديارَهم كانت باليمامة ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جَدِيس الآتى ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جَدِيس وهم بنو جَدِيس بن إرمَ بن سام بن نوح . وقال الطـبرىّ جَدِيسُ بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليـه السـلام ، وكانت مساكنهم بجوار طَسْم المقـدَّم ذكرهم ؛ وكان هلاكهـم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عَبْد ضَخْم ، وهم بنو عَبْدِ ضخم بنِ إرم بن سام بن نوح . قال فى "العبر" : كانوا يسكُنُون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أوّل من كتب بالخط العربىّ .

القبيلة السابعة — جُرْهُم الأولىٰ . قال ابن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا علىٰ عهد عاد فبادُوا .

القبيلة الثامنة — مَدْيَن، وهم بنو مَدْيَن بن إبراهـيم عليه السـلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائلُ وشُعوب، وكانت ديارهم ديارَ عاد وأرض مَعَان من أطراف الشام ممـا يلى الحجاز قريبا من عشيرة (١) قوم لُوطٍ بعث الله إليهم شُعَيْبا فلم يؤمنوا .

القســـم الثـانى

(من العرب الباقية أعقابهم علىٰ تعاقُب الزمان)

وأكثر مَنْ تدعو حاجة الكاتب إلىٰ معرفته مَنْ بَقِىَ أعقابه منهم متفرّقةً فى أقطار الأرض إلىٰ الآن، وهم علىٰ ثلاثة أضرب :

---

(١) فى سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنبه .

الضرب الأوّل

(العـــرب العـاربة)

قال الجوهرىّ : ويقال فيهم العرب العَرْباء، وهم بنو قَحْطان، بن عابَر، بن شالَخ آبن أرْفَخْشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن. والمشهور منهم شَعْبان.

الشَّعْب الأول — جُرْهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهـاء) وهم بنو جُرْهُم بن قحطان، وهم غير جُرْهم الأولىٰ المقدّم ذكرها فى جملة العرب البائدة .

وكانت منازلهم أوّلا اليمن، ثم آنتقلوا إلىٰ الحجـاز فنزلوه، فأقاموا به حتّٰى كان من نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فنزلوا عليه بمكة، وآستوطنوها علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ العرب المستعربة إن شاء الله تعالىٰ .

الشَّعْب الثانى — يَعْرُب، وهم بنو يعرُب بن قحطان المقدّم ذكره . ويقال إن العرب إنمـا سُمِّيت عَرَبا به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسـلُوا فوُلِد له يَشْجُب، وَوَلَد يَشْجُب سَبأً، ومنه تفرّعت جميع قبائلهم .

ومرجع المشهور فيه إلىٰ قبيلتين :

القبيلة الأُولىٰ — حِمْير وهم حِمْيرُ بن سبإٍ (بكسر الحاء وآسمه العَرَنْجج) . وقد ذكر آبن الكلبىّ : أنه كان لحميَرٍ عشرة أولاد من عَقِبه وكان غالبُ وجُلُّ قبائل حِمْير من آبنَيْـه : الهَمَيْسَع، ومالِك ملوك اليمن، وكانت بلادهم مشارقَ اليمن فظَفارِ وما حولهـا . ولحمير بقايا موجودُون إلىٰ الآن، ومنه غالب قبائل قُضَاعة، ومنه غالب قبائل حمير، وهو قُضَاعة، بن مالك، بنِ عمرو، بن مُرَّة، بن زيد، بن مالك، بن حِمْير، وقيل قضاعة بن مالك بن حمير . وذهب بعض النَّسَّابة إلىٰ أن قُضَاعة من العَدْنانيَّة الآتى ذكرُهم . قال السهيلىّ : والصحيح أن أمّ قُضاعة (وهى جكرة) مات عنها مالكُ

آبن حمير وهى حامل، فتزوّجها مَعَدُّ بن عدنانَ ، فولدت قُضاعةَ علىٰ فراشــه فتبنّاه فنُسِب إليه. قال المؤيد صاحب حماه: "وكان قضاعة مالكا لبلاد الشِّحْر وقبرُه بجبل الشِّحْر موجود" . ولقضاعة بقايا إلىٰ الآن ينسب إليهم، وإليهم يُنْسب القُضَاعىّ المصرىّ صاحبُ كتاب "الشهاب فى المواعظ والآداب" فى الحديث، وخطط مصر وغيرهمـا .

والمشهور من قضاعة سبعة أحياء :

الحىّ الأوّل — بَلِىّ (بفتح الباء) وهم بنو بَلِىّ، بن عمرو، بنِ الحافِى، بنِ قُضَاعةَ، ولهم بَقَايَا بالديار المصرية بصعيدها الأعلىٰ ، منهم بنو ناب وغيرهم ، وبقَايَا بالحجـاز وغيرهما، والنسبة إليهم بلَوِىٌّ بزيادة واو مكسورة قبل ياء النسب .

الحىّ الثانى — جهينة (بضم الجيم وفتح الهاء والنون)، وهم بنو جُهينة، بن زيد، آبن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافِى، بن قضاعة، وهى قبيلة عظيمة، ولهم بَقَايَا ببلاد الصـعيد من الديار المصرية وبالحجاز وغيرهمـا . والنسبة إليهم جُهَنِىٌّ بحذف الياء بعد الهـاء .

الحىّ الثالث — كلب، وهم بنو كلب، بن وَبَرَةَ، بن ثعلبة، بن حُلْوان، بن عِمْران، آبن الحافى ، بن قُضاعة ، ومنهم حارثة الكلبىُّ أبو زَيدِ بنِ حارثةَ مولىٰ رســول الله صلى الله عليه وسلم .

قال صاحب حماه : وكان بنو كلب فى الجاهليــة ينزلون دُومةَ الجندل، وتبوكَ، وأطراف الشام . قال آبن سعيد : ومنهم الآن خَلْق عظيم علىٰ خليج القُسْطَنْطِينِيَّة مسلمون . قال فى «مسالك الأبصار» : وبشَيْزَرَ، وحَلَب وبلادها، وتَدْمُر، والمَنَاظر أقوام منهم، والنسبة اليهم كَلْبىٌّ .

الحىّ الرابع — عُذْرةُ (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عُذْرة

ابن سعيد[1]، بن هُذَيم، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافِى، بن قضاعة، وإلىٰ عُذْرة هؤلاء ينسَبُ العشق والتيمُّ؛ ومنهم عُرْوة بن حِزَام صاحب عَفْراء أحد المتيَّمين وجَميل صاحب بُثَينة . ومن أحسن ما يحكىٰ أنه قيل لرجل منهم : ما بالُ العِشق يقتلُكم يا بنى عُذْرة ؟ قال لأنّ فينا جمالا وعِفَّة : وقيل لآخر منهم : ما بالُ الرجل منكم يموتُ فى هوىٰ آمرأة ؟ إنما ذلك ضَعْف فيكم يا بنى عُذْرة — فقال : أما والله ! لو رأيتم النواظر الدُّعْج ، تحتها المَبَاسِمُ الفُلْج ، فوقها الحواجِبُ الزُّجُّ ، لآتخذتموها اللّاتَ والعُزَّى؛ ولهم بقايا بالدَّقَهْلِية والمُرْتاحيَّة من الديار المصرية، وبقايا بالشام أيضا .

الحىّ الخامس — بَهْراء (بفتح الباء الموحّدة وسكون الهاء وألف بعدالراء المهملة)، وهم بنو بَهْراء، بن عَمْرو، بن الحافى: بن قُضَاعة؛ ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم المِقْداد بن الأسود، أحدُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالدَ بن بَرْمَك من آل بهراء . قال فى العِبَر : وكانت منازلهم شِمَالىّ منازل بَلِىّ من اليَنْبُع إلى عَقَبة أيلةَ ، ثم جاور بحرَ القُلْزُم منهم خلق كثير ، وآنتشروا ما بين بلاد الحَبَشة وصعيد مصر، وكَثُروا هناك ، وغلبوا علىٰ بلاد النُّوبة، وهم يحاربون الحبشة إلىٰ الآن .

الحىّ السادس — بنو نَهْد، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلَمَ، بن الحافى، بن قُضَاعة؛ وكانت منازلهم باليمن، وإليهم كتب النبىّ صلى الله عليه وسلم كتَابَهُ المشهور؛ وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مَشَاهير نَهد الصَّقْعَب؛ قال صاحب حماه : وكان رئيسا فى الإسلام .

(١) فى القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشى حضن سعدا فنسب إليه و إلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدا له كما قد يتوهم من العبارة فتنبه .

الحىّ السابع — جَرْم، وهم بنو جَرْم وٱسمه عِلَاف، بن زَبَّان، بن حُلْوان، بن عِمْران، ٱبن الحافى، بن قُضَاعة . قال الحمدانىّ : ومنهم بنو جُشَم، وبنو قُدامة، وبنو عَوْف . قال فى العِبَر : ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . قلت ووهم القاضى ولىّ الدين بن خلدون بجعلهم هم الذين ببلاد غَزَّة، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طيئ لا جرم قُضَاعة . وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تَنُوخ (بفتح التاء المثناة فوق وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهرىّ : ولا تشدّد نونه، والتحقيق ماقاله أبو عبيد : أنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نِزَار[1]، والأحلاف . قال : وسُمُّوا بذلك لأنهم حلفوا علىٰ المُقام بمكان بالشام والتَّنَخّ المُقَام . قال ٱبن سعيد : ومن الناس من يطلق تَنُوخَ علىٰ الضَّجاعِمة، ودَوْس الذين تنخوا بالبحرين . قال صاحب حماه : وكان بينهم وبين اللَّخْميين ملوكِ الحِيرَة حروب، ولتَنُوخَ بقايا بالمعرّة من بلاد الشام فيما ذكره الحمدانىّ .

القبيلة الثانية — من القَحْطانية كَهْلان (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو كَهْلانَ بن سبإ . قال أبو عبيد : وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كَهْلانَ، وكانوا متداوِلينَ المُلْكَ باليمن مع بنى حِمْير، ٱنفرد بنو حمير بالملك، و بقيت بطون كهلان علىٰ كثرتها تحت ملكهم . قال فى العبر : ثم تقاصَرَ مُلْك حمير وبقيت الرياسة علىٰ العرب بالبادية لبنى كَهْلانَ، وهم أحياء كثيرة .

والمشهور منهم أحَد عشر حيًّا :

الحىّ الأوّل — الأزد (بفتح الهمزة وسكون الزاى وبالدال المهملة)، قال أبو عبيد : ويقال بالسين بدل الزاى . قال الجوهرىّ : بالزاى أفصح، وهم بَنُو الأزد، بن الغَوْث، بن نَبْت، بنِ مالك، بن أُدَد، بن زيد، بن كهلان، وهم من أعظم الأحياء وأكثرِهم بُطُونا . وقد قَسَّم الجوهرىّ الأزْد إلىٰ ثلاثة أقسام :

(١) أى أسد وغطفان فهما ٱثنان ونزار الثالث .

أحدهما — أزد شَنُوءة، وهم بنو نَصر بن الأزْد، وشَنُوءة لقب لِنَصْر غلب على بنيه .

الثانى — أزد السَّراة، بإضافة أزد إلى السَّراة (بالسين المهملة)، وهو موضع بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعُرِفوا به .

الثالث — أزْدُعَمَّان بإضافة أزد إلى عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)[1]، وهى مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعُرِفوا بها . وللأزد بقَايَا ببلاد الشام بزُرَع وبُصْرى فيما قاله فى "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة ونون فى الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بَنُو جَفْنة، والحارثُ وهو مُحَرِّق، وثَعْلبةُ وهو العَنْقاء[2]، وحارثة، ومالك، وكَعْب، وخارجة، وعَوْف بنُ عمرو، بنِ عامرٍ ماء السماءِ، ابن حارثَةَ الغِطْرِيف، بن امرئ القيس البِطْرِيق ويقال البُهْلول، ابن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد، وإنما سُمُّوا غسان لماء نزلوا عليه اسمه غَسَّان فشَرِبوا منه فسُمُّوا به . قال فى العبر : وهو على القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفى ذلك يقول بعض الأنصار :

إمَّا سألْتَ فإنَّا معشَرٌ نُجُبٌ * الأزْدُ نِسْبَتُنَا والماءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان مُلْكُ العرب بالشام بعد سَلِيح المقدّم ذكْرُهم إلى أن كان آخِرَهم جَبَلَةُ بن الأيهم الذى أسلم فى زمن عمر ثم ارتدّ، ولحق ببلاد الكُفْر . وقد ذكر فى «مسالك الأبصار» أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبَلْقاء واليَرْمُوك وحِمْص . ومنها الأَوْس والخَزْرَج ابنا حارثَةَ، بن ثعلبَةَ، بن عَمْرو مُزَيْقِيَا، بن عامرٍ ماءِ السماء، بن حارثة الغِطْرِيف، بن امرئ القيس البِطْرِيق، بن ثعلبَةَ، بن مازن، بن الأَزْد، وكانت منازلهم

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهرى بالقلم والقاموس أيضا وضبطه شارحه بالعبارة . فقال : كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضا أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فحرر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع فى الأصل بالمثناة وهو تصحيف .

يَثْرِبَ ؛ ومنهم كانت أنصارُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولهم بَقَايَا كثيرة متفرّقة بالمَشْرق والمَغْرِب . وقد ذكر الحمدانيّ : أن منهم جماعةً بمَنْفَلُوط من صعيد مصر من عَقِب حَسَّانَ بن ثابت ، وسعد بنِ معاذ سيد الأوْس رضى الله عنهما .

الحيّ الثانى — من كهلان طَيِّئ (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذا من الطاءة علىٰ وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المرعىٰ ، وهم بنو طيِّئ ، بن أُدَدَ آبن زيد ، بن يَشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلانَ ؛ والنسبة إليهم طائىّ ، وإليهم ينسب حاتِم الطائىّ المشهور بالكرم ، وأبو تَمَّام الطائىّ الشاعر المشهورُ ، وهم كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم باليمن فخرجُوا منها علىٰ إثر خُروج الأزد عند تفرّقهم بسيل العَرِم ، فنزلوا بنَجْد والحجاز علىٰ القُرْب من بنى أسد ؛ ثم غلبوا بنى أسد علىٰ جبلَىْ أجَأ وسَلْمىٰ من بلاد نَجْد ، فنزلوهما فعرِفا بجبلَىْ طيِّئ إلىٰ الآن ؛ ثم آفترقوا فى أوّل الإسلام زمَنَ الفُتُوحات فى الأقطار ، ولهم بطون كثيرة . منهم ثُعَلُ (بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثُعَل ، بن عمرو ، بن الغَوْث ، آبن طيِّئ . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد الخيل .

ومنها جَدِيلةُ (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر) ، ذكرهم الجوهرىّ ولم يرفع نسبهم ؛ ثم قال : وجَدِيلةُ أُمُّهم عرفوا بها : وهى جَدِيلة بنت سُبَيْع بن عمرو من حمير .

ومنها نَبْهان (بفتح النون وسكون الباء الموحّدة ونون بعد الألف) ، وهم بنو نَبْهان ، واسمه سُودانُ ، بن عمرو ، بن الغَوْث ، بن طيِّئ .

ومنهـا بَوْلانُ (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بَوْلانَ ، وآسمه غُصَيْن ، بن عمرو ، بن الغَوْث ، بن طيِّئ . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

إنهم وضعوا الخط العربىّ علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخط فيما بعد إن شاء الله .

ومنها هِنَاء، وهم بنو هِنَاء، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم إياس بن قَبِيصة الذى ملك بعد النُّعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والدال المهملتين وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو سُدُوس بن أصمعَ من بنى سعد، بن نَبْهان، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم جعفر بن عَطِيَّة الذى يقول :

مَدَحت نَسِيبى جعفرًا إن جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاه النَّدى وأنامِلُه

ومنها سَلَامانُ (بفتح السين المهملة ونون فى الآخر)، وهم بَنُو سَلَامان، بن ثُعَل، آبن الغوث، بن طيئ .

ومنها بُحْتُر (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء مهملة فى الآخر) ، وهم بنو بُحْتُر ، بن عَتُود، بن عُنَيْز، بن سَلَامان ، بن ثُعَل ، آبن عمرو، بن الغوث، بن طيئ؛ منهم أبو عُبَادة البحترىّ الشاعر الإسلامىّ المشهور.

ومنها زُبَيد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بَنُو زُبَيْد، بن مَعْن، بن عَمْرو، بن عُنَيْز، بن سَلَامانَ، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . قال آبن سعيد : وزُبَيْد هؤلاء هم الذين ببريَّة سِنْجار من الجزيرة الفُراتيَّة، وهم الذين ذكرهم المقرّ الشهابىّ بن فضل الله، وسماهم زُبَيد الأحلاف .

ومنها سُنْبُس[1] (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو سُنْبُس بن معاوية، بن جَرْوَل، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدىّ فى سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر فى القاموس أنه بالكسر وكذلك هو فى الصحاح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طيئ. وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بثغْر دِمْياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميّين، وعدّ منهم ثلاثة بطون : وهم الخَزَاعلة، وعبيـد، وجَمُوح . والإمرة فى زماننا هذا فيهم، فى الخزاعلة، فى بنى يوسف بمدينة سخا من الأعمال الغربية. قال الحمدانى : ومنهم طائفة بالبطائح من بلاد العراق .

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم فى الآخر)، وهم بنو ثعلبة بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . وقال الحمدانىّ جَرْم آسم أمه غلب عليه : وهى جرم بنت الغَوْث آبن طيئ، وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غَزَّة من البلاد الشامية. قال الحمدانىّ: وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام علىٰ تدافع الفرنج عن المسلمين ، فلما فتح السلطان صلاحُ الدين البلادَ، دخلت طائفة منهم مصر، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غَزَّةَ . وقد ذكر الحمدانىّ منهم ثلاثة بطون : وهم شمجان، وقمران، وجَيَّان . ثم قال : والمشهور من جَرْم الآن جَذِيمة، ويقال إن لهم نسبا فى قريش، وزعم بعضهم أنها ترجع إلىٰ مَخْزُوم، وقيـل بل من جذيمة بن مالك ، بن حنبل ، بن عامر ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فِهْر . ثم قال وجَذِيمـة هؤلاء هم آل عَوْسَجة ، وآلُ أحمد ، وآل محمود . ثم قال : ومنهم أسلَم، وشبل، ورضيعة، ونيور، والقذرة، والأَحامدة، والرفثة،وكور، وموقع . ومنهم من بنى غوث العاجلة، والعبادلة، وبنو تمام، وبنو جميل، وبنو مقدام، وآل نادر . ومنهـم من بنى غوث بنو بها، وبنو خولة ، وبنو هرماس ، وبنو عيسىٰ، وبنو سهيل ؛ وأرضهم الداروم ؛ وجاورهم قوم من زبيـد يعرفون ببنى فهيد . ثم آختلطوا بهم .

ومنها ثعلبة، وضبطُه معروف؛وهم بنو ثَعْلَبَة بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن طيئ، وهم رعْيان دَرْما وزريق، آبنى عَوْف بن ثعلبة، وقيل آبنا ثعلبة وآسم دَرْما عمرو، ودرما آسم أمه غلب عليه . قال الحمدانى : وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلادَ ٱنتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بُطون دَرْما سلامةُ، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابلة، والمراونة، والحَيَّانيّون؛ ومن بطون زريق بها بنو وهم والطليحيون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصافحة؛ ومن بنى زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُّموت، والروايات، والنمورة، والشمخيّون، والسَّعَالى، والرمالى، والمَعامرة، والسِّنْدِيُّون، والبَحَابحة، والعُقَيليون، والمساهرة، والمعافرة؛ ومنهم أيضا العليميّون . قال الحمدانىّ: وكان مقدّمهم قديما عمرو بن عسيلة أُمِّر بالبوق والعَلَم. ومن العليميّين القمعة، والرياحين، والغوفة. قال الحمدانىّ: وكان فيهم رجال ذوو ذكر ونَبَاهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا . ومنهم من أمر بالبوق والعلم . ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرة .

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاى وتشديد الياء المثناة تحت وهاء فى الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أفلَتَ، بن ثُعَل، بن عمرو، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . قال الحمدانىّ : وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز . قال فى العبر : وفيهم الإمارة فى العراق إلى الآن ولهم صَوْلة عظيمة. وهم بطون كثيرة : فمن بطونهم البطنين، وأفخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود . ومن بطونهم الأجود وأفخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبى الحزم، وآل علىّ، وآل عقيل، وآل مسافر . هـذا ما ذكره الحمدانىّ . وزاد فى مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقىّ، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبنى جميل، وآل أبى مالك . قال فى "المسالك": وديار

آل أجود منهم الرخيميّة، والرقبىٰ، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكمن، واليحموم، والأم، والمعينة. ويليهم ساعدة. وديارهم من الحضر إلىٰ برية زرود، إلىٰ سقارة، إلىٰ البقعاء، إلىٰ التيب، إلىٰ الساسة، إلىٰ حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طَرِيف، بن عمرو، بن بَجِيلة، بن مالك، بن جَدْعاء، بن ذُهْل، بن رُومان، بن جُنْدَب، بن خارجة، بن سعد، بن قَطرة، بن طيئ. قال ٱبن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمدانىّ: ديارهم جبل أجأ وسلمى. ثم قال وظَفِير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن علىّ، بن مفرج، بن دَغْفل، بن جراح، بن شِبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حَرْب، بن السَّكَن، بن ربيع، ٱبن عَلْقىٰ، بن حَوْط، بن عمرو، بن خالد، بن مَعْبَد (١)، بن عدىّ، بن أفلت، بن سلسلة، بن غنم، بن ثَوب، بن مَعْن، بن عَتُود، بن عُنَيْز، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، ابن طيئ. قال فى "مسالك الأبصار": وتقول بنُو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بنِ خالد، بن بَرْمك من العَبَّاسة بنت المهدىّ، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يحضر مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه فى تزويجها ليحِلّ له نظرها لاجتماعهما بمجلسه فعقَد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها علىٰ حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون فى نسبه إنه ربيعة بن سالم، ٱبن شبيب، بن حازم، بن علىّ، بن جعفر، بن يحيىٰ، بن خالد، بن برمك؛ ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

(١) فى العبر ٱبن معبد بن عمرو.

لأنهم من سلسلَةَ بن عُنَيز، بن سلامان، بن طيئ، وهم كرام العرب وأهل البأس والنجدة؛ والبرامكة و إن كانوا قوما كراما فإنهم قوم عجم وشتَّانَ بين العرب والعجم؛ وقد شرف الله تعالىٰ العرب أن بعث منهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه، وجعل فيهم الخلافة والملك، وآبتزّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأسنتهم تاجَ كسرىٰ وقيصر، وكفىٰ بذلك شرفا لا يُطَاوَل، ونخرا لا يُتناوَل . وذكر فى "التعريف" نحوه

قال فى العبر : وكانت رياسة طيئ فى أيام الفاطميّين لبنى الجرّاح، ثم صارت لآل ربيعة . قال الحمدانىّ : وكان ربيعة هذا قد نشأ فى أيام الأتابك زنكى وآبنه نورالدين الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولِد له أربعة أولاد : وهم فضل، ومرا، وثابت، ودغفل، ومنهم تفرّعت بطون آل ربيعة . ثم المشهور من آل ربيعة الآن ثلاثة بطون : وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علىّ : فآل فضل هم بنو فضل بن ربيعة وآل مرا بنو مرا بن ربيعة . وأمّا آل علىّ فمن آل فضل، وهم بنو علىّ بن حَدِيثة، بن عُقْبة بن فضل المقدّم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضا بعد ذلك بيوتا أرفعها قدرا بيتُ عيسىٰ بن مُهَنَّا، بن مانع، بن حديثة، بن عقبة، بن فضل . قال فى "مسالك الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل . قال : ثم صار آل عيسىٰ بيوتا، بيت مهنا بن عيسىٰ، و بيت فضل بن عيسىٰ، و بيت حارث بن عيسىٰ، و بيت محمد آبن عيسىٰ، و بيت هبة بن عيسىٰ . وسيأتى الكلام علىٰ تقسيم الإمرة فيهم فى الكلام علىٰ عرب الشام فى المسالك والممالك إن شاء الله .

الحىّ الثالث — من كهلان مَذْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وجيم فى الآخر)، وهم بنو مَذْحِج وآسمه مالك، بن أُدَدَ، بن زيد، بن يَشْجُب، آبن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرىّ : مَذْحِج

ٱبنُ يُحابِر، بن مالك، بن زيد، بن كهلان. وقد ذكر الحمدانىّ: أنهم إنمـا سمّوا مَذْحِج لشجرة تحالَفُوا عندها ٱسمها مَذْحِج، فسُمُّوا بٱسمها. ثم لمذحج بطون كثيرة:

منها خَوْلان، (بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف)، وهم بنو خَوْلانَ بن مالك، وهو مَذْحِج وإليهم ينسب أبو إدريس الخَوْلانىّ. قال فى العبر: وبلاد خَوْلانَ فى بلاد اليمن من شرقيّه، قال: وقد ٱفترقوا فى الفتوحات، وليس منهم اليوم ذرّية إلا باليمن؛ ثم قال وهم غالبون علىٰ أهله.

ومنها جَنْب (بفتح الجيم وسكون النون وباء موحدة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه، والحـارث، والغـلى، وسـبحان، وشمران، وهفان بن يزيد، بن حرب، بن عِلَّةَ، ٱبن جَلْد، بن مَذْحِج. قال أبو عبيـد: وسُمُّوا بجنب لأنهم جانبوا عَمَّهم صُدَاءً، وحالفوا سعدَ العشيرةِ، وحالفت صُدَاءُ بنى الحارث بن كعب. ومن جَنْبٍ معاوية الخير الجنبىُّ صاحب لواء مَذْحِج فى حرب بنى وائل.

ومنها سعد العشيرة، وهم بنو سعد العشيرة بن مَذْحِج، وسُمّى بذلك لأنه لم يمت حتّى ركب معه من وَلَده وولَد وَلَده ثلثُمائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشـيرتى دفعـا للعين عنهم، فقيل له سَعْد العشيرة. ثم من بُطون سـعد العشيرة أَوْذ (بفتح الهمزة وسكون الواو وذال معجمة فى الآخر)[1]، وهم بنو أَوْذ بن صَعْب بن سعد العشيرة، وإليهـم ينسب الأفوه الأوذىّ الشاعر المشهور. ومن بطون سعد العشـيرة أيضا جُعْفِىٌّ (بضم الجيم وسكون العين المهملة وكسر الفاء وياء مثناة تحت فى الآخر) وهم بنو جُعْفِىّ بن سـعد العشيرة والنسبة إليهم جُعْفِىّ علىٰ مثـل لفظه، وإليهم ينسب الإمام البخارىّ بالمُوالاة، فيقال الجُعْفِىُّ مولاهم. ومن بطون سـعد

(١) صوابه ودال مهملة ٱنظر القاموس وشرحه فى مادة أود على أنه لم توجد مادة أوذ بالمعجمة فيما بأيدينا من المعاجم فتنبه.

العشيرة زُبَيْد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعَرف ز بيدُ هؤلاء بزُبَيْد الأكبر، وهم زبيد الحجاز . قال فى مسالك الأبصار : وعليهم دَرَك الحاجّ المصرىّ من الصَّفراء إلى الجحفة ورابغ . ومن زُبَيْد هؤلاء بطنٌ تعرف بزُبَيد الأصغر، وهم بنو مُنَبِّهٍ الأصغر بنِ ربيعة بن سَلَمَة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر . قال أبو عبيد ومن زُبَيْد هؤلاء عمرو بن معدى كرب .

ومنها النَّخْع (بفتح النون وسكون الخاء المعجمة وعين مهلة فى الآخر)[1]، وهم بنو النخع وٱسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحج . قال أبو عبيد : وسمى النَّخع لأنه ٱنتَخع عن قومه أى بَعُد، ومنهم الأشتر النَّخِعىُّ أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه مِصْر، وكتب له بها عهدا على ماسيأتى ذكره فى الكلام على العهود عند ذكر الولايات فيما بعدُ إن شاء الله تعالى . وإليهم ينسَب إبراهيم النَّخعىُّ الإمام الكبير المشهور .

ومنها عَنْس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَنْس بن مذحج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابىُّ المشهور، وإليهم ينسب الأسود العنسىُّ الكَذَّاب، الذى أخبرَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بخروجه فٱدَّعى النبوّة باليمن بعد ذلك .

ومنها بنو الحارث، ويقال بَلْحارِث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كَعْب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مذحج . قال فى "العبر" : وديارهم بنواحى نَجْرانَ من اليمن مجاورُون لبنى ذُهْل بن مُزَيقياء، منهم بشِير الحارثىُّ الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ما ٱسمك قال : أكبر، قال : بل أنت بشِير .

---

(١) الذى فى القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفى المصباح والنخع بفتحتين قبيلة من مذحج فلينظر .

الحىّ الرابع — من بَنِي كَهْلان هَمْدانُ (بفتح الهـاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون)، وهم بنو هَمْدان، بن مالك، بن زَيْد، بن أَوْسلَة، بن رَبيعة، بن الخيار، ٱبن زيد، بن كَهْلان، . قال فى "العبر": وكانت ديارهم باليمن من شَرقيّه، ولما جاء الإسلام تفرّق من تفرّق منهم، وبقى مَنْ بقى باليمن . قال : وكانت هَمْـدانُ شيعةً لأمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه عنـد وُقُوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوّاباً علىٰ بابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ٱدْخُلِي بِسَلَامِ

قال فى "مسالك الأبصار": و بالجبل المعروف بالطيّبين من الشام فرقة من همدان.

الحىّ الخـامس — من بنى كهلان كِنْدة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر)، وهم بَنُو كِندة، وٱسمه ثَوْر، بن عُفَير، بن عَدِىّ، بن الحارث، بن مرّة، بن أدد، بن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زَيْد، بن كَهْلان. قال صاحب حماة : وسمى كِنْدة لأنه كند أباه أى كَفَر نعمته . قال : و بلادهم باليمن قِبلِيَّ حَضرمَوْتَ، وكان لهم مُلْك بالحجاز واليمن؛ ومنهـم الأشعثُ بن قَيْس الصحابىُّ المشهور ؛ ومنهـم أيضـا القـاضى شُرَيْح قاضى علىٍّ رضى الله عنـــه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللِّوىٰ من بلاد الشام قوما ينسبون إلىٰ كِنْـدة ، ولهم بطون منها السُّكُون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو)، وهم بنو السُّكون ٱبن أَشْرَس بن كِنْدة ؛ ومنهم معـاوية بن حُدَيْج قاتلُ محمـد بن أبى بكر الصـدّيق رضى الله عنهما ؛ وعدّ منها صاحب حماة السَّكاسِك أيضا (بفتح السين الأولىٰ وكسر الثانية)، والذى ذكره أبو عبيد أنه من حِمير، وقال : هم بنو السَّكاسِك بن واثلةَ بن حمير . قال الجوهرىّ : والنسبة إلىٰ السَّكاسك سَكْسَكِىٌّ ردًّا له إلىٰ أصله كما يُنسب إلىٰ مساجد مَسْجِدِىّ .

الحىّ السادس — من بنى كَهْلان مُرَاد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مرادٍ، بنِ مالك، بنِ أُدَدَ، بنِ زيد، بنِ يشجُب، بنِ عَرِيب، ٱبن زيد، بن كَهْلان، قال الجوهرىّ : ويقال إن ٱسمه يُحابر فتمرّد فسمى مُرَادا . وجعلهم فى العبر بَطْنا من مَذْحِج، فقال مراد بن مذحج . قال صاحب حماه : وبلادهم إلىٰ جانب زَبِيدَ من بلاد اليمن، قال : وإلىٰ مراد هذا ينسب كل مُرادىّ من عرب اليمن .

الحىّ السابع — من بنى كهلان أنمارٌ (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أنمـار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نَبْت، بن مالك، بن زيد، بن كَهْلان . ولهم بطنان — الأولىٰ بَجِيلةُ (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر)، وهم بنو عَبْقَر، والغوثُ، وصُهَيبة، وحَزِيمة[(1)] بن أنمـار، بن أراش . قال أبو عبيد : وبجيلة أمهم، عُرِفوا بها — وهى بجيلةُ بنت صَعْب بن سعد العشيرة، قال فى العبر : وكانت بلادهم فى سَرَوات اليمن والحجـاز إلىٰ تَبَالة . ثم ٱفترقوا أيام الفتح الإسـلامىّ فى الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل، قال الجوهرىّ : ويقال إنهم من العَدْنانية، لأن نزار بن معـدّ بن عدنان وُلِد له مُضَرُ وربيعة وإياد وأنمـار، وولد لأنمـار بجيلة وخَثْعم فصاروا إلىٰ اليمن، وإلىٰ بجيـلة هؤلاء ينسب جَرِير بن عبـد الله البجلىّ، صاحب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، وكان جميلا فائق الجمـال، حتّى إنه كان يقال له يُوسُف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه :

لَوْلَا جَرِيرٌ هلكَتْ بَجِيـله * نِعْمَ الفتىٰ وبِئْستِ القَبِيله

الثانيـة — خَثْعَم (بفتح الخاء المعجمة وسكون الثاء المثلثة وفتح العـين المهملة وميم فى الآخر)، وهم بنو خَثْعم بن أنمـار بن أراش المقدّم ذكره ٱبن هِنْد بنت مالك

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك فى سبائك الذهب .

ٱبن الغافِق بن الشاهد بن عد ، وفيهم مثـل ماتقدّم من كلام الجوهرى فى الكلام علىٰ بَجِيـلةَ أنهم من العدنانية : لأن خَثْعَمَ وبجيـلةَ يرجعون إلىٰ أنمـار . وكانت مساكنهم مع إخْوتِهم بجيـلة بسَرَوات اليمن فافترقوا فى الفتوحات الإسـلامية ، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليلُ . ومن خَثْعم هؤلاء أَكْلُب (بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم اللام وباء موحدة فى الآخر)، وهم بنو أَكْلُب ، بن عُفَير ، بن خَلَف(١) ، بن خَثْعم . قال أبو عبيد : ويقال إن أكلب من رَبِيعة بنِ نَزَار . قال الحمدانىّ : وهم بطون كثيرة ، ومنازلهم بِبِيشةُ ، شرقىَّ مكة المشرفة . ومن خثعم أيضا بنومُنَبِّه والفرْع ، وبنو نَضْـلة ومعاوية ، وآل مهـدىّ ، وبنو نصر ، وبنو حام ، والورد ، ونادر ، وآل الصعافير ، والشماء ، وبلوس ، قال الحمدانىّ : ومنازلهم علىٰ القرب من بِيشـةَ شرقىّ مكة أيضا .

الحىّ الثـامن — من بنى كهلان جُذَام (بضم الجيم وفتح الذال المعجمة وألف ثم ميم) ، وهم بنو جُذَام ، بن عَدِىّ ، بن الحـارث ، بن مُرَّة ، بن أُدَد ، بن زيد ، ٱبن يشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان ، هذا ماذكره أبو عبيد : وجعلهم صاحب حمـاه فى تاريخه من ولد عمرو بن سبإ . قال الجوهرى ، وتزعم نسابة مُضَر أنهم من مُضَر يعنى من العدنانية ، وأنهم ٱنتقلوا إلىٰ اليَمَن فنزلوها ، فحُسِبوا من اليمن ، وٱستشهد له بقول الكُمَيت يذكر ٱنتقالهم إلىٰ اليمن بانتسابهم فيهم :

نَعَاءِ جُذَامًا غيْرَ مَوتٍ ولا قَتْلِ * ولكِنْ فِرَاقًا للدَّعائم والأَصْلِ !

وٱستشهد له الحمدانى أيضا بقول جُنادة بن خَشْرم الجُذامىّ :

وَمَا قَحْطَــانُ لِى بأبٍ وأمٍّ * ولا تَصْطادُنِى شُبَه الضَّلال
ولَيْسَ إليهِـمُ نَسَبِى ولكِنْ * مَعَـدِّيًّا وجَدْتُ أبِى وخَالى

(١) أعجمه فى الأصل . وقال فى سبائك الذهب « حلف بفتح الحاء المهملة بنوه بطن من خثعم » .

قال الحمدانى : ويقال إنهم من ولد أعْصُر(١) بن مَدْين بنِ إبراهيم عليه السلام، وآستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد جُذَام ، فقال "مَرْحَبًا بقَوْمِ شُعَيْبٍ وأصهارِ مُوسى" . قال صاحب حماة : وكان فيهم العَدَدُ والشَّرَف . قال الحمدانى : وهو أوّل من سكن مصر من العرب حين جاءُوا فى الفتح مع عَمْرو بن العاص رضى الله عنه ، وأُقْطِعوا فيها بلادا بعضها بأيدى بنيهم إلى الآن . وكان لجُذام ولدان : هما حِشْم (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وميم فى الآخر) ، وحَرَام (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم) ؛ ومن ولد حِشْم عَتِيت (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وتاء مثناة فوق فى الآخر) (٢) وهم بنو عَتِيت (٢) بن أسلم ، بن مالك ، بن شَنُوءة ، بن تديل ، ابن حِشْم بن جُذام . قال أبو عبيد : وهم اليوم ينتسبون فى بنى شَيْبان ، ويقولون عَتِيت (٢) بن عوف بن شيبان . قال وإليهم تنسب حُفْرة عَتِيت (٢) بالبصرة ، قال الجوهرى : أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال ، فكانوا يقولون إذا كَبِر صبيانُنا لم يتركونا ، حتّى يفتكُّونا ، فلم يزالوا عنده حتّى هلكُوا فضَرَب لهم العرب مثلا فقالوا : أودى عَتِيت (٢) ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ترَجّيها وقد وقَعَتْ بقُرٍّ * كما تَرْجُو أصاغِرَها عَتِيت (٢)

ثم لجذام الآن بطون كثيرة متفرقة فى الأقطار، منهم بالشرقية من الديار المصرية من بنى زيد بن حَرَام بن جُذَام ، وبنى مَخْرمة بن زيد بن حَرَام بن جُذَام ؛ فأما بنو زيد فمنهم بنو سُوَيْد ، وبعجةُ ، وبَرْدعة ، ورِفَاعة ونائل ، من بنى زيد بن حَرَام بن جُذَام ، فمن ولد سُوَيد هَلْبا سويد ، وهم بنو هَلْبا بن سُوَيد بن زيد بن حَرَام

(١) فى سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم فى السبائك أيضا وهو بالباء الموحدة فى الصحاح والقاموس وأنشد الأول البيت بالباء الموحدة ومثله فى ياقوت فتنبه .

ٱبن جُذَام . قال الحمدانى . ومنهم العَطويون، والجابريُّون، والغَنَاورة، وحَمْدان، ورُومان، وصمران، وأسود. والحميديون، ومن الحميديين، أولاد راشد؛ ومنهم البراجسة، وأولاد يبرين والجَراشنة، والكعوك، وأولاد غانم، وآل حمود، والأخيوه، والزرقان، والأساورَة، والحماريون. ومن بنى راشد أيضا الحَراقيص، والخَنافيس، وأولاد غالى، وأولاد جَوَّال، وآل زيد؛ ومن النجابية أولاد نجيب وبنو فضيل .

ومن هَلْبا سُوَيد أيضا بنو الوليد، وهم بنو الوَلِيد بن سُوَيد المقدّم ذكره . ومنهم الحَيادرة، وهم بنو حَيْدَرَة، بن يعرب، بن حبيب، بن الوليد، بن سُويد . قال الحمدانى : وهم طائفة كبيرة، ومنهم بنو عمارة، وهو عمارة بن الوليد . ومنهم عدد، والحَبّيون : وهم بنو حبة بن راشد بن الوليد . ومن ولد الوليد بن سُوَيد المذكور طريفٌ بن بكتوت الملقب زين الدولة، كان من أكرم العرب، وكان فى مضيفته أيامَ الغلاء ٱثنا عشر ألفا تأكل عنده كل يوم؛ وكان يَهْشِم الثريد فى المراكب؛ ومن أولاده من أُمِّر بالبوق والعَلَم؛ وعدّ من أحلافهم أولاد الهوبرية، والرداليين، والحليفيين، والحضينيين، والربيعيين، وهم أولاد شريف النجابين، وذكر الحمدانى أن لهم نسبا فى قريش إلىٰ عبد مناف، بن قُصَىّ . ومن هلبا سويد هؤلاء هلبا مالك، وهم بنو مالك بن سويد؛ ومن هلبا مالك بنو عبيد وهم بنو عبيد بن مالك؛ ومن بنى عُبَيد المذكور الحَسَنِيُّون، وهم بنو الحسن بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عبيد؛ والغَوارنة، وهم بَنُو الغَوْر بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عُبَيد؛ وبنو أسير، وهم بنو أسير بن عبيد؛ ومن هلبا مالك أيضا اللَّبيديون، والبَكْريون، والعقيليون، وهم بنو عُقَيل بن قُرّة بن موهوب بن عُبَيد . ومنهم بنو رديني، وهم بنو رُدَيْنِيّ بن زياد، بن حُسَين، بن مسعود، بن مالك، بن سُوَيد . ومن ولد بَعْجَةَ هَلْبا بعجة، وهم بَنُو هَلْبا، ومنظور، وردا، ونائل بنى بعجةَ بن زيد بن سُوَيد بن بَعْجة؛ فمن ولد

هلبا بعجة مُفَرِّج بن سالم ، أمَّره المعز أيبك بالبوق والعلم ، ثم خلفه علىٰ إمرته ولده حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عِصْمة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة .

ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعْجة ، وهو صاحب السَّرَاة المضروب به المثل فى الكرم والشجاعة .

ومن ولد ناثل مُهَنَّا بن عُلْوان بن علىٰ بن زبير بن حبيب بن ناثل ، كان جَوادا كريما طرقته ضُيُوف فى شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال بَزٍّ كانت عنده . ومن بنى حَرَام بن جُذَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمدانى : وفى جُذَام خمس سعود آختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُذَام . وسَعْد آبن مالك بن أفصىٰ بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُذام ، وإليه ينسب أكثر السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُذَام(١) ، وسعد بن سامة بن عَنْبس بن غَطَفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ، والسَّلاحمة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وعَذْلان ، وفَزَارة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد وخفراء ، ولهم مزارع ومآكل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنْية غمر إلىٰ ريفها . ومنهم شاوَر وزير العاضد الفاطمى ، وإليه تنسب أولاد شاور كبار منية غمر وخفراؤها ، علىٰ أن آبن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أُرْضِع فيهم النبى صلى الله عليه وسلم . وأما بنو محرمة فنهم الشَّوَاكر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد العجار أدِلاء الحاجّ من زمن السلطان صلاح الدين وهلمّ جَرًّا .

ومن جذام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جذام عليهم دَرَك الحاج إلىٰ العَقَبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمدانى : وقلَّ فى عرب مصر مَنْ يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزُهَير ، عدّ منهم الحمدانى الحضينيين ، وردالة ،

---

(١) فى الأصل الخط تكرار فى الأسماء ، ونقص من العدد و يؤخذ من السبائك أن الساقط هو سعد آبن ربيل بن إياس بن حرام بن جذام فتنبه .

والأحامدة ، والحَمَـارنة ، وهم بنو حُمْران . قال الحمـدانى : وفى زُهَير هؤلاء من بنى عَمِرين ، وبنى شَبِيب ، وبنى عبـد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عُبَيـد ، وبنى عبد القوىّ ، وبنى شاكر ، وبنى حَسَن ، وبنى سمان . وهم يتواردون فى أسماء بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صَخْر بالكَرَك ، وبنو مَهْدىٍّ بالبلقاء ، وبنو عُقْبة ، وبنو زُهَير بالشّوبك . ومنهم بنو سـعيد بصَرْخَد ، وحَوْران ؛ ومنهـم جماعة ببلاد الغَوْر ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السُّودان .

الحى التاسع — من بنى كهـلان لَخْم (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر) ، وهم بنو لَخْم بن عدِىّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيد بن يَشْجُب بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلان ؛ ولخم أخو جُذَام المقدّم ذكره ، وكل منهما عمٌّ لِكِنْدة المقدّمِ ذكره أيضا . وعدّ صاحب حماة لَخْمًا من بنى عمرو بن سبإٍ كما عدّ جُذَاما إذ كانا أخوين كما تقدّم . وقد كان للفاوزة من اللخميين مُلْك بالحِيرَة من بلاد العِراق ، ثم كان لبنى عَبَّاد من بقاياهم بالأندلس مُلْك بإشبيلِيَة . وذكر القضاعى أنهم حضروا فتح مصر ، وآختلطوا بها ، هم ومَنْ خالطهم من جُذام . قال الحمدانى : وبصعيد الديار المصرية منهـم قوم يسكنون بالبر الشرقى ، ذكر منهم الحمدانى سبع أبطن . الأولى سِمَاك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مُرّ ، وبنو مليح ، وبنو نَبْهان ، وبنو عَبْس ، وبنو كريم ، وبنو بُكَير ، وديارهم من طارف ببا بالبهنسا إلى مُنْحَدر دير الجمـيزه فى البر الشرقى . الثانيـة بنو حدّان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو مُدْلج ، وبنو رعيش ؛ وديارهم من دير الجميزة ، الى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ، وهم بنو معمر ، وبنو واصل ، وبنو مِرا ، وبنو حِبَّان ، وبنو معَاد ، وبنو البِيض ، وبنو حُجْرة ، وبنو شَـنُوءة . وديارهم من مسـجد موسى الى أسكر ، ونصف بلاد

إطْفيح . ولبنى البيض الحىُّ الصغير ، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى مَعْصَرة بوش . الرابعة بنو جَعْد ، وهم بنو مسعود ، وبنو حُدَير ، وهم المعروفون بالحُدَيْريين ، وبنو زُبَير ، وبنو ثمال ، وبنو نَصَّار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو عدىّ ، وهم بنو موسى ، وبنو محرب ، ومساكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو بحر ، وهم بنو سهل ، وبنو مِعْطار ، وبنو فَهْم ، وهم المعروفون بالفَهْميين ، وبنو عَسِير ، وبنو مسند ، وبنو سِبَاع ، ومسكنهم الحىّ الكبير . السابعة قيس ، وهم بنو غُنَيم ، وبنو عمرو ، وبنو حجرة ، ولبنى غنيم منهم العَدَوية ، ودَيْر الطِّين إلى جَسْر مصر ؛ ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حُلْوان ، ولبنى حجرة النصف الثانى ، ونصف طُرا .

ومن بطون لخم بنو الدار رَهْطُ تميم الدارىّ صاحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم بنو الدار بن هانئ ، بن حبيب ، بن نمارة ، بن لخم . قال الحمدانى وبلد الخليل عليه السلام معمور من بنى تميم الدارىّ رضى الله عنه ، وبيد بنى تميم هؤلاء الرُّقعةُ التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم لتميم وإخوته بإقطاعهم بيت حَبْرُون التى هى بلد الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة فى قطعة من أدم من خُفِّ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وبخطه .

الحى العاشر — من بنى كهلان الأشعريُّون . وهم بنو الأشعر بن أُدَد ، بن زيد ، بن يَشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان . قال وسُمِّى الأشعرَ لأن أمه ولدتْه وهو أشعرُ . وجعله صاحب حماة من بنى أشعر بن سبإ ، وهم رهط أبى موسى الأشعرىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحى الحادى عشر — من بنى كهلان عاملةُ . وهم بنو عاملة ، واسمه الحارث ، بن عُفَير ، بن عدِىّ ، بن الحارث ، بن وَبَرة ، بن أُدَد ، بن زيد ، بن يشجُب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان؛ وذكر أبو عبيد أن بنى عاملةَ هم بنو الحارث بن مالك؛ يعنى آبن الحارث بن مُرّة بن أدد، وأنه كان تحته عاملةُ بنتُ مالك بن وَدِيعة بن عُفَير، آبن عدىّ، بن الحارث، بن مُرة بن أدد فعُرِفوا بها . وذكر صاحب حماة أنهم من ولد عاملةَ بن سبإ . وقد ذكر الحمدانى أن بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجَمَّ الغفير.

الضـــــرب الثـــانى

(من العرب الباقين علىٰ ممرّ الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهرىّ : ويقال لهم المتعرّبة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، سُمُّوا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العِبرانيَّة أو السُّريانية، فلما نزل جُرْهُم من القحطانِيَّة عليه وعلىٰ أمه بمكة المشرّفة، تزوّج منهم، وتعلم هو وبنوه العربيـةَ من جُرهُم المذكورين فسُمُّوا لذلك المستعربةَ . وآعلم أن الموجودين من العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عَدْنان بن أُدَدَ المقدّم ذكره فى عمود النّسب علىٰ خلاف فى نسبه إلىٰ إسماعيل يطول ذكره . قال فى العبر: ومَنْ عدا عدنانَ من ولد إسماعيل قد آنقرضوا، ولم يبق لهم عَقِب؛ ولذلك عُرِفت هذه العرب بالعَدْنانيَّة .

ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأول [illegible] قبائلهم المتفرّعة من عمود النسب ستة أصول :

الأصل الأوّل — [illegible] معدّ بن عدنـــان ؛ والمتفرّع منـه علىٰ حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — إيَاد (بكسر الهمزة ودال مهملة فى الآخر) وهم بنو إياد بن نِزَار المقدّم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إيادٌ الحجاز وسار بأهله إلىٰ أطراف العراق فأقام به .

ومن إياد قُسّ بن ساعدة الإيادىّ، وكعبُ بن مَامَة الذى يضرب به المثل فى الكَرَم؛ يقال إنه كان معه ماء لايفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقَه ومات عطشا.

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة فى الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدّم ذكره؛ وقد آختلف فى تَعْقيبه، فذهب ذاهبون إلىٰ أنه ذهب إلىٰ اليمن ونزل بالسَّرَوَات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعُدُّوا فى اليمانِيَة؛ وذهبَ آخرون إلىٰ أنه لا عقب له إلا من بنتٍ له زوّجها لأراش من اليمانيَة، فولدت له أنمارَ بنَ أراش المقدّم ذكره فى اليمانية؛ فَبنو أنمار المعدودون فى اليمانيَة هم بنو أنمار بن أراش المقدّم ذكره فى اليمانية من بنت أنمـار بن نِزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلىّ.

القبيلة الثالثة — رَبيعةُ، وهم بنو ربيعة بن نِزَار ويعرف بربيعة الفَرَس: لأن أباه نزارًا أوصىٰ له من ماله بالخيل. قال فى "مسالك الأبصار" وبالرَّحبة قوم منهم.

ولربيعة بطنان. وهما أسد، وضُبَيْعة آبنا ربيعة، ولكل منهما عِدّة أفخاذ، وديارهم إلىٰ الآنَ بالجزيرة الفُراتية تُعرَف بديار ربيعة. أما أسَدٌ فأكثرهما أفخاذا.

فمن أسد بنو عَنزَة (بفتح العين المهملة والنون والزاى وهاء فى الآخر) وهم بنو عَنَزة آبن أسد المقدّم ذكره؛ وكانت منازلهم خَيْبَر من ضواحى المدينـة. وجَدِيلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهـملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم بنو جَديلة بن أسد المقدّم ذكره، والنسبة إليهم جَدَلىّ بحذف الياء بعد الدال.

ومن جديلة عَبْدُ القيس؛ وهم بنو عبدِ القيس، بن أفْصَى، بن دُعْمىّ، بن جَديلة. قال فى العبر: وكانت ديارُهم بِتهامةَ حتّى خرجوا إلىٰ البحرَيْن وزاحَموا مَنْ بهـا من بكر بن وائل وتميم، وقاسموهم المواطنَ، والنسبة إليهم عَبْـدِىٌّ، ومنهم من يَنْسُب إليهم عبدىّ قيسىّ، وبعضهم يقول عَبْقَسىّ.

ومن عبد القيس هؤلاء الأشجّ الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّ فيك لخَصْلتيْنِ يُحِبُّهما اللهُ : الحِلْمُ والأَنَاةُ" .

ومن جديلة أيضا بنو النَّمِر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسِط بن هِنْب ٱبن دُعْمِىّ بن جَدِيلة . قال فى العبر ودِيارُهم رأسُ العين من أعمال الجزيرة الفُراتيَّة .

ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحتُ) وهم بنو وائل بن قاسِط بن هِنْب ابن أفصىٰ ، بن دُعْمِىّ ، بن جديلة المقدّم ذكره .

ومن وائل بَكْر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتَغْلِب (بالتاء المثناة فى أوّله والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب ٱبنى وائل المقدّم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملِك بنى وائل الذى قتله جَسَّاس ، وهاجتْ بسببه الحرب المعروفة بالبَسُوس أربعين سنةً .

ومن تغلبَ أقوام بزُرَع ، وبُصْرىٰ ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بجِينِينَ وبلادها ، وبالرَّحبَة قوم منهم .

ومن بنى تغلبَ كانت بنو حَمْدان ملوكُ حلَبَ قديما .

ومن بكر بن وائل شَيْبانُ ، وهم بنو شَيبانَ بن ثعلبة ، بن عُكَابة ، بنُ صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر .

ومن بنى شَيْبانَ هؤلاء مُرَّة وٱبنُه جَسَّاس قاتل كُلَيب المذكور . ومنهم طَرَفة ابن العبد الشاعر .

ومن بنى شيبان أيضا سَدُوس (بفتح السين المهملة فى أوّله وسين ثانية فى آخره) وهم بنو سَدُوس بن ذُهْل بن شيبان .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حَنِيفة رَهْطُ مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقُتِل فى خلافة الصدّيق رضى الله عنه، وهم بنو حنيفة بن لحيم، بن صَعْب، بن علىّ، بن بكر، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عِجْل، بن لحيم، بن صَعْب، بن علىّ، بن بكر، بن وائل . قال فى العبر : وكانت منازلهم من اليمامة إلىٰ البصرة ؛ قال ثم خَلَفهم الآن فى تلك البلاد بنو عامر المُنْتَفِق ، بن عَقِيل، بن عامر ، بن صَعْصعةَ . وذكر الحمدانىّ أن بلادهم فى زمانه الجزيرةُ من بلاد حَلَب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضُبَيْعة بن ربيعة (فبضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضَبعة) وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الباهلىّ المشهور .

الأصل الثانى — مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مُضَر بن نِزار المقدّم ذكره، ويُعْرف بمُضَر الحمراءِ : لأن أباه أوصىٰ له من ماله بالذَّهَب وما فى معناه؛ وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها اندرج فيما بعدها لكونها علىٰ عمود النسب، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابُلُس من بلاد الشام بقيةً من مُضَر، وبالرَّحبة رجال منهم، وله علىٰ حاشية عمود النسب فَرْع واحد قد جمع عدّة قبائل، وهو قيس وقد اختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) واسمه الناس (بالنون) ابن مضر؛ وقيل هو قيس بن مضر لصلبه، وعَيْلانُ المضافُ إليه قيل فرسه وقيل كَلْبه .
قال صاحب حماة : وجعل الله تعالىٰ لقيس من الكثرة أمرًا عظيما ، ولكثرة بطونه غلَب علىٰ سائر العَدْنانية حتّى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبةً فيقال قيس ويمن .

فمن قبائل قيس هَوَازِنُ ، وهم بنو هَوَازِنَ بن منصور بن عِكْرِمة بن خَصَــفة بن قيسِ عَيْلانَ، وهم الذين أغار عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسباهُمْ .

ومن هوازن بنو سَعْد الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضيعًا فيهم،وهم بنو سَعْد بن بكرِ بن هوازنَ . قال فى العبر : وقد ٱفترق بنو سَــعْد هؤلاء فى الإسلام ولم يبق لهم حىّ فيُطرَق إلا أن منهــم فِرقةٌ بإفريقيَة من بلاد المغرب بنواحى باجةَ يعسكِرونَ مع جُنْد السلطان .

وقد ذكر ٱبن خلّكان أن شاوَر السعدىّ وزير العاضد الفاطمىّ خليفةِ مصر منهم وإن كان الحمدانىّ قد ذكر أنه من سَعْد جُذَام من القَحْطانية بالشرقية من الديار المصرية علىٰ ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعْصَعةَ . وهم بنو عامر بن صَعْصعةَ بن مُعاوية ٱبن بَكْرِ بنِ هوازن؛ وإليهم يُنْسَب مجنون بنى عامرٍ الشاعرُ الذى كان يُشَبِّب بليلىٰ . ومن بنى عامر بن صعصعة بنُو كِلاب، وهم بنو كِلاب بن ربيعةَ بن عامر بن صعصعةَ . قال فى العبر : وكان لهم فى الإسلام دولة باليمــامة، وكانت ديارهم حِمىٰ ضَرِيَّةَ وهو حِمىٰ كُلَيب، وحِمىٰ الربَذَة فى جهات المدينة النبوية ، وفَدَكُ والعوالى ؛ ثم ٱنتقلوا بعــد ذلك إلىٰ الشأم فكان لهم فى الجزيرة الفراتيــة صِيتٌ وملكوا حَلَبَ ونواحِيَها، وكثيرا من مدن الشام، ثم ضَعُفوا . قال، وهم الآن تحت خِفَارة الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أنهم يُنْســبون إلىٰ عبد الوهاب المذكور فى سيرة البَطَّال وذكر أن ٱسمه عبد الوهاب بن نُوبَخْت .

ثم قال، وهم بأطراف حلب، وهم عرب غُزّ يتكلمون بالتركية، ويركبون الأكاديش، ولهم غارات عظيمة، وأبناءُ الروم وبناتُهم لايزالون يباعُون من سباياهم.
وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفةً من بنى كلاب.

ومن بنى عامر بن صعصعة أيضا بنو هِلال، وهم بنو هِلَال بن عامر بن صعصعةَ. قال الحمدانى: وكان لهم بلادُ صعيدِ مصر كلُّها، وذكرهم آبن سعيد فى عرب بَرقَة، وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقيَة. قال فى العبر: وكانت رياستهم أيام الحاكم العُبيدى لماضى بن مقرب، ولما بايعوا لأبى رَكْوَة بالمغرب وقتله الحاكم، سلَّط عليهم الحُبوشَ والعرب فأفناهم، وآنتقل مَنْ بقى منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بنى جُشَم هناك. وذكر الحمدانى أن بحلب طائفةً منهم، ثم صار لهم بلاد أسوانَ وماتحتها. ثم قال: وبإخْمِيمَ منهم بنو قُرَّة، إلى عيذابَ، وبساقية قُلْتَةَ منهم بنو عمرو وبطونُهم، وهم بنو رفاعةَ، وبنو حُجَير، وبنو عزيز. وبأَصْفُون وإسْنا منهم بنو عُقْبة، وبنو جَميلة.

ومن بنى هلال حرب فيما ذكره آبن سعيد. قال الحمدانى، وهم ثلاث بطون بنو مسروح، وبَنُو سالم، وبنوعُبَيدالله. قال: ومساكنهم الحجاز ومن حَرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمدانى، وذكر أن منهم بنى عمرو. ثم قال: ومن بنى عامر نُمَير بن عامر آبن صعصعة. قال فى العبر: وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعُدْوتَىِ الفُرات. قال وهم إحدى جَمَرات العرب، وكان لهم كثرة وعِدّة فى الجاهلية والإسلام، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حَرَّان وغيرها، ثم غلبهم عليها خلفاء بنى العباس أيامَ المعتز بالله فهلكوا بعد ذلك وبادُوا.

ومن بنى عامر بن صعصعةَ أيضا بَنُو عُقَيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عُقَيل بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. قال فى العبر: وكانت

مساكنهم بالبحرين فى كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بَنُو عُقَيل هؤلاء ، وبنو تغلِبَ وبنو سُلَيم ، وكان أظهَرَهم فى الكثرة والغَلَب بنو تغلِبَ؛ ثم آجتمع بنو عُقَيل وبنو تغلِب علىٰ بنى سُلَيم فأخرجوهم من البحرين؛ ثم آختَلَف بنو عُقَيل وبنو تغْلِبَ بعد مدّة فغلب بنو تغلب علىٰ بنى عُقَيل فطردوهم عن البحرين،فساروا إلىٰ العراق ، وملكوا الكُوفةَ والبلادَ الفُراتيَّـةَ وتغلبوا علىٰ الجزيرة والمَوْصل، وملكوا تلك البلاد؛ وكان منهم المقلد وقِرْواش وقُرَيش وآبنه مسلم ملوك الموصل ، وبقيت بأيديهم حتّى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق، فتحوّلوا عنها إلىٰ البحرين حيث كانوا أوّلا فوجدوا بنى تغلبَ قدضَعُف أمرهم فغلبوهم علىٰالبحرين، وصار الأمر بالبحرين لبنى عُقَيل .

ومن بنى عقيل هؤلاء آل عامر ، وهم بنو عامر بن عُقَيل المذكور،وهم الذين بيدهم بلاد البحرين . قال آبن سعيد : سألت أهل البحرين فى سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : المملكة بها لبنى عامر بن عُقَيل، وبنو تغلبَ من جملة رعاياهم؛ علىٰ أن الحمدانىّ قد وَهِم فقال : وهم غير عامر المُنْتَفِق، وعامر بن صعصعة ، وتبعه علىٰ ذلك فى "مسالك الأبصار" . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بنى عُقَيل

ومن بنى عُقَيل أيضا بنو عُبَادة(بضم العين المهملة و بالباء الموحدة والدال المهملة) وهم بنو عُبادة بن عُقَيل . قال آبن سعيد: ومنازلهم بالجزيرة الفراتيَّة مما يلى العراق لهم عَدَد وكثرة . قال : ومنهم الآن بقيةٌ بين الخازر والزَّاب، يقال لهم عرب شَرف الدولة فى تجمُّل وعُدَد، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المائة فارس .

ومن بنى عُقَيل أيضا خَفَاجةُ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجيم مفتوحة بعد الألف وهاء فى الآخر) وهم بنو خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَم (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم فى الآخر) وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوازنَ . قال فى العبر : وكانت مساكنهم بالسَّرَوات، وهى تلال تفصل بين تِهامةَ ونجد، متصلةٌ من البحرين إلى الشام كسَرَوات الجبل . قال : وسَرَوات جُشَم متصلة بسَرَاة هُذَيل . ثم قال : وقد آنتقل بعضهم إلى المَغْرب، وهم الآن به، ولم يبق بالسَّراة منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَم هؤلاء دُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح الثاء المثلثة وكسر القاف وسكون الياء وفاء فى الآخر) وهم رَهْط الحجاج بن يوسُف : وهم بنو ثقيف وآسمه قَسِىُّ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوازِنَ؛ ويقال إنهم من إياد بن نِزار المقدّم ذكره . وعن بعض النَّسابة أن ثقيفا من بقايا ثَمُودَ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا، قال الله تعالى : ﴿وثَمُودَ فما أَبقىٰ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال فى العبر : وثَقِيف بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهى مدينة من أرض نجْد على مرحلتين من مكة فى شرقيِّها وشماليِّها كانت فى القديم للعَمَالقة ، ثم نزلها ثمودُ قبل وادى القُرىٰ : ويقال إن الذى سكنها بعد العَمَالقة عَدْوانُ . ثم غلبهم عليها ثقيفٌ فهى الآن دارُهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهِلةُ، وهم بنو سَعدِ مَناة بن مالك بن أعْصُر، وآسمه مُنَبِّه ابن سعد بن قَيْس عيلان ؛ وجعلهم فى العبر بنى مالك بن أعْصُر . وباهلةُ أمّ سعدِ مناة عُرِفوا بها : وهى باهلةُ بنت صَعْب بن سعدِ العشيرة من مَذْحِج، منهم أبو أُمامة الباهلىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازِنٍ ، وهم بنو مازِنِ بن منصور بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلانَ . قال فى العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غَطَفانَ بن قَيْس عيلان . قال فى العبر : وهم بطن متسعٌ كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلى وادىَ القُرىٰ وجَبَلَىْ طيئٍ أجإ وسَلْمىٰ ، ثم تفرّقوا فى الفتوحات الإسلامية ، وآستولىٰ علىٰ مواطنهم هناك قبائل طيئٍ .

ومن بطون غَطَفان بنو عَبْس (بفتح العين وسكون البـاء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو عَبس بن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان . منهم زُهير بن قيس صاحب حرب داحسَ والغَبْراء . وهمـا فرسان كانت إحداهما وهى داحسُ[1] لَعَبْس والأخرىٰ وهى الغبراء لفزارةَ فأُجْرِيتا فوقع الحرب بسببهما .

ومن عبسٍ هؤلاء عنترة بن شدّاد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غَطَفان أشْجعُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة فى الآخر) وهم بنو أشْجَع بن رَيْث بن غَطَفان . قال فى العبر : وكانوا هم عربَ المدينة النبويّة ، وكان سيدُهم معقلَ بن سِنَان الصحابىّ . قال : ولم يبق أحد منهم بنجد إلا بَقايَا حولَ المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصىٰ منهم حىّ عظيم يظعَنُون مع عرب معْقِل بجهات سِجِلْماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غطفان أيضا ذِبْيانُ ، قال الجوهرىّ (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم بنو ذُبْيان بن رَيْث بن غَطفَان ومنهم النابغة الذبيانىّ الشاعر المشهور .

ومن ذبيان فَزَارة (بفتح الفاء والزاى والراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو فزارة آبن ذُبْيان . قال فى العبر : وكانت فزارةُ بنجد ووادى القُرىٰ ، فلم يبق منهم بنَجْد أحدٌ

(١) أنث الفرس المسمي بداحس ومقتضي القاموس تذكيره وقد صرفه فيه فليحرر .

ونزل جيرانهم من طيئ مكانهم . وذكر أن بأرض بَرْقة إلىٰ طَرَابُلُس الغرب منهم قبائل : رَوَاحة ، وهِيت ، وفَزان . قال : و بإفريقيَة والمغرِب منهم الآن أحياء كثيرة ٱختلطوا مع أهله ، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصىٰ إلىٰ الآستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرىٰ أحلاف لأولاد أبى الليل من شعوب بنى سُليم ، يستظهِرون بهم فى مواقف الحرب ، ويقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفى برقة ببلاد هِيت جماعةٌ منهم نازلُون بها ؛ ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمدانى : ومنهم بالديار المصرية جماعةٌ بالصعيد ، وجماعة بضواحى القاهرة فى قليوب وما حولها ، وبهم عُرِفت القرية المسماة بخَرَاب فَزَارة هناك . ومن فزارة بنو مازِن ، وبنو بدر ؛ فأمّا بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ؛ وأما بنو بدر فهم بَنُو بَدْر بن عَدِىّ بن فزارة : قال فى العبر ، وفيهم كانت رياسة بنى فَزَارة فى الجاهليّة ، يرأسون جميع غَطَفان وتدينُ لهم قيسٌ وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدىّ ؛ ومنهم كان حذيفةُ بن بدر صاحب الفَرَس المعروفة بالغَبْراء المقدّم ذكرها ؛ ومن بَنِى بدر هؤلاء وبنى عمهم بنِى مازنٍ جماعةٌ بالقليوبية من الديار المصرية .

قلت : وبَنُو بدر هم قبيلتنا التى إليها نعتزى ، وفيها ننتسب ؛ وأهل بلدتنا قَلْقَشَنْدة نصفهم من بنى بدر ونصفهم من بنى مازن .

ومن قبائل قيسٍ أيضا بنو سُلَيم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ٱبن عِكْرمة بن خَصَفةَ بن قَيْس عيلان . قال الحمدانى : وهم أكبر قبائل قيس . وكان لسُلَيم من الولد بُهْثَة (1) (بضم الباء الموحدة فى أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . قال فى العِبَر : وكانت منازلهم فى عالِيَة نَجْد بالقرب من خيبر .

(1) ذكره فى القاموس فى باب الثاء المثلثة فقال وبهثة رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حَرّة سُلَيم، وحرّة النار بين وادى القُرىٰ وتَيْما . قال : وليس لهم الآن بنجد عَدَد ولا بقيّة . ثم قال : وبإفريقِيَةَ منهم حىّ عظيم، وقد تقدّم أنه كان منهم جماعة بالبحرينِ فغلَبهم عليها بنو عُقَيل بن كَعْب وبنو تَغْلِب . وقال الحمدانى : ومساكنهم بَرْقَةُ مما يلى المغرب ومما يلى مصر . قال : وفيهـم الأبطال الأنجاد، والخيل الجِيَاد . قال فى العبر : وقد ٱسْتَوْلَوْا علىٰ بَرْقَة، وهى إقليم طويلٌ واسعُ الأطراف، وخربوا مدنه ولم يتركوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهم . قال فى "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهـم فى بنى عزاز، وهى الآن فى زماننا لبنى عريف .

ومن سُلَيم هؤلاء لَبيد ببرَقة، وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيسٍ عَدْوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون فى الآخر) وهـم بنو عَدْوانَ وٱسمُه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد : وسمى عَدْوان لأنه عدا علىٰ أخيه فَهْمٍ فقتله . قال فى العبر : وهم بطنٌ متسع، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إيادٍ والعمالقةِ، ثم غلبهم عليها ثقيفٌ، فخرجوا إلىٰ تِهامة . وبإفريقيَةَ الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمدانىّ عَدْوان من عرب برية الحجاز من أحلاف آل فَضْل من عرب الشام، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصـل الثالث — إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المثناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مُضَر المقدّم ذكره، وكانت تحته خِنْدِف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء فى الآخر) وهى خِنْدف بنت حُلْوان ابن عِمْران بن الحافى بن قُضاعة ، فعُرِف بنوه بها فقيـل لهم خِنْدِف : لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشى، فقال لها : مالك تُخَنْدِفين ؟ والخَنْدَفة أن يقلب ظهر قدمه إلىٰ الأرض عند مشيه . وله فرعان علىٰ حاشية عمود النسب .

الفرع الأوّل — طابخةُ (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء فى الآخر) وهم بنو طابخة، وٱسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر، وسمى طابخة لأنه كان هو وأخوه مدركةُ الآتى ذكره علىٰ عمود النسب، وكان ٱسمه عامرا، فى إبل لهما فصادا صيدا، وقعدَا يطبُخانه فعـدَتْ عادية علىٰ إبلهما فٱستاقتها، فقال عامر لعمرو أتُدْرِك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبُخ الصيد، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاءا أباهما أخبراه الخبر، فقال لعامر : أنت مُدْرِكةُ . وقال لعمر : أنت طابخةُ فسميا بذلك .

ويتفرّع عن طابخةَ قبائلُ كثيرة .

فمن قبائل طابخة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر) وهم بنو تَميم بن مُرّ بن مُرّاد بن طابخة . قال فى العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرةً من هنالك علىٰ البصرة واليمامة، وٱمتدّت إلىٰ العُذَيب من أرض الكوفة، ثم تفرّقوا بعد ذلك فى الحواضر، ولم يبق منهم باديةٌ، وورِث مساكنهم غَزِيّةُ من طيئ وخفاجَةُ من بنى عُقَيل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم؛ وإليهم يُنْسَب جَدِيلة ٱبن عبد الله العنبرىّ الصحابىّ .

ومن بطون تميم بنو حَنْظلة وضبطه معروف، وهم بنو حَنْظَلَة بن مالك ٱبن زيد مناة بن تميم؛ ويقال لهم حَنظلةُ الأكرمون . قال الجوهرى : وهم أكبر قبيلة فى تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تَحتُ وسكون الراء المهـملة وضم الباء الموحدة وسكون الواو وعين مهملة فى الآخر)؛ وهم بنو يَرْبُوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سَجَاحِ التى تنبأتْ فى زمن مسيلِمةَ الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدّم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضَبَّة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال فى العبر : وكانت ديارهم بالناحيـة الشمالية من نجد بجِوَار بنى تميم ثم ٱنتقلوا فى الإسـلام إلىٰ العراق، وهم الذين قتلوا المتنبى الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزَيْنة (بضم الميم وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون وهاء فى الآخر) وهم بنو عثمان وأوس، ٱبنى عمرو، بن أُدّ بن طابخة، ومُزَيْنة أمهما عُرِفوا بها ؛ وهى مزينة بنت كَلْب بنِ وَبَرَة . ومنهم كعبُ بن زهير ناظمُ القصـيدة المعروفة ببانَتْ سُعاد ، وإليهم يُنْسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزنىّ صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

الفرع الثانى — قَمَعة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو قَمَعة بن إلياس بن مضر . قال الجوهرىّ إن أباه سماه قَمَعة لمـا ٱنقمع فى بيته أى ٱنقهر وذل ولم يشتهر عقبه .

الأصـل الرابع — مُدْركة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة وفتح الكاف وهاء فى الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مُضَر ؛ وقد تقدّم سبب تسميته مدركة . وله فرع واحد علىٰ حاشية عمود النسب وهو هُذَيل (بضم الهـاء وفتح الذال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) وهم بنو هُـذَيل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لهـا بطون كثيرة والنسـبة إليها هُذَلىّ بحذف الياء بعد الذال، وإليهم يُنْسَب عبد الله بن مسعود الصحابىّ رضى الله عنه .

الأصل الخامس — خُزَيْمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو خُزَيمة بن مُدْرِكة . وله فرعان علىٰ حاشية عمود النسب، وهما الهُون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهُون بن خُزَيمة، وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهُون عَضَد[1] (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَضَد بن الهُون .

ومن بطون الهُون أيضـا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الدِّيش بن مُلَيح بن الهُون، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والدِّيش القارَة . قال أبو عبيد : وسُمُّوا بذلك لأن الشَّدّاخ الليثىّ أراد أن يفرّقهم فى بطون كنانةَ فقال بعضهم : دعُونا قارةً لا نتفرّق فسُمُّوا القارةَ .

وأما أَسَدٌ وضبطه معروف، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم ممـا يلى الكَرْخَ من أرض نَجْد فى مجاورة طيئ . قال : ويقال إن بلاد طيئ كانت لبنى أسد، فلما خرج بنو طيئ من اليمن تغلبوا علىٰ أجإ وسَلْمىٰ، وتفرّق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حىّ . قال آبن سعيد : وبلادهم الآن لطيئ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

---

(١) صوابه ولام فهو عضل لا عضد آنظر القاموس .

ومن بطون أســد الكاهليَّة ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دُودانُ بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كِنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كِنانةُ بن خزيمة، وهى قبيــلة عظيمة آشتهرت علىٰ عمود النسب . وقد ذكر الحمدانى أن منهــم جماعة بالإخميمية من صــعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة، وذكر فى "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِموا الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياطَ وما حولهـا . وله علىٰ حاشية عمود النسب خمسة فروع :

الفرع الأول — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون فى الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كنانة .

الفرع الثانى — عَبْد مناة بإضافة عبد إلىٰ مناة (بميم مفتوحة بعدها نون)، وهم بنو عبد مناة بن كنانة، ولهم عدّة بطون .

منهم غِفَار (بكسر الغــين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف)، وهو بنو غِفار آبن عبد مناة بن كنانة ، وهم رهط أبى ذرّ الغِفَارىّ صاحب رســول الله صــلى الله عليه وسلم، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غفَارُ غَفَر اللهُ لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومن بكر هؤلاء الدُّئل . وهم بنو الدُّئل بن بكر آبن عبد مناة، وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث، وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناة منهم الصعْب بن جَثَّامة الليثىّ الصحابىّ رضى الله عنه . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة بالإخميمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بَلْحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .

ومنهم بنو مُدْلج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجيم فى الآخر) ، وهم بنو مُدْلج بن مُرة بن عبد مناة . وفى بنى مُدْلج هؤلاء عِلْم القيافة، وهو إلحاق الابن بالأب ونحو ذلك بالشَّبَه . ومنهم طائفة الآن بصَرْخَد وحَوْران من بلاد الشام، وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو ضَمْرة (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو ضَمْرة، بن بكر، بن عبد مناة، وإليهم ينسب عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة وما يليها من بلاد إخْميمَ من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كِنَانة؛ وإليه ينسب العَمْريُّون من بنى كنانة .

الفرع الرابع — عامر بن كنانة؛ ومنه العامريُّون من كنانة .

الفرع الخامس — مالك بن كِنَانة . ومن عَقِبه بَنُو فِراس، بن غنم، بن ثعلبة، بن الحارث، بن مالك . وفى بنى فِرَاس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه لبعض من كان معه : "لَوَدِدتُ أن يَكُونَ لى بألف منكم سبعةٌ من بنى فَرَاس بن غنم". وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم جماعة بساقية قُلْتة وما يليها من الإخميمية بمصر . وذكر الحمدانى أيضا أن من كنانة بنُ خَزيمة طائفةً بصعيد مصر بالأُشْمونَيْن وما حولها تُعْرَف بكنانة طلحة .

الصنف الثانى من العرب العدنانية — قُرَيش (بضم القاف وفتح الراء المهملة)، وهم بنو النَّضْر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) ابن كنانة وقيل فى تسميته بذلك إنه كان فى سفينة ببحر فارِس إذ خرجتْ عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيش نخافها أهل

السفينة علىٰ أنفسهم فأخرج سهما من كنانته ورماها فأثبتها، ثم قُرِّبت السـفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلىٰ مكة فسُمِّي باسمها . وقيـل سمِّي بنوه بذلك لغلبتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدّم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دوابِّ البحر وقيـل أخذا من التقرُّش، وهو الاجتماع لأن قُصَيًّا جمعهم عليه عنـد ولايته أمر قُرَيش . وقيل لتجارتهم أخذا من التقرّش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول علىٰ عمود النسب :

الأصل الأوّل — فِهْر بن مالك، ويتفرّع عن فهر علىٰ حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولىٰ — بنو الحـارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بني الحـارث هؤلاء بنو الجَرّاح رهطُ أبي عُبَيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوعِ لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فهر، المقدّم ذكره . ومنهم الضَّحّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فهر . ويتفرّع عنه علىٰ حاشية عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤيّ[1] بن غالب؛ والأدْرم هو الناقص الذَّقَن .

الأصل الثـالث — لُؤَيّ بن غالب . ويتفرّع منه علىٰ حاشـية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — سـعد، وهم بنو سـعد بن لؤي بن غالب، كان له من الولد عمار، وعماري، ومخزوم، من امرأته بُنَانَةَ (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفونَ فيقال لهم بنو بُنَانة، ومنهم أبو الطُّفَيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم ابن غالب كما في القاموس في مادة ت ي م فلعـل لفظ ابن لؤي مما طغى به قلم النـاسخ .

القبيلة الثانية — خُزَيمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى) وهـم بنو خزيمة بن لؤىّ ؛ وكان تحته عائذة (بالعـين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الخمس بن قُحافة فعُرِف ولده بها فقيل لهم بنو عائذةَ .

القبيلة الثالثة — بنو عامر، وهم بنو عامر بن لُؤَىّ ، وكان له من الولد حِسْـل وبَغِيض . ومن ولد حِسْل سُهَيل بن عمرو الذى عقـد الصُّلْح مع النبىّ صـلى الله عليه وسـلم، يوم الحُدَيْبِيَة لقريش؛ ومنهم عمرو بن عبد وُدّ العامرىّ فارس العرب الذى قتله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لُؤَىّ بن غالب ، ويتفرّع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولىٰ — هُصَيْص (بضم الهـاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة فى الآخر). ومن هُصَيْص بنو سَهْم، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَّة بنى سَهْم بفُسْطاط مصر حولَ الجـامع العتيق . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى عمرو بن العاص أشـتاتاً بالصعيد، ولهم حصـة فى وقف عمرو علىٰ أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهـملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْص المقدّم ذكره؛ ومنهم أميَّة بن خَلَف عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عَدِىّ ، وهم بنو عدىّ بن كعب؛ ومنهم أمير المؤمنين عمرُ آبن الخطاب رضى الله عنه وسـعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة ؛ وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدىّ جماعة إلىٰ الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز الفاطمىّ .

ومنهم رجال من بنى عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ومقـدّمهُم خَلَف بن نصر العُمَرىّ وأنهم لَقُوا من الصالح طلائع بن رُزِّيك وافرَ الإكرام ، ونزلوا بالبَرَلّس[1] من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العُمَريين ببلاد الشام فرقةً بوادى بنى زيد وفرقةً بعجلون .

الأصـل الخامس — مُرَّة بن كعب ، ويتفرّع عنـه قبيلتان على حاشـية عمود النسب :

القبيلة الأولىٰ — تَيْم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصـدّيق رضى الله عنه ، وطلحةُ أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى الصـدّيق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبى بكر رضى الله عنه جماعةً بالأُشْمُونَيْن والبَهْنسائية من صعيد مصر . قال الحمدانىّ ، وهم ثلاث فرقهم وأقرباؤهم وأُطْلِق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولىٰ منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسُمُّوا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشتاتٌ كثيرة فى البلاد لاحدّ لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسَفْط سُكَّرة ، وطحا المدينة من بلاد الأُشْمونَيْن فيما ذكره الحمدانىّ ، وأكثرهم الآن بدَهْروط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبِي الإمامين : مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يقَظَة ، وهم بنو يقظة بن مُرَّة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاى وسكون الواو وميم فى الآخر) وهم بنو مخزوم بن

---

(١) قال ياقوت برلس بفتحتين وضم اللام وتشديدها وفى القاموس بُرُلُّس بالضمات وشدّ اللام .

يَقظة بن مُرَّة بن كعب ، وبه ٱشتهرت القبيلة دون أبيه يَقظةَ لكثرة عَقِبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو جَهْل ٱبن هشام عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخُوه العاص بنُ هشام ، قُتِلا يوم بدر كافرَيْن، وأخوهما سَلَمَةُ بن هشام، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سَعِيد بن المسيّب التابعىّ المشهور ، وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأُشْمُونَيْن وفيهم بأس وشدّة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يَدَّعِى بنوّة خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال: وقد أجمع أهل العلم بالنسب علىٰ ٱنقراض عقبه . قال ولعلهم مِنْ سواه من بنى مخزوم فهم أكثر قريش بقيةً وأشرفُهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب قبيلةٌ واحدة، وهى زُهْرة (بضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرة بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهرىّ أن زُهْرةَ ٱسم ٱمرأة كلاب نُسِب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وَقّاص، وعبدُ الرحمن بنُ عَوْف كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومنهم آمنةُ بنتُ وهبٍ أمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَىّ بن كلاب بن مرة، وكان قُصَىٌّ عظيما فى قريش، وهو الذى جَمَعهم بعد التفرّق، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُم قُصَىٌّ حِينَ يُدْعَى مُجمِّعا * بِهِ جَمَعَ اللهُ القبائِلَ مِنْ فِهْرِ

وآرتجع مفاتيح الكعبة من خُزَاعة بعـد أن كانوا آنتزعوها من بنى إسمـاعيل علىٰ ما تقدّم ذكره . ويتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولىٰ — بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بن قُصَىٍّ ، وبيـد بنيه كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَىّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبى غَبْشانَ الخُزَاعىّ ، أرسلها مع آبنه عبـد الدار هذا إلىٰ البيت وقال : يابنى إسمـاعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالىٰ إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بنُ طلحة الحَجَبىّ الذى آنتزع النبىُّ صـلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طلَبهـا منه لتدخُل عائشـةُ رضى الله عنها البيتَ ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفْتَح ليلا قط فأنزل الله تعالىٰ ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أَهْلِهَا﴾ فأعادها إليه وقال "هِىَ فيكم إلىٰ يومِ القيامة". وقد ذكر فى المسالك أن بحَمَاة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بَنُو شيبةَ بن عثمان المقدّم ذكره ، آبن طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزّى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبَة الكعبة ، ومفاتيحُها بيدهم إلىٰ الآن . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى شيبة هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفْط وما يليها من بلاد البهنسائية يعرفون بجماعة نَهَار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العُزّى ، وهو عبد العزى بن قُصَىّ ، منهم هَبَّار بن الأسْود كان يهجو النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فحَسُن إسلامه ومدحه .

ومن بنى عبد العزّى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدّم ذكره .

ومن بنى أسـد هؤلاء الزُّبَير بن العوّام ، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أمّ المؤمنين، زوجُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ووَرَقَةُ بن نَوْفل الذى أتته خديجةُ فى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فى ٱبتداء النبوّة حين جاءه المَلَك بحِرَاء . وقد ذكر الحمدانيّ أن من بنى الزبير طائفةً بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بَنُو بدر، وبنو مصلح، وبنو رمضان .

ومن بنى مُصْعَب بن الزبير جماعةٌ يعرفون بجماعة محمد بن ورّاق . ومن ولد عروة ٱبن الزبير بنو غَنِيّ .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصى، ولبنى عبد مناف فى قريش النسب الصَّميم، والحسب الكريم، وإلىٰ هذا أشار أبو طالب بقوله :

إذَا ٱفْتَخَرتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ بمَفْخَرٍ * فَعَبْدُ مَنَافٍ أصْلُهَا وصَمِيمُها

ويتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب ثلاثُ قبائل :

القبيلة الأولىٰ — بنو عبد شمس بن عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أُمَيَّة، وهم بنو أُمَيَّة الأكبر وأمية الأصغر ٱبنى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أُمَيَّةُ الأكبر، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمَّوْن الأعياص، وهم العاص، وأبو العاص، والعِيص، وأبو العِيص، وستة يسمَّوْن العَنَابِس، وهم حرب، وأبو حرب، وسُفْيان، وأبو سُفْيان، وعمرو، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمانُ بن عفَّان رضى الله عنه، ومعاويةُ بن أبى سفيانَ بنِ حرب، والحَكَمُ بن العاص . ومن ولده كانت المَرَاوِنةُ خلفاء بنى أُمَيَّة .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العَبَلات، ومن عقب أمية الأصغر الثُّرَيا بنتُ عبد الله بن الحارث بن أمية، التى كان يشَبِّب بها عُمرُ بن أبى ربيعة، وكان تزوّجها سُهَيْل بن عبد الرحمن بن عوف، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة :

أَيُّهَا المُنْكِحُ الثُّرَيّا سُهَيْلًا * عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شامِيَّة إذا ما ٱستقلّتْ * وسُهَيْلٌ إذا ٱستَقَلَّ يَمانِي

وقد ٱختلف فى النسبة إلىٰ أمية علىٰ مذهبين، أحدهما أنه أُمَوِىّ بضم الهمزة جريا علىٰ اللفظ فى أمية ، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبى حَيَّان فى شرح التسهيل ، الثانى أنه ينسب إليها أَمَوِىٌّ بفتحها لأن أُمَيَّة تصغير أَمَة فإذا نسبت رددته إلىٰ أصله وعليه ٱقتصر الجوهرىّ .

القبيلة الثانية — نَوْفل ، وهم بنو نَوْفل بن عبد مَناف، ومنهم نافع بن طريب(١) ٱبن عمرو بن نوفل الذى كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وكان نوفل وعبد شمس متآلفين فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك .

القبيلة الثالثة — بنو المُطَّلب ، وهم بنو المطلب بنِ عبد مناف ، وكان المُطَّلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدّم ذكره فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك ، حتّى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم "لم يَفْتَرِق هاشِمٌ والمُطَّلِبُ فى جاهِلِيَّةٍ ولا إسلام" . ومن بنى المطلب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه .

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وٱسمه عمرو ، وسمى هاشما لهَشْمه الثريد أيام المجاعة؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِه * ورِجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

وٱنتهت إليه سيادة قريش . وكان له علىٰ حاشية عمود النسب أربعة أولاد . وهم نَضْلة، وأسد، وصيفىّ، وأبو صيفىّ، ولم يشتهروا كل الآشتهار .

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم ، وكان له ٱثنا عشر ولدا : عبدُ الله أبو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب ، والزُّبَير، وعبد الكعبة ، والعباس ،

(١) كذا فى سبائك الذهب أيضا والذى فى العقد الفريد شافع بن ظرب .

وضِرار، وحَمْزة، وحَجل، وأبو لَهَب، وقُثَم، والغَيْداق الملقب بالمُقَوِّم، والحارث أعمام النبيّ صلى الله عليه وسلم علىٰ خلاف فى العدد فيهم . قال أبو عبيد : والعقب منهم لستة : حمزة والعباس رضى الله عنهما، وأبو لهب، وأبو طالب، والحارث، وعبد الله .

فأما عبد الله فمن ولده النبيّ صلى الله عليه وسلم، خلاصةُ الوجود، وزُبْدة العالَم . وأما العبـاس فمن ولده الخلفاء من زمن أبى العَبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفائهم وهلم جرا إلىٰ المستعين بن المتوكل خليفة العصر . وأما حمزة فقد ذكر آبن حزم وغيره أن عقبه آنقرض . وأما أبوطالب فله ثلاثة أولاد، وهم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وجَعْفر، وعَقِيل؛ فمن ولد أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه الحَسَنُ والحُسَيْن عليهما السـلام، من فاطمة بِنْت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعَقِبهما قد ملأ الشرق والغرب؛ وقد ذكر الحمدانىّ أن منهـم بصعيد مصرَ جماعةً من الجَعَافِرة بنِى جَعْفر الصادق من ولد الحُسَيْن بن علىّ وقال مسكنهم من بحرىّ مَنْفَلُوط إلىٰ سَمَلُّوط غربا وشرقا، وعدّ من بطونهـم الحَيادِرة، وهم أولاد حَيْدرة، والسلاطنة، وهم أولاد أبى جُحَيش، وذكر أنه كان منهم الشريف حِصْن الدِّين بن تَغلب صاحب دَرْوة سَرِبَام من الأُشْمونين، وبه عرفت بدَرْوة الشريف، وكان قد سَمَتْ نفسُه إلى المُلْك فى أواخر الدولة الأيوبية وبقى حتّى ملك الظاهر بيبرس، فأعمل له غوائل الغدر حتّى قبض عليـه وشنقه بالإسكندرية . قال ومن بنى الحُسَـيْن قوم بحَرَجة مَنْفلُوط، وبنى الحُسَـيْن هؤلاء تعرفُ القرية المسماة ببنى الحُسَين . وفى أسيوط جماعة من أولاد جَعْفر الصادق يُعرَفون بأولاد الشَّريف قاسم . وذكر فى "مسالك الأبصار" أنّ بسَلَمِيَّة وحَلَب وبلادهما جماعةً من بنى الحسين .

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام ببلاد الشام بوادى بنى زيد، وبصَرْخد وبلادها جماعةٌ من عامر بن هلال، يَدَّعون أنهم من بنى جعفر بن أبى طالب أيضا. وفى بعض قُرىٰ أَذْرِعات قوم يدّعون أنهم منهم. وأما الحارث وأبو لهب فقد ذكر فى العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمحله.

الضرب الثالث

(من العرب الموجودين المتردّد فى عروبتهم)

وهم البَرْبَرُ (بباءين موحدتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة فى الآخر). قال الجوهرىّ: ويقال فيهم البَرابِرة والهاء للعجمة والنسب ولا يمتنع حذفها. وقد ٱختُلف فى نسبهم ٱختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلىٰ أنهم من العرب. ثم ٱختلِف فى ذلك فقيل أوزاع من اليمن، وقيل من غَسَّانَ وغيرهم تفرّقوا عند سَيْل العَرِم قاله المسعودىّ؛ وقيل خَلَّفهم أبرهةُ ذو المَنَار أحدُ تَبَابِعة اليمن حين غزا المغربَ؛ وقيل من ولد لُقْمان بن حِمْير بن سَبَإ، بعث سرية من بنيه إلىٰ المغرب ليعْمُروه، فنزلوا وتناسلوا فيه؛ وقيل من لخم وجُذَام، كانوا نازلين بِفَلَسْطِينَ من الشام إلىٰ أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجئوا إلىٰ مصر فمنعهم ملوكها من نزولها فذهبوا إلى المغرب فنزلوه؛ وذهب قوم إلىٰ أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وذكر الحمدانىّ أنهم من ولد بَرْبَر بن قَيْدار بن إسماعيل عليه السلام، وأنه ٱرتكب ذَنْبا فقال له أبوه البَرَّ البَرَّ ٱذهب يابر فما أنت بِبَرّ، وقيل هم من ولد بَرْبَر بن ثميلا بن مازيع بن كَنْعان بنِ حام بن نُوح عليه السلام، وقيل من ولد بَرْبَر بن كسلاجيم بن حام بن نوح؛ وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو ٱبن عمْلاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح؛ وقيل من ولد قِبْط بن حام بن نوح؛

وقيل أخلاط من كَنْعانَ والعماليق ؛ وقيل من حِمْيَرَ ومصر والقِبْط ؛ وقيل من ولد جالُوتَ ملك بنى إسرائيل، وإنه لما قتله داود تفرّقوا فى البلاد فلما غزا إفريقش البلادَ نقلهم من سواحل الشام إلىٰ المغرب ، وهو الذى رجحه صاحب العبر .
وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلىٰ أنهم من العرب وإن لم نتحقق من أىّ عرب هم، وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة، قال فى العبر : وهى علىٰ كثرتها راجعة إلىٰ أصلين لا تخرُج عنهما : أحدهما البَرَانس، وهم بنو برنس بن بربر . والثانى البُتْر، وهم بنو مادغش الأبتر بن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلىٰ سبعة أصول ، وهى اردواجة ، ومصمودة، وأَوْرَبَّة، وعجية، وكُتَامة، وصنْهاجة، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة، وهسكورة، وكزولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجمَّ الغفيرَ؛ والذى تدعو الحاجة إلىٰ ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلىٰ ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبة إليهم، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — مَصْمُودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو مَصْمُودَةَ بن برنس بن بَرْبَرَ . قال فى العبر : وهم أكبر قبائل البربر، وأكثرهم عددا، وأوسعهم شعوبا، ومنهم الموحدون أصحاب المهدىّ بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلىٰ الآن .

ومن مَصْمُودة هَنتاتة (بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدىّ بن تُومرت المقدّم ذكره ، وهو الذى ينسب إليه الحَفْصِيُّون ملوكُ إفريقية القائمون بتونس إلىٰ الآن علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممالك .

القبيلة الثانية — زِنَاتة (بكسر الزاى وفتح النون وبعـد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهـاء فى الآخر) وهم بطن من البُتْر بن البربر . قال فى العبر : وآسم زِناتة جانا بالجيم ويقال شانا بالشين، آبن يحيي، بن صولات، بن ورساك، بن ضرى، بن رحيك، بن مادغش، بن بربر . ونقل آبن حزم عن بعضهم أن ضرى، بن شقعو، بن تبدواد، بن ثملا، بن مادغش، بن هوك، بن برسق، بن كداد، بن مازيع، بن هراك، آبن هريك، بن بدّا، بن بديان، بن كنعان، بن حام، بن نوح عليه السلام. وقيل : جانا آبن يحيي، بن ضريس، بن جالوت، بن هريك، بن جديلات، بن جالود، بن رديلات، آبن عصى، بن بادين، بن رحيك، بن مادغش الأبتر، بن قيس عيلان، وحينئذ تكون من العرب العدنانية . وقيل : جالوت، بن جالود، بن ديال، بن قحطان، بن فارس فتكون من الفرس . قال فى العبر : وتزعم نَسَّابة زِنَاتة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القَحْطانية، وبعضهم يقول إنهم من العمالقة . وقد تقدّم عددهم فى العرب .

ومن زِنَاتة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهـملة وسكون اليـاء المثناة تحت ونون فى الآخر) وهم بنو مَرِين، بن ورتاجن، بن ماخوخ، بن وجريج، بن فاتن، آبن بدر، بن يحفت، بن عبد الله، بن زرتبيص، بن المعز، بن إبراهيم، بن رحيك، بن واشين، بن نصبين، بن سراء، بن احيا، بن ورسيك، بن اديت، بن جانا، وهو زناتة .

ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلىٰ الآن علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك إن شاء الله .

ومن زناتة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القـائمون بها إلىٰ الآن .

القبيلة الثالثة — صَنْهاجة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهـاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء فى الآخر) وهم بنو صَنْهاجة، بن برنس، بن بربر .

وقيل صَنْهاج، بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن قاله ٱبن الكلْبي" والطبرى" والبيهقى" والمسعودى" وعبد العزيز الجرجانى" .

وحكى ٱبن حزم : أن صنهاج إنما هو ٱبن ٱمرأة ٱسمها بَصْلى وليس له أب معروف وأنها تزوّجت بأوريغ، وهو معها، فولدت له هوّارة(١)، فكان صنهاج أخا هوّارة لأمّه .

ومن صَنْهاجة لَمْتُونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون وهاء فى الآخر) ؛ ومن لمتونة ملوك المُرابِطين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف ٱبن تاشفين بانى مدينة مَرَّاكُش من الغرب الأقصى ، وهم الذين ٱنقرض مُلْكهم بدولة الموَحِّدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال فى العبر : وهم قبيلتان :

القبيلة الأولى — هَوَّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملة بعد الألف وهاء فى الآخر)، وهم بنو هَوَّارة بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. وذكر الحمدانى" أنهم من ولد بَرّ، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام . قال فى العبر : ونَسَّابتهم يقولون إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عامِلةَ إحدى بطون قُضَاعة، وتارة يقولون إنهم من ولد المِسْور، بن السَّكَاسِك، بن وائل، بن حمير، وتارة يقولون من ولد السَّكَاسك، بن أشرَس، بن كِنْدة، فيقولون هوّار، بن أوريغ، بن حيور، بن المثنّى، ٱبن المسور . وقد عدّ الحمدانى" من بطونهم بالديار المصرية بنى مجريش، وبنى اسرات، وبنى قطران، وبنى كُريب، ولكنهم الآن قد ٱتسعت بطونهم، وكَثُرت شعوبهم، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد، وأولاد مأمن، وبندار، والعرايا، والشللة، وأشحوم، وأولاد مؤمنين، والروابع، والروكة، والبروكية، والبهاليل، والأصابغة، والدناجلة، والمواسية

(١) فى العبر بدون هاء التأنيث وقد ٱختلف الأصل الذى بيدنا فتارة يثبتها وتارة يحذفها .

والبلازد ، والصوامع ، والسدادرة ، والزيانية ، والخيافشة ، والطردة ، والأهلة ، وازلتين، واسلين ، وبنو قمير، واتيه، والتبابعة ، والغنائم، وفزارة ، والعبابدة، وساورة، وغلبان، وحديد، والسبعة . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلىٰ العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر علىٰ ما ذكره إلىٰ آخر المائة الثامنة فى الدولة الظاهرية الشهيدية برقوق فغلبهم علىٰ البحيرة زنارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلىٰ صعيد مصر، ونزلوا به بالأعمال الإخميمية فى جرجا وما حولها . ثم قوِىَ أمرهم، وٱشتدّ بأسهم ، وكثر جمعهم ،حتّى ٱنتشروا فى معظم الوجه القبلىّ فيما بين أعمال قوص ،وإلىٰ غربىّ الأعمال البهنسائية ، وأُقْطِعوا بها الإقطاعات، وصارت الإمرة فى بلاد إخميم لأولاد عمر ، وفى أعمال البهنسا وما حولها لأولاد غريب، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القبيـلة الثـانية — لَوَاثة (بفتح اللام والواو والثاء المثلثـة وهاء فى الآخر)[1] قال الحمدانىّ : ويقال لَوَاثا بالألف، وهم بنو لَوَاثا الأصغر، بن لَوَاثا الأكبر، بن رحيك، ٱبن مادغش الأبتر، بن بربر. قال الحمدانىّ : وهم يقولون إنهم من قيس من غطفان، بن سعد، بن قيس عيلان . وذُكِر عن بعض النسابين أنهم من ولد بَرّ، بن قَيْذار، بن إسمـاعيل عليه السلام، وأنه تزوّج ٱمرأة من العماليق فولدت له أولادا منهم لَوَاثة .

وحكى ٱبن حزم عن بعض النسابة : أن لَوَاثة من القِبْط . ثم قال: وليس بصحيح . قال الحمدانىّ : ولهم بمصر بطون كثيرة، منهم بنو بلار، وجد وخاص، وبنو مجدول وبنو جديدى، وقطوفة، و بركين، ومالو، ومزورة . قال: وبنو جديدى تجمع أولاد

---

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط فى باب التاء المثناة من فوق فليتنبه .

قريش، وأولاد زَعَازِع، وهم أشهر مَنْ فى الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاغة وواهلة .
وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن .
ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسائية، وهم بنو محمد، وبنو علىّ، وبنو نِزار،
ونصفُ بنى شهلان .

وأما الفرقة التى بالجيزية ، فبنو مَجْدول ، وسَقَّارة، وبنو أبى كَثير، وبنو
الحلالس[1] . قال : ويقال لهذه الفرقة جد وخاص، ويقال للأولىٰ البلارية؛ ومنهم
مَغَاغة ، ولهم سَمَلُّوط إلىٰ الساقية، ولبنى بركين قَلُوسَنا وما معها إلىٰ بحرىّ طَنْبَدَى[2]،
ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسَفْط أبو جِرْجا إلىٰ طنبدى[2]، وإهريت. ومنهم
بنو محمد، وبنو علىّ المقدّم ذكرهما، وأمراؤهم بنو زعازع .

وأما مزورة، فبنو وركان ، وبنو غرواسن ، وبنو جماز، وبنو الحكم ،
وبنو الوليد، وبنو الحجاج، وبنو الحرمية .

وأما بنو نزار . فمن بنى زرية؛ ومنهم نصف بنى عامر، والحماسنة، والضباعنة؛
وهم فى إمارة بنى زعازع . ومنهم أيضا بنو زيد وأمراؤهم أولاد قريش، ومساكنهم
النُّوَيْرة؛ وبالجيزة منهم صلامس : عرب البدرشين ، وبنو منصور : عرب منية
رهينة، وبنو بكْر : عرب سَقَّارة، وبنو مَجْدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبهم
تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيىٰ، والسوة ، وعبيد،
ومصلة، وبنو مختار . ومن لَوَاتة هؤلاء زُنَّارة (بضم الزاى وتشديد النون وألف
ثم راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم بنو زُنَّارة من ولد بر، بن قَيْذار، بن إسماعيل
عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوّارة ، وأكثر زُنَّارة ببلاد المغرب ؛ ومنهم جماعة

(١) فى السبائك بنو الجلاس بالجيم وحرر .
(٢) فى معجم ياقوت طبنذة بالذال المعجمة وهاء التأنيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانى من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش، وهم مزداشة، وبنى صالح، وبنى سام وزمران، وأوريغة ، وعزهان، ولقان . وزاد بعضهم بنى حبون، وواكدة، وفرطيطة، وغرجومة، وطازولة، ونفاث، وناطورة، وبنى السعوية، ومزداشـة، وبنى أبى سعيد، وهم عرب بدر بن سـلام . ومن لواتة أيضـا مزاتة (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر)، وهم بنو مُزَاتة ، بن لَوَاتَةَ الأصغرِ، ومنازلهم من البحيرة غربا إلىٰ العقبة الكبيرة ببَرْقة .

المقصد الثـالث

(فى معـــرفة أنساب العجـــم)

وهم مَنْ عدا العربَ من الفُرْس ، والتُرْك ، والرُّوم ، وغيرهم . ويُحتاج إلىٰ ذلك فى المكاتبات إلىٰ ملوكهم، وعقْد الهُدَن معهم، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولىٰ — الترك (بضم التاء المثناة فوقُ وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر)، وهم الأمّة المشهورة الذين منهـم مُلُوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى تُرْك ، بن كومر بن يافِث، بن نوح عليه السلام؛ وقيل من بنى طيراش ، بن يافث، ونسبهم ابن سعيد إلىٰ ترك، بن عابَر، بن شمويل، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق، وهم الخفشاج ، والطغرغر؛ وهم التتر . ويقال فيهـم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التـاء طاء، والخطا، والخزلجيـة والخَزَر؛ وهم الغـز الذين كان منهم ملوك السّـلاجقة، والهَيَاطلة، وهم الصغدر والغور والعلان ، ويقال : اللان ، والشركس، والأزكش ، والروس فكلُّهم مـن جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجَرَامِقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء فى الآخر)، وهم أهل المَوْصِل فى الزمن القديم . قال آبن سعيد: وهم من ولد جُرْموق، بن أشور، بن سام، آبن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجيل (بكسر الجيم وسكون المثناة تحت ولام فى الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال آبن سعيد : وهم من بنى باسل، بن أشور، بن سام، آبن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخَزَر (بفتح الخاء والزاى المعجمتين وراء مهملة فى الآخر) ، وهم التركمان . فى الإسرائيليات أنهم من ولد توغرمجا، بن كومر، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من بنى طيراش بن يافث؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم فى الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بنى بُوَيه الخارجين على خلفاء بنى العبَّاس ببغداد . قال فى العبر : هم من بنى ماداى ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقال آبن سعيد : من بنى باسل ، بن أشور ، بن سام، بن نوح ، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الرُّوم وضبطهم معروف ، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القُسْطَنْطِينِيَّة الآن ؛ قيل هم من بنى كيتم بن يونان، وهو يابان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد رومى، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رعويل آبن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهرىّ : من ولد رُوم، بن عِيصُو بن إسحاق .

السابعة — السُّرْيَان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المثناة تحت

وألف ثم نون)، قال آبن الكلبيّ : من بنى سُوريان، بن نبيط، بن ماش، بن آدم، آبن سام، بن نوح .

الثامنة — السِّنْد (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة فى الآخر)، فى الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح؛ وحكى الطبرى عن آبن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وضبطهم معروف . قال آبن سعيد : جميع أحيائهم من ولد حام بن نوح؛ ونقل الطبرىّ عن آبن إسحاق : أن الحبشة من ولد كوش بن حام والنُّوبة، والزِّنج، والزَّغاوة من ولد كَنْعان بن حام . وذكر آبن سعيد : أن الحبشة من بنى حَبَش والنُّوبة من ولد نُوبة أو بنى نوبى ، والزِّنج من بنى زَنج ، ولم يرفع فى نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام، وأنهم من بنى غيره .

العاشرة — الصَّقَالبة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة وباء موحدة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث آبن نوح، وقيل هم من بنى اشكناز، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة — الصِّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صينى، بن ماغوغ آبن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرّخ الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبْرانِيُّون (بكسر العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وألف بعدها نون مكسورة وياء مثناة تحتُ مشدّدة مضمومة وواو ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبرىّ: وهم من ولد عابَر، بن شالخ، بن أرنخشذ، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرْس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة فى الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأكاسرة . قال ٱبن إسحاق : هم من ولد فارس ، بن لاوَذ ، ٱبن سام ، بن نوح . وقال ٱبن الكلبيّ : هم من ولد فارس ، بن طيراش ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح ؛ وقيل من ولد طيراش ، بن همدان ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل من بنى أَميم ، بن لاوذ ، بن سام . ووقع للطبرىّ : أنهم من ولد رعويل ، بن عيصو ، بن إسحاق ، ٱبن إبراهيم عليه السلام . قال فى العبر : ولا ٱلتفاتَ إلىٰ هذا القول لأن مُلْك الفُرْس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجيم فى الاخر) قيل من ولد طوبال ، بن يافث ؛ وقيل من ولد غطرما ، بن كومر ، بن يافث .

الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر) ، وهم الذين كان منهم أهل مصر فى القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم ، بن قفط ، بن مصر ، بن بيصر ، بن حام ، بن نوح ؛ وعند الإسرائيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر) ، وهم أهل الأَنْدَلُس فى القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل هم من ولد قُوط ، بن حام ، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرْد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة فى الآخر) ، وهم الذين كان منهم بنو أيُّوبَ ملوكُ مصر بعد الفاطميين . قال فى العبر : هم من بنى إيران بن أشور ، بن سام ، بن نوح . قال المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله فى كتابه "التعريف" : ويقال فى المسلمين الكُرْد ، وفى الكفار الكرج ، وحينئذ فيكون الكُرْد والكُرْج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكَنْعانيُّون (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة وضم الياء المثناة تحتُ المشدّدة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — أَلْمَان (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا قصدوا سواحل الشام فى الدولة الأيُّوبيَّة ومواطنُهم فى شمالىّ البحر الرومىّ غربا بشمال . قال فى العبر : وهم من ولد طوبال، بن يافث، بن نوح .

العشرون — النَّبَط (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل بابل من العِراق فى الزمن القديم، وإليهم تنسب الفِلاحة النَّبَطِيَّة لآبن وَحْشِيَّة . قال آبن الكلبىّ : هم من بنى نبيط، بن ماس، بن إرم، بن سام، بن نوح . وقال آبن سعيد : هم من بنى نبيط، بن أشور، بن سام، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهِنْد وضبطه معروف . فى الإسرائيليات أنهم من ولد دادان، بن رعما، بن كُوش، بن حام، ونقل الطبرىّ عن آبن إسحاق أنهم من بنى كوش، بن حام، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأَرْمَنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون فى الآخر) وهم أهل إِرْمِينِيَة الذين بقاياهم ببلاد سيس؛ قيل هم من ولد قهويل، بن ناحور، بن تارخ، وهو آزر، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأَشْبان (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشح، بن يافث، بن نوح . وعند الإسرائيليين من ولد ياوان وهو يونان بن يافث، وعند آخرين أنهم من شعوب بنى عِيصُو بن

إسحاق؛ وقال الطبرىّ : أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحُكَماء شرقىّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وهم من ولد يونان، وهو ياوان، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقىّ : هم من ولد يونان، بن خلجان، بن يافث . وشذ الكِنْدىّ فقال : يونان، بن عابَر، بن شالَخ، ٱبن أرنخشذ، بن سام بن نوح؛ فجعل يونان أخا لقَحْطان أبى عَرَب اليمن . وقال : إنه خرج من بلاد العرب مغاضبا لأخيه قَحْطَانَ فنزل شرقىّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ؛ وردّ عليه أبو العباس الناشى بقوله :

تُخَلِّط يُوناناً بقَحْطانَ ضِـــلَّةً * لَعَمْرِى لقد باعَدْتَ بينَهُمَا جِدّا

ثم اليونانية علىٰ ثلاثة أصناف اللَّطِينيُّون، وهم بنو لَطِين بن يُونان، والإغريقيُّون وهم بنو إغريقن بن يونان، واللّكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان، وهى أصل الروم فيما يقال علىٰ ما تقدّم .

الخامسة والعشرون زُوَيْلة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل بَرْقة فى القديم ، ومنهم الطائفة الذين وَصَلوا صُحْبَةَ جوهر المُعِزّىّ بانى القاهرة المنسوب إليهم باب زُوَيْلَةَ بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حوبلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون يأجوج ومأجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بمفاخَرات الأمم ومنافَرَاتهم ، وما جرىٰ بينهم فى ذلك من المُحاوَرات والمراجَعات والمُناقَضات ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأول

(فى بيان وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

لاخفاء أنه يتعين علىٰ الكاتب معرفة[1] المفاخَرات الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه الافتخار التى يمدح بمثلها : ممـا يُستعان بمثله علىٰ المدح والإطراء الواقع فى الولايات وما يُفَضَّل به كل واحد من البلغاء علىٰ خَصْمه ، وما يردُّ عليه من الأجوبة المبطلة له لينسِجَ علىٰ منوال ذلك فيما يرد عليه من المخـاطبات ، والمكاتبات عند دِعايَةِ ضرورته إليه ، وٱحتياجه إلىٰ إيراده .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر أُنموذَج من المفاخرات ، والمنافرات يُنْسَج علىٰ منواله)

فأمّا المفاخرات ، فمنها مارُوِى أنه لـمـا وَفَد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَفْد بنى تميم سنَةَ الوُفود بعد فتح مكة ، فيهم عُطَارد بن حاجب ، بنِ زُرارة ، بن عُدَس التميمىّ ، وقَيسُ بن عاصم ، وقيسُ بن الحـارث ، ونُعَيم بن زيد ، وعُتْبة بن حِصْنِ ٱبنِ حُذَيفــة بن بدر ، والأقرَعُ بن حابس ، فى لَفِّهم ولَفِيفهـم ، ودخلُوا المسجد ونادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حُجُراته أنْ ٱخرُج إلينا يامحمدُ ، فتأذّى رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، من صِياحهم فخرج إليهم — فقالوا : يا محمدُ جِئْناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيده السياق .

لنُفاخِرك . فأذنْ لشاعرنا وخَطيبنا ـ قال ‹‹قَدْ أذِنْتُ لخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ›› فقام عُطارِدُ بن حاجِبٍ فقال :

‹‹الحمدُ للهِ الذى لَهُ عَلَيْنا الفضْلُ ، وهو أهلُه ، الذى جَعَلَنا مُلُوكا ، ووهبَ لنا أمْوالًا عِظَاما نفعل منها المعروف ، وجَعلَنا أعزَّ أهل المَشْرِق وأكثَرَه عددا ، وأشدّه عُدّة ؛ فَمَنْ مِثْلنا فى الناس ؟ ألسنا برءُوس الناس وأُولِى فضلهم ؟ فمن فاخَرنا فليعْدُد مثلَ ماعَدَدْناه ، وإنا لو نشاءُ لأكْثَرْنا الكلامَ ولكنا نَحيَّينا عن الإكثار ، وأقول هذا لأن تأتُوا بمثل قَوْلِنا ، وأمْرٍ أفضل من أمرِنا›› ثم جلس

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لثابت بن قيس الخَزْرجىّ : ‹‹قُمْ فأَجِبِ الرجُلَ فى خُطْبته›› فقام ثابت بن قيس فقال :

‹‹الحمد للهِ الذى السَّمٰواتُ والأرضُ خَلْقُهُ ، قضىٰ فيهن أمْرَه ، ووسع كرسيُّه علْمَه ولم يكُنْ شىءٌ قطُّ إلا من فِعْله ؛ ثم كان من قُدْرته أن جعَلَنا مُلُوكًا وٱصطفىٰ من خير خلقه رسولًا ، أكرَمَه نسبًا ، وأصدَقَه حديثًا وأفضلَه حَسَبا ، فأنزل عليه كتابَه ، وٱئتمنه علىٰ خَلْقه ؛ وكان خِيرةً من العالمين ؛ ثُمَّ دعا الناسَ إلىٰ الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجِرُونَ من قومه وذَوِى رَحِمِه ، أكرمُ الناس أحسابا ، وأحسَنُهم وجوها ، وخيرُ الناس فِعالًا ؛ ثم كان أوّلَ الخلق إجابةً ، وٱستجابَ لله حينَ دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نَحْنُ ، فنحن أنصارُ الله ، ووُزَراء رسول الله ، نُقاتِل النـاسَ حتّى يؤمِنوا ، فمن آمنَ بالله ورسوله مُنِّع بماله ودمه ، ومَنْ كفر جاهَدْناه فى الله أبدا ، وكان قتْلُه علينا يسيرا ؛ أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم›› .

فقام الزبرقان بنُ بَدْر التميمىّ فقال :

نَحْنُ الكِرامُ فلا حَىٌّ يُفَـاخِرُنا * مِنَّا المُلُوكُ وفِينا تُنْصَب البِيَـعُ

وكَمْ قَسَرْنا مِنَ الأَحْيَاءِ كُلِّهِـم * عِنْدَ النِّهاب وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَعُ

ونَحْنُ نُطْعِم عِنْدَ القَحْطِ مُطْعَمنا * من الشِّواء إذا لم يُونَسِ القَزَعُ

وهى أبيَّات .

فقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، لَحسَّانَ بن ثابت "قُم فأجبِ الرجُلَ فيما قال" فقال حسان رضى الله عنه :

إنَّ الذَّوائبَ منْ فِهْرٍ وإخْوَتِهِـمْ * قَـدْ بَيَّنُوا سُـنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ

يَرْضىٰ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُه * تَقْوىٰ الإلٰهِ وكُلُّ الخَيْرِ يُصْطَنَعُ

قَوْمٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُـمُ * أو حاوَلُوا النَّفْعَ فى أشياعِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيَّـةٌ تِلْكَ مِنْهُـمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ * إن الخَـلائق فٱعْلَمْ شَرُّها البِـدَعُ

إن كانَ فِى الناسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ * فكُلُّ سَـبْقٍ لأَدْنىٰ سَـبْقِهِمْ تَبَعُ

لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أَكُفُّهُمُ * عِنْـد الدِّفَاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا

أَكْرِمْ بقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِـيعَتُهُمْ * إذا تفـاوَتَتِ الأَهْواءُ والشِّـيَعُ

وهى أبيَّات .

ويروىٰ أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتيْناكَ كَيْما يَعْـلَمَ الناسُ فَضْلَنَـا * إذا ٱختَلَفُوا عِنْدَ ٱحتِضارِ المَوَاسِمِ

فإنَّا فُروعُ النـاسِ فى كُلِّ مَوْطِنٍ * وأن لَيْسَ فى أرضِ الحِجَازِ كدارِمِ

وإنا بُدُور العالَمِينَ إذا ٱنْتَخَوْا * ونَضْرِبُ رَأسَ الأَصْـيَدِ المُتَفاقِمِ

وإنا لَنَـا المِـرْباعُ فى كُلِّ غارَةٍ * نُغِـيرُ بنَجْـدٍ أو بأرْضِ الأعاجِمِ

(١) فى سيرة ٱبن هشام . نذود المعلمين .

فقام حَسَّان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلِ المَجْدُ إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدىٰ * وَجاهُ المُـلُوكِ وٱحتمالُ العَظائم

نَصَرْنا وآوَيْنَا النبيَّ مُحَمَّدًا * علىٰ أنْفِ رَاضٍ منْ مَعَدٍّ وراغم

نَصَرْناهُ لَمَّا حَلَّ وَسْطَ دِيارِنَا * بِأسْيافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وظَالِم

جَعَلْنَا بَنِينَا دُونَهُ وبَنَاتِنَا * وَطِبْنَا لَهُ نَفْسًا بفَيْءِ المَغَانِم

ونَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا * علىٰ دِينِهِ بالمُرْهَفاتِ الصَّوارِمِ

ونَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا * وَلَدْنَا نَبِيَّ الخَيْرِ مِنْ آلِ هاشِمِ

بَنِي دارِمٍ لا تَفْخَرُوا إنّ فَخْرَكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ المَكارِمِ

هَبِلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وأَنْتُمُ * لَنَا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وخادِمِ؟

فإنْ كُنْتُمُ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ * وأَموالِكُمْ أنْ تُقْسَمُوا فى المَقَاسِمِ

فلا تَجْعَلُوا للهِ نِدًّا وأَسْلِمُوا * ولا تَلْبَسُوا زِيًّا كَزِيِّ الأعَاجِمِ

فلما فرغ حَسَّان من قوله ، قال الأقرع بنُ حابس : وأبِي ! إن هذا الرجل مُراد ، لَخطيبُه أخطَبُ من خطيبنا ، ولَشاعره أشعرُ من شاعرنا ، ولأصواتُه أعلىٰ من أصواتنا ؛ فأسلَمُوا وأحسن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، جوائزَهم .

ففى هـذا الوفد نزل ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت : وهذه مكابَرةٌ ظاهرة ، وتجاهُلٌ فاحش من بنى تميم ، حيث طلبُوا المفاخَرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ العرب علىٰ ٱختلاف شُعُوبهم ، وتتابع قبائلهم معترِفُون لبنى هاشم بالسَّبْقِ فى الشرف ، والتقدّم فى الفضل ، مع مافضَّل الله تعالىٰ به

رسوله صلى الله عليه وسلم، وخَصَّه به من رفيع الشَّرف الذى لم يبلغه نبىّ مرسَل، ولا مَلَك مقرّب .

وقد تعرّض أبو نُوَاس فى بعض أشعاره لمدح بَنِى تميم، و بالغ فى فخرهم فأفحش، فقال:

خُزَيْمَــةُ خَيْرُ بَنِى خازِم * وخَازِمٌ خَــيْرُ بَنِى دارِمِ
ودارِمٌ خَــيْرُ تميمٍ ومَا * مِثْــلُ تميمٍ فى بَنِى آدَمِ

ونقضــه عليه الشيخ فتح الدين بن سَيِّد الناس اليعمرىّ، فقال رحمه الله فأجاد القولَ، وفاز بالقِدْح المُعلَّى فقال :

مُحَمَّدٌ خَــيْرُ بَنِى هاشِمِ * فَمَن تَمِيمٌ وبَنُو دارِمِ؟
وهاشمٌ خيرُ قُرَيْشٍ وَمَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فى بَنِى آدَمِ!

وهو مأخوذ من قول الأوّل :

قُرَيْشٌ خِيَــارُ بَنِى آدَم * وخيرُ قُرَيْشٍ بَنُو هاشِمِ
وخَيْرُ بَنِى هاشِمٍ أَحْمَدٌ * رسولُ الإلٰهِ إلىٰ العالَمِ

وإليه ينظر قول آبن عرسية :

لله مِمَّـــا قَدْ بَرَا صَــفْوةٌ * وصَفْوةُ الخَلْقِ بَنُو هاشِمِ
وصَفْوةُ الصَّفْوةِ مِن بَيْنِهِمْ * محمدُ النُّــور أبُو القــاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ حيث قال :

إذا مُضَرُ الحمراءُ كانَتْ أُرُومَتِى * وقامَ بِنَصرِى خازِمٌ وآبنُ خازِمِ
عَطَستُ بأنفٍ شامخ وتناوَلَتْ * يداىَ الثُّرَيَّا قاعِدًا غـــيرَ قائمِ

فإنه جعل مُضَر التى هى أُرومةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصلَ فخره وقُعْدُدَ سُودَده فأصاب الفخر فى قوله، وفاز بالشرف فى شعره .

قال المولىٰ صلاح الدين الصَّفَدىّ رحمه الله فى شرح لامية العجم "وإنما ذكر خازما لأنه مولىٰ خُزيمةَ بنِ خازم التميمىّ، وإنما نزل أبوه الموصلَ فنُسِب إليها".

ومن لطيف ما يحكىٰ أن معاوية بن أبى سُفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف، فقال معاوية "مَنْ أكرمُ الناس أبا وأمّا، وجَدّا وجدّة، وعَمّا وعَمّة، وخالا وخالة؟" — فقام النُّعمان بن العجلان الزُّرَقىّ بعد ما أخذ بيد الحسن فقال "هذا أبوه علىّ بن أبى طالب، وأمّه فاطمةُ، وجدّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وجدّته خديجةُ، وعمّه جعفر، وعمّتُه أمّ هانئ ٱبنةُ أبى طالب، وخالُه القاسم، وخالته زينب؛ فهذا هو الشرف الذى لا يُدانىٰ والفضل الذى لا يُبارىٰ".

وقريب من ذلك ما يحكىٰ أنه جرىٰ بين عبد الله بن الزبير وبين معاويةَ كلامٌ طويل فى آخره — "فقال ٱبن الزبير، ما مِثْلى يُهارَشُ، ولكن عندك من قريش والأنصار، ومن ساكِنِى الحُجون والآطامِ مَنْ إن سألتَه حملك علىٰ محجّةٍ أبينَ من ظهر الجَفير — قال: ومَنْ ذلك — قال هذا؟ يعنى أبا الجَهْم بن حُذَيفة — فقال معاوية تكلّمْ يا أبا الجَهْم — فقال أَعْفِنى — فقال عزمْتُ عليك لتقولنّ — قال: نعم: أمُّك هند، وأمه أسماءُ بنتُ أبى بكر، وأسماء خير من هند، وأبُوك أبو سُفيان وأبوه الزُّبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثلَ الزبير، وأما الدنيا فلك، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالىٰ.

ومن ذلك ما حكاه ٱبن الكلبىّ. قال: قال كِسْرىٰ للنُّعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تَشْرُف علىٰ قبيلة؟ قال نعم — قال فبأىّ شىء؟ قال: مَنْ كانت له ثلاثة آباء متواليةٌ رؤساء، ثم ٱتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت مَنْ قبيلتهُ فيه ويُنْسب إليه — قال فٱطلُبْ ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حُذَيفة بن بدر، وآل حاجِب ٱبن زُرارة، وآل ذى الجَدَّيْنِ، وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدة — قال فجمع هؤلاء

الرهط ومَنْ تبعهم من عشائرهم وأَقعد لهم الحُكّام والعُدول ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليَصْدُقْ ، فكان حذيفةُ بنُ بدر الفزاريّ أوّل متكلم ، وكان ألْسَن القوم ، فقال : قد علمتِ العربُ أن فينا الشرفَ الأقدمَ والأعزّ الأعظم ، ومأثرةً للصنيع الأكرم — فقال مَنْ حوله ولِمَ ذاك يا أخا فزارة ؟ فقال ألَسْنا الدعائمَ التى لا تُرام ، والعزّ الذى لا يُضام ؟ قيل صدقت . ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارةُ بَيْتُ العِزِّ والعِزُّ فِيهِـمُ ! * فَزَارةُ قَيْسٍ حسبُ قَيْسٍ نِضالُها
لهـا العِزَّةُ القَعْساءُ والحَسَبُ الذى * بَنَـاه لقَيْسٍ فى القَـديم رِجالُها
فهَيْهاتَ قد أعْيَا القُرونَ التى مَضتْ * مآثرُ قَيْسٍ مَجْـدُها وفعـالُها
وهَـلْ أحَدٌ إن هَزّ يومًا بكَفِّه * إلىٰ الشَّمْسِ فى مَجْرىٰ النُّجُوم ينالُها
فإن يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لذاكَ جميعُها * وإن يَفْسُدوا يَفْسُدْ من الناس حالُها

ثم قام الأشعث الكنديّ ، وإنما أُذِن له أن يقوم قبل ربيعةَ وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر ، فقال ، قد علمت العرب أنا نُقاتِل عديدَها الأكثرَ ، وزحْفَها الأكبرَ ، وإنا لَغياث الكُرُبات ومَعدِنُ المكْرُمات — قالوا ولم يا أخا كندةَ ؟ قال لأنا ورِثْنا ملكَ كندةَ فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بُحبُوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

إذا قِسْتَ أبياتَ الرِّجالِ بِبيْتِنَا * وجَدْتَ لنا فَضْلاً علىٰ مَنْ يُفاخِر
فَمَنْ قال كَلّا أو أتانا بخُطةٍ * ينافِرُنا فيها فنحنُ نُخاطِر
تعالَوْا قِفُوا كَىْ يعلمَ الناسُ أيُّنَا * لَهُ الفَضْلُ فِيمَا أوْرَثَتْهُ الأكابِرُ

ثم قام بِسْطامُ الشَّيبانيّ فقال " قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزولُ ، ومَغْرِس عزِّها الذى لا يحول ، قالوا ولِمَ يا أخا شيبان — قال لأنا أدركهم للثار ، وأضْرَبُهم للملك الجَبّار ، وأقومهم للحُكْم ، وألَدُّهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِىَ بِسْطامٌ أحَقُّ بفَضْلِها * وأوّلُ بيتِ العِزِّ عِزِّ القبائِلِ
فسائِلْ (أبَيْتَ اللَّعْنَ) عن عِزِّقومِها * إذا جدّ يومَ الفخر كلُّ مُناقِل
ألَسْنا أعزَّ الناس قوماً ونُصرةً * وأضْرَبَهُم للكَبْش بين القَبائل
وقائعُ عِزٍّ كلُّها رَبَعِيَّةٌ * تَذِلُّ لها عِزًّا رِقابُ المَحافِل
إذا ذُكِرتْ لم يُنْكِرِ الناسُ فَضْلَهَا * وعاذَ بِها مِنْ شَرِّها كُلُّ وائِل
وإنا مُلوكُ الناسِ فى كُلِّ بَلْدةٍ * إذا نزلَتْ بالناس إحدىٰ الزّلازل

ثم قام حاجبُ بنُ زُرارة التميمىّ . فقال : قد علمت مَعَدٌّ أنّا فرعُ دعامتِها ، وقادَةُ زَحْفِها — قالوا : ولِمَ ذاك ياأخا بنى تميم ؟ قال لأنا أكثر الناس عديدا ، وأنجبهم طُرًّا وليدا ، وأنا أعطاهُم للجزيل ، وأحمَلُهم للثقيل ؛ ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمَتْ أبناءُ خِنْدِفَ أننا * لنا العِزُّ قِدْما فى الخُطُوب الأوائل
وأنا كِرامٌ أهلُ مَجْدٍ وثَرْوةٍ * وعِزٍّ قديمٍ ليس بالمتضائِل
فكَمْ فِيهِمُ من سَيِّدٍ وابنِ سَيِّدٍ * أغرَّ نجيبٍ ذى فعَال ونائِل
فسائِلْ (أبَيْتَ اللعنَ) عَنّا فإنّنا * دعائمُ هذا الناسِ عِنْد الجَلائِل

ثم قام قيسُ بن عاصم السعدىّ فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعُهم فى المكْرُمات دعائم ، وأثبَتُهم فى النائبات مقادم ؛ قالوا : ولِمَ ذاك يا أخا بنى سعد ؟ قال لأنا أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ؛ وأنا لا نَنْكُل إذا حملنا ، ولا نُرام إذا حلَلْنا . ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمَتْ قَيْسٌ وخِنْدِفُ أنّنا * وجُلُّ تميم والجميع الذى ترىٰ
بأنّا عِمادٌ فى الأُمور وأننا * لنا الشَّرَفُ الضَّخْمُ المُرَكَّبُ فى الندىٰ
وأنا لُيوثُ الناس فى كُلِّ مأزِقٍ * إذا جُزَّ بالبِيضِ الجماجِمُ والطُّلىٰ(١)

(١) الطلى بالضم جمع طلية وهى الأعناق .

فَمَنْ ذا لِيَوْمِ الفَخْرِ يَعْدِل عاصِمًا * وقَيْسًا إذا مَرّتْ ألوفٌ إلىٰ العُلا
فهيهاتَ قد أعْيا الجَميعَ فِعالُهُمْ * وقاموا بيوم الفَخْرِ مَسْعاة من سَعىٰ

فقال كِسرىٰ حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنىٰ حِباءَهم ، وأعظم صِلاتِهم ، وكرّم مآبهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعدّ البُيوتاتِ المشهورةَ بعِظَم القدر والشرف : تُعَدّ بيتَ هاشم بن عبد مَناف ، وتعدّ أربعة ، أوّلُها بيت آلِ حُذَيفة بن بدر ، وبيت آل زُرارة الدارِميِّين : بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الجَدَّين : عبد الله بن عمرو بن الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الدَّيَّان من بنى الحارث بن كعب بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يُعَدّون فى البيوتات إنما كانوا ملوكا .

وآعلم أن المفاخرة قد تكون بحقيقة الحسب . وقد تكون فيها الفصاحة واللَّسن مَقامَ الحسب : كقول أبى تمام الطائىّ يفتخر :

أنا آبْنُ الّذينَ اسْتُرْضِع المجدُ فيهمُ * وسُمِّىَ فيهمْ وهو كَهْلٌ ويافِع
مَضَوْا وكأنّ المَكْرُماتِ لديهِمُ * لكَثْرةِ ما وَصَّوْا بهنّ شَرائعُ
فأىُّ يدٍ فى المجد مُدّتْ فلم يَكُنْ * لها راحةٌ من مَجْدِهم وأصابِعُ
هُمُ آستَوْدَعُوا المعروفَ محفوظَ مالِنَا * فضاعَ وما ضاعتْ لدينا الوَدائعُ

وقوله أيضا :

جرىٰ حاتمٌ فى حَلْبةٍ منه لو جَرىٰ * بها القَطْرُ شَأْوًا قيل أيُّهما القَطْر؟
فتًى ذَخَر الدُّنيا أُناسٌ ولم يزَلْ * لها باذلًا فانْظُرْ لِمَنْ بَقِىَ الذُّخْر
فمَنْ شاءَ فلْيَفْخَرْ بما شاء من نَدًى * فليس لِحَىٍّ غيرِنا ذلك الفَخْرُ
جمَعْنا العُلَا بالجُودِ بَعْدَ آفْتِراقها * إلينا كما الأيامُ يجمعُها الشَّهْر

قال فى شرح اللامية : وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قُرىٰ حَوْران من الشام، فغير آسم أبيه وآندس فى بنى طيئ؛ وذكر صاحب الأغانى أن رجلا قال لجرير: من أشعَرُ الناس؟ قال : قم حتّى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلىٰ أبيه عطيةَ، وقد أخذ عَنْزًا له فاعتقَلَها وجعل يَمصُّ ضَرْعَها، فصاح به آخرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دَمِيم، رثُّ الهيئة . وقد سال لبن العنز علىٰ لِحيْته ، فقال ترىٰ هـذا ؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبى، أو تدرى لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوتُ الحَلْب فيطلب منه؛ ثم قال أشعرُ الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدىّ : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير فى مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بآعترافه لذلك الرجل، و إظهار بخل أبيه .

و ربما كان الآفتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامعُ حقيقة الآفتخار والشرف بمجرد السماع ، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبى الحسن الجزار :

أَلَا قُـلْ لِلَّذِى يَسْأَ * لُ عَنْ قَوْمِى وعَنْ أهْلى
لَقَـدْ تَسْأَلُ عَنْ قومٍ * كِرَامِ الفَرْعِ والأصْلِ
يُرِيقُـونَ دَمَ الأَنْعَا * مِ فى حَزْنٍ وفى سَهْلِ
وما زالُوا لمـا يُبْـدُو * نَ من باسٍ ومِنْ بَذْلِ
يُرَجِّيهِــمْ بَنُو كَلْبٍ * ويَخْشَـاهُمْ بنو عِجْـلِ

وقوله أيضا :

إنّى لَمِنْ مَعْشَرٍ سَـفْكُ الدِّماءِ لَهُمْ * دَأْبٌ، وسَلْ عَنْهُمُ من رَبِّ تَحْقيق

تُضِىءُ بالدَّم إشراقًا قواضِبُهُمْ * فكلُّ أيَّامِهِـمْ أيَّامُ تَشْرِيقِ

وعلىٰ هـذا المَنْهَج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت علىٰ قبرٍ مكتوبا أنا آبنُ من كانت الريحُ طوعَ أمره ، يحبسها إذا شاء ، ويُطْلِقها إذا شاء ، قال فعَظُم فى عينى ؛ ثم آلتفتُّ إلىٰ قبر آخر قبالته فإذا عليه مكتوب : لا يغتر أحدٌ بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدّادين ، يحبس الريح فى كِيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ؛ قال : فعجبت منهما يتسابَّان ميتين ، فإذا طرق السمع شىء من ذلك ظنّ السامع أنه فى غاية الفخر والشرف حتّٰى يعلم حقيقته ؛ وأشباه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضعَ آستيعاب القول فى المفاخرة الحقيقية ولا غيرها .

وأمّا أيام المنافرة وهى المحاكمة فى الحسب ، فمن ذلك ما يحكىٰ أن الأعشىٰ أتىٰ علقمة ، بن عُلاثةَ ، بن عَوْف ، بن الأحْوَص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامةَ ذو فائش[1] الحميرىّ من التبابعة ، فسأل الأعشىٰ علقمة أن يُتْلِيَه أى يجيره ، فقال له علقمةُ : أُتْليك علىٰ بنى الأحوص — قال لا يُقْنِعنى — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعنِى — قال : فليس عندى أكثرُ من هذا ؛ فأتىٰ عامرَ بنَ الطُّفَيْل بنِ مالك آبن جَعْفر بن كِلاب ، قال قد أُتْليك علىٰ الجنّ والإنس ، ثم أتىٰ سلامةَ فآنصرف من عنده بحبائه .

وكان عامرٌ وعلقمةُ المذكوران لما أسنّ أبو بَرَاء وهو عامرُ بن مالكٍ ، بن جعفر ، آبن مُلَاعب الأسِنَّة تنازعا فى الرياسة .

فقال علقمة كانت لجدِّى الأحوصِ وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعَد عمُّك عنها وأنا آسترجعتُها فأنا أولىٰ بها منك ، فشَرِىَ الشرُّ بينهما وسارا إلىٰ المنافرة ،

(١) وقع فى الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناسخ .

وقدِم الأعشى على تَفِيئة[1] ذلك فصار هو ولبيد مع عامر، وصار مع علقمة الحُطيْئةُ، والسَّنْدرىُّ، وتنافروا .

فقال عامر لعلقمة : والله إنى لأكرم منك حَسَبا ، وأثبتُ منك نسَبا ، وأطولُ منك قَصَبا .

فقال علقمة : والله لأنا خيرٌ منك ليلا ونَهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلى نسائك أن أُصْبح فيهنّ منك .

فقال علقمة : أنافرك إنى لبر، وإنك لفاجر، وإنى لولُود، وإنك لعاقر، وإنى لعَفٌّ، وإنك لَعَاهِر، وإنى لوافٍ، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولُود وأنا رجل عقيم وقد وَفَيت لبنى عَمْرو بن تميم .

وقد زعموا أنى غَدَرت بهم وهم كاذبُون، ولكنى أنافرك : أنا أنْحر منك لِلّقَاح، وخير منك فى الصَّبَاح، وأطعم منك فى السنة الشِّيَاح[2] .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس تزعم أنى جَبَان ، ولأن تلقى العدوّ وأنا أمامك أعزُّ لك من أن تلقاهم وأنا خَلْفَك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أنى بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطِى العشيرةَ إذا ألَمَّت ؛ ولكنى أنافرك : أنا خير منك أثرًا، وأحدّ منك بصرا، وأشرف منك ذِكْرا .

فقال عامر : أنت رجل فانٍ ، وليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العَدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ؛ ولكنى أنافرك أنى أسمى منك سُمَّه ، وأطول منك قِمَّه ، وأحسنُ منك لِمَّه ، وأجعد منك جُمَّه، وأسرعُ منك رحمه ، وأبعدُ منك هِمَّه .

---

(١) أى على أثره انظر القاموس فى مادة ف ى أ . (٢) الشياح بالكسر القحط .

فقـال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛ ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنَافرك فيهم ؛ ولكنى أنافرك : أنا خيرٌ منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدْبا .

فقـال علقمة : قد علمتُ أن لك عقبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكنى أنافرك أنى خير منك وأولىٰ بالخير منك .

فقال عامر : إنى والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتَلُ منك للكماه ، وخير منك للوالاه .

فقـال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص علىٰ بنى مالك بن جعفر : إنك لن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنافرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .

فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : عير(١) وتيس وتيس وعنز فأرسلها مثلا نعم علىٰ مائة من الإبل إلىٰ مائة يعطاها الحكم أينا ينفر عليه صاحبُه أخرجها ففعلوا ، و وضعوا بها رَهْنا من أبنائهم علىٰ يدىْ رجل يقال له خُزَيمة بن عمرو بن الوَحيد فسُمِّى الضمِينَ ، وصارت علما عليه إلىٰ الآن ، وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وعامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتىٰ عامرُ بن الطفيل عمَّه عامرَ بن مالك بن جعفر وهو أبو براء ، فقـال : يا عماه أعِنِّى — فقال : ياآبن أخى سُبَّنى ، فقال : لا أسُبُّك وأنت عمى — قال : فسُبَّ الأحوص — فقال : عامر ولا أسُبُّ(٢) والله الأحوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد رَبَعت فيها أربعين مِرْباعا فاستعِنْ بها علىٰ منافرتك ، وجعلا منافرتهما إلىٰ أبى سفيان

(١) هكذا فى الأغانى .

(٢) لعله إبلى .

ٱبن حرب بن أمية فلمْ يقل بينهما شيئا، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما، وقال لهما أنتما كُرُكْبتي البعيرِ الأدْرَم، وأبىٰ أن يقضى بينهما، فٱنطلقا إلىٰ أبى جهل بن هشام، فأبىٰ أن يقضى بينهما، فوثب مروانُ بن سُراقة، بن قتادة، بن عمرو، بن الأحوص وكان مع علقمة فقال:

يا لَقُرَيْشٍ بَيِّنُوا الكَلامَا * إنَّا رَضِينَا مِنْكُم الأَحْكامَا

فَبَيِّنُوا إذْ كُنْتُمُ الحُكَّاما * كانَ أبُونا لهم إمَامَا

وعَبْدُ عَمْرٍو مَنَع الفِئَامَا * فى يومِ فَخْرٍ مُعْلَمٍ إعلاما

يُحْسِنُ فيه الكَرَّ والإقْدامَا * ودِعْلِج أقدمهُ إقداما

لولا الذى أجْشَمْتُهم إجشاما * لاتَّخَذَتْهُم مَذْحِج أنعاما

فأبوا أن يقولوا بينهما شيئا، فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفىّ فردّهما إلىٰ حرملة بن الأشعر المرّىّ، فردّهما إلىٰ هَرِم بن قُطْبة بنِ سنان الفَزارىّ، وإنهما ساقا الإبل معهما حتّى أشتَتْ وأربعت لا يأتيان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما، فوعدهما هَرِمٌ إلىٰ العام القابل، فأتيا للوعد، وقال لبيد وكان مع عامر يومئذ يرتجز:

يا هَرِمُ، وأنت أهلُ عَدْلِ * هل يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلى[1]

إن يفْخَرِ الأحْوصُ يوماً قبلى * ليَذْهَبَنَّ أهلُه بأهْلى

لا تجمعَنَّ شكْلَهُمْ وشكْلِى * ونَسْلَ آبائِهِمُ ونَسْلى

* قد علموا أنَّا كِرامُ الأصْلِ *

وقال أيضا:

إنِّى ٱمْرُؤٌ مِن مَالك بن جَعْفرِ * عَلْقَمَ قد نافَرْتَ غيرَ مُنْفَر

* نافرت سَقْبا من سِقاب العَرْعَرِ *

(١) لعله بفضلى بالباء.

فقال لُحَافة بنُ عوف بن الأحوص بن جعفر :

نَهْنِه إليكَ الشِّـعْرَ يا لَبِيدُ * وٱصْدُدْ فقد يَنْفَعُكَ الصُّدود

سـادَ أبُونا قبلَ أنْ تَسُودُوا * سُودَدُكُمْ صَغِيره زَهِيدُ

ثم قال :

إنِّى إذا ما نُسِى الحَيَاءُ * وضاعَ يَوْمَ المَشْهَدِ اللِّواءُ

أُنْمىٰ وقَدْ حُقَّ لِىَ النَّمـاءُ * إلىٰ كُهُول ذِكْرُها سَنَاءُ

إذ لا تَزال حُلْوَةٌ كَوْماءُ * مَبْقـورَةً لِسَـقْبِها رُغاءُ

لم يَنْهَنا عَنْ نَحْرِها الصَّفَاءُ * لَنَـا عَلَيْـكُمْ سَوْرَةٌ ولاءُ

* المَجْدُ، والسُّودَدُ، والعَطَاءُ *

ثم قال :

أَنْتُمْ عَزَلْتُمْ عامِرَ بنَ مالكِ * فى سَنَواتِ مُضَرَ الهَوالكِ

* يا شَرَّ أحْيَاء وشَرَّ هالِك *

وكان السندرىّ مع علقمة فارتفع صوته، فقيل مَنْ ذا ؟ فقال :

أنَا لِمَنْ أنْكَر صَوْتِى السَّـنْدَرِىّ * أنا الفَتىٰ الجعْدُ الطُّوالُ الجَعْفَرِىّ

* مِنْ وَلَدِ الأحْوَصِ أخْوالِى غَنِىّ *

فقال عامر للبيد : أجبـه ! فرغب عن إجابته، وكان السـندرىّ يقال لجدّته عَيْساء، وكانت أمةً لفاختـة ٱبنة جعفر بن كلاب، ٱمرأةِ شُرَيح بن الأحوص، فَوقَع عليها شُرَيح فولدت له زَبَّان، ويزيد، وشهابا، فقال لبيد :

لَمَّا دَعانِى عامِرٌ لأسُـبَّهُمْ * أبيْتُ وإنْ كان ٱبنُ عَيْساءَ ظالِمَا

ألَا أَيُّنَـا ما كان شَرًّا لمـالك * فلا زال يَلْقىٰ فى الحَيَاة المَلَاوِمَا

لِكَيْلا يَكُونَ السَّنْدَرِىُّ نَدِيدَنا(١) * وأشتُمَ أعْمَامًا عُمُوما عَمَاعِمَا
وأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ القُبُورِ أُبُوَّةً * كِرَامًا هُمُ شَدُّوا عَلَىَّ التَّمَائِمَا
لَعِبْتُ علىٰ أَكْتَافِهِمْ وحُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وسَمَّوْنِى وليدا وعاصِمَا
بَلىٰ أَيُّنا ما كانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فلَا زالَ فِى الدُّنْيا مَلُوماً ولائِمَا

ووثب الحطيئة فقال :

مايُحْسِنُ الحُكَّامُ بالفَصْلِ بَعْدَمَا * بَدَا سابِقٌ ذُو غُرَّةٍ وحُجُولِ ؟

حتّى أتىٰ علىٰ قصيدة كاملة ، ثم قال :

يا عامِ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاعٍ ومَكْرُمةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعاةَ مَنْ جَارَيْتَه أَمَمُ

وأقام القوم علىٰ ذلك أياماً ، فأرسل هَرِمٌ إلىٰ عامر فأتاه سِرًّا لا يعلم به أحد ، فقال : ياعامر كنتُ أحْسَب أن لك رأياً ، وأن فيك خيرا ، وما حبَسْتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتنافِر رجلا لاتفخَرُ أنت ولا قومُك إلا بآبائه ، فما الذى أنت به خير منه؟ فقال عامر : أنشُدُك الله والرحمَ أن لا تفضِّل علىّ علقمة ، فوالله لئن فعلتَ لا أُفْلِح بعدها أبدا ! هذه ناصيتى لك فٱجْزُزها وٱحتكم فى مالى ، فإن كنت لا بدّ فاعلا فسوّ بينى و بينه — فقال ٱنصرف فسوف أرىٰ رأْيِى : فخرج عامر وهو لايشك أنه سيفضله عليه ؛ ثم أرسل إلىٰ علقمة سرا ، وقال له مثل ماقال لعامر ، فردّ عليه علقمة بما ردّ به عامر وٱنصرف وهو لا يشك أنه ينفِّر عامرا عليه ؛ ثم إن هَرِما أرسل إلىٰ أخيه و بنى أخيه : إنى قائل غدا بين هذين الرجلين مقالةً ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عَشْر جزائر فلينحرْها عن علقمة ، وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرِّقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان نديدتى وأجعل — أى ندّى . وعماعما أى متفرقة .

هَرِم بخلس مجلِسَه وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتّى جلسا ، فقال لبيد :

يا هَرِمُ ٱبْنَ الأكْرمِينَ مَنْصِبا * إنَّكَ قَدْ وَلِيتَ أمْرًا مُعْجِبَا

فَٱحْكُمْ وصَوِّبْ رأىَ مَنْ تُصوِّبا * إنَّ الّذِى كُنْتَ عَلَيْـهِ تُرْتُبَـا

لَخَــــيْرُنا خالًا وأُمًّا وأَبَا * وعامِرٌ خَـيْرُهُمَـا مُرَكَّبَا

* وعامِرٌ أدْنىٰ لِقَيْسٍ نَسَبا *

فقال هَرِم : إنكما يابَنِى جعفر قد تحاكمتما عِنْدى وأنتما كرُكْبَتَىِ البعيرِ الفحلِ تقعان الأرض معا ، فليس منكما واحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكِلَاكما سيّدٌ كريم ، فعمد بنو هَرِم وبنو أخيــه إلىٰ تلك الجُزُر فنحرُوها حيث أمرهم هَرِم ، وفرّقوا بين الناس ، ولم يفضّل هرِم واحدا منهما علىٰ صاحبه ، وكره أن يجلُب بذلك شرًّا علىٰ الفتيين، وهما ٱبنا عم؛ فلما رأىٰ ذلك الأعشىٰ ، خرج وهو يقول :

شاقَكَ مِنْ قَتْــلَةَ أطلالُهــا * بالشَّـــطِّ فالوُتْرِ إلىٰ حاجِرِ

وقَــدْ رآها وَسْــطَ أتْرابِهــا * فى الحَىِّ ذِى البَهْجةِ والسَّامِرِ

إذْ هِىَ مِثْـلُ الغُصْـنِ مَيَّالَةٌ * تَرُوقُ عينَىْ ذِى الحِجَـا الزائرِ

كَدُمْيةٍ صُوِّرَ مِحْرابُهــا * بمُــذْهَبٍ فى مَرْمَرٍ مائرِ

تَشْفِى غلِيلَ النَّفْسِ لاهٍ بهــا * حَوْراءُ تَسْـبِى نَظَرَ النَّـاظر

عَهْدِى بها فى الحَىِّ قَدْ سُرْبِلَتْ * هَيْفاءُ مِثْــلُ المُهْرةِ الضَّامِر

مَمْشُــوقَةُ القَــدِّ غُلَامِيَّــةٌ * مَوْصُـــوفَةٌ بالخُلُقِ الطَّاهر

قَدْ نَهَد الثَّــدْىُ علىٰ نَحْرِها * فِى مُشْرِقٍ ذِى صُبُحٍ نائر

لَوْ أسْــنَدتْ مَيْتًا إلىٰ نَحْرِها * عاشَ ولم يُنْقَــلْ إلىٰ قابِرِ

حتّىٰ يقولَ النــاسُ مِمّــا رَأَوْا * يا عَجَبَــا للمَيِّتِ النَّــاشِــرِ

عَلْقَــمَ ما أنْتَ إلىٰ عامِرٍ * النــاقِضِ الأوْتارَ والوَاتِرِ

والفارسِ الخَيْل بِخَيْــلٍ إذَا * ثارَ غُبَارَ الكَبَّة الثَّائرِ

سُدْتَ بَنِي الأحوص لم تَعْدُهُمْ * وعامِرٌ سادَ بَنِي عامِــرِ

إنَّ الَّذِي فِيــهِ تَمَارَيْتُمَا * بَيِّنٌ لِلسَّامِعِ والنَّاظِرِ

حَكَّمْتُمُوهُ فقَضَىٰ بَيْنَــكم * أَبْلَجُ مِثْــلُ القَمر الزَّاهِرِ

لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ * وَلَا يُبَالِي غَبَنَ الخاسِرِ

فَأَعْجَبُ الدهرِ متىٰ سُوِّيا ؟ * كَمْ ضَاحِكٍ مِنْ ذا ومِنْ ساخِرِ ؟

فاقْنَ حَيَاءً أنتَ ضَيَّعتَه * مالَكَ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ عاذِرِ

ولَسْتَ بالأكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى * وَإِنَّمَا العِــزَّةُ لِلكاثِرِ

أَقُولُ لَمَّا جاءَنِي فَخْــرُه * سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ!

عَلْقَمَ لا تَسْفَهْ ولا تَجْعَلَنْ * عِرْضَــكَ للوارِدِ والصَّادِرِ

قَدْ قُلْتُ قَوْلا فقَضىٰ بَيْنَــكُمْ * وآعْــتَرَفَ المَنْفُورُ للنَّـافِرِ

وعاش هَرِم حتّىٰ أدرك خلافةَ عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هرم أيّ الرجلين كنت مفضِّلا لو فعلتَ ؟ فقال : لو قلتُ ذلك اليومَ يا أمير المؤمنين، عادَتْ جَذَعة، ولبلَغَتْ شَعَفَاتِ هَجَر — فقال عمر رضى الله عنه : "نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ أنتَ يا هَرِم! مِثْلَك فلْيَسْتَوْدِع العشيرةُ أسرارهم، وإلىٰ مثلك فلْيَسْتَبْضِع القومُ أحكامهم" .

قال أبو عبيدة : ومات علقمةُ بحَوْران وهو والى عُمَر بن الخطاب . وأما عامرُ آبنُ الطُّفَيل فأصابته دعوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته الغُدّة ومات فى بيت سَلُولِيَّة، فقال : أغُدّةٌ كغُدّة البعير وموتٌ فى بَيْت سَلُولِيَّة ؟

وفى هذه القصــة مَقْنَع فى المنافرة عن غيرها ، وفى كتاب "الريحان والريعان" لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاخرات والمنافرات :

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قد ذكر فى "حسن التوسـل" : أن الكاتب يحتـاج إلىٰ معرفة أيّام العرب، وتسمية الأيام التى كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة علىٰ الأخرىٰ، وما جرىٰ بينهم من الأشعار، والمناقضات، وذكر فارسٍ مشهور، أو ملِك مذكور، أو واقعة معينة لشخصٍ خاصّ، وما ادّعاه كل منهم لنفسه أو ليومه : لمـا فى ذلك من العلم بمـا يستشهد به من واقعة قديمة، أو يردُ عليه فى مكاتبة من ذكر يوم مشهور، أو فارسٍ معيَّن، ونحو ذلك مما مضىٰ عليه أمر الجاهلية، أو حدَث فى الإسلام؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع، عالمـا بما جرىٰ منها، لم يدر كيف يُجيب عما يَرِد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصـــــد الثـانى

(فى ذكر أيام من ذلك تُرْشد إلىٰ معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا، وأعظمها حربا . يوم خُزَاز (خُزَاز ٱسم جبـل بين البَصْرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرِفت به)؛ وكانت الحرب فيه بين بنى ربيعة الفَرَس، وهو ربيعة نِزار، وبين قبائل اليمن؛ وكانت الغلبة فيه لبنى ربيعة، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا، وكان قائدَ ربيعـة كُلَيبُ بن ربيعة ملكُ بنى وائل (وٱسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفَرَس؛ وكان قد مُلِّك علىٰ بنى معدّ وقبـائل

جموع العرب وهزمهم وعظُم شأنه ،وبقى زمانا من الدهر، ثم داخله زَهْو شديد، وبغىٰ علىٰ قومه فصار يحمِى عليهم مواقع السَّحاب، ولا يُرعىٰ حِماه، ويقول : وحْشُ أرض كذا فى جِوَارى ، فلا يُصاد، ولا تَرِدُ إبل مع إبله ؛ ولا تُوقَد نار مع ناره ؛ وبقِىَ كذلك حتّٰى قتله جَسَّاس بن مُرَّة الوائلىّ أيضا ؛ ولما قُتِل كُلَيب توالت الحروبُ بسبب قتله بين بنى تغلِبَ، وبين بكرٱبنى وائل؛ وكان قائدَ بنى تَغلِبَ مُهَلْهِل أخو كليب، وقائدَ بنى بكرمُرَّةُ أبو جَسَّاس المقدّم ذكره؛ فكان بينهم يوم عُنَيزَةَ، وتكافَأَ فيه الفريقان، ثم كان بينهم يوم وارِدَات، وٱنتصر فيه بنو تغلِبَ علىٰ بكر؛ ثم كان بينهم يوم الحِنْو، وٱنتصرت فيه بكر علىٰ تغلب، ثم كان بينهم يوم العُصَيَّات ، وٱنتصرت فيه تغلب علىٰ بكر، وأصيب بنو بكر حتّٰى ظنوا أنهم قد بادُوا، ثم كان بينهم يوم قِضَّةَ ، وهو يوم التحالُق كثُر فيه القتل بين الفريقين ، فى أيام أُخَر لم يشتدّ فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أُبَاغ ، وعَيْنُ أُبَاغ موضع يقال له ذات الخيار؛ وكان الحرب فيه بين غَسَّان ولَخْم، وكان قائدَ غسَّان الحارثُ الذى طلب أَدْرُعَ ٱمرئ القيس، وقيل غيره ، وكان قائدَ لخم المنذرُ بن ماء السماء بغير خلاف؛ وفى هذا اليوم قُتِل المنذر، وٱنهزمت لَخْم، وتبعتهم غَسَّان إلىٰ الحِيرَة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مَرْج حليمة، وكان بين غَسَّان ولخم أيضا؛ وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظُم الغُبار حتّٰى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكَدِيد، وكان بين كِنانةَ وسُلَيم، وٱنتصرت فيه سُلَيم علىٰ كنانة، وقتل فيه ربيعةُ بن مُكَدَّم فارسُ كنانة؛ وبه يضرب المثل فى الشجاعة؛ وكان يُعْقَر علىٰ قبره فى الجاهلية، ولم يُعْقَر علىٰ قبر غيره. ويوم الكُلَاب الأوّل؛ والكُلَاب موضع بين البصرة والكُوفة؛ وكان بين

الأخَوين : شَراحيل وسَلَمة ابنى الحارث بن عمرو الكندىّ؛ وشَراحيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرُهم، وسلمة الأصغر؛ وكان معه تغلب وائل وغيرهم، واشتدّ القتال بينهـم، وانتصر سلمة وتغلبُ علىٰ شراحيل وبكر، وانهزم شراحيـلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه . ويوم الكلاب الثانى، وكان بين بكر ووائل . ويوم أُوَارةَ، (وأُوَارة اسمُ جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن امرئ القيس ملك الحِيَرة، وبين مُنْذِر وائل بسبب الحِيَرة، وظفر فيه المنذر، وأقسم أنه لا يزال يذبَحُهم حتّى يسيلَ دمُهم من رأس أُوارةَ إلىٰ حَضِيضه، وبَقِي يذبَحُهم والدم يجمُد فسكب عليه ماء حتّى سال الدم من رأس الجبـل إلىٰ حضيضه، وبَرّت يمينه . ويوم رَحْرَحانَ، (ورَحْرَحانُ اسم واد بالحجاز) وكانت الحرب فيه بين الأحوص بن جعفر بن كلاب، وبنى دارِم، وبنى ماوِيَّةَ، وبنى مَعْبَد بن زُرَارة، وبنى تميم؛ وانهزمت فيه بنو تميم ومن معهم، وأُسِر مَعْبد بن زُرَارة؛ وقصـد أخوه لقيطُ بن زرارة أن يَسْتَفِكّه فلم يقدر، وعذّبوا معبَدا حتّى مات . ويوم شِعْب جَبَلة، وشِعْبُ جَبَلة هَضبة حمراء بين الشَّريف والشَّرف . وكان من شأنه أنه لمـا انقضت وقعة رحرحان المتقدّمة، ومضىٰ لها سنة، وذاك فى العام الذى وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، استنجد لقيطُ بنُ زُرارة التميمى بنى ذُبيان لثأر أخيه فأنجدته، وتجمعتْ بنو تميم غيرَ بنى سعد، وخرجتْ معه بنو أسد، وسار بهم لَقيط إلىٰ بنى عامر وبنى عَبْس فى طلب ثأر أخيه مَعْبَـدٍ، فأدخلتْ بنو عامر وبنو عَبْس أموالهـم فى شِعْب جَبَلَة، فحضرهم لقيط فخرجوا عليه من الشِّعب وكسروا جمائع لقيط وقتلوا لقيطا؛ وأسرُوا أخاه حاجب بن زُرَارة، وانتصرت بنو عامرٍ وبنو عَبْس نصرا عظيما؛ وقُتِل أيضا من بنى ذُبْيـان وبنى تميم ومن بنى أسد جماعة مستكثرة؛ وكان هذا اليوم من أعظم أيامهم . ويوم ذى قارٍ، وهو أقرب الوقائع المشهورة فى الجاهلية عهدا، وكان فى سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقيل عام بدر .

وكان من حديثه أن كِسرىٰ أبرويز غَضِب علىٰ النعمان بن المنـذر ملِك الحِيرَة ، فحبسه فهلَك فى الحبس ؛ وكان النُّعمانُ قد أودع حَلْقتَه (وهى السِّـلاح والدُّروع) عند هانِئ بن مسعود البكرىّ ، فأرسل أَبْرَوَيْز يطلبها من هانئ ، فقال هذه أمانة ، والحـرّ لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لمـا أمسك النعمان جعل مكانَه فى مُلْك الحِيرَة إياس بنَ قَبِيصـة الطائىّ ، فآستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافُل عن هانئ بن مسعود حتّى يطمئنَّ ونتبَعهُ فنُدْرِكه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك لا تَأْلُوه نُصْحا — فقال إياس : رَأْى الملِك أفضلُ ؛ فبعث أبرويز الهَزبرانَ[1] فى ألفين من الأعاجم ، وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكرَ بنَ وائل خبَرُهم أتوا مكانًا من بطن ذى قار ، فنزلوه ووصلت إليهـم الأعاجِم ، وآقتتلوا ساعة فآنهزمت الأعاجم هزيمة قبيحة ؛ فيروىٰ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خبّر بذلك أصحابَه ، فقال "اليومُ أوّلُ يوم آنتصفَ فيه العربُ من العَجَم وبى نُصِروا" .

ولأبى عُبَيدة مصنَّف مفرَد فى أيام العرب ، وقد أورد منها آبن عبد ربه فى كتاب "العقد" جملةً مستكثرَةً ، وفى آخر كتاب الأمثـال للميدانىّ نبذة محرّرة من ذلك ، وليس بنا حاجة إلىٰ آستيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وَقْعة الجَمَل ، وكانت بين علىّ كرم الله وجهه ، ومعه أهلُ الكوفة ، وبين عائشـةَ أمّ المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت راكبةً يومئذ علىٰ جمـل آسمه عَسْكر وبه عُرِفت الوقعة ، وقُتِل بين الفريقين خلقٌ كثير ، وكانت النُّصْرة فيه لعلىّ ومن معه .

ومنها وقعة صِفِّينَ ، وكانت بين علىّ كرم الله وجهه ومعه أهـلُ العِراق ، وبين معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهلُ الشام ، وكان آبتداؤها فى سـنة ست وثلاثين ، وكان مدّةُ مُقامهم بِصفِّين مائةً وعشرةَ أيام أوقعوا فيها وَقَعاتٍ كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ؛ وكانت عدّة القتلىٰ بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسةً وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ؛ وكان عمّار بنُ ياسرٍ مع علىّ رضى الله عنه ، وقاتل حتّى قُتِل ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : "يَقْتُلُ عمّارا الفِئَةُ الباغِيَةُ" ومضت عليهما مدّة ، وعلىّ رضى الله عنه علىٰ العراق ، ومعاوية علىٰ الشام ومصر إلىٰ أن قتل علىّ رضى الله عنه .

ولا حاجة بنا إلىٰ الخوض فى أكثَرَ من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهادهم ، والإمساك عما شجر بينهم واجب .

ومنها وَقْعة مَرْج راهِطٍ ؛ وكان من حديثها أنه لما هلك يزيدُ بنُ معاوية ، كان سعيدُ بن بَحْدَلٍ علىٰ قِنَّسْرينَ ، فوثب عليه زُفَر بن الحارث فأخرجه منها وبايع عبدَالله آبن الزُّبَيْر ، فلما قعد زُفَرُ علىٰ المِنْبر ، قال : الحمد لله الذى أقعدنى مَقْعَد الغادر الفاجِر وحَصِر ، فضَحِك الناس من قوله ؛ وكان حَسّان بن بحدل علىٰ فِلَسْطِين ، والأردُنّ ، فآستعمل علىٰ فلسطينَ رَوْح بن زِنْباع الجُذَامىّ ، ونزل هو الأردنَّ ، فوثب ناتل بن قيس الجُذَامىّ علىٰ رَوْح بن زنباع فأخرجه من فِلَسْطِين وبايع آبن الزبير ؛ وكان النعمانُ آبن بَشِير علىٰ حمص فبايع لآبن الزبير ، وكان الضَّحَّاك بن قيس علىٰ دمشق ، فجعل يقدّم رجلا ويؤخر أُخْرىٰ ، فقدِم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم علىٰ آبن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق علىٰ ذلك بنو أمية ، واليمانيُون ؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلىٰ بنى أمية تصدر إليهم ؛ وقال لمروان وعمرو بن سعيد : آكتبوا إلىٰ حسان بن بحدل فيسير من الأردن حتّى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتّى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ؛ فلما آستقلت رايات الضحاك من دمشقٍ ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلىٰ بيعة آبن الزبير ، وهو رجلٌ هذه

الأمة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلىٰ إظهار بيعة آبن الزبير، وسار حتّٰى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتّٰى لقى مروان، فسار مع مروان حتّٰى لَقَوُا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك فى نحو ثلاثين ألفا وآقتتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصـــد الثالث

(فى كيفية آستعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع فى كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من[1] المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومَنْ يعدّ من فُرْسان حروبها، ومصاقِع خطبائها، ومُفْلِقى شعرائها، وما جرىٰ بينهم فى ذلك من الخُطَب والأشعار والمناقضات، كان مستعدّا لما يَستشهِد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه فى مكاتبة : أو شعر : من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معيَّن، كما قال أبو تمام الطائىّ يمدح بنى شَيْبان :

إذا آفتَخَرَتْ يومًا تَميمٌ بقَوسِها * وزَادَتْ عَلىٰ ما وَطَّدَتْ مِنْ مَناقِب

فَأنتم بِذِى قارٍ أمالَتْ سُيُوفُكُمْ * عُرُوشَ الَّذِين آسْترهَنُوا قَوْسَ حاجِبِ

يشير إلىٰ أن حاجب بن زُرَارة التميمىّ وفد علىٰ كسرىٰ فى سنة جَدْب فقال الحاجب مَنْ أنتَ؟ قال رجل من العرب، فلما دخل علىٰ كسرىٰ قال له من أنت ؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب — ؟ قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدى الملك سُدْتُهم ، فملأ فمه دُرّا ، وشكا إليه مَحْلَ الحجاز، وطلب منه حِمْل ألف بعير بُرّا علىٰ أن يعيد قيمتَها، — فقال وما ترَهَنُنى علىٰ ذلك — قال قَوْسِى، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْل ألف بعير بُرّا ، ومات حاجب فأحضر بَنُوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمـام فى بيتيه إلىٰ هذه المنقبة : يقول يابنى شَيْبانَ فى يوم ذى قار أبدتم جيوش كسرىٰ الذى ٱسترْهنَ قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" فى خطبة كتابه "قلائد العقيان": لو جاوره كُلَيْب ما طرق حِمَاه، أو ٱستجار به أحد من الدهر حَمَاه ؛ أو كان بوادى الأخْرم ، لطاف به ربيعــةُ وأحرم ؛ أو ٱستنجده الكِنْدىُّ ما كساه المُلاءه ، أو كان حاضرًا بِسطام لمـا خرّ علىٰ الألاءه .

وكما قلت فى المفاخرة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الزينىّ أبى يزيد الدوادار الذى من أجله وضعت "فلو لقِيَه فارسُ عَبْس لولّى عابسا ، أو طرق حِمىٰ كُلَيْب لبات من حِمَـاه آيسا ؛ أو قارعه رَبيعة بنُ مكَدَّم لعلا بالسيف مَفْرَقه ؛ أو نازله بِسْطامٌ لبدّد جمعه وفرّقه" .

إلىٰ غير ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ وينتظم فى هذا السلك .

قال فى "حسن التوسل" : وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من هذه الأيام، عالمـا بمـا جرىٰ فيها ، لم يَدْر كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك نقصا فى صناعته ، وقصورا عما يتعين عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه[1] .

وأما الوقائع التى وردت فى حوادثَ خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن الأثير" رحمه الله فى "المثل السائر": إنها كالأمثال فى الاستشهاد بها وذكر لها أمثلة . منها قوله من كتاب : ولا يُعدّ البرّ برّا حتّى يلحق الغُيَّب بالحضور ، ويصل مَنْ لم يَصِله بجزاء ولا شُكور ؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابتْ شِمَال[2] رسول الله عن يمين عثمان . يشير إلىٰ أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فى بيعة الحديبية

(١) لعل من زائدة من قلم الناسخ . (٢) فى بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمانَ بنَ عفّان رضى الله عنه إلىٰ مكة فى حاجة ، ولم يحضر البيعةَ ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بيده الشِّمالِ علىٰ اليمين وقال "هذه عَنْ عُثْمان وشِمالِى خَيْرٌ مِنْ يَمينه" .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة :"وإذا آستعْنت بأحد علىٰ عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بمـا عرفته منْ مبدإ حاله ، فإن الأحوال تنتقل بِنَقْل الأجساد ، وإياك أن تُخْدَع بصلاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطاب بالرَّبيع بن زياد .

يشير بذلك إلىٰ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعىٰ أبا موسى الأشعرىَّ ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثىُّ ، فذهب الربيع بن زياد إلىٰ بعض موالى عمرَ وسأله عمـا يَرُوج عنده ويَنْفَق عليـه ، فأشار إلىٰ خُشُونة العيش فمضىٰ، ولَبِس جُبَّة صوف ، وعمامةً رثّاء ، وخُفًّا مطابَقا، وحضر بين يديه فى جملة العُمَّال ، فصوّب عمرُ نَظَره وصـعَّده فلم يقع إلا عليـه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصىٰ أبا موسىٰ الأشعرىَّ به .

ومنها قوله فى معارضة كتّاب القاضى الفاضل إلىٰ ديوان الخلافة يُعَدِّدفيه مساعىَ الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" وما قاساه فى الفتوح من الأهوال وهو : ومن جملتها ما فعل الخادم فى الدولة المصرية . وقد قام بها مِنْبر وسَرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير، فردّ الدَّعوة العباسيَّة إلىٰ مَعَادها ، وأذكر المنابر ما نسيَتْه بها من زَهْو أعوادها . يشـير بذلك إلىٰ ما تقدّم من آجتماع الأنصار فى اليوم الذى مات فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم، فى سَقيفة بنى ساعدة إلىٰ سعد بن عُبادة، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وقال الحباب بن المنذر : مِنّا أَميرٌ ومنكم أمير، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا، ولكنَّا الأمراءُ وأنتم الوزراء . إلىٰ غير ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ وينتظم فى هذا السِّلك .

النـــــوع الرابع عشــــــر
(فى أوَابد العـــرب)

وهى أمور كانت العرب عليها فى الجاهلية، بعضها يجرى مجرىٰ الديانات، وبعضها يجرى مجرىٰ الأصطلاحات والعادات، و بعضها يجرى مَجْرىٰ الخُرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهى عدّة أمور :

منها الكَهَانة ، وكان موضوعها عندهم الإخبارَ عن أمور غيبية بواسطة ٱستراق الشياطين السمعَ من السماء، و إلقاء مايستمعونه من الغيْبيَّات إليهم . وقد كان فى العرب قبل البِعْثة عدّةُ كَهَنة تعتمد العرب كلامهم، و يرجعون إلىٰ حكمهم فيما يُخْبِرُون به .

ومن عجيب أخبارهم فى ذلك أن هنـدَ ٱبنة عُتْبة بنِ رَبيعة كانت تحت الفاكه ابن المغـيرة المخزومىّ، وكان له بيت للضـيافة يغشاه النـاس من غير إذن ، فخـلا البيت يَوما فٱضطجع الفاكهُ هو وهند فيه، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشىٰ البيت فولجه فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبـل إلىٰ هند فركضها برجله وهى نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذى خرج من عندك — فقالت لم أَرَ أحدا وأنت الذى أنبهتنى — فقال لهـا آذهبي إلىٰ بيت أبيـك فأقيمى عنده ! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قد رميت ٱبنتى بأمر عظيم، فحاكمنى إلىٰ بعض كُهَّان اليمن، فخرجا فى جماعة من قومهما إلىٰ كاهن من كُهَّان اليمن ومعهما هند ونسوة أُخَر، فلما شارَفُوا بلادَ الكاهن، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بَشَرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يَسِمَنى مِيسمًا يكون علىّ سُبَّة — فقال أبوها سأختبره لكِ فصفَّر لفرسه حتّى أدلىٰ، فأدخل فى إحليله حبةَ حنطة وشـدّ عليها بسير، فلما دخلوا علىٰ الكاهن، قال له عتبة : إنا قد جئناك فى أمر وقد خَبَأت لك خَبْأ أختبرك به فانظر ماهو فقال ثَمرة فى كَمَرة — فقال أريد أبينَ من هذا — فقال حبـة برّ ، فى إحليل

مُهْر — فقال له ٱنظر فى أمر هؤلاء النِّسوة، فجعل يدنُو من إحداهنّ فيضربُ بيده علىٰ كتفها ويقول ٱنهَضِى حتّٰى دنا من هند فقال لهـا : ٱنهضى غير رَسْحَاءَ[1] ولا زانيه ولَتَلِدِنّ ملِكا ٱسمُه معاويه؛ فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبتْ يدَها من يده، وقالت إليك عَنِّى ! فوالله لأَحْرِصُ علىٰ أن يكُونَ من غَيْرك ، فتزوّجها أبو سفيان ابنُ حرب فولدت له معاويةَ ، فكان من أمره ما كان إلىٰ أن ٱنتهت به الحال إلىٰ الخلافة . وقد أخبر جماعة من الكَهَنة بمَبْعَث النبيّ صلى الله عليه وسلم قُربَ ظهوره منهم سَطِيح الكاهن وغيره .

ولمـا بُعثَ النبيّ صلى الله عليه وسلم، حُرِست السماءُ ومُنعت الشياطين من ٱستراق السمع كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدا﴾ .

ومنها الزَّجْر والطِّيرَة : وهما فى معنًى واحد؛ وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركَه زجروا الطير حتّٰى يطير ؛ فإن طار يمينا كان له حكم، وإن طار شمالا كان له حكم، وإن طار أماما كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم؛ ومن ثَمَّ سميت الطِّيَرة أخذا من ٱسم الطير؛ وأكثر ماعوّلوا عليه من ذلك الغرابُ، ثم تعدَّوْه إلىٰ غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلىٰ ما يحـدُث فى الجمـادات من كسر أو صَدْع أو نحو ذلك؛ وربمـا ٱنتهىٰ بعض الزجر إلىٰ حدّ الكَهَانة .

وممـا يحكى من زجر الطير أن رجلا من لِهْبٍ : وهم بطن من العرب يُعرَفون بالعِيَافة ، خرج فى حاجة له ، ومعه سـقاء من لبن فسار صَـدْرَ يومه فعطِش فأناخ ليشربَ فإذا غُراب فنَعَب فأثار راحلتـه ، ثم سـار حتّٰى كان وقتُ الظهيرة أناخ ليشرب ، فنَعَب الغراب وتمرّغ فى التراب ، فضرب الرجل السِّـقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرسحاء بالمهملات من النساء القبيحة ووقع فى الأصل بإعجام الشين وهو تصحيف فآحذره .

ثُعبان عظيم فقتله ، ثم سار فإذا غراب واقع علىٰ سِدْرة فصاح به فوقع علىٰ سَلَمة ، فصاح به فوقع علىٰ صخرة فٱنتهىٰ إليها ، فأثار من تحتها كنزا ؛ فلما رجع إلىٰ أبيه قال له ما صنعت؟ قال سِرْت صَـدْرَ يومى فأنختُ لأشرب فنعب الغراب — فقال : أثِرْ راحلتك و إلا فلست بِٱبْنِى — قال فعلت — قال ثم ماذا؟ قال سرت حتّٰى وقت الظهيرة فأنخت لأشرب فنعَبَ الغراب ، وتمرّغ فى التراب — فقال ٱضرب السِّقاء و إلا فلست بٱبنى . قال فعلت ؛ فوقع علىٰ صخرة قال أثِرْ ماتحتها و إلا فلستَ بابنى . قال فعلت ؛ فوجدت كنزا .

وقد وردت السـنة بإبطال حكم الزجر والطِّيَرة بقوله صلى الله عليه وسلم "أقِرُّوا الطَّيْرَ فى وُكُناتها" وقوله صلى الله عليه وسلم "لا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ" وٱستحسن صلى الله عليه وسلم، الفأْل فقال "ويُعْجِبُنِى الفَأْلُ وهى الكلمة الطَّيِّبة أسمعها". وقد فرق العلماء بين الفال والطيرة بأن الطيرة تُقْصَد والفال يأتى من غير قصد .

ومنها المَيْسِر : وهو ضرب من القِمار كانوا يقتسمون به لحمَ الجُزُر التى يذبحونها بحسب قِدَاح يضربُونها ، لكل قِدْح منها نصيب معلوم : وهى أحد عشر قِدْحا : سبعة منها لها حظ إن فازتْ وعليها غرم إن خابتْ بقدر مالها من الحظ عند الفوز ، وأربعة منها تُثَقَّل بها القداح لا حظَّ لها إن فازت ، ولا غرم عليها إن خابت . فأما السبعة التى لها الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأوّلها الفَذُّ : وهو قِدْح فى صَـدْره حَزٌّ واحد ، وله نصيب واحد فى الأخذ والغُرْم . والثـانى التَّوءَم ، وفى صـدره حَزَّان ، وله نصيبان فى الأخذ والغُرْم . والثالث الضَّرِيب (ويسـمّٰى الرقيب) وفيه ثلاثة حزوز ، وله ثلاثة أنصباء . والرابع الحِلْس وفيه أربعة حزوز وله أربعة أنصباء . والخامس النافِسُ وفيه خمسة حُزُوز ، وله خمسة أنصباء . والسادس المُسْبِل ، ويسمّٰى المُصْفَح أيضا ، وفيه ستة حزوز وله ستة أنصباء . والسابع المُعَلّٰى ،

وفيه سبعة حزوز ، وله سبعة أنصباءَ ، وهو أوفرها حظًّا ، ولذلك يُضربُ به المثــل في الحظ فيقال قِدْحُه المُعَلّى .

وأما الأربعة التي تُثَقَّل بها القداح فهي السَّفِيح ، والمَنِيحُ ، والمُضَعَّف ، والوَغْد ، وكان طريقهم في ذلك أن القوم يجتمعون فيشــترُون جَزُورا فينحَرُونها ويُفَصِّلُونها علىٰ عشرة أجزاء ، ويسْتَهِمُون فيها علىٰ سبعة أنصباء لا أكثر ، وتسمى الأنصباء فيها الأيْسار ، فإن كانوا أقلَّ من ســبعة وأراد أحدهم قِدْحين أو أكثر ، أخذ وكان له فوزها ، وعليه غرمها ؛ فإذا جزءوا الجزور علىٰ ذلك ، أتَوْا برجل يسمونه الحُرْضَة [1] ، من شأنه أنه لم يأكُلْ لحمــا قطُّ بثمن ، ويؤتىٰ بالقداح فتشَــدُّ مجموعة في قطعة جلد تســمّى الرِّبابَةَ ، ثم يَلُفُّ الحُرْضَــةُ علىٰ يده اليمنىٰ ثوبا لئلا يجد مس قِدْح ، له مع صاحبه هوًى فيحابيه في إخراجه ، ثم يؤتىٰ بثوب أبيض يسمّى المِجْوَلَ ، فيُبْســط بين يدَيِ الحُرْضة ، ويقوم علىٰ رأسه رجل يسمّى الرَّقِيب ، ويدفع رِبابة القِدَاح إلىٰ الحُرْضَة ، وهو محوَّلُ الوجه عنها ، فيأخذ الرِّبابة التي تُجمع فيها القِدَاحُ ، ويدخل يدَه تحت الثَّوب فينكر القداح فاذا نهد فيها قِدْح يناوله دُفْعة إلىٰ الرقيب ، فإن كان ممــا لَاحظّ له ، ردّ إلىٰ الرِّبابة فإن خرج بعــده المُسْبِل مثــلا أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر ، وعلىٰ ذلك أبدا يُفْعل بمن فاز ومن خاب ، فربمــا نحروا عِدّة جُزُر ، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا ، وإنمــا الغُرْم علىٰ الذين خابوا ، وكان عندهم أنه لايحل للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا ؛ فإن فاز قِدْح الرجل فأرادوا أن يُعيدوا قدحه ثانية علىٰ خطإ فعــلوا ذلك به ؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عَبَّاد أسماء القداح التي لها النصيب فَوْزا وغرما في أبيات فقال :

---

(١) الحرضة بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين . ووقع في الأصل الحوصة بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النساخ فاحذره .

إنَّ القِـداحَ أَمْرُها عَجِيبُ * الفَـــذُّ والتَّـوْءم والرَّقِيب
والحِلْسُ ثم النافِسُ المُصِيب * والمُصْفَحُ المشتهِرُ النَّجِيب
ثم المُعَـــلَّى حَظُّه الرَّغِيبُ * هَاكَ فَقَدْ جَاء بهـا الترتيبُ

ومنها الأزلام : وهى ضرب من الطِّيَرة، كانوا إذا أرادوا فعـل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه، أخذوا قِدَاحا مكتوبًا على بعضها آفعل، لاتفعلْ، وعلى بعضها نعم، وعلى بعضها لا، وعلى بعضها خُذْ، وعلى بعضها سِرْ، وعلى بعضها سريع، فإذا أراد أحدهم سـفَرا مثلا أتى سادنَ الأوثان؛ فيضرب له بتلك القِداح ويقول : اللهـم أيُّها كان خيرا له فأخرِجْه فما خرج له عمل به، وإذا شكُّوا فى نسب رجل أجالوا القداح وفى بعضها مكتوبٌ صريح، وفى بعضها مكتوب مُلْحق؛ فإن خرج الصريح أثبتوا نسـبَه، وإن خرج المُلْحَق نَفَوْه . وإن كان بين آثنين آختلاف فى حق سمّى كل منهما له سهما وأجالوا القِدَاح فمن خرج سهمُه فالحق له وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحيرة، والسائِبَةُ، والوَصِيلة، والحامِى .

فأما البَحِيرة، فكانت الناقة إذا أُنْتِجتْ خمسة أبطن عَمَدُوا إلى الخامس منها مالم يكن ذكرا فشَقُّوا أذنها وتركوها، فلا يُجَزُّ لها وبر، ولا يُحْمَل عليها شىء ولا يُذْكَر عليها إن ذُكِّيت آسمُ الله تعالى، وتكون ألبانُها للرجال دون النساء .

وأما السائبة فكان الرجل يُسيِّب الشىء من ماله : بهيمةً أو عبدا، فيكون حراما أبدا وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصِيلة فكانت الشاة إذا ولدتْ سبعةَ أبطن عمَدُوا إلى السابع فإن كان ذكرا ذُبح، وإن كان أنثى تُركت فى الغنم، وإن كان ذكرا وأنثى قيل وصلتْ أخاها فحَرُما جميعا، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرةُ أبطن، قالوا حَمىٰ ظهره، فيُترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركَب، ولا يُمنَع ماءً، ولا مرعًى؛ وقد أخبر الله تعالىٰ ببطلان ذلك بقوله: ﴿ماجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حامٍ﴾.

ومنها إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمد إلىٰ البعير الذى كملت به مائة فأغلق ظهره بأن ينزِعَ شيئا من فقراته ويعقر سنامه كى لا يُركَب ليُعلم أن إبل صاحبه قد أمْأَتْ.

ومنها التَّفقِئة، والتَّعمِيَة. كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل: وهى التفقئة، فإن زادتْ علىٰ ذلك فَقَأ العينَ الأخرىٰ وهى التعمية، ويزعُمون أن ذلك يدفع العين عن الإبل قال الشاعر:

وَهَبْتَها وأنتَ ذُو ٱمتنانِ * تُفْقَأ فيها أعْيُنُ البُعْرانِ

ومنها نكاح المَقْت: وهو نكاح زوجةِ الأبِ — وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا مات قام أكبرُ ولده، فألقى ثوبَهُ علىٰ ٱمرأة أبيه فورِث نكاحَها، فإن لم يكن له فيها حاجة يُزَوّجها بعض إخْوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثُون النكاح كما يرِثُون المال، فأنزل الله تعالى ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهًا﴾، وحرم زوجة الأب بقوله ﴿وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءاباؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ إلَّا مَا قَد سَلَفَ إنَّه كانَ فَاحِشَةً ومَقْتًا وسَاءَ سَبِيلًا﴾ ومن ثَمَّ سمى نكاحَ المَقْت.

ومنها رَمْىُ البعرة: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجُها، دخلَتْ حِفْشا (يعنى خُصًّا) ولبستْ شَرَّ ثيابها ولم تَمَسّ طِيبا حتّى تَمضِىَ عليها سنةٌ، ثم يُؤْتى بدابة: حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفْتَضُّ به أى تَمَسّح به فقلّما تَفْتَضُّ بشىء إلا مات، ثم تخرُج بعد ذلك فتُعْطىٰ بعرةً فترمى بها، ثم تُراجع ما شاءت من طيب أو غيره فنَسَخ

الإسلامُ ذلك بقوله تعالىٰ ﴿ والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أربعةَ أَشْهُرٍ وعَشْرا ﴾ .

ومنها وَأْدُ البنات (وهو قتلهنّ) . كانوا يقتلوهنّ خشيةَ العار، وممن فعل ذلك قيس ٱبن عاصم المِنْقرىّ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المـال ، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسبَوْا ذراريّهـم فأناب القومُ وسألوه فيهم فقال النعمان : كل ٱمرأة ٱختارت أباها رُدّت إليـه، وكل من ٱختارت صاحبها تُرِكت معه ، فكلهنّ ٱخترن آباءهنّ إلا ٱبنةً لقيس بن عاصم فإنها ٱختارت صاحبها عمرو بن الجَمُوح، فنذر قيس أنه لا يولَدُ له ٱبنة إلا قتلهـا فكان يقتلهنّ بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿ وإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشيةَ الإمْلاق والفاقة، فكان الرجل منهم يقتُل ولده مخافة أن يَطْعَمَ معه إلىٰ أن نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك بقوله ﴿ ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبِيرًا ﴾ .

ومنها حَبْس البَلَايا ، كانوا إذا مات الرجل يَشُدّون ناقتَه إلىٰ قبره ويُقْبِلون برأسها إلىٰ ورائها ويُغَطُّون رأسها بولية (١) وهى البرذعة فإذا أفلتت لم تردّ عن ماء ولا مرعًى ، ويزعُمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشِرتْ معه فى المَعَاد ليركبها قال أبو زبيد (٢) :

كالبَـلَايَا رُءُوسُها فى الوَلَايَا * مانحاتِ السَّمُوم حُرَّ الخُدُودِ

ومنها الهـامَةُ — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قُتل ولم يطالَبْ بثأره، خرج من رأسِه طائر يسمّى الهـامَةَ ، وصاح : ٱسْقُونِى ٱسـقُونِى حتّى يُطالَبَ بثأره ، قال ذو الأصبع :

(١) فى الأصل بزلية وكذلك جمعها فى البيت زلايا وهو تصحيف فٱحذره .
(٢) فى الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يا عَمْرُو إلَّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي * أَضْرِبْكَ حتَّى تقُولَ الهامَةُ ٱسْقُونِي

ومنها تأخير البكاء على المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يَبْكِين المقتولَ منهم حتّى يؤخَذَ بثأره، فإذا أُخذ به بكَيْنه حينئذ، قال الشاعر:

مَنْ كانَ مَسْرُورًا بمَقْتَلِ مالِكٍ * فَلْيأْتِ نِسْوَتَنَا بوَجْهِ نَهارِ

يَجِدِ النِّساءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَه * يَلْطِمْنَ حُرَّ الوجْهِ بالأَسْحارِ

ومنها تَصْفِيق الضالِّ — كان الرجل منهم إذا ضلَّ فى الفَلَاة، قلب ثيابَهُ وحبَس ناقته وصاح فى أُذُنها كأنه يُومِئ إلى إنسان وصفَّق بيديه قائلا: الْوَحَا الْوَحَا النَّجاء النَّجاء هيكل: الساعةَ الساعةَ إلىّ إلىّ عجِّل، ثم يحرّك ناقته فيزعمون أنها تهتدى إلى الطريق حينئذ. قال الشاعر:

وآذَنَ بالتَّصْفِيقِ مَنْ ساءَ ظَنُّهُ * فلم يَدْرِ مِنْ أىِّ اليَدَيْنِ جَوابُها

يريد إذا ساء ظنُّه بنفسه حين يَضِلُّ.

ومنها الغُول — كانوا يزعمون أن الغُولَ تَتَراءى لأحدهم فى الفلاة فيتبعُها فتستهويه؛ وربما ٱدّعى أحدهم أنه قابلها وقاتلها قال تأبط شرًّا:

أَلَا مَنْ مُخْبِرٌ فِتْيانَ فَهْمٍ[1] * بما لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بِطَانِ

بأَنِّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى * بِسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فقُلْتُ لَهَا كِلَانا نِضْوُ أَرْضٍ * أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّى لِى مَكانِى

فشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فأَهْوَتْ * لها كَفِّى بمَصْقُولٍ يَمانِى

فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فخَرّتْ * صَرِيعًا لليَدَيْنِ وللجِرانِ

ومنها ضَرْب الثور ليشرب البقرُ — كانوا يزعمون أنّ الجنّ تركَبُ الثِّيرانَ فتصُدّ البقر عن الشرب، فيضربون الثورَ ليشرَبَ البقرُ، قال الشاعر:

(١) فى نسخة فهر. وفى ياقوت قومى. وقوله فى البيت الثانى بسهب فى الأصل بسيف وهو تصحيف.

كَذَاكَ الثَّوْرُ يُضْرَبُ بالْهَرَاوَى(١) * إذا ما عافَتِ البَقَـــرُ الظِّماءُ

ومنها تعليق سِنّ الثَّعْلب وسنّ الهرّة وحيض السَّمُرة — كانوا يزعمون أن الصبيّ إذا خيف عليه نظرةٌ أو خَطْفة فعُلِّق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه؛ قالت امرأة تصف ولدا :

كانَتْ عَلَيْهِ سِـــنَّةٌ مِنْ هِرَّه * وثَعْلَبٍ والحيضُ حَيْضُ السَّمُره

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلّقونه على أنفسهم، ويزعمون أنه وِقايةٌ من العين والسِّحر، قائلين إن الجنّ تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر :

ولا يَنْفَعُ التَّعْشِـيرُ إن حُمَّ واقِعٌ * ولا وَدَعٌ يُغْنِي ولا كَعْبُ أرْنَبِ

ومنها تعليق الحُلِيِّ على السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا لُسع فيهم إنسان عَلَّقوا عليه الحُلِيَّ من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيُفِيق، قال النابغة :

يُسَهَّدُ من وَقْتِ العِشاء سَلِيمُها * لِحَلْيِ النِّساء في يَدَيْهِ قَعَاقِعُ

ومنها وطء المَقَالِيت القَتْلىٰ — كانوا يزعمون أن المرأة المِقْلاتَ (وهي التي لا يَعيش لها ولد) إذا وَطِئت قتيلا شريفًا بقي أولادها، قال بشر بن أبي خازم :

يَظَلُّ مَقَالِيتُ النِّساء يَطَأْنَهُ * يَقُلْنَ ألا يُلْقىٰ على المَرْءِ مِئْزَرُ

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طَرَف عين صاحبه فهاجتْ فمسح الطارفُ عينَ المطروف سبع مرات يقول في كل مرة: بإحدىٰ جاءت من المدينة : باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة إلىٰ سبع سكن هَيَجانها .

---

(١) في الأصل بالهوادى وهو تصحيف فأحذره .

ومنها كىّ السليم من الإبل ليبرأ الجَرِب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الجرب) فكَوَوْا صحيحا إلىٰ جانبه ليشَمَّ رائحتـه برئ ، وربمـا زعموا أنه يؤمَنُ معه العدوىٰ، قال النابغة :

وكَلَّفتنِي ذَنْب ٱمْرِئٍ وتَرَكْتَـهُ * كذِى العُرِّ يُكْوىٰغَيْرُهُوهو راتِـعُ

ومنها ذَهَاب الخَدَر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجُل إذا خَدِرتْ رجله فذكر أحبَّ الناس إليه ذهب عنه الخَدَر، قالت ٱمرأة من كلاب :

إذاخَدِرَتْرِجْلىذَكَرْتُٱبنَمُصْعَبٍ * فإنْ قُلْتُ عَبْدَ الله أجْلَى فُتُورَها

ومنها الحَلَى(١) عن الصبيان بجِبَاية الحىّ و إطعامه الكلابَ — كانوا يَرَوْن أن الفتىٰ إذا ظَهَر فيه الحَلَى بشَفَته (وهى بُثُور تنبُت بالشَّفَة) فيأخذ منخلا علىٰ رأسه ويمرّ بين بيوت الحىّ وينادى الحَلَى الحَلَى فيُلْقَى فى منخله من هنا تَمْرة ، ومن هنا كِسرة، ومن هنا قطعة لحم فإذا ٱمتلأ نثره بين الكلاب فيذهَب عنه الحَلَى .

ومنها شقُّ الرداء والبُرْقع ، لدَوَام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحبَّتْ رجلا أو أحبها ولم تَشُقَّ عليه رداءَه ويشُقَّ عليها برقُعَها فسد حبُّهما ، قال الشاعر :

إذا شُـقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ بُرْقُعٌ * دَوَالَيْـكَ حتَّى كُلُّنا غيرُ لابِسِ

فكَمْ قَدْ شَقَقْنا من رداء مُحَبَّرٍ * ومِنْ بُرْقُعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عانِسِ

ومنها رمى سن الصبىّ المُثغِر فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أثْغَر فرمىٰ سنَّه فى عين الشمس بسبَّابته و إبهامه وقال أبدلينى بها أحسن منها ، أَمِن علىٰ أسنانه العَوَج والفَلَج والنَّغَل، قال طَرَفة :

بَدَّلَتْه الشَّمْسُ مِنْ مَنْبِتِـه * بَرَدًا أبيضَ مَصْقول الأُشُر

(١) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجلَ إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشَّر كما ينهق الحمــار ثم دخلها ، لم يصبه وباؤها ، قال عُرْوة ابن الورد :

لَعَمْرِى لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدى * نُهــاقَ حَمِيــرٍ إنّنِى لجَــزُوع

ومنها عَقْد الرَّتَم — وهو نَبْت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عَمَد إلى رَتَم فعقده فإن رجع ورءاه معقودا، اعتقد أن امرأته لم تَخُنْــه ، وإن رءاه محلولا اعتقد أنها خانته، قال الشاعر :

خانَتْه لَمَّا رأتْ شَيْبًا بمَفْرِقه * وغَرَّه حِلْفُها والعَــقْدُ للرَّتَم

ومنها اعتبار دائرة المهْقُوع — وهى دائرة تكون فى عنق الفرس[(١)] يقال لهـا الهَقْعة على ما يأتى ذكره فى الكلام على الخيل فى الطَّرَف الآتى — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عَرِق تحت صاحبه اغتلَمَتْ حليلته، وطَلَبت الرجال، قال الشاعر :

إِذَا عَرِقَ المَهْقُوعُ بالمَرْءِ أنْعظَتْ * حَلِيلَتُــه وازْدادَ حَرًّا عِجَانُها

ومنها خِضَاب نحر الفرس السابِق — كان من عادتهم إذا أرسلُوا خَيْلا على صَيْد فسبَق أحدُها خضبوا صدره بدَمِ الصيد علامةً له ، قال الشاعر :

كأنَّ دِماءَ العاوِيات[(٢)] بنَحْــرِه * عُصارَةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّل

ومنها جزناصــية الأسير — كانوا اذا أسروا رجلا ثم منُّوا عليــه فأطلقوه، جَزُّوا ناصيته ووضعُوها فى كنانة، قالت الخنساء .

جَزَزْنا نَواصِىَ فُرْسانِهِمْ * وكانوا يَظُنُّون أن لاتُجَزَّا

---

(١) فى اللسان فى زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتى تفسيره بذلك فى الدوائر .

(٢) فى نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر
(فى معرفة عادات العرب، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" للعرب ثلاثَ عَشْرةَ نارا .

الأُولىٰ نار المزدلفة — وهى نار تُوقَد بالمزْدلِفة من مشاعر الحج ليراها مَنْ دفع من عرفةَ . وأوّل مَنْ أوقدها قُصَىّ بن كلاب، فهى تُوقَد إلىٰ الآن .

الثانية نار الآستمطار — كانوا فى الجاهليــة الأُولىٰ إذا آحتبس المطرُ جمعوا البَقَر وعَقَدُوا فى أذنابها وعراقيبها السَّلَع والعُشَر، ويُصَعِّدون بها فى الجبل الوَعْر، ويُشْعِلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر، قال الشاعر :

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً * وَسِيلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرِ

الثالثة نار الحِلْف — كانوا إذا أرادوا عَقْد حِلْف أوقدوا النــار وعقدوا الحلف عندها، ويذكُرون خيرها، ويدعُون بالحِرْمان من خيرها علىٰ من نقَضَ العهدَ، وحلّ العقْد . قال العسكرىّ "وإنمـا كانوا يخُصُّون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالإنسان، لا يشاركه فيها شيء من الحيوان غيره" .

الرابعة نار الطَّرْد — وهى نار كانوا يُوقِدونها خَلْف مَن يمضِى ولا يحبُّون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا علىٰ جبلهم ليبلغَ الخبرُ أصحابَهم .

السادسة نار الحرَّتين : كانت فى بلاد عَبْسٍ فإذا كان الليل تضيء نار تسطع

وفى النهار دخان مرتفع ، وربمـا بَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مرّ بها ، فحفر خالدُ بنُ سنان النبيُّ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِى — تُرْفَع للتقفّر فيتبعها فتهوِى به الغُولُ علىٰ زعمهم كما تقـدّم فى الكلام علىٰ أوابد العرب .

الثامنة نار الصيد — وهى نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد — وهى نار توقد إذا خافوا الأسَدَ لينفِر عنهم فإن من شأنه النِّفارَ عن النار، يقال إنه إذا رأىٰ النار حدث له فكر يصدّه عن قصده .

العاشرة نار القِرىٰ — وهى نار تُوقَد ليلا ليراها الأضياف فيهتدوا إليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقِدون النار للملسوع إذا لُدِغ يُساهِرونه بها ،وكذلك المجروح إذا نَزَف دمُه ،والمضروب بالسِّياط ومن عضَّه الكلب كى لايناموا فيشتدّ الأمر بهم فيؤدّيهم إلىٰ الهلَكَة .

الثانية عشرة نار الفِداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفِـداء أو الآستيهاب فيكرهون أنـ يَعْرِضوا النساء نهارا فيفتضِحْن أو فى الظلمة فيخفىٰ قدر مايحبِسُونه لأنفسهم من الصَّفِىّ، فيوقدون النار لعَرْضهنّ .

الثالثة عشرة نار الوسم — وهى النار يَسِم بها الرجل منهـم إبله فيقال له ماسمة إبلك؟ فيقول كذا :

الصـــنف الثـانى

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقيمونها فى شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلىٰ بعض ويحضُرها سائر قبائل العرب : ممن قَرُب منهم وبعُد . فكانوا ينزلون دُومة الجَنْدل

أوّل يوم من ربيع الأوّل، فيُقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يَعْشُوهم فيها أُكَيْدِرُدُومةَ — وهو ملكها — وربما غلب على السوق كَلْبٌ، فيعشُوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلىٰ آخر الشهر . ثم ينتقلون إلىٰ سُوق هَجَر من البحرين فى شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقهم بها، وكان يعشُوهم فى هذا السوق المنذرُ بن ساوىٰ أحد بنى عبد الله بن دارم — وهو ملك البحرين . ثم يرتحلون نحو عُمَان من البحرين أيضا فتقوم سوقُهم بها . ثم يرتحلون فينزلون إرَم وقُرىٰ الشِّحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما . ثم يرتحلون فينزلون عَدَنَ من اليمن أيضا فيشترون منه اللَّطائم وأنواع الطيب . ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويَجْلبُون منها الخَرَز والأدَمَ والبُرُود، وكانت تُجْلَب إليها من مَعَافر . ثم يرتحلون إلىٰ عُكَاظَ فى الأشهر الحُرُم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجُّون؛ ومن له أسير سعىٰ فى فدائه، ومن له حكومةٌ ٱرتفع إلىٰ من له الحكومة؛ وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فيها من بنى تميم؛ وكان آخِرَ من قام بها منهم الأقرعُ بن حابس التميمىّ . ثم يقفون بعرفة ويقْضُون مناسك الحج . ثم يرجعون إلىٰ أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآبوا بالسلامة .

النوع السادع عشر

(النظر فى كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ معرفة وقائع التاريخ، وتفاصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشىء منها لأمور . منها العلم بأزمنة الوقائع والماجَرَيات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والماجَرَيات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها فى موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متىٰ أخلَّ بمعرفة ذلك

آحتج بالقصة فى غير موضعها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ، أو لبَّس عليه خصمه بالآستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ليظهر حُجته عليه ، وما يجرى مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصـــــد الأوّل

(فى ذكر نبْذة تاريخية لا يسَع الكاتبَ جهلُها ممـا يحتج به الكاتبُ تارة ويذاكر به ملِكَه أو رئيسه أخرىٰ)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف علىٰ آختلاف فنونه : ما بين مختصَر ، ومبسوط : من مقتصِر علىٰ فن ، ومستوعِب لفنون ، وفى خلال تلك المصنَّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ؛ لا يحصـل الوقوف عليها إلا بعد آستيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظَّفَر بالجوهرة فى المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل فى خلالهـا بغتـة ؛ فإذا التُقطت الجواهر من المعْـدِن ، سَهُل تناوُلُهـا لمريدها ؛ وهى علىٰ ضربين .

الضـــرب الأوّل

(الأوائل)

وهى معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكرىّ بالتصنيف ، وأورد الثعالبيُّ منهـا فى كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتُب التاريخ منها جملة مما لم يتعرضا إليه ؛ وقد آقتصرت منها علىٰ ما تتشوّف نفوس أكثر الناس إلىٰ معرفته والآطِّلاع عليه : ممـا توفرت الدواعى عليـه ، فاستمر وجوده ، وآنسحب عليه حكم الآستعمال إلىٰ الآن ، أو آشتهر فى مبدإ أمره ، ثم زال بعد ذلك ؛ جاريا فى ترتيبه علىٰ وجه يقرب تناوله ، مقدّما الأهم فالأهم بالنسبة إلىٰ حال الكاتب :

أمور تتعلق بالأنبيـاء عليهم السـلام
(سِوىٰ ما يأتى ذكره مما شاكل غيره)

أوّل من استَرَقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أوّل من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام؛ وهو أوّل مَنْ قَصَّ شاربه ، وأوّل من فَرَق شعره ، وأوّل من تَمَضْمَض ، وأوّل مَنِ ٱستاك ، وأوّل من قَلَّم الأظفار ، وأوّل من ٱستنجىٰ ، وأوّل من ٱختتن ، وأوّل من رمىٰ الجِمَار .

الخلافة وما يتعلق بها

أوّل من سُمِّى خليفةً أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين وُلِّى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة إن شاء الله تعالىٰ؛ وهو أوّل من ٱستَخْلَف من الخلفاء : ٱستخْلَف عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى مرض موته ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة؛ وهو أوّل خليفة فُرِض له العطاء فى بيت المال عن الخلافة، ولما أدركته الوفاة أوصىٰ باعادة جميع ما حُمِل إليه من ذلك إلىٰ بيت المال من ماله .

أوّل من سُمِّى أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى جملة الألقاب فى المقالة الثالثة؛ وهو أوّل من رَتَّب بيت المال فيما ذكره العسكرى ، لكنه قد ذكر فى موضع آخر أن عمر كان علىٰ بيت المال من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه، فيكون أبو بكر قد سبقه إلىٰ ذلك ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ وكَالة بيت المال فى المقالة الخامسة ؛ وهو أوّل من كوّر الكُوَر ومَسَح أرض السَّواد ، ورتَّب الخراج علىٰ الأَرَضِين ، والجِزْيَة علىٰ

الجَمَاجم؛ وهو أوّل من حَمَل الطَّعام من مصر إلىٰ الحِجاز(١)، وذلك فى عام الرمادة عند غلو السعر بالحجاز. وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ خليج القاهرة فى أوائل المسالك والممالك .

أوّل من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان رضى الله عنه؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الإقطاعات فى المقالة السادسة، وهو أوّل من حَمَىٰ الحِمىٰ لنَعَم الصدقة من الخلفاء، وهو أوّل من ٱتخذ صاحب شُرْطة من الخلفاء .

أوّل من ٱتخذ بيتا تُرمى فيه قِصص أهل الظُّلامات أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وبقى حتّى كُتِب له شتمه فى رُقْعة، وطُرِحت فى البيت فتركه؛ ثم ٱتخذه المهدىّ بعده، ثم ترك بعد ذلك .

أوّل من سُلِّم عليه بالخلافة فقيل السلام عليك ياأمير المؤمنين معاوية؛ وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم؛ وهو أوّل من عَهِد إلىٰ ابنه بالخلافة، عهد بها إلىٰ ابنه يزيد، ثم تبعه الكثير من الخلفاء علىٰ ذلك؛ وهو أوّل من ٱستَخْلَف فى حال صحته وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمرَ إلا فى مرض موته، وعمر لم يجعل الأمر شُورىٰ إلا وهو مطعون؛ وسيأتى ذكر ذلك جميعه فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة، وهو أوّل من ٱتخذ المقصورةَ فى المسجد لصلاة الجمعة؛ وقيل ٱتخذها(٢) مروان قبله، وقيل عثمان؛ وهو أوّل من نهىٰ عن الكلام بحضرته من الخلفاء، وكان الناس قبل ذلك يردّون علىٰ الخليفة ويعترضونه فيما يقول؛ وهو أوّل من اتخذ ديوان الخاتم لختم الكتب، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ اللواحق من المقالة الثالثة، وهو أوّل من ٱتخذ البريد فى الإسلام؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ البريد فى خاتمة الكتاب .

---

(١) فى الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فانه أوّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء فليحرّر .

أوّل من سار فى الناس بالجَبَرِيَّة من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليدُ بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل فخاطبه باسمه فأمر به فوُطِئ .

أوّل من رَتَّب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور ، واتخذ فى قصره بيتا يجلس فيه الناس حتّى يُؤْذَن لهم ؛ وهو أوّل من اتخذ الأتراك اتخذ حَمَّادا التركى ، ثم اتخذ المهدىُّ بعده مباركا التركى ، ثم أكثر الخلفاءُ من الأتراك بعد ذلك .

أوّل من جلس للمصائب من الخُلَفاء علىٰ البساط دون الأنمـاط هارون الرشـيد حين نُعِى إليه قريبه : إبراهيم بن علىّ ؛ فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا فى المآتم .

أوّل من نُعِت علىٰ المِنْبر بنعت الخلافة الأمينُ بن الرشـيد فقيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبدَ الله محمدا الأمين .

أوّل من أضيف لقبه من الخلفاء إلىٰ اسم الله المعتصِمُ فقيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء علىٰ ذلك ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخلفاء فى المقالة الثانية .

أوّل من حوّل السنة الشمسية إلىٰ السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكلُ ؛ وسيأتى ذكره فى تحويل السنين فى المقالة السابعة ، وهو أوّل من أمر بتغيير زِىِّ أهل الذِّمة ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ عقد الصلح لأهل الذمة فى المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أوّل من لبس التاج الضَّحَّاك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال ؛ وفى زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .

أوّل من مسح الأرَضِـين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخَرَاج علىٰ الأرَضِين ، ووظَّف الموظَّفات علىٰ البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، واتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أوّل من جلس علىٰ السرير من ملوك العرب جَذِيمة الأبرش، وهو أوّل من وقعت له الشَّمْعة من ملوك العرب، وأوّل من لبس الطَّوْقَ منهم .

أوّل من مشَت الرجال معه وهو راكب الأشعثُ بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية ملَّكوه عليهم وتوجُوه .

أوّل من مُشِى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ ٱبنُ أبيه، وهو أوّل من جلس الناسُ بين يديه علىٰ الكراسىّ، وهو أوّل من ٱتخذ العَسَسَ والحَرَس .

أوّل من سُلِّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقيل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون الســلام عليكم، ثم تبعه الأمراء علىٰ ذلك .

أوّل من حُمِل إليه الثَّلْج الحجَّــاج بن يوسف، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ حَمْل الثلج لصاحب الديار المصرية فى خاتمة الكتاب .

أوّل مَنْ نَقَش ٱسمه من الملوك علىٰ الدنانير والدراهم مع الخلفاء عِزُّ الدَّوْلة بن بُوَيه وإخوته ملوك الديلم القائمين علىٰ الخلفاء العبّاسيين ببغداد، فى سنة أربع وثلاثة وثلثمائة، ثم تبعهم الملوك علىٰ ذلك .

أوّل من حُمِل السَّنْجَق علىٰ رأسه من الملوك غازى بن زنكى صاحب الموصل، وهو أوّل من ٱختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف فى أوساطهم والدَّبابيس تحت ركبهم .

أوّل من حُمِل الشمع معه علىٰ البغال فى الليل من ملوك الديار المصرية محمــد بن طُغْج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل علىٰ مؤخر البغل وفرّاش راكب أمامها، وهو يلتفت فى كل قليل يصــلحها، فأبدلهــا الملوك بعده بهــذه الفوانيس التى تحمل علىٰ البغال مع الفانوسِيَّة أمام ملوك الديار المصرية فى الليل .

أوّل من لقِّب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضْوان بن ولخشى وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان مَنْ قَبْله من الوزراء لا ينعت بالملك .

أوّل من لف العمامة علىٰ الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بنى أيوب يَلْبَسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون علىٰ أرباب الأقلام المتعممين فى مقابلة أن الجند كانوا بغير عمائم .

أوّل من ٱعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند علىٰ ذلك وٱستمر الأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وكان لهم قبل ذلك غدائر شعر مرسلةٌ كعرب الحجاز ونحوهم .

الــوزراء

أوّل من سمى وزيرا فى الإسلام أحمد بن سليمان الخَلَّال، وزير السفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك علىٰ ذلك، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتبا .

أوّل من لُقِّب بالصاحب من الوزراء، كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد، وكان السبب فى ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ٱبنَ العميد فكانوا يقولون صاحب ٱبن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتّٰى قيل له الصاحب مجرّدا وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى المقالة الثالثة .

أوّل من لقب بالملك الفلانىّ من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ولخشى وزير الحافظ، لُقِّب الملك الأفضل ، ثم صار رسما لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصرية علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القضــاة

أوّل قاض كان فى الإسلام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، ٱستقضاه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، فى خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد فى قضية .

أوّل قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نَوْفَل ، آستقضاه عليها أمير المؤمنين عمر آبن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

أوّل قاض بالكوفة جُبَير بن القَشْعم .

أوّل قاض بالبصرة أبو مَرْيَم الحنفىّ ، أحد بنى حنيفة ، آستقضاه أميرها عُرْوة آبن غَزْوان فى سنة أربع عشرة من الهجرة .

أوّل قاض بمصر قيس بنُ أبى العاص السَّهْمىّ ، آستقضاه عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى خلافته فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أوّل قاض جمع له القضاء والشُّرْطة بمصر عابس بن سعيد وليهما من قِبَل أميرها مَسْلَمة بن مُخَلَّد .

أوّل قاض بمصر نظر فى الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو مِحْجن تَوْبةُ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال : هذه مآلها إلىٰ الفُقَراء والمساكين فأنا أضع يدى عليها ، فما مضت له سنة حتّىٰ صار لها ديوان عظيم .

أوّل قاض بمصر خرج لرؤية الهلال عبدُ الله بنُ لَهِيعة . قال أبو عمر الكندىّ ، وهو أوّل قاض وَلِىَ مصر عن خليفة ، وليها عن أبى جعفر المنصور فى أوّل سنة خمس وخمسين ومائة .

أوّل قاض ولى مصر ممن يقول بقول أبى حنيفة أبو الفضل إسماعيل بنُ اليَسَع الكندىّ ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبى حنيفة ولم يألفوه ، وكان يرىٰ بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلىٰ أبى جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أوّل قاض بمصر أدخل النصارىٰ فى خصوماتهم إلىٰ المسجد أبو عبد الرحمن محمد ٱبن مسروق ، وكانتْ ولايته لها من قِبَل الرشيد فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو أوّل من ٱتخذ لمجلسه الشهود من قُضاة مصر .

أوّل قاض وَلِىَ مصر ممن يقول بقول مالك أبونُعَيْم إسحاق بن الفُرَات مولىٰ معاوية ٱبن حُدَيج ، وللشافعى عليه ثناء جميل فى معرفة الخلاف ، وهو أوّل قاض ٱتخذ للشهود ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قِبَل الرشيد فى سنة بضع وثمانين ومائة .

أوّل قاض وَلِّى علىٰ المصاحف أمينا بجامع الفُسْطاط الحارثُ بن مِسْكِينَ ، وكانت ولايته فى خلافة المتوكل .

أوّل ما ٱستقرّت قُضاة الديار المصرية أربعةً ، من كل مذهب قاضٍ فى سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ٱبن بنت الأعز وكان شافعيًّا ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشقّ ذلك علىٰ السلطان والأمراء فٱتفق رأيهم علىٰ أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقضى كل منهم بمذهبه .

أوّل ماخُصَّ قاضى القضاة الشافعىّ بالديار المصرية بالتولية فى أعمالها دون رُفْقته الثلاثة فى سلطنة المنصور قلاوون فى شوّال سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره ٱبن المكرم فى تذكرته .

الأمور العلميـــــة

أوّل من أخطأ فى القياس إبليس ، حيث قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أو لم يعلم أن ماألقى إلىٰ جوهر الطين زاد ونما ، وماألقى إلىٰ جوهر النار اضمحل وتلاشىٰ .

أوّل من نطق بالحكمة أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام .

أوّل مَنْ دلَّ علىٰ تركيب الأفلاك ، وقدّر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه علىٰ عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .

أوّل من نظر فى الطب افريدون ملك الفرس بعد الضَّحاك ، وفى أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا فى علومهم .

أوّل من وضع النحو أبو الأسود الدُّؤَلى بأمر أمير المؤمنـين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهو أوّل من نقط المصاحف النقط الأوّل علىٰ الإعراب .

أوّل من صَنَّف فى علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلىّ .

أوّل من تُرْجِم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفيَّة خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثَرَ من ذلك .

أوّل من صنَّف فى غريب القرءان أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بن المثنّى .

أوّل من صنَّف فى أصول الفقه الإمام الشافعى رضى الله عنه ، صنَّف فيه كتابه الرسـالة .

أوّل من صنَّف فى الفقه مالك بن أنس صنف كتابه المُوطَّأ .

أوّل من عمل العروض الخليـل بن أحمد ، وهو أوّل من صنف اللغة مرتبة علىٰ حروف المعجم صنف كتابه "العين" .

أوّل من صنف فى علم البديع عبد الله بن المعتز .

أوّل من سنّ الإساءة والأجتراء فى البحث فرعونُ ، بينا هو وموسىٰ عليه السـلام فى مقام المُناظرة حيث قال ﴿وما رَبُّ العالَمِين﴾ فأجابه موسىٰ بقوله ﴿رَبُّ السَّمٰوات والأَرْض وما بَيْنَهُـمَا إن كُنْتُم مُوقِنِينَ﴾ إلىٰ آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ .

الخطـابة

أوّل من جَمَع قُريشا وخطبهم ونبه علىٰ أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قُصَىُّ ٱبن كلاب، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكة فى المسالك والممالك فى المقالة الثانية.

أوّل من خطب علىٰ العصا وعلىٰ الراحلة قُسُّ بن ساعدة الإِيادىّ ، وقد تقـدّم ذكر خطبته التى خطبها علىٰ الراحلة فى الكلام علىٰ الخُطَب .

أوّل من عَمِل المِنْبر تميم الدارىُّ عمله للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأىٰ منابر الكنائس بالشام .

أوّل من أُرْتِج عليه فى الخطبة عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه فقال : أيها الناس إن اللَّذيْنِ كانا من قبـلى كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلىٰ إمام عادل أحوجُ منكم إلىٰ إمام قائل، وستأتيكم الخطبة علىٰ وجهها فى الجمعة الأخرىٰ ثم نزل .

أوّل من خطب جالسا معاويةُ حين كَثُر شحمه .

أوّل من أقام الجُمعة بالمدينة قبل مَقْدَم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعدُ بنُ زُرَارة الأنصارىّ ببنى بَيَاضة .

أوّل من رفع يده فى الخطبة يوم الجمعة عُبيدُ الله بن عبد الله بن عمر .

أوّل من أخرج المنبر فى العيد مروانُ بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج .

الخـــط

أوّل من خط بالقلم فى الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس .

أوّل من كتب بالعربية قيل هود عليه السـلام أنزل عليه ، وقيل إسمـاعيل ، وقيل ثلاثة نفر من بَوْلانَ من طيءٍ ٱصطلحوا علىٰ ذلك ، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخط فى الباب الثانى من هذه المقالة .

كتابة الإنشـاء

أوّل من كتب فى أوّل الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام، حين كتب لبِلْقِيسَ كما أخبر الله تعـالىٰ عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت .

أوّل من كتب فى أوّل الكتب باسمك اللهم أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْت، فكتبها قُرَيْشٌ فى كتبهم، وكان النبي صلى الله عليه وسـلم، يكتبها فى ٱبتداء الأمر، وسيأتى ذكر جميع ذلك فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة .

أوّل من كتب من فلان إلىٰ فلان قُسُّ بن ساعدة فيما قاله العسكرى وأقرّه النبي صلى الله عليه وسـلم، فى مكاتباته، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثـــة .

أوّل من زاد فى أوائل الكتب بعد التحميد "وأسأله أن يصـلى علىٰ محمد عبـده ورسوله" هارون الرشيد، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة .

أوّل من أرّخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة .

أوّل من كتب فى آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أُبَىُّ بن كعب قاله العسكرى .

أوّل من ختم الكتب سليمان عليه السـلام فقد قيل فى قوله تعـالىٰ حكاية عن بِلْقِيسَ ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ إنّ المراد به المختوم . وأوّل من ختمها فى الإسلام النبيَ صلى الله عليه وسـلم، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب، وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ الخواتم .

أوّل من ٱتخذ الطين لختم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبى فى "لطائف المعارف" .

أوّل من ٱتخذ ديوان الخاتَم معاويةُ بن أبى سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبى فى "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما فى معناها

أوّل من ٱتخذ الديوان فى الإسلام أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الإقطاعات فى المقالة السادسة .

أوّل من جعل الحساب فى دفاترَ خالدُ بن برمك فيما قاله الثعالبى ، وكان قبل ذلك فى أدراج من كاغَدٍ ورق .

أوّل من نقل ديوان العراق من الفارسية إلىٰ العربية الحجاجُ بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتِبه زاذانَ فَرُّوخ فكان كُتَّاب[1] العراقين علماءَ وتلاميذَ .

أوّل من نقل ديوان الشام من الرومية إلىٰ العربية عبدُ الملك بن مَرْوان ، نقله له سليمانُ بن سعيد مولىٰ الحُسَين كاتبِ رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أوّل من نقل ديوان مصر من القِبْطيَّة إلىٰ العربية عبدُ العزيز بن مروان فى إمارته علىٰ مصر، ذكره صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" .

أوّل من وسَّع فى أرزاق الكُتَّاب الفضلُ بن سهل وزير المأمون .

(١) فى الأصل فروح بالمهملة فكان كبار العراقين وهو تصحيف فٱحذره .

الخَرَاج والجِزْية

أوّل من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرىٰ أنُوشروانَ؛ وذلك أنه مر علىٰ زرع وآمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقا، ولا نستحله حتّىٰ يأخذ الملك حقه، فقرّر علىٰ الزرع قدرا معلوما وخلّىٰ بين الغَلّة وأصحابها .

أوّل من وضع الخراج علىٰ الأرَضِينَ والجزيةَ علىٰ الجماجم فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب حين مسح السَّواد؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصورُ حين خرِب السـواد .

أوّل من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد آبن أبيه فبقى حتّىٰ أسقطه زياد آبن أبيه[1] .

أوّل من عَرَّف العرفاء علىٰ الناس لجباية المال وغيره زيادٌ، وكان يقول : العُرَفاء كالأيدى والمناكِبُ فوقها .

المعامــلات

أوّل من ضرب الدنانير والدراهم فى الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشأم من فضة خالصة، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفُرس والرُّوم؛ ولما ضربها عبد الملك كتب إلىٰ الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك، فضرب الدراهم ونقش عليها قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ إلىٰ آخر السورة ، فسمِّيت الدراهمَ الأحديَّة ، وكرهها الناس لنقش القرءان عليها، مع أنه قد يحملها المحدث، فسميت المكروهة .

قلت : وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحدية، أرانيه بعضُ أعيان حلب، وذكر لى أن فلاحا أصاب رِكَازا لطيفا بها فأحضره إلىٰ نائب حلب خوفَ عُهْدته ،

(١) كذا فى الأصل .

فاقتسمه هو وأهلُ مجلسه، وعوّضه من كل درهم أضعافه، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أوّل من شدّد فى العيـار فى الدراهم يوسف بن عمر ، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها، ثم آستخَفَّ درهما فوجده ينقص حَبَّة، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرَّابين ألف سوط ، وكانوا مائة ضَرَّاب ، فضرب فى نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أوّل من شدّد فى خلوص الذهب أحمد بن طُولون صاحب مصر والشام، وذلك أنه حين وجد الكنزُ المشهورُ بعين شمس ، وأُتِىَ له منه بميِّت وعلىٰ صدره لوح ذهب مكتوب بالقِبْطية فعُرِّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبى أخلص الذهب ؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللَّعين أكبرَ منه أو ذهبُه أخلص من ذهبه، ثم شدّد فى التعليق حتّى كان قاضى القضاة يحضُره بنفسه، وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى معاملة الديار المصرية فى المقالة الثانية .

أوّل من ضرب الدراهم الزُّيُوف فى الإسلام عبيد الله بن زياد .

أوّل من آتخذ ألسـنة الموازين من الحديد عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينة من قبل عثمان .

أوّل من عمـل الأوزان الحجاجُ بن يوسف ، عملها له سمير اليهودى ، وذلك أن الحجـاج حين ضرب الدراهم الأحَديَّة علىٰ ما تقـدّم ضربها سمير اليهودى من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد الحجاج قتله ، فقال : ألا أدلك علىٰ ما هو خير للمسلمين من قتلى؛ قال : هاته، فوضع الأوزان، وزن ألف، ووزن خمسمائة، ووزن ثلثمائة إلىٰ وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتىٰ بها إلىٰ الحجاج فعفا عنه، وكان الناس قبل ذلك إنمـا يأخُذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره .

أوّل من ٱتخــذ الذراع التي يُذْرَع بهــا الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السَّواد . وقيــل أوّل من ٱتخذها زياد ، نظر إلىٰ ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصره فجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العـــــمارة

أوّل بيت وضع فى الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ؛ قال تعالىٰ ﴿ إنّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ .

أوّل مَنْ جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أوّل من سقف بمكة سقفا قُصَىٌّ بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنمــا ينزلون فى العريش .

أوّل من بوّب بمكة بابا حاطبُ بن أبى بَلْتَعة .

أوّل من ٱتخذ بمكة رَوْشَنا بُدَيْل بنُ ورقاءَ الخُزَاعىّ . وهو أوّل من بنىٰ بهــا بيتا مربَّعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامَوْن التربيع فى البناء كيلا يُشْبِه بناء الكعبة .

أوّل قرية بُنِيت بعــد الطُّوفان قرية ثمــانينَ ، من الجزيرة الفُرَاتية ؛ بناها نوح عليه السلام ، وأنزل بها من كان معه فى السفينة وهم ثمانون رجلا .

أوّل مدينة بُنِيت بمصر بعد الطُّوفان مدينة مَنْف وأصلها بالسُّريانية مافه ومعناها ثلاثون ؛ سميت باسم جماعة مِصْر بن بَيْصر الذين كانوا معه ، وسيأتى ذكرها فى جملة قواعد مصر القديمة فى المقالة الثانية .

أوّل من عمل الحَمَّام سليمان عليه السلام ، صنعها له الجنّ وعملوا له النُّورة لإزالة شعرٍ كان علىٰ بلقيس حين تزوّجها فيما يقال .

أوّل من اتخذ الآجُرَّ هامانُ لفرعون حيث قال له ﴿ فأوْقِدْ لى ياهامانُ على الطينِ فاجْعَلْ لِى صَرْحًا ﴾ .

أوّل من بنى بالجِصّ والآجُرّ فى الإسلام زياد ابن أبيه بالبصرة .

الـــزرع

أوّل من غرس النخلة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

الصـــناعات

أوّل من خاط الثياب إدريس عليه السلام، وكان الناس قبل ذلك يلبَسُون الجلود .

أوّل من عمل القراطيس يوسف عليه السلام . وقيل غيره ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على ما يُكتَب فيه فى المقالة الثالثة .

أوّل من عمل الصابونَ سليمان عليه السلام؛ قاله الثعالبىّ .

أوّل من عمل الكيمياء قارون، ويقال إنه المراد بقوله تعالى حكاية عنه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِى﴾ .

أوّل من عمل الزجاج ملكى أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وسيأتى ذكره فى الكلام على ملوكها فى المقالة الثانية .

أوّل من اتخذ الرِّحال عِلَافُ بن زَبَّان[1] الحميرىّ، وكانت العرب قبل ذلك يركبون المَخَاصر .

أوّل من كسا الكعبة فى الجاهلية تُبَّعٌ : أسْعَدُ أبو كَرِب .

(١) وقع فى المخصص ربان بإهمال الزاى وفى القاموس والصحاح بإعجامها وهو الأقرب .

أوّل من ٱتخذ المحامل لَهُ الحجاجُ بن يوسف .

أوّل من ٱتخـذ السياط الأصبحُ بنُ مالك ، أحدُ ملوك اليمن فقيل السِّـياط الأصْبَحيَّة .

اللبـاس

أوّل من لَبِس الثياب الحُمْر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ علىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أوّل من أطال ثيابه وسحبها علىٰ الأرض عُجْبا وتيها .

أوّل من قوّر طَيْلَسانا من العرب فى الإسـلام عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينـة من قبل عثمان . والطَّيْلَسان المقوّر علىٰ نحو الطَّرْحة التى يلبَسُها الوزراء وقُضـاة القُضاة الآن ، وكانت وُزَراء الفاطميين يلبسونها . وهو أوّل من لَبِس الخز ، فقال أهـل المدينة لبِس الأمير جلدَ دُبّ .

أوّل ما لبس بنُو العبّاس السَّوادَ حين قَتَـل مروانُ بن محمد آخرُ خلفاء بنى أمية إبراهيمَ بنَ محمد الإمامَ أوّلَ قائم منهـم بطلب الخلافة حُزْنا عليه ، فٱستمر فيهم ؛ وفيه كلام يأتى فى المقالة الثانية عند الكلام علىٰ لِبْس الخلفاء .

أوّل من لبِس الخِفَاف الساذَجَة بالبصرة زياد ٱبن أبيه .

أوّل من ٱحتذىٰ النِّعال من العرب جَذِيمة الأبرشُ .

أوّل من خلع نعلَيْه عند دخول الكعبة فى الجاهلية الوليدُ بنُ المغيرة .

أوّل من لبِس النِّعَال الصَّرّارة المروانىُّ كان قصـيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصرارة لتزيد فى طوله وليسمَعَه جواريه وحُرَمُه عند دخول بيته فتُصْلح شأنَها من كانت علىٰ غير هيئةٍ صالحة . قال العسكرىّ : من ثَمَّ ٱتخذ الناسُ نِعال الخشب يعنى القَباقيبَ .

أوّل من أمر بتغيير زىّ أهل الذمة المتوكلُ، أمرهم أن يلبَسُوا العَسلىَّ، ويتخذوا رُكب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين ؛ وسيأتى ذكره فى عقد صلح أهل الذمة فى المقالة السابعة .

الحـــرب وآلاته

أوّل من ركب الخيل إسماعيلُ عليه السلام، وكانت قبلهوُحُوشا لا تُركَب فراضها وركبها ، وتعلَّم بنوه رِيَاضتها منه ، فصارت فيهم إلىٰ الآن . ولذلك العرب أعرفُ الناس بالخيل . وهو أوّل من ميَّز بين العتَاق منها والهُجُن فى سهام أصحابها، فسبقت العِتاقُ الهُجُنَ .

أوّل من ٱتخذ الدروع ولَبِسها داودُ عليه السلام إذ يقول تعالىٰ ﴿ وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سابِغَاتٍ وقَدِّرْ فِي السَّرْدْ ﴾ وكانوا قَبل ذلك يلبسون تَنَانِير[(١)] من حديد .

أوّل من ٱتخذ السِّلاح وجاهد سليمانُ عليه السلام فيما قاله العسكرىّ وفيه نظر .

أوّل من ٱتخذ الحديدَ من العرب ذُو يزَنَ الحِمْيرِىّ ، وكانت أسِنَّتُهم قبـل ذلك صَيَاصِىَ البقر .

أوّل من ٱتخذ الحصن من الجبل للكمائن الإسكندر .

أوّل من ٱتخذ المنجنيق الضَّحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام فى النار، وضعه فيه ورمىٰ به فى النار فكانت عليه بَرْدا وسلاما . وأوّل من ٱتخذه من العرب جَذِيمة الأبرشُ .

أوّل من ٱتخذ الجواسيس والعُيون علىٰ العدوّ الإسكندر .

أوّل لواء عقده النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، لِوَاء أبيضُ لعمه حمزةَ وقال "خُذْه ياأَسَدَ الله" وذلك فى رمضان من السنة التى هاجر فيها، وحمله له يزيد بن أبى يزيد .

(١) لعل مراده صفائح من حديد كما هو نص الأوائل والتفاسير واللفظة فى نسخة الخط غير مجوّدة .

أوّل ما عُقِدت الرايات فى الإسلام يوم حُنَين، عقد صلى الله عليه وسـلم، راية سَوداء من بُرْد عائشةَ، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية قاله العسكرىّ .

أوّل من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبىّ بنُ خلف لعنه الله، طعنه صلى الله عليه وسـلم طعنة خفيفة فوجد لها ألمـا شديدا فقيل له لن تبالِىَ فقال : لو أن مابى بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أوّل حرب كان بين أهل القِبْلة يومُ صِفِّين ، بين عائشة وعلىّ رضى الله عنهما .

الأسمـاء والألقاب

أوّل من سُمِّى المصحف مُصْحفا أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين جمع القرءان.

أوّل من سُمِّى باسم النبيّ صلى الله عليه وسـلم ، محمدُ بنُ حاطب حين وُلِد بأرض الحبشة فى الهجرة الأولى .

أوّل من سمى بالحَسَن والحسين السِّـبطانِ ولَدَا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب من فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسـلم . قال أبو أحمد العسكرىّ فى كتابه "التصحيف والتحريف" قال المفضـل حجب الله هذين الأسمين عن أن يسمَّى بهما حتّى سُمِّى بهما النبي صلى الله عليه وسلم، ٱبنيه عليهما السلام أما حَسْن وحَسِين الموجودان فى أنساب طيئ فالأوّل بسكون السين والثانى بفتح الحاء وكسر السين .

أوّل من سُمِّى عبد الملك فى الإسلام عبدُ الملك بن مروان .

أوّل من سُمِّى بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العَرُوض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد .

أوّل من سَمّى الغالية غالية معاويةُ بن أبى سفيان شمَّها من عبد الله بن جعفر فوصفها له فقال إنها غالية .

أوّل ما سميت العَطِيَّات جوائز فى زمن عثمان رضى الله عنه، وذلك أن ابن عامر كان على العراق من قبل عُثمان فبعث جيشا مع قَطَن بن عبد عوف الهلالى إلى كِرْمان، بجرى الوادى بسيل خِيفَ منه الغرق، فقال قَطَن من عَبَره فله ألف درهم، فعبَره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتّى جاز جميعهم فأعطاهم قَطَنٌ ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف، فاستكثرها ابن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها، وقال : كلُّ ما كان فى سبيل الله فهو جائز .

أوّل ما لُقِّب بفلان الدولة فى أيام المكتفى بالله .

أوّل ما لقب بفلان الدين فى أيام القادر بالله ، وسيأتى ذكره فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة .

الضِّيفان

أوّل من قرى الضيف إبراهيمُ الخليل عليه السلام حتّى كُنِّى أبا الضِّيفان لكثرة قِرَاه لهم .

أوّل من سنَّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحدُ ملوك الفُرْس .

أوّل من هَشَم الثَّرِيد للقِرى فى زمن المَحْل هاشمُ بن عبد مَنَاف، وبذلك سمى هاشما وكان اسمه قبلُ عمرا .

أوّل من فَطَّر جيرانه فى شهر رمضان عبيدُ الله بن العباس بن عبد المطلب . وهو أوّل من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرته وأوّل من أنهبه .

وجوه البِرّ

أوّل من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليدُ بن عبد الملك .

أوّل من ٱتخذ البيمارستان بمصر أحمدُ بن طولون بناه بالفُسْطاط ، وهو موجود إلىٰ الآن .

أوّل من فوّض إلىٰ الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه .

الأعيـاد والمواسم

أوّل من ٱتخذ النَّيْروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنىٰ مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدِّين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدّد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نَوْروز أى يوم جديد عرّبتـه العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نَيْروز .

أوّل هدية كانت فى النَّيْروز لجما الملك المتقدّم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصبُ إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاستحلاه فصنع منـه السكر فوافق فراغه فى أوّل يوم ملك فيه جما وهو يوم النَّيْروز فأهدىٰ إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادَوْن فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادَوْا بغير السُّكَّر .

أوّل ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القـائم بعد الضحّاك من ملوك الفُرْس ، وذلك أنه لمـا ظفر بالضحاك فقيده وٱنقطع ما كان فى زمنه من الظلم والفساد سمّى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرىّ : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النَّيْروز .

أوّل من ٱفتتح المكاتبـة بتهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسـف أهدىٰ الىٰ المأمون سَفَط ذهب فيه قِطعةُ عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه ، وكتب معه "هـذا يومٌ جرت فيه العاده ، بإلطاف العبيد الساده" .

الأقــوال

أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصــل الخطاب المشار إليه بقوله تعالىٰ ﴿وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَاب﴾ . وقيل أوّل من قالها قُسُّ بن ساعِدة .

أوّل من قال مَرْحَبًا سيْفُ بن ذِى يَزَنَ، قال ذلك لعبدالمطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسـلم، حين وَفَد عليه ليهنّئه برجوع المُلْك إليه، فقال له "مَرْحَبا وأهلا، وناقةً ورَحْلا، ومُنَاخا سَهْلا، ومَلِكا رِبَحْلا[1]، يُعطِى عطاءً جَزْلا" .

أوّل من قال جعلت فِدَاك عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الفتنةَ، فقال "جُعِلْتُ فِدَاكَ يارَسُولَ اللهِ فما أَصْنَعُ ؟" . وقيــل أوّل من قالها له علىّ بن أبى طالب حين دعا عمرُو بنُ وَدّ العامرىّ إلى المبارزة، فقال علىّ "جُعِلتُ فِداك يارسول الله أتأذن لى؟" ثم آستعملها الكُتّاب بعد ذلك فى مكاتباتهم .

أوّل من قال أطال الله بقــاءك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تكلم علىّ رضى الله عنــه بحضرته فى العدل بكلام أعجبه، فقال له : صدقت أطال الله بقاءك؛ ثم نقلها الكتاب إلىٰ استعمالها فى مكاتباتهم .

أوّل من قال أيّدك الله عمر بن الخطاب قاله لعلىّ عليه السلام أيضا .

الشعر والغِنَــاء

أوّل من قصَّد القصــائد مُهلْهِل خال آمرئ القيس؛ والقصــيد ما زاد علىٰ سبعة أبيــات .

---

(١) فى نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة فى اللسان فى مادة ر ب ح ل .

أوّل من أطال الرَّجَز العجَّاجُ . قيـل إن الرجز كان فى الجاهليـة إنما يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثةَ فى الحرب ونحوه حتّى جاء العجّاج ففتح أبوابه وشبهه بالشعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات، ونعت الإبل والطُّلول ؛ وكان فى أوّل الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أوّل من آستخرج اللطيف من المعانى فى الشعر وجرىٰ علىٰ طريقه البديع مسلم آبن الوليد .

أوّل من أخرج الغِنَاء العربىّ جرادةُ جاريةُ آبنِ جُدْعان فيما قاله العسكرىّ . وفيه نظر فإن الغنـاء معهود من عهد عاد حتّى كان من جمـلة مغنّيَاتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غنّتْه الجَرَادتان" .

أوّل من علم الجوارىَ المُنَمْنمات الغناءَ إبراهيم الموصلى، وكان الناس بمكة لا يعلّمون الجارية الحسناء الغِناء .

النســــاء

أوّل آمرأة خُفِضت هاجَرُ أمّ إسماعيل؛ وذلك أنها حين تغيرتْ عليها سارةُ لتَسَرِّى[(١)] إبراهيم عليه السلام بها حلفَتْ لتقطعَنَّ شيئا من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تَخْفِضَها، وتثقبَ أذنيها، وتجعل فيهما قُرْطين ففعلتْ فزادت حُسْنا .

أوّل آمرأة آكتحلت بالإثمد زرقاءُ اليمامة، وكانت تنظر مسيرةَ ثلاثة أيام .

أوّل آمرأة تنبأت سَجَاح التميميةُ التى تزوجها مُسَيْلِمة الكذّاب .

---

(١) فى نسخة الخط لبشرى وهو تصحيف ظاهر .

أوّل آمرأة لبست المصبَّغات فى الإسلام شُمَيلة زوج عباس ، وهى أوّل من عَبَأت الطِّيب (١) .

الموت والدفن

أوّل آمرأة حُمِلت فى نعش زينبُ بنتُ جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

أوّل من دُفِن بالبقيع عثمانُ بنُ مظعون ، وهو أوّل من مات من المهاجرين بالمدينة .

أوّل من دُفِن بقرافة مصر رجلٌ آسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عَمَرتْ والله .

أمور تنسب للجاهلية

أوّل من حَرَّم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيسُ بن عاصم ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من حَرَّم القِمَار فى الجاهلية الأقرع بن حابس التميمى ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من رَجَم فى الزنا فى الجاهلية ربيع بن حدّان ، ثم جاء الإسلام بتقريره فى المُحصَن .

أوّل من حكم أن الولد للفِرَاش فى الجاهلية أكثمُ بن صَيْفِىّ حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من قطع فى السرقة فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من سنّ الدية مائةً من الإبل عبدُ المطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه نذر إن ولد له عشرةُ ذكور ليذبحنّ العاشرَ فولِد له عشرة ، وكان عاشرهم عبدُ الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش فى أمره ، وأُشِير عليه بأن يُقْرِع بينه وبين الإبل حتّى تخرج القرعةُ على الإبل ؛ فأقرع بينه و بين عشرة

(١) فى اللسان يقال عبأ الطيب ... يعبؤه عبأ صنعه وخلطه .

فخرجت القرعة عليه ،ثم زاد عشرة بعد عشرة وهى تقع عليه حتّى بلغ مائة من الإبل فوقعت القُرْعةُ عليها فنحرها ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول " أنا ابن الذَّبِيحَيْنِ " يعنى إسماعيلَ وعبدَ الله ، ثم جاء الإسلام بتقريرها .

أوّل من أوقد النار بالمزدلفة حتّى يراها من بالموقف قصىُّ بن كلاب ، فهى تُوقَد إلىٰ الآن .

أوّل من أهدىٰ البُدْن إلىٰ البيت إلياس بن مُضَر .

أوّل من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قُسُّ بن ساعدة .

أوّل من خَضَب بالوَسْمة من قريش عبدُ المطلب .

أوّل من نَسَّأ النسيء، وسيَّب السوائب ، وجعل الوصيلة والحامِىَ عَمْرُو بن لُحَىٍّ وهو أبو خزاعة .

الضـــرب الثانى

(من النبذ التاريخية التى لا يسع الكاتب جهلُها نوادر الأمور ولطائف الوقائع والمـاجريات)

العـــراقة وشرف الآباء

قال الثعالبي ، أشرف[1] الأنبياء فى النبوّة يعنى تواصل الآباء فيها يوسُفُ بنُ يعقوب ابنِ إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وشاهد ماقاله أن النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول " الكَرِيمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسُفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم " ولا يخفىٰ أن إخوته عليهم السلام فى هذه الرتبة فى العَرَاقة .

أعْرَق الأكاسرة فى المُلْك شيرويه بن أبرويز بن أردشير بن بابك ملكٌ ابن ملك ابنِ ملِكٍ ابنِ ملك .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس فى صُحْبة النبيّ صلى الله عليه وسلم، محمدُ بنُ عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق بن أبى قُحَافة رضى الله عنهم، أربعتهم رأَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم، وصَحِبوه .

أعْرَق الخلفاء فى الخلافة المنتصرُ، بن المتوكل، بنِ المعتِصم، بن الرشيد، بن المهدىّ، بن المنصور فى آبائه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها . وفى معناه أخواه المعتمد والمعتز؛ أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا فى الخلافة فإنه لم تمض عليه مدّة تعتبر، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين فى جملة الخلفاء .

أعرق الناس فى المُلْك والخلافة جميعا بآعتبار الأصول والحواشى من الذكور والإناث يزيدُ بنُ الوليد بن عبد الملك بن مروان . أما من جهة الخلافة فهو خليفة، وأبوه خليفة، وجدّه خليفة، وجدّ أبيه خَليفة، وعُمُومتُه خلفاء . وأما من جهة المُلْك فأمه شاهفرند بنتُ فَيْروز، بن يزدجرد، بن شهريار، وأمها من بنات شيرويه آبن أبرويز، وأمُّ شيرويه مريم بنتُ قيصر، وأمُّ فيروز بنت خاقان ملك الترك .

أعرقُ الوُزَراء فى الوزارة أبو علىّ الحسينُ، بن القاسم، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأخوه أبو جعفر محمدبن القاسم؛ فإن القاسم وُزِّر للمقتدر ومحمد وُزِّر للقائم وأباهما القاسم وُزِّر للمعتضد ثم للمكتفى بعده، وعبيد الله وُزِّر للمعتضد، وسليمان وزر للمهتدى وبعده للمعتمد فكلّ من الحسين ومحمد وزير آبن وزير آبن وزير آبن وزير يعنى فى آبائه ثلاثة وزراء، وهو الرابع فيها .

أعرق الناس فى القتل عُمَارة بن حمزة بن مُصْعَب بن الزبير بن العوّام بن خُوَيلد، قُتل عمارةُ، وأبوه حمزةُ جميعا يوم قُدَيد فى حرب الإباضيَّة، وقتل مُصْعب بدير الجاثَليق فى الحرب بينه وبين عبد الملك، وقتل الزُّبَيْر بوادى السِّباع فى نَوْبة الجمل،

وقتل العَوّام فى حرب الفِجار ، وقُتِل خُوَيْلِد فى حرب خُزَاعة . قال الثعالبىّ ولا يعرف فى العرب والعجم ستةٌ مغبونون فى نَسَق واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس فى الفقه إسماعيلُ بن حَمَّاد بن أبى حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمامُ الأعظم .

أعرق النـاس فى القضاء بلالُ بنُ أبى بُرْدة بنِ أبى موسىٰ الأشـعرى رضى الله عنه : كان بلال قاضيا علىٰ البصرة ، وأبو بُرْدة قاضيا علىٰ الكوفة ، وأبو موسىٰ قاضيا لأمير المؤمنين عمرَ رضى الله عنه .

أعرق الناس فى حِجَابة الخلفاء العَبَّاسُ بن الفضل بن الرَّبيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدىّ ؛ وفى ذلك يقول أبو نُوَاس من أبيات :

سَادَ الرَّبِيعُ وسَادَ فَضْـلٌ بَعْدَهُ * وَنَمَتْ بِعَبَّـاس الكَرِيم فُـرُوعُ
عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إذا ٱحتَدَمَ الوَغىٰ * والفَضْل فَضْلٌ والرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس فى الشعر سعيدُ بنُ عبد الرحمن بنِ حسَّانَ بن ثابتِ بنِ المنـذر بنِ حرام ، ستة كلُّهم شعراء علىٰ نَسَق ؛ ثم كانت العَرَاقة فى الشـعر بعـده مع زيادة آباء لمتوّج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيىٰ ، بن مروان ، بن الحبوب ، بن مروان ، ٱبن سليمان ، بن يحيىٰ ، بن أبى حفصة : مولىٰ عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ عشرة علىٰ نَسَق :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس فى الأمّة نسبا الحسنُ والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهمـا ، والقاسم بن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم خالهما ، وعلى بن

أبي طالب أبوهما ، وفاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت خُوَيلد جدّتهما .

أشرف النساء في النسب والصِّهْر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعليّ بن أبي طالب زوجها ، والحسن والحسين سيدَا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ النـاس في المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوّج إليه أربعة من الخلفاء ؛ تزوج الوليد بن عبد الملك بنته عَبْدة ، وسليمانُ بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيدُ بن عبد الملك بنته أمَّ سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رُقَيَّة : قال الثعالبيّ ولا يُعرَف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولَدَها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وطلحة والزبير ؛ وهي حفصـة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المديَّج ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بنِ عُروة بنِ الزبير ، وأم عُرْوة أسماء بنت أبي بكر ، وأمُّ المدَيَّج فاطمة بنت الحسـين بن عليّ ؛ وأمُّ الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمُّ فاطمة بنت الحسين أمُّ إسحاق بنت عُبَيد الله ؛ وأمُّ عبد الله بن عمرو زينبُ بنتُ عبد الله بن عمرَ بن الخطاب ، فهي من ولد كلٍّ من المذكورين .

أربع نسوة في الإسلام ولدت كل واحدة منهنّ خليفتين ؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولدت الحسن والحسَيْن ، وقد بُويِـع لهما بالخلافة ؛ ووِلَادة بنتُ العباس العَبْسـية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدتْ له الوليدَ وسليمانَ ؛ وهما

خليفتان ، وساهر بنت فَيْروز بن يزدجرد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيدَ وإبراهيم فوُلِّيا الخلافة ، والخَيْزُران ولدت للمهدىّ موسىٰ الهادى وهارونَ الرشيد .

آمرأة لهـا آثنا عشر مَحْرما كل منهم خليفة ، وهى عاتكةُ بنت يزيدَ بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبى سفيان جدّها ، ومعاويةُ بن يزيد أخوها ، وعبدُ الملك آبنُ مروان زوجُها ، ومَرْوان بن الحكم حَمْوُها ، ويزيدُ بن عبدالملك آبنُها ، والوليدُ وسليمان وهشام أبناءُ عبد الملك أولاد زوجها[1] .

ومثلها من بنى العباس زُبَيدة بنتُ جعفر بن المنصور ، جدُّها المنصور ، وأخو جدِّها السفّاح ، و زوجُها الرشيد ، وعمُّها المهدى ، وآبنها الأمينُ ، وأبناءُ زوجها المأمون والمعتصِم والواثق والمتوكل .

خليفة سـلم عليه بالخلافة عمُّه وعمّ أبيه وعمّ جدّه ، وهو هارونُ الرشيد سلم عليه سليمانُ بن المنصور ، والعباس بن محمد عمُّ أبيه المهـدىّ ، وعبدُ الصمد بن علىّ عم جدّه أبى جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم آبن خليفة ، وهو المتوكل ؛ سلم عليه أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليمان بن المأمون ، وعبـد الله بن الأمين ، وأبو محمد[2] بن الرشيد ، والعباس بن الهـادى ، ومنصور بن المهدىّ .

خليفة قَبَّل هو وآبنه يد خليفة فأجاز آبنه بجائزة ثم قبـل المقبَّلةُ يدُه هو وآبنه يد المقبِّل أوّلا وهو خليفة فأجاز آبنه بمثـل تلك الجائزة ؛ وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم آبن المهـدىّ أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبَّل يده ثم أدنىٰ منـه آبنه هارون فقبل يده ، وقال ياأمير المؤمنين عبدك هارون آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما

(١) المعدود تسعة فقط وكذا فى المثل بها فتنبه .

(٢) كذا فى الأصل .

ٱستُخْلِف المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدى ثم ترجل فى ذلك الموضع بعينه وقبَّل يده وأدنى منه ٱبنه هبةَ الله فقبَّل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين عبدك هبة الله ٱبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامنَ أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقِين من شهر ربيع الأوّل ومن ثَمَّ سمى المثمَّن .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقُسّ (١) ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ؛ وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن ٱبن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة ؛ ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلِف فيها الرشيد ؛ ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما ٱبن الآخر بين قبريهما بُعْد كبير ؛ وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطُوس وقبر المأمون بطَرَسُوس .

---

(١) المعدود أولاد اخوة وسقطت الاخوة من قلم الناسخ .

خليفة ركب البَرِيد ، وهو موسىٰ الهـادى ، مات أبوه المهدىّ وهو نائبـه علىٰ جُرْجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدة والقضيب فركب البريد وأتىٰ إلىٰ بغداد بعد ثلاثة عشر يوما من موت المهدىّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفتان ٱسم كل منهما جعفر قتل كل منهما فى يوم الأربعاء وهمـا المتوكـل والمقتدر .

خليفة وَلِىَ الخلافة ستين سنة متوالية ، وهو المستنصر بالله الفاطمىّ خليفة مصر علىٰ أن الثعالبىّ فى "لطائف المعارف" قال ٱستقرت ولاية معاوية بن أبى سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوما أو بعض يوم ، هو عبـد الله بن المعتز ، بويع بعد خلع المقتدر ، فلمـا كان من الغد حاربه غِلْمـان المقتدر وعاونهم العامّة فهرب وٱختفىٰ ثم ظفر به .

أربعة إخوة ولى كل منهم الخلافة ، وهم الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حىّ سوىٰ أبى بكر الصـدّيق والطائع لله وكلاهمـا ٱسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة مَن أبواه هاشميّان سوىٰ الحسن بن علىّ من فاطمة ومحمد الأمين ٱبن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من ٱسمه العباس سـوىٰ أمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضـل العباس بن المتوكل علىٰ الله محمد خليفة العصر ، علىٰ كثرة هذا الٱسم فى أولاد الخلفاء العباسـيين وكونه ٱسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرنى أمير المؤمنين المستعين

المشار إليــه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشــيخ بدر الدين البهنسيّ بمكة المشرفة، رأىٰ العباس بن عبد المطلب رضى الله عنــه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل علىٰ الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .

وســيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ العهد الذى أنشأه قبل ولايتــه الخلافة بنحو ثمان سنين آمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى : الناس يَرَوْن أن كل سادس يقوم بأمر الدِّين منذ أوّل الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، والحسن نخلع . ثم معــاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله آبن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وابراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فألغى .

ثم كانت الدولة العباسية فكان السفّاح، والمنصور، والمهدىّ، والهادى، والرشيد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفى، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم ردّ إلىٰ الخلافة ثم قتل؛ ولم يعتدّ بخلافة آبن المعتز لخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النــديم" والثعالبىّ فى "لطائف المعارف" : ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتفى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاكو عند آستيلائه علىٰ بغداد .

قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدىّ لا يليق بمثله فانه أســقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين آبن نباتة فى تاريخ الخلفاء أنهم لمـا بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحينئـذ فيكون من بعد المستنصر المستعصمُ المذكور ثم المستنصر أحمد، الذى أتى به الظاهر بيبرس وتوجه إلىٰ الديار المصرية، ثم الحاكم أحمـد، ثم آبنه المستكفى سليمان ، ثم آبنه المستعصم أحمد، ثم الواثق، إبراهيم نخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكفى، ثم آبنه المتوكل، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر، ثم المستعين أبو الفضـل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالىٰ أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدى : وكذلك العُبَيْدِيُّون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدى، والقائم بأمر الله، والمنصور، والمُعِزُّ بانى القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزيز، والحاكم فقتلته أخته . ثم الظاهر، والمستنصر، والمستعلى، والآمر، والحافظ، والظافر نخلع وقتل؛ ثم الفائز، والعاضد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب فى ملك مصر أوّلهم صلاح الدين، ثم ولده العزيز، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين، والعادل الكبير أخو صلاح الدين ، والكامل ولده ، والعادل الصغير نخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدِّين أيوب، ثم المعظم توران شاه، ثم أم خليل شجرة الدّر، ثم الأشرف موسىٰ وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أوّلهم المعز أيبك، وآبنه المنصور، والمظفر قُطز، والظاهر بيبرس، وآبنه السعيد بَرَكة، وأخوه العادل سلامش نخلع؛ وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم آبنه الأشرف خليل، ثم المعظَّم بيدرا ولم يعتدّ به لخلعه من يومه كما لم يعتدّ بابن المعتز فى الخلفاء، ثم الناصر محمد بن قلاوون، ثم العادل كتبغا، ثم المنصور لاچين، ثم المظفر بيبرس الجاشنكير نخلع؛ ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد، ثم الأشرف كجك ابن الناصر محمد، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجى بن الناصر محمد نخلع ؛ ثم الناصر حسن بن الناصر محمد، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجى ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم ٱبنه المنصور على ، ثم الصالح حاجى بن الأشرف شعبان نخلع ؛ ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثانى والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلِّك وهو فى بطن أمه ؛ وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقَدوا التاج علىٰ رأس أمه علىٰ أن يكون من فى بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملَّكوه .

ثلاثة من ملوك فارس ٱبن وأب وجدّ ٱسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ؛ ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الثعالبىّ : وهذا التناسق لا يقع إلا فى الأكابر والرؤساء وقد جاء من هذا النمط فى سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أوّل ٱسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أوّل ٱسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتل عمرَو بن سعيد وعبدَ الله بن الزبير وعبدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثانى أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتل أبا مسلم الخراسانى وٱسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن على وعبد الجبار بن عبد الرحمن والى خراسان .

قال الثعالبىّ : أربعة فى الإسلام قتل كلُّ واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراسانى ، وبابك ، والبرقعى .

قلت : وقد وقع لتيمور كور كان المعروف بتمرلنـك صاحب ما وراء النهر علىٰ رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك ، فإنه قد فتح من الهنـد إلىٰ الخليج القسطنطيني ، وقتل من كل إقليم من الخلق مالا يحصىٰ حتّى كان يبنى بالرءُوس فى كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسَرَاة الناس

ثلاثة بنو أعمام فى زمن واحد ، كل منهم سيد جليل ، لم يصلحُ للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ٱبن ٱسمه محمد كذلك ، وهم علىّ بن عبد الله بن عباس وٱبنه محمد وعلىّ بن الحسـين بن علىّ بن أبى طـالب وٱبنه محمد ، وعلىّ بنُ عبدِ الله بن جعفر ابن أبى طالب وٱبنه محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق فى العالَم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وٱبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العـاص وٱبنه عبد الله كان بينهما فى السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبىّ ولا يعهد مثل ذلك .

أخوان تباعد ما بينهما فى السن تباعدا شديدا وهما موسىٰ بن عبيدة الرَّبَذى (١) المحدّث وأخوه عبد الله كان بينهما فى السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك فى غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسنُّ من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبى طالب كان طالب أسنَّ من عَقِيل بعشر سنين ، وعَقِيل أسنَّ من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسنَّ من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا فى سنة واحدة وقتلوا فى يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة ، وهم مِزْيد ، وزياد ، ومدرِك أولاد المهَلّب بن أبى صُفْرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) فى الأصل الزبيرى وهو تصحيف عن الربذى كما يعلم من الخلاصة للخزرجى .

رجل مكث عشر سنين لا يولَد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلّب آبن أبى صُفْرة فى غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال فى الإسلام لم يمت كل منهم حتّى رأىٰ من ولده وولد ولده أكثَرَ من مائة فيما قاله الثعالبيّ وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخليفة بن براء السعدىّ ، وعبد الرحمن بن عمر الليثى ، وجعفر بن سليمان الهاشمى؛ ومنهم من يذكر بدله أبا بكرة مولى النبى صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشدّ تباعد، وهم بنو العباس بن عبد المطاب قبر عبد الله بالطائف، وقبر عبيد الله بالمدينة، وقبر مَعَدّ بافريقيَةَ، وقبر الفضل بالشام، وقبر قُثَم بسَمَرْقَند .

قاض قضى فى الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكِنْدىّ آستقضاه عمر علىٰ الكوفة فبقى بها خلافة عمر وما بعدها إلىٰ تمام المدّة المذكورة لم يتعطل منها سوىٰ ثلاث سنين آمتنع فيها من القضاء فى فتنة آبن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

"من كان من الخلفاء أصْلَعَ" قال الثعالبيّ : كان الصَّلَع فى عمر ، وعثمان، وعلىّ، ومروان بن الحكم، وعمر بن عبد العزيز؛ قال ثم آنقطع الصلع من الخلفاء .

"من كان فى غاية الطول" ، كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كأنَّه راكب والناس يمشُون لطوله ؛ وكان عدِىُّ بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط فى الأرض؛ وكذلك جَرِير بن عبد الله البَجَلىّ ، وكان قُسُّ بن ساعدة فى نِهاية الطول والجَسَامة ، وكان عبد الله بنُ زياد إذا رءاه الرائى وهو ماشٍ ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان علىّ بن عبد الله بن عباس فى غايةٍ من الطُّول، وكان أبوه عبد الله أطولَ منه، وجدّه

العباس أطولَ من أبيه؛ ويقال إن جَبَلة بن الأيهم الغَسّانىّ كان طوله اثنىْ عشر شبرا .

"من كان فى غاية القصر" قال الثعالبىّ : كان عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه شديدَ القِصَر يكاد الجُلُوس يوازونه من قصره؛ وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دَحْداحا ، وكان الحُطَيئة الشاعر مُفْرط القصر ، ولذلك لُقِّب بالحُطَيئة ، وكان ذو الرُّمَّة الشاعر قصيرا جدّا ؛ ورأيت فى بعض التواريخ أن كُثَيِّر عَزَّة كان طوله ثلاثة أشبار ؛ وكان العباس بن الحسن فى غاية من القِصر وفيه قيل :

لا تَنْظُرَنَّ إلىٰ العَبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ * وآنظُرْ إلىٰ الفَضْلِ والمَجْدِ الذى شادَا
إنَّ النُّجومَ نُجُومَ الجَوِّ أصغَرُها * فى العَيْنِ أبعَدُها فى الجَوّ إصْعادا

"من عُرِف بالدهاء من العرب" مُعاوِية بن أبى سفيان ، زِيادُ ابن أبيه ، عمرو بن العاص ، المُغِيرة بن شُعْبة ، قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة ، عبدُ الله بن بُدَيل الخُزاعى .

"من نُسِب منهم إلىٰ الحُمْق" عامر بن كُرَيْز ، معاوية بن مَرْوان بن الحكم ، بكّار آبن عبد الملك بن مروان ، العاص بن هشام ، عبد الله بن معاوية بن أبى سفيان ، سهل بن عمرو وأخوه سُهَيل ، العاص بن سعيد بن العاص .

"المؤلفة قلوبهم فى أوّل الإسلام" قال الثعالبىّ : هم من قريش أبو سفيان آبنُ حرب ، وسُهَيل بن عمرو ، وحُوَيطب بن عبد العُزّى ، وهَبّار بن الأسود ، والحارثُ بن هشام ، وحَكِيم بن حِزام ، وصَفْوان بن أُمَيَّة ، وأنس بن عدى . ومن فَزارة عُيَيْنة بن حِصْن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُلَيم العَبَّاس بن مِرْداس . ومن ثَقِيف العَلَاء بن الحارث .

"من أصيبت عينه" أبو سفيان بن حرب ، ذهبت عينه يوم الطائف ثم عمِى بعد ذلك . الأشعث بن قَيْس ، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك ، المغيرة بن شُعْبة كذلك

الأشتر النخَعِيّ جَرِير بن عبد الله البَجَلي، عدىّ بن حاتم، عُتْبة بن أبي سفيان، المختار ابن أبي عُبَيد، الأحنَف بن قَيْس، المُهَلَّب بن أبي صُفْرة، طاهرُ بن الحسين، عمرو ابن الليث الصَّفَّار.

"من سُمِلتْ عيناه من الخلفاء والملوك" أما من الخلفاء فالقاهر، والمتقى، والمكتفِي؛ وأما من الملوك فهُرْمزُ بن أنو شروان أحد الملوك الأكاسرة، صَمْصام الدولة بن بويه، منصور بن نوح بن منصور السامانى.

"من كان مكفوف البصر من أشرف الناس" زُهْرة بن كلاب بن كعب؛ عبدُ المطلب بنُ هاشم؛ العَبَّاس بن عبد المطلب؛ الحَكَم بن العاص؛ أبو سفيان بن حرب؛ الحارث بن العبَّاس بن عبد المطلب؛ مُطْعِم بن عدى بن نَوْفَل بن عبد مناف؛ أبو بكر بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام بن المغيرة؛ عُتْبة بن مسعود الهذلى، عبد الله بن عُبَيْد الله بن عُتْبَة؛ أبو أحمد بن جَحْش بن مسعود الأسدى؛ جابر بن عبد الله الأنصارى، عبد الله بن أرقم؛ البَرَاء بن عازب؛ حَسَّان ابن ثابت؛ أبو أُسَيْد الساعدى؛ قتادة بن دِعامة؛ دُرَيد بن الصِّمَّة الجُشَمىّ؛ عزمة ابن نَوْفل الزُّهْرى؛ الفاكه بن المغيرة المخزومىّ؛ جَذيمة بن حازم النهشلى؛ أبو العباس الشاعر؛ على بن زيد بن جُدْعان؛ المغيرة بن مِقْسَم الضبىّ؛ الترمذىّ الكبير الحافظ الفقيه؛ منصور الشاعر المِصرىّ؛ ابن سِيده اللُّغوىّ؛ أبو العَلَاء المَعَرّى؛ بَشَّار بن بُرْد؛ أبو البقاء العُكْبَرىّ؛ أبو العَيْناء هشامُ بن معاوية الضرير النحوىّ الكوفىّ؛ أبو القاسم السُّهَيْلى صاحب الروض الأُنُف؛ أبو القاسم الشاطبىّ؛ الصرصرىّ الشاعر؛ أبو الحسن علىّ بن عبد الغنى الحصرى؛ أبو عبد الله بن خَلَصة المغربى النحوى؛ أبو عبد الله بن الخَيَّاط.

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنَف . ومن ملوك الفُرْس أَنُو شَرْوان كان أعور، يزدجرد كان أعرجَ . ومن ملوك العرب جَذِيمة الوَضَّاح، كان أبرص، النُّعمان آبن المنذر، كان أحمر العينين والشَّعَر . ومن الخلفاء عبدُ الملك بنُ مرْوان أَبْخَر، يزيد آبن عبد الملك أفقَم، هِشَام بن عبد الملك أحْوَل، مَرْوان الحِمَــار أشــقر أزرق، موسى الهادى شفته العُلْيا متقلصة، حتّى كان أبوه المهدى قدرتَّب له خادما يلازمه متى غَفَل وفتح فاه قال: موسى أطبق، إبراهيم بن المهدى كان أسود سَمِينا يلقَّب بالتِّنِّين .

ومن أشراف قريش وغيرهم أبو طـالب أعرجُ، وأبو جَهْل أحولُ، أبو لَهَب كذلك، وكذلك زِياد، وعدىٌّ بن زيد . الأحنفُ بن قيس، أحنفُ متراكِب الأسنان، صَعِل الرأس، مائل الذَّقَن . والرَّبيع بن زِياد أبرصُ، وكذلك الحارث بن حِلِّزة، وأيْمَن بن خُرَيم، والحسن بن قَحْطَبة، وكان عَبِيدة السَّلْمانىُّ أصمَّ، وكذلك آبن سيرينَ والكُمَيتُ الشاعر، والمرَقَّش الأكبر الشاعر أجدع .

أصحاب النوادر

ابن أبى عَتِيق، أشعبُ الطَّمِع، أبو الغُصن جُحَا، أبو العِبَر، أبو العَنْبَس، ابن الجصاص مِزْيد المدنىّ .

أجواد الإســلام

عُبيد الله بن عباس بنِ عبد المطلب، عبـدُ الله بن جعفر بن أبى طالب، سعيدُ آبن العاص بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّــة، عبد الله بن عامر بن كُرَيز، حمزَة بنُ عبد الله بن الزبير بن العوّام، عُمَر[1] بن عبيد الله بن مَعْمَر التيمىّ، خالد بن عبــد الله

(١) فى العقد الفريد اسم الجوَاد عبيد الله بن معمر القرشىّ ثم التيمى .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عُبَادة الأنصارى ، عَتَّاب بن أبى وَرْقاء الحنظلىّ ، أسماء بن خارجة بن حِصن بن بدر الفَزَارىّ ، عبد الله بن أبى بكرة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطَّلَحات المعروفون بالجُود

طلحة الفَيَّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحدُ العشرة ؛ وطلحة الجُود — وهو طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معْمَر التيمى ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علىّ آبن أبى طالب ؛ وطَلْحة الندىٰ — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزُّهْرى ؛ وطَلْحة الطَّلَحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خَلَف الخُزَاعىّ .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر[1] بن أبى عمرو بن أُمَيَّة ، وزمعة[1] ابن الأسود بن المطلب بن عبد العُزّى بن قُصَىّ ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : سُمُّوا بذلك لأنهم لم يتزوّد معهم أحد فى سفر قطّ لجُودهم .

من آشتهر عند أهل الأثر بلقبه

غَسِيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبى عامر الأنصارى أصيبَ يوم أُحُد فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غَسَّلته . قتيل الجن ، هو سعد بن عُبَادة ، بال فى جُحْر فقتله الجن . مُصَافِح الملائكة ، هو عِمْران بن حُصَيْن . حَمِىّ الدَّبْر ، هو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، حَمَتْه النحلُ إلىٰ أن كان الليلُ . ذو الشَّهادتين هو خُزَيمة بن ثابت الأنصارى ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دينِ اليهودىّ حين أخبر النبىُّ صلى الله عليه وسلم أنه وفّاه ، اعتمادا علىٰ خبر النبى صلى الله عليه

(١) فى الأصل مسلمة ... ... وربيعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وسـلم ، فجعل صلى الله عليه وسـلم شهادتَه بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليدين هو عُبَيْد بن عَبْدِ عمرو الخزاعىّ كان يعمل بيـديه معا . ذو العِمامة ، هو أبو أُحَيْحة سعيدُ بن العاص بن أُميَّة ، كان إذا لبِس عمامته لم يلبَسْ قرشىٌّ عمامته حتّى ينْزِعها . ذو الثُّدَيَّة ، كانت إحدى يديه مُخْدَجة كالثدى ، كان رأس الخَوَارج . ذو الثَّفِنَات ، كان يقال ذلك لعلىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، ولعلىّ بن عبد الله بن عباس لما على أعضاء السَّجَدات منهما من شبه ثَفِنات البعير . ذو السَّيْفين ، هو أبو الهيثم ابن التَّيِّهان ، سمى بذلك لتقلُّده فى الحرب بسيفين . سَيْف الله ، هو خالد بن الوليد . أسـدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النِّطَاقين ، هى أسمـاءُ بنتُ أبى بكر ، سميت بذلك لأنها شَقَّت نِطاقها للسُّفرة فى الليلة التى هاجر النبى صلى الله عليه وسـلم هو وأبوها إلى المدينة . عُرْوة الصَّعَاليك ، هو عُرُوة بن الوَرْد ، كان إذا شَكَا إليه أحد أعطاه فرسا ورُمْحا وقال له : إن لم تستغْنِ بذلك فلا أغناك الله . سُـلَيك(١) المَقَانب ، هو سُـلَيك بن سُـلَكة ، كان أعدى الناس حتّى إن الفرس لا يُدْرِكه . طُفَيل الأعراس ، رجل من غَطَفان ؛ وقيل هو من مَوَالى عُثْمان بن عفَّان رضى الله عنه ، كان يتتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوة وإليه تنسب الطُّفَيليَّة . أشجُّ بنى أمية هو عمرُ بن عبد العزيز . جبارُ بنى العَبَّاس هو هارونُ الرشيد : لأنه أغزى ابنَه القاسمَ الرومَ فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابَّة بالسُّروج واللُّجُم الفِضَّة ، وأغزى علىَّ بنَ عيسى بن ماهانَ بلادَ التُّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هِرَقْلَة ، وأخذ الجزية من مِلك الروم . بَنَات طارق ، هنّ بنـات العلاء بن طارق بن أُمية بن عبد شمس ؛ سُمِّين بجَدِّهنّ ، يضرب بهنّ المثل

(١) فى الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان فى مادة س ل ك .

فى الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ؛ يُضرب بهنّ المثل فى الحُسْن وغلو المهر .

من كان فردا فى زمانه بحيث يضرب به المثل فى أمثاله

كان الإسكندر ، فى طَوَفان الأرض ، وكسرى أنُوشَرْوان ، فى العدل ، وزرقاءُ اليمامة ، فى حِدّة النظر ، وحاتم الطائىّ ، فى الكرم ، وكعبُ بنُ مامةَ ، فى الإيثار ، وارسطاطاليس ، فى الحكمة ، وبقراط ، فى الطب ، وقُسّ بن ساعدة ، فى الفَصاحة ، وسَحْبان وائل ، فى البلاغة ، وعمرو بن الأهتم ، فى البيان ، وباقل ، فى العِىّ ، وأبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فى معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى قوة الهَيْبة ، وعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى التِّلاوة ، وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى القَضاء ، ومعاوية ، فى كثرة الآحتمال ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، فى الأمانة ، وأبو ذرّ ، فى صدق اللّهْجة ، وأبىّ بن كعب ، فى القرءان ، وزيدُ بن ثابت ، فى الفرائض ، وآبنُ عباس ، فى تفسير القرءان ، وعمرو بن العاص ، فى الدَّهاء ، وأبو موسىٰ الأشعرىّ ، فى سَلامة الباطن ، والحسن البصرىُّ ، فى الوعظ والتذكير ، ووهْب بن منبِّه ، فى القصَص ، وآبن سِيرينَ ، فى تعبير الرؤيا ، ونافع ، فى القراءة ، وأبو حنيفة ، فى القياس فى الفقه ، وآبن إسحاق ، فى المغازى ، ومقاتل ، فى التأويل ، والكلبىّ ، فى قصَص القرءان ، وآبن الكلبىّ الصغير ، فى النسب ، وأبو الحسن المدائنى ، فى الأخبار ، ومحمد بن جرير الطبرىّ ، فى عُلُوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، فى العَرُوض ، وفُضَيل بن عياض ، فى العبادة ، ومالك بن أنس ، فى العلم ، والشافعىّ ، فى فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، فى الغَرِيب ، وعلىّ آبن المدِينى ، فى عِلَل الحديث ، ويحيىٰ بن مَعِين ، فى رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ، فى السنة ، والبخارى ، فى نقد الصحيح ، والجنيد ، فى التصوّف ، ومحمد بن نصر المروزىّ ،

فى الاختلاف، وأبو علىّ الجُبَّائى، فى الاعتزال، وأبو الحسن الأشعرىّ، فى علم الكلام، وأبو القاسم الطبرانى، فى عَوالى الحديث، وعبدُ الرزاق، فى ارتحال الناس إليه، وابن مَنْده، فى سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، فى سُرْعة القراءة، وابن حزم، فى مَذْهب الظاهر، وسيبويه، فى النحو، وأبو الحسن البكرى السيرى، فى الكذب، و إياسُ بن معاوية، فى الذكاء والتفرّس، وعبدالحميد، فى الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخُراسانىّ، فى علُوّ الهمة والحزم، و إسحاق الموصلىّ النـديم، فى الغِناء، وأبو الفرج الأصفَهانى صاحب الأغانى، فى المحاضرة، وأبو معشر، فى النُّجوم، والرازى، فى الطِّب، وعَمَّار بن حمزة، فى التِّيه، والفضل بن يحيىٰ، فى الجُود، وجعفرُ بن يحيىٰ، فى التوقيع، وابن زيدُونَ، فى سَعَة العبارة، وابن القِرِّية، فى البلاغة، والجاحظ، فى الأدب والبيان، والحريرىُّ، فى المقامات، والبديع الهَمَذانى، فى الحفظ، وأبو نُوَاس، فى المُجُون والخَلَاعة، وابن حَجَّاج الشاعر، فى سُخْف الألفاظ، والمتنبى، فى الحِكَم والأمثال شعرا، والزمخشرىّ، فى تَعاطِى العربية، والنَّسَفى، فى الجَدَل، وجَرِير الشاعر، فى الهجاء الخبيث، وحَمَّاد الراوية، فى شعر العرب، والاحنف بن قيس، فى الحِلْم، والمأمون، فى حُبِّ العفو، والوليد، فى شُرْب الخمر، وعطاء السُّلمىّ، فى الخوف من الله تعالىٰ، وابن البوّاب، فى الكتابة، والقاضى الفاضل، فى الترسُّل، والعِماد الكاتب، فى الجِنَاس، وأشعبُ، فى الطمع، وأبو نصر الفارابى، فى معرفة كلام القدماء ونَقْله وتفسـيره، وحُنَين بن إسحاق، فى ترجمة اليونانى إلىٰ العربى، وابن سينا، فى الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام فخر الدِّين الرازى، فى الاطِّلاع علىٰ العلوم، والجاحظ فى سَـعَة العبـارة، والسيف الآمِدىّ، فى التحقيق، والنصير الطُّوسى، فى معرفة المجسطى، وابن الهيثم، فى الرياض ونجم الدين الكاتبى، فى المنطِق، وابن الأعرابى، فى الاطلاع علىٰ اللغة، وأبو العيناء، فى الأجوبة المسكتة، ومَزْيد، فى البخل، والقاضي أحمد بن أبي دواد، في المروءة

وحُسْن التقاضى؛ وٱبن المعتز، فى التشبيه، وٱبن الرُّومى، فى التطيُّر، والصولى فى الشِّطْرنج، والغزالى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وأبو الوليد بن رُشْد، فى تلخيص كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيي الدين بن عربى، فى علوم التصوّف، وجابر ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب ٱتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبُعِث يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتُوفِّى يوم الاثنين .

اتفاقيــة أخرى — قَتَل عبدُ الله بن زياد الحســينَ بنَ علىّ عليهما الســلام يوم عاشوراء، وقتله الله علىٰ يد إبراهيم بن الأشتر فى يوم عاشوراء .

أخرىٰ — قال عبد الملك بن عمير الليثىّ : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بنِ علىّ بين يدى عبــد الله بن زياد علىٰ تُرْس؛ ثم رأيت فيه رأس عبــد الله ٱبن زياد بين يدى المختار بن أبى عُبيد؛ ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدى مُصْعَب ٱبن الزبير؛ ثم رأيت فيه رأس مُصْعَبٍ بين يدى عبــد الملك بن مروان . قال : فحدّثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدّثنى الحسين بن يحيىٰ الكاتب أنه لمـا وَلِى المعتز لم تمض مدّة لطيفة حتّى أحضر الناس وأُخْرِج المؤيد (١) وقيل ٱشهدوا أنه دُعِىَ فأجاب، وليس به أثر؛ ثم مضت مدّةُ شهر فأحضر الناس وأُخْرِج المستعين وقال : إن منيته أتت عليه، وها هو لا أثر به فٱشهدوا ؛ ثم خُلِـع المعتز، وٱستخلف المهتدى ؛ ولم يمض إلا مُدَيْدة حتّى أُخْرِج المعـتزُّ ميتا وقال : اشهدوا، أنه قد مات حتف أنفه

(١) أى ميتا .

ولا أثر به، ثم لم تكمل السنة حتى استُخْلِف المعتمد فأُخْرِج المهتدى ميتا وقال: اشهدوا أنه قد مات حَتْفَ أنفه من جراحته، فتعجب الناس من تلاحُقِهم فى مدّة يسيرة.

عِبْرة — مات المكتفى بالله عن مائةِ ألف ألف دينار، ولما غُسِّل لم توجد مِجْمَرة يبخر فيها إلا مجمرةً من خَزَف أحمرَ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة.
قال أحمد بن أبى دواد: لقد شددت لحيِ المأمون، والمعتصم، والواثق، بعد موتهم فلم أجد خرقة أشدّ بها لَحْيَ واحد منهم إلا ما أخرقه من الدراريع التى تكون علىّ.

لطيفة — فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد بردّ فاضل سِهام المواريث على ذوى الأرحام، وأبطل ديوانَ المواريث، وكتب بذلك إلى الآفاق.

لطيفة — فى سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بغَرَق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفَّظ الناس من ذلك فقلَّت الأمطار حتى اسْتَسْقَوْا ببغداد مرَّات.

غريبة — ذكر ابن سينا فى المقالة الأولى من كتابه الشفاء أنه نزل بجُرْجان صاعقةٌ من الهواء فنشبت فى الأرض، ثم نبَتْ نَبْوة الكُرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفَروا عليها فإذا هى قطعة من حديد تقدير مائة وخمسين منًّا، وهى أجزاء جاوَرْشيَّة صغارٌ مستديرة، التصق بعضها ببعض، فكتب محمود بن سبكتكين، صاحب خراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثِقَله فحاولُوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات، فعُولج كسره فقطع منه قطعة لطيفة، وحملت إليه فرام أن يُطْبَع منها سيفا فتعذر عليه.

لطيفة أخرى — فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة جاء سيلٌ عظيم فغرّق مدينة سِنْجار من بلاد الجزيرة، وهدم المنازل، وأغرق خلقا كثيرا. ومن غريب ما حكي

أن السيل حمل مَهْدا فيه صبىّ صغير فتعلق المهد بشجرة زيتون ، وغاض المـاء، وبقى المهد معلّقا بالشجرة فسلم الصغير .

أُعجوبة — فى سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وفِلَسْطِين زَلْزلة عظيمة، طلع فيها المـاء من رءوس الآبار، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلىٰ أرض البحر يلتقطون ما آنكشف البحر عنه ممـا فى أرضه فرجع المـاء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم فى سنة آثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلزلة عظيمة خربت شيزر، وحمـاة ، وحمص ، وحِصْن الأكراد، وطرابُلُس وأنطاكِيَة، وغيرها من البلاد التى حولها، ووقعت الأسواق والقلاع حتّىٰ تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة.

فائدة — فى سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتفى الخليفةُ باب الكعبة، وعمل عوضه بابا مصَفَّحا بالفضة المُذْهَبة، وعمل لنفسه من الباب الأوّل تابوتا ليُدْفَن فيه .

نادرة — فى سنة خمس وستين وسبعمائة وقع ثلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعُكْبَراء وما حولها .

أخرىٰ — فى سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وآمتدّ من مكة إلىٰ الشام، وعظم بحَوْرانَ حتّىٰ أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصبغة والقُماش ، وسُدّت أعين المـاء خوفا من أن يُفسِدها ، وكان من شأنه بعَجْلُون أنه امتلأت منه المدينة وغُلِّقت الأسواق ، وطُبِّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسدّت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع ، وترامىٰ علىٰ الخطيب علىٰ المنبر حتّىٰ شغله عن الخطبة، وكذلك حَيَّر الناس حتّىٰ خرجوا من الجامع يخُبُّون فيه خبا إلىٰ الركب، وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتّىٰ صار أهل البلد يشَمُّون القَطِران ليغطّى رائحته ﴿وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُو﴾.

أخرىٰ — فى سنة ٱثنتين وسبعين وسبعمائة رأىٰ أهل الشام فى السماء بعد مَغيب الشَّفَق حُمْرةً عظيمة من جهة الشمال ، ثم ٱشتدّت الحمرةُ حتّٰى صارت كالنار الموقدَة وانتشرت فى السماء حتّٰى كاد يغطى ثلثها ، وعم بلاد الشام حتّٰى كان بدِمَشْــق ، وبَعْلَبَكّ وحلَب ، وقاقُونَ ، والرملة ، والقُدْس ، وطرابُلُس ؛ حتّٰى خاف جميع أهل هذه البلاد علىٰ أنفسهم الهلاكَ ، وضَرَعوا إلىٰ الله تعالىٰ ، وٱبتهلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر فى سنة ٱثنتى عشرة وثمانمائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتّٰى داخلنى منه أنه عذاب قد صُبَّ علىٰ الناس ، ثم ٱنقشع بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجملة فوقائع الدهر وعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

واللَّيَالِى كَمَا عَلِمْتَ حَبالىٰ * مُقْرِباتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

المقصـــد الثـانى

(فى وجه بيان ٱستعمال الكاتب ذلك فى خلال كلامه)

لايخفىٰ أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدّمين وسِيَرهم ، وأخبارهم ، ومَنْ بَرَع منهم ، صار عنده علم بما لعله يُسأل عنه ، وٱعتدادٌ لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتَجُّ عليه به من صورة قديمة : ليكون علىٰ يقين منها ، مع ما يحتاج إلىٰ إيراده فى خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حَسُن الآحتجاج بذكره فى أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الهمذانيُّ إلىٰ أبى الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر فى مجلسه فقال: إن البديع قد نسىَ حق تعليمنا إياه، وعقّنا، وشمَخ بأنفه عنا، والحمد لله علىٰ فساد الزمان، وتغير نوع الانسان . فكتب إليه :

" نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام ، إنه الحَمَأ المسنون ، وإن ظُنّت الظنون، والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم، وٱرتكبت الأضداد، وٱختلط الميلاد . والشيخ يقول فسد الزمان، أفلا يقول متىٰ كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية ، وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدّة المروانية ، وفى أخبارها " لاتَكْسَع الشَّوْل بأغبارها ؟ " أم السنين الحربية، والسيف يُغْمَد فى الطُّلا ، والرُّمح يُرْكَز فى الكُلا ، وميتٌ بحجر فى الفلا، والحرتان وكربلا، أم البَيْعة الهاشمية، وعلىٌّ يقول: ليت العَشْرةَ منكم براس ، من بنى فراس ؟ أم الأيام الأُمَويّة ، والنفير إلىٰ الحجاز ، والعيون إلىٰ الأعجاز ؟ أم الإمارة العَدَوية ، وصاحبها يقول : وهل بعد البُزُول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية، وصاحبها يقول : طوبىٰ لمن مات فى نأناة الإسلام (1) ؟أم علىٰ عهد الرسالة ويومَ الفتح قيل ٱسكُتِي يافلانه ، فقد ذهبت الأمانه ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذَهَب الذين يُعَاشُ فى أكْنافِهِمْ * وبَقِيتُ فى خَلْف كجِلْد الأجْرَبِ.

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلادٌ بِهَا كُنَّا وكُنَّا نُحِبُّهَا * إذ النَّاسُ ناسٌ والزَّمانُ زَمانُ.

أم قبل ذلك، ويروىٰ لآدم عليه السلام :

تَغيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عَلَيْهَا * فَوَجْهُ الأرضِ مُسْوَدٌّ قَبِيح!

أم قبل ذلك والملائكة تقول : ﴿أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ؟ وما فَسَد الناس، ولكن ٱطّرد القياس، ولا ظَلَمت الأيام، إنما امتدّ الإظلام، وهل

(1) أى فى أوّل الاسلام قبل أن يقوى أنظر اللسان .

يفسُد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صَبَاح؛ ولعمرى ! لئن كان كَرَم العهد كتابا يَرِد وجوابا يصدُر إنه لقريب المنال، وإنى علىٰ توبيخه لى لفقير إلىٰ لقائه، شفيق علىٰ بقائه؛ منتسب إلىٰ ولائه، شاكر لآلائه .

والغاية القُصوىٰ فى ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليـد بن زيدون" رحمه الله علىٰ لسان محبوبته وَلَّادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلىٰ إنسان استمالها عنه إلىٰ نفسه وهى :

أما بعدُ أيها المصابُ بعقله، المورَّط بجهله؛ البَيِّن سَقَطه، الفاحش غلطه؛ العاثر فى ذيل ٱغتراره، الأعمىٰ عن شمس نهاره؛ الساقطُ سُقُوطَ الذُّباب، علىٰ الشراب، المتهافت تهـافُتَ الفَرَاش فى الشِّهاب؛ فإن العُجْب أكذبُ ، ومعرفةَ المرء نفسَـه أصوب ؛ وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتِي ما صَفِرت منه أيدى أمثالك، متصدّيا من خُلّتى لما قُدِعت فيه أنوفُ أشكالك ؛ مرسلا خليلتَكَ مرتاده ، مستعملا عشيقتك قَوَّاده؛ كاذبا نفسك فى أنك ستنزل عنها إلىّ، وتخلف بعدها علىّ :

ولَسْتَ بأوّلِ ذِى هِمَّـةٍ * دعَتْهُ لما لَيْس بالنائِلِ !

ولا شكَّ أنها قلَتْك إذ لم تضِنَّ بك ، وملَّتْك إذ لم تَغرْ عليك ؛ فإنها أعذرت فى السِّـفَارة لك، وما قَصَّرت فى النيابة عنك؛ زاعمةً أن المُروءة لفظٌ أنت معناه ، والإنسـانيةَ ٱسم أنت جسمه وهَيُولاه؛ قاطعة أنك ٱنفردت بالجمال ، وٱسـتأثرت بالكمال واستعلَيْت فى مراتب الجَلال؛ حتّى خيَّلتْ أنَّ يوسف عليه السلام حاسَنك فغضَضْت منه، وأن امرأة العزيز رأتْك فسَلَتْ عنه؛ وأن قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزْت ، والنطف عَثَر علىٰ فضْل مارَكَزْت، وكِسرىٰ حمل غاشيَتك، وقيْصَر رعىٰ ماشِيَتك؛ والإسكندرَ قتل دارًا فى طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخُروجهم عن جماعتك؛ والضحاكَ ٱستدعىٰ مُسالمتك، وجَذيمةَ الأبرَش تمنّى منادمتك وشِيرين

قد نافست بُورانَ فيك، و بِلْقِيس غايَرتِ الزَّبّاء عليك؛ وأن مالك بن نُوَيْرة إنما أَردَف لك، وعُروةَ بن جعفر إنما رَحَل إليك؛ وكُلَيب بن رَبيعة إنما حمى المَرْعى بعزَّتك، وجَسَّاسا إنما قتله بأنفتك، ومُهَلْهِلا إنما طلب ثأره بهمَّتك؛ والسَّمَوْءَل إنما وفى عن عهدك، والأحنفَ إنما آحتبى فى بُرْدك؛ وحاتما إنما جاد بوَفْرك، ولقِىَ الأضياف بِبِشْرك؛ وزيد بن مُهَلْهِل إنما ركب بفَخِذيك، والسُّلَيْك بن السُّلَكة إنما عدا على رجليك؛ وعامرَ بن مالك إنما لاعب الأسِنَّة بيديك؛ وقيسَ بن زُهَيْر إنما آستعان بدَهَائك، و إياس بن معاوية إنما آستضاء بمصباح ذَكَائك؛ وسَحْبان وائل إنما تكلم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سَحَر ببيانك . وأن الصلح بين بكر وتغلِبَ تَمَّ برسالتك، والحَمَالاتِ فى دِماء عَبْس وذُبْيانَ أُسْنِدتْ إلى كَفَالتك؛ وأن آحتيال هَرِم لعامر وعلقمةَ حتّى رضيَا كان عن إشارتك، وجوابه لعُمرَ، وقد سأله عن أيهما كان ينفِّر وقع بعد مَشُورتك؛ وأن الحجاج تقلد وِلاية العراق بجِدّك، وقُتيبةَ فتح ما وراء النهر بسَعْدك؛ والمهلَّب أوهن شَوْكةَ الأزارقة بأيْدك، وأفسد ذات بينهم بكيدك؛ وأن هرمس أعطى بيلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما حدّث عنك؛ وبطليموس سوّى الإصطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكُرَة على تقديرك؛ وأبقراط علم العلل والأمراض بلُطْف حِسِّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدِقّة حَدْسك؛ وكلاهما قلّدك فى العِلاج، وسألك عن المِزاج؛ وآستوصفك تركيب الأعضاء، وآستشارك فى الداء والدواء؛ وأنك نَهَجْت لأبى معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حَيَّان على سر الكيمياء؛ وأعطيت النظّام أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكِندىّ رسما آستخرج به الدقائق؛ وأن صناعة الألحان آختراعُك، وتأليف الأنقار توليدك وآبتداعُك؛ وأن عبد الحميد بنَ يحيى بارِى أقلامك، وسهل بنَ هارون مدوّن كلامك؛ وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مُسْتفتِيك؛ وأنك الذى

أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدّ الماهيّه ، وبين الكيفية والكميه ، وناظر فى الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ، وحلّ المعمّى ، وفصل بين الآسم والمسمّى ، وضرب وقسّم ، وعدّل وقوّم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظّرف والحال ، وبنىٰ وأعرب ، ونفىٰ وتعجب ، ووصل وقطع ، وثنّى وجمع ، وأظهر وأضمر ، وآبتدأ وأخبر ، وآستفهم وأهمل ، وقيد وأرسل ، وأسند وبحث ، ونظر وتصفّح الأديان ، ورجّح بين مذهبي مانى وغيلان ، وأشار بذبح الجعد ، وقتل بَشّار آبن بُرْد ، وأنك لو شئت خَرَقْت العادات ، وخالفت المعهودات ، فأحلت البحار عَذْبه ، وأعدت السِّلام رَطْبه ، ونقلت غدًا فصار أمسا ، وزدت فى العناصر فكانت خمسا ، وأنت المقول فيك "كلُّ الصّيد فى جَوْفِ الفَرا" ، والمقول فيك :

لَيْس علىٰ اللهِ بمستَنْكَرٍ * أن يجْمَعَ العالَمَ فى واحِدِ

والمعنىُّ بقول أبى تمـام :

فَلَوْ صَوَّرتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها * علىٰ ما فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّباعِ

والمرادُ بقول أبى الطيِّب :

ذُكِرَ الأَنَامُ لَنا فكَانَ قَصِيدةً * كنتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أبْياتِها

فكَدَمْتُ فى غير مَكْدم ، وآستسمنْتُ ذا وَرَم ، وَنَفختُ فى غير ضَرَم ، ولم تجد لرِجْلٍ مَهَزًّا ، ولا لشَفْرة مَحَزًّا ، بل رضِيتُ من الغنيمة بالإياب ، وتمنّيتُ الرجوع بخُفَّىْ حنين ، لأنى قلت لهـا :

* لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بالَتْ عليه الثَّعالِبُ *

وأنشـدت :

عَلىٰ أنَّها الأيَّامُ قَدْ صِرنَ كُلُّها * عجائِبَ حتّى لَيْس فِيها عجائِب

ونخرتْ وكفَرَتْ ، وعبَستْ وبَسَرت ، وأبدأتُ وأعَدْتُ ، وأبرقتُ وأرعدت ،

وهَمَمتُ ولم أفعل، وكِدتُ وليتنى، ولولا أن للجوار ذِمَّة، وللضِّيافة حُرْمة، لكان الجواب فى قَذَال الدُّمُسْتُق، والنعل حاضرة إن عادت العَقْرب، والعُقُوبة ممكنة إن أصرّ المُذْنِب، وهَبْها لم تلاحِظْك بعينٍ كليلة عن عيوبك مِلْؤُها حبيبُها وحَسَنٌ فيها من تودّ، وكانت إنما حَلَّتك بحِلاك، ووسَمَتْك بسِياك، ولم تُعِرْك شهاده، ولا تكلَّفَتْ لك زياده، بل صدَقت سِنَّ بكرها فيما ذكرتْه عنك، ووضَعتِ الهِنَاءَ مواضع النَّقَب فيما نسبَته إليك، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك، فالمُعَيْدِىّ تسمعُ به خير من أن تراه، هجِينُ القَذال، أرْعَن السِّبال، طويل العُنق والعِلاوه، مُفرِط الحُمْق والغَبَاوه، جافى الطبع، سيئ الإجابة والسمع، بغيض الهيئه، سخيف الذَّهاب والجَيْئه، ظاهرُ الوَسواس، مُنتن الأنفاس، كثير المعايب، مشهور المثالب، كلامك تمتمه، وحديثك غمغمه، وبيانُك فَهْفَهه، وضحكُك قَهْقهه، ومشيك هروله، وغِنَاك مسأله، ودِينك زندقه، وعلمك مخرقه:

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوَانِى ✽ لَمَا أُمْهِرْنَ إلّا بالطَّلاقِ

حتّى إن باقلًا موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبَنَّقَة مستحقٌّ لاسم العقل إذا أُضِيف إليك، وأبا غبشان محمود منه سَدَاد الفعل إذا نسب إليك،(١) وطُوَيسا مأثور عنه يمنُ الطائر إذا قِيسَ عليك، فوُجودك عدم، والاعتناء بك نَدَم، والخيبة منك ظَفَر، والجنة معك سَقَر، كيف رأيت لُؤْمك لكرمى كفاء! وضَعتَك لشرفى وفاء؛ وأنَّى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها، والطيرَ إنما تقع على آلافها، وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشَعرت أن نارَي المؤمن والكافر لا تتراءيان، وقلت الخبيثُ والطيِّب لا يستويان، وتمثلت:

✽ عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقِيَان ✽

---

(١) هذه الفقرة ساقطة فى بعض شروح الرسالة .

وذكرت أنى عِلْق لا يُباع ممن زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغَرَض لا يصيبه إلا من أجاد، فما أحسَبُك إلا قد كنت تهيأت للتهنيه، وترشحت للترفيه، لولا أن جُرْح العجماء جُبَار، للقيتَ ما لَقِىَ من الكواعب يَسَار، فما همّ إلا بدُون ما همَمْت به، ولا تعرّض إلا لأيسرَ مما تعرّضت له؛ أين آدّعاؤك رِوايةَ الأشعار، وتعاطيك حفظَ السِّيَر والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر:

بَنُو دارِم أكفاؤُهم آلُ مِسْمَع * وتُنْكَح فى أكفائها الحَبَطات

وهلّا عَشَّيْت ولم تَغْتَرّ، وما أمَّنك أن تكون وافد البَرَاجِم، أو ترجعَ بصحيفة المتلَمِّس، أو أفعلَ بك ما فعله عَقِيل بن عُلَّفَة(١) بالجُهَنِىّ الذى جاء خاطبا، فدهن آسته بزيت وأدناه من قرية النمل؛ ومتى كَثُر تلاقينا، وآتَّصل ترائينا؟ فيدعُونى إليك ما دعا آبنةَ الخُسّ إلىٰ عبدها من طُول السِّواد، وقُرب الوِساد؛ وهل فَقَدتُ الأراقِمَ فأنكِحَ فى جَنْب، أو عضَلَنى هُمَام بن مُرّة، فأقول زوجٌ من عُود، خير من قُعود، ولعمرى لو بلغت هذا المبلغ لآرتفعت عن هذه الخِطّة، وما رضيت بهذه الخُطّة، فالنار ولا العار، والمَنِيَّة ولا الدَّنيَّه، والحُرّة تجوعُ ولا تأكل بثدْيَيْها:

فكَيْفَ وفى أبناء قَوْمِى مَنْكَح * وفِتْيانِ هِزّانَ الطِّوالِ الغَرَانِقه

ما كنت لأتخطّى المِسْك إلىٰ الرَّماد، ولا أمتطِى الثَّوْر دُونَ الجَوَاد؛ وإنما يتيمَّم من لا يجد ماء، ويرعىٰ الهَشِيم، من عَدِم الجَميم؛ ويركب الصَّعْب من لا ذَلُولَ له؛ ولعلك إنما غرَّك من عَلِمتْ صَبْوتى إليه، وشُهِرتْ مساعَفتى له من أقمار العَصْر، ورياحين المِصْر، الذين هم الكواكب عُلُوَّ هِمَم، والرياضُ طِيبَ شِيَم.

* مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ *

(١) فى الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة ع ل ف فى القاموس.

فَنَّ قِدْح ليس منها، ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واوَ عَمْرو فيهم؟ وكالوَشيظَة فى العظم بينهم؛ وإن كنت إنما بلغتَ قَعْر تابو بتك، وتجافيت لقَميصك عن بعض قُوتك؛ وعطَّرت أردانَك، وجَرَرت هِمْيانك، وٱختَلْتَ فى مِشْيَتك، وحَذَفْت فُضُول لِحْيتك؛ وأصلحت شارِبَك، ومَطَطت حاجِبَك؛ ورَقَّقْت خَطَّ عذارِك، وٱستأنفتَ عَقْد إزارك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعاً فى الاعتـداد منهم فظننت عَجْزا، وأخطأت ٱسـتُك الحُفْرة. والله لو كساك محرِّقٌ البُرْدين، وحلَّتْـك ماريَةُ بالقُرْطين، وقلَّدك عمْرُو الصَّمْصامة، وحَمَلك الحارث علىٰ النَّعامة، ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك، ولا سترتْ اياك، ولا كنت إلا ذاك. وهبك سامَيْتَهم فى ذِرْوة المجـد والحسَب، وجاريتهم فى غاية الظَّرف والأدب؛ ألستَ تأوِى إلىٰ بيت قعيدته لَكَاع، إذ كلهم عَزَب خالى الذراع، وأين من أنفرد به ممن لا غَلَب إلا علىٰ الأقَلّ الأخَسّ منه؛ وكم بين من يعتمدنى بالقوّة الظاهره، والشهوة الوافره، والنفس المصروفة إلىّ، واللذة الموقوفة علىّ، وبين آخر قد نزحَتْ بِيره، ونضب غَديره، وذهب نَشاطه، ولم يبق إلا ضُرَاطه. وهل كان يجتمع لى فيك إلا الحشَفُ وسُوء الكِيله، ويقترن علىّ بك إلا الغُدّة والموت فى بيت سلوليه:

تعـالىٰ اللهُ ياسلمُ بنَ عَمْرٍو * أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

ما كان أخلقك بأن تُقـدِّر بذَرْعك، وتَرْبَع بذلك علىٰ ظَلْعك، ولا تكون براقِش الدالّةَ علىٰ أهلها، وعنْزَ السُّوء المستثيرة لحَتْفِها؛ فما أُراك إلا قد سَقَط العَشَاءُ بك علىٰ سِرْحان، وبك لابظَبْى أعْفر؛ قد أعذرت إن أغنيت شَيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حَيًّا، وقرعتُ عَصا العِتاب، وحذَّرت سوء العِقاب.

إنَّ العَصا قُرِعَتْ لِذِى الحِلْم * والشىء تحقره وقـد يَنْمِى

فإن بادرْت بالنَّدامة، و رجعت علىٰ نفسك بالملامه؛ كنت قد ٱشتريت العافية لك بالعافيةمنك؛ و إن قلت جَعْجَعة ولا طِحْن، فرُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة، وأنشدت:

لا يُونسنَّكَ من مُخَدَّرة * قولٌ تُغَلِّظُه وإن جَرَحا

فعُدتَ لمـا نَهيتُ عنه ، وراجعْتَ ما ٱستعفيتُ منه ، بعثَت من يُزْعِجك إلىٰ الخَضْراء دفعا ، ويستحثُّك نحوها وَكْزا وصَفْعا ، فإذا صرتَ إليها عبثَتْ أكَّارُوها بك ، وتسلط نَواطِيرُها عليك : فمن قَرْعة مُعْوجَّة تقوّم فى قَفَاك ، ومن فُجْلة منْتِنة تُرْمىٰ بها تحت خِصَاك ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاك ، لِكَيْ تَذُوقَ وَبالَ أمْرِكَ ، وترىٰ ميزان قَدْرِك :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ * رأىٰ غَيْرُه منْه مالَا يرىٰ

فلولا المعرفةُ بالتاريخ ، والإحاطةُ بالوقائع والسِّيَر ، والأقاصيص ، والأمثال السائرة فى معنىٰ ذلك ، لمـا تأتى للناثر الاقتدار علىٰ سبك هذه الوقائع ، والتلويح بمقتضَياتها .

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المصنفة فيها وأسمـاء الرجال المبرِّزين فى فنونها ، وفيه مقصِدان)

المقصـــد الأوّل

(فى ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخُلَفاء والملوك فى القديم بها مزيد ٱهتمام ، وكمال ٱعتناء ، حتّى حصّلوا منها علىٰ العَدَد الجَمّ ، وحصلوا علىٰ الخزائن الجليلة . ويقال إن أعظم خزائن الكُتُب فى الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خِزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب ما لا يُحصىٰ كثرةً ، ولا يقوّم عَلَيْه نفاسـة ، ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن دَهَمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصِمَ آخرَ خلفائهم ببغداد ، فذهبت خِزَانة الكُتُب فيما ذهب ، وذهبت معالمها ، وأعفيت آثارها .

الثانية — خِزانة الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت من أعظم الخَزَائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية. ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن ٱنقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، وٱستيلاء السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوب علىٰ المملكة بعدهم، فاشترىٰ القاضى الفاضل أكثَرَ كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلىٰ أن ٱستولت عليها الأيدى فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة — خزانة خلفـاء بنى أُمَيَّـة بالأندَلُس؛ وكانت من أجلِّ خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلىٰ ٱنقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف علىٰ الأندلس، فذهبت كتبها كلَّ مَذْهَب.

أما الآنَ فقد قَلَّت عناية الملوك بخزائن الكتب، ٱكتفاء بخزائن كُتُب المدارس التى ٱبتَنَوْها من حيث إنها بذلك أَمَسّ.

واعلم أن الكتب المصـنَّفة أكثَرُ من أن تُحصىٰ، وأجل من أن تُحْصَر؛ لا سيما الكتب المصنفة فى المِلَّة الإسلامية فإنها لم يصنَّفْ مثلُها فى ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم؛ إلا أن منهـا كتبا مشهورة قد توفرت الدواعى علىٰ نقلها، والإكثار من نسخها، وطارت سُمْعتها فى الآفاق ورُغِب فى ٱقتنائها.

المقصـد الثـانى

(فى ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنَّفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلىٰ سبعة أصول، يتفرّع عنها أربعة وخمسون علما)

الأصـل الأوّل

(علم الأدب، وفيـه عشرة علوم)

الأوّل علم اللغة — من الكتب المختصرة فيـه المنتخَب، والمجرَّد لكُرَاع؛ وأدب الكاتب لأبن قتيبـة، وفقه اللغة للثعالبىّ، والفصـيح لثعلب، وكفاية المتحفظ

لٱبن الأجدابىّ، والألفية لٱبن أصبع . ومن المتوسطة فيه المُجمَل لٱبن فارس، وديوان الأدب للفارابى، وإصلاح المنطق لٱبن السكيت . ومن المبسوطة الجامع للأزهرى والعباب الزاخر للصاغانىّ، والصحاح للجوهرى . قال فى إرشاد القاصد : ولا أنفعَ ولا أجمعَ من المحكم لٱبن سيده .

الثانى علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكى لٱبن جنى والتعريف لٱبن مالك . ومن المتوسطة تصريفُ ٱبن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها . ومن المبسوطة فيـه الممتع لٱبن عُصْفور، وشروح تصريف ٱبن الحاجب وغيره .

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لٱبن الحاجب، والدرّة الألفية لٱبن معطى، والخُلاصة لٱبن مالك . ومن المتوسطة المفصَّـل للزمخشرى والمقرّب لٱبن عصـفور، والكافيــة الشافية لٱبن مالك، وتسهيـل الفوائد له وهو الجامع علىٰ شدّة ٱختصاره . ومن المبسوطة كتاب سيبويه وشروحه، وشرح ٱبن قاسم علىٰ الألفية، وشرحه علىٰ التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه، وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبى حيَّان علىٰ التسهيل .

الرابع علم المعـانى — من الكتب المنفردة فيـه مصـنَّف تميثم الحرى (١)، وهو عزيز الوجود .

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام فخرالدين الرازى، والجامع الكبير لٱبن الأثير الجزرى .

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختصَرة فيـه زَهْر الربيع للطرّزى . ومن المتوسطة فيـه البديع للتِّيفاشى، وشرح البديعية للصفىّ الحلىّ . ومن المبسوطة كتاب التحبير لٱبن أبى الأصبع .

---

(١) هكذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث .

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة علىٰ علوم المعانى والبيان والبديع روض الأزهار لآبن مالك ، والإيضاح لآبن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضى القضاة جلال الدين القَزْوينىّ وعليه عِدّة شروح . منها شرح الخلخالى ، وشرح الشيخ أكمل الدين، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكى، وهو من أجل شروحه، والمعوّل عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازانىّ .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عَرُوض آبن مالك، ولآبن الحاجب فيه لاميّة كافية ، اعتنىٰ الناس بشرحها، وممن شرحها الشيخ جمال الدين آبن واصل، والشيخ جمال الدين الأسنوىّ . وللساوى لاميّة ضاهىٰ فيها لامية آبن الحاجب، وللإمام القَزْوينى عليها شرح حسن، وللأيكى فيه مختصر بديع ، وللجوهرىّ فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عَرُوض ابن القَطّاع، وعَرُوض آبن الخطيب التبريزى . ومن المبسوطة كتاب الأمين المحلى، وعروض الأستاذ أبى الحسن العروضى المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثارى محتسب مصر ألفيةً فائقة سماها "هداية الضِّلِيل إلىٰ علم الخليل" جمع فيها فأوعىٰ .

الثامن علم القوافى — من الكتب المختصرة فيها قوافى الأيكى . ومن المتوسطة قوافى آبن القَطّاع، ومن المبسوطة قوافى ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — فى أصول الخط ألفية لشعبان الآثارى، ولآبن الحسين كتاب فى قلم الثلث، ولآبن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنَّف فى قلم النسخ، وفى صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبى، وفى خلال كتب النحو الجامعة كالتسهيل وغيره جملة من الهجاء، وقد أودعت فى هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبى عَمْرو الدانى .

الأصل الثـانى

(العلوم الشرعية، وفيه تســعة علوم)

الأوّل علم النواميس المتعلقُ بالنبوّات — وفيـه كتاب لأرسطاطاليس ، وكتاب لافلاطن ، وأكثر مسائله فى "كتاب المدينة الفاضلة" لأبى نصر الفارابى، وفى آخر الطوالع والمصباح[1] للبيضاوى مسائلُ من ذلك .

الثانى علم القراءات — من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبى عمرو الدانى، ونظمه الشاطبىّ فى قصيدته التى وسمها بحرز الأمانى، فأغنتْ عما سواها من كتب القراءات وآعتنى الناس بشرحها، ولآبن مالك داليَّة بديعة فى علم القراءات لكنها لم تشتهر. ومن الكتب المبسوطة فيه كتاب الروضة فى القراءات، وشروح الشاطبية كالفاسى وغيره.

الثالث علم التفسير — من الكتب المختصرة فيه زاد المَسير لآبن الجوزىّ، والوجيز للواحدىّ، والنهر لأبى حيان . ومن المتوسطة فيـه الوسـيط للواحدىّ والكشاف للزَّمَخْشَرىِّ، ومعالم التنزيل للبغوىّ . ومن المبسوطة البسـيط للواحدىّ، وتفسـير القرطبىّ، وتفسير الامام فخر الدين، والبحر المحيط لأبى حيان .

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فنّ من الفنون يميل إليه فى تفسيره، فالتّيفاشىّ[2] تغلبُ عليه القصص، وآبن عطية تغلب عليه العربية ، وآبن عطية تغلبُ عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعانى وغير ذلك .

الرابع علم رواية الحـديث — أضبطُ الكتب المصنفة فيه وأصحُّها روايةً صحيحُ البخارىّ، وصحيح مسـلم رضى الله عنهما ، وبعدهما بقيةُ كتب السنن المشهورة ، كسـنن أبى داود، والترمذى، والنَّسائى ، وآبن ماجه ، والدارقطنى . والمسنَدات المشهورة كمسنَد أحمد، وابنِ أبى شيبة، والبزار ونحوها .

---

(١) هو كتاب للبيضاوى فى علم الكلام . (٢) هما مفسران أحدهما متقدّم على الآخر وكلاهما مسمى بأبى محمد عبدالله الا أن المتقدّم دمشقىّ والمتأخر غرناطىّ كذا يؤخذ من كشف الظنون .

ومن كتب السِّير السيرة لابن هشام ، وزهر الخمائل لابن سيد الناس .
ومن الكتب المبسوطة المشتملة على متون الأحاديث دون الرُّواة جامع الأصول لابن الأثير. ومن المتوسطة الجمع فى ذلك الجمعُ بين الصحيحين للحُمَيْدىّ ، ومختصر جامع الأصول لمصنفه (١) . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام، الإلمام بأحاديث الأحكام ، للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسىّ .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووىّ . ومما يتعلق بالأدعية كتاب الأذكار له ، وسلاح المؤمن لابن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنَّفات المختلفة المقاصد مما لا يُحصى كثرةً .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول فى ذلك علوم الحديث لابن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووىّ ، وعلوم الحديث للحاكم ، والكفاية للخطيب أبى بكر ، وفى أوّل جامع الأصول المقدّم ذكره فى كتب رواية الحديث قطعةٌ من ذلك . ومن الكتب المبسوطة فى أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطة فى معانى الحديث شرح البخارى لابن بطال ، وشرحه لابن التين المغربى ، وشرحه لمغلطاى ، وشرحه للكرمانى ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيي الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ، وشرح العمدة للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدِّين الفاكهانى .

ومن الكتب فى غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبى السَّعادات ابن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطَّوالع للقاضى ناصر الدين البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجا نصير الدين الطُّوسى ، وكتاب الأربعين

---

(١) أى ابن الأثير الجزرى .

للقاضى جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام فخر الدين، والصحائف للسمرقندى، وشرح الطوالع للسيد العِبْرى، وشرحها للشيخ عز الدين الأَصْفَهانى.

السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر ابن الحاجب، ومنهاج البيضاوى، والتنقيح للقرافى، والقواعد لابن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه التحصيل للأرموى . ومن المبسوطة فيه الإحكام للآمدى، والمحصول للإمام فخر الدين، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى، وشرى المسيلى، وشرح الشيخ شمس الدين الأصْفَهانى، وأتقن شرح عليه للعضد؛ وكشرح منهاج البيضاوى لابن المطهر، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى، وغير ذلك؛ وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المُغْنِي للأَبْهَرِى، والفُصُول للنسفى والخُلاصة للراغى، والمَعُونة لأبى إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس للعميدى، والوسائل للأرموى . ومن المبسوطة تهذيب النكت للأَبْهَرِى .

التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المُزَنِى، ومختصر البُوَيْطى والوجيز للغزالى، والتنبيه لأبى إسحاق الشيرازى، والمحرَّر للرافعى، والمنهاج للنووى والحاوى الصغير لعبد الغفار القَزْوينى، والعَجَب العُجاب، وجامع المختصرات، ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المتوسطة المهذب لأبى إسحاق الشيرازى، والوسيط للغزالى، والشرح الصغير للرافعى، والروضة للنووى، والجواهر للقَمُولى، وأجمعُها على اختصارٍ المنتقى للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المبسوطة الأُمّ للامام الشافعى، والحاوى للماوردى، والبحر للرُّويانى، والنهاية لإمام الحرمين، والبسيط للغزالى، والشامل لابن الصَّبَّاغ، والتتمة للمتولى، والعُدّة لأبى المَكَارم الرُّويانى، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى، وشرح المهذب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كل لأغنى عن جُلّ كتب المذهب ، والكفاية فى شرح التنبيه لابن الرِّفْعة ، والمطلب فى شرح الوسيط له ، والبحر المحيط فى شرح الوسيط للقَمُولى . ومن محاسنها المُهِمَّات على الرافعى ، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوى .

ومن كتب الحنفية المختصرة البداية ، والنافع ، والكنز ، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسوطة المحيط ، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضى عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجَلَّاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكى ، حذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعى ، والجواهر لابن شاس ، ونظم الدرّ للشارِمْسَاحِىّ . ومن المبسوطة النوادر لابن أبى زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب ابن يونس ، وشرح التلقين للمازَرى ، وليس بكامل ، والذخيرة للقَرَافى .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الخِرْقى ، والنهاية الصغرى لابن رَزِين . ومن المتوسطة المُقْنِع ، والكافى . ومن المبسوطة المغنى لابن قُدامة .

ومن كتب الخلاف فى المذاهب الأربعة الاختلافُ والجمع لابن هبيرة الحنبلى . ومن المشتمل على مذاهب السلف الإشراف لابن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعى ، وفيه اثنا عشر علما)

الأول علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجَز لابن النفيس ، والفصول لأبقراط ، ومن المتوسطة المختار لابن هُبل ، والمائة للسيحى ، والشافى لابن القف . ومن المبسوطة كامل الصناعة المعروف بالملكي ، والقانون للرئيس أبى علىّ بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلىٰ التهـذيب والترتيب ، وهو أجمـع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا .

الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .

الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفى كتاب العلاجين لابن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .

الرابع علم الفِراسة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِراسة للامام فخر الدين الرازى ، ولفيلن فيه كتاب مختص بالتفرّس فى النساء .

الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لابن الدقّاق ، وتعبير الحنبلى المرتب علىٰ حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للحنبلى . ومن المبسوطة فيه تأليف أبى سهيل المسيحى ، والبشرىٰ فى شرح كتاب الكرمانى .

السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحيي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لابن هنبتا . ومن المبسوطة مجموع ابن سريج . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبى معشَر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرتى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القبيصى ، والتفهيم للبيرونى مدخل إلىٰ هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .

السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوفاق — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام فخر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوارزمى ، وكتاب طيمارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للجريطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .

ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعـارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتبرة من اللمعة النورانية للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطِّلَّسْمات — فى كتاب طبتانا الذى نقله ابن وحشيَّة عن النبط أُنْمُوذج لعمل الطِّلَّسْمات ومدخل إلى علمها، وفى غاية الحكم للجريطى قواعد هـذا العلم . قال فى إرشاد القاصد إلا أنه ضنَّ بالتعليم كل الضن، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتبا مجهولة المصنِّفين .

العاشر علم الكيميا — من الكتب المطوّلة فيه كتب جابر بن حَيَّان . قال فى إرشاد القاصد : وأمثل كتب الإسلاميين فى ذلك التذكرة لابن كمونه ، ورُتْبة الحكيم للجريطى، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى .

الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفِلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب، وفى مثلثات ابن محقق (١) حصر صوره .

تنبيه — لارسطاطاليس ثمانية كتب فى الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها ابن سينا فى مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصا مفيدا، والمتأخرون جمعوا فى غالب كتبهم بينه و بين الالهى فى التصنيف كما فى الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصل الرابع

(علم الهندسة، وفيه عشرة علوم)

الأوّل علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لابن الهيثم ، ومصنف للكرخى .

---

(١) فى كشف الظنون محقوق .

الثانى علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب على بن عيسى الوزير . ومن المبسوطة كتاب ابن الهيثم .

الثالث علم المَرَايا المُحرِقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لآبن الهيثم .

الرابع علم مراكز الأثقال — من الكتب المعتبرة فيه كتاب آبن الهيثم ، وفيه كتاب لأبى سهل الكوهى .

الخامس علم المساحة — من الكتب المختصرة فيه كتاب آبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة كتاب آبن المختار . ومن المبسوطة، كتاب ارشميدس .

السادس علم إنباط المياه — للكرخىّ فيه مختصر جليل ، وفى خلال الفلاحة النبطية لآبن وحشية مهمات هذا العلم .

السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .

الثامن علم البنكامات — فيه كتاب لارشميدس عمدة فى بابه .

التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبنى موسى بن شاكر .

العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بحيل بنى موسى، وفيه كتاب مختصر لفيلن، وكتاب مبسوط للبديع الجزرى .

الأصل الخامس

(علم الهيئة، وفيه خمســـة علوم)

الأوّل علم الزيجات — قال فى إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصد الزيج العلائى . قال وأهل مصر فى زماننا إنما يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدّة أزياج ولقبوه بالمصطلح، وأتم الزيجات فى زماننا الذى نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطة جامع المبادى والغايات لأبى على المُرّاكشى .

الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتبرة فيه كتاب الأرصاد لآبن الهيثم، وكتاب الآلات العجيبة للحارثى يشتمل عليه .

الرابع علم تسطيح الكُرَة — من الكتب القديمة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس . ومن الكتب المحدثة فيه الكامل للفرغانى، والآستيعاب للبيرونى ، وآلات التقويم للرّاكشى .

الخامس علم الآلات الظلية — فيه عدّة مصنفات ، ولابراهيم بن سنان الحرّانى فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق ، وفيه خمسة علوم)

الأوّل علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس الماردينى، ومختصر السموءل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطة الكافى للكرخى . ومن المبسوطة الكامل لأبى القاسم بن السمح .

الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه علىٰ طريق الهندى كتب معدّة، ومن الكتب المصنفة فيه علىٰ طريق الغبار كتاب الحصار، وكتاب المدخل وغيرهما .

الثالث علم الجبر والمقابلة — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لآبن فلوس الماردينى، والمفيد لآبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطة جامع الأصول لآبن المجلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .

الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعة كتاب لزين الدين المغرّى

الخامس علم حساب الدور والوصايا — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحويحى .

الأصل السابع

(العلوم العملية، وفيه ثلاثة علوم)

الأول علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه للاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيه ، كتاب للشيخ أبى على ابن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسوطة كتاب للامام فخر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الانتفاع فيها بالاطلاع على السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم، ولا أنفع من السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره : كما وقع لى فى تقريظ مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن، ابن سيدنا شيخ الإسلام أبى حفص عمر البلقينى الكنانى الشافعى " إن تكلم فى الفقه فكأنما بلسان الشافعىّ تكلم ، والربيع عنه يروى ، والمزنىّ منه يتعلم ؛ أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام باتفاق، وقطع السيف الآمدىّ بأنه المقدّم فى هذا الفن على الإطلاق ؛ أو جرى فى التفسير قال الواحدىّ هذا هو العالم الأوحد، وأعطاه ابن عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد ؛ واعترف له صاحب الكشاف بالكشف عن الغوامض، وقال الإمام فخر الدين هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخلاف واندفع المعارض، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى، وعدا شأو الشاطبىّ

فى الرائية وتقدّمه فى حرز الأمانى ؛ أو تحدّث فى الحديث شهد له السفيانان بعلوّ الرتبة فى الروايه ، وآعترف له آبن معين فى التبريز (١) والتقدّم فى الدرايه ؛ وهتف الخطيب البغدادىّ بذكره على المنابر ، وقال آبن الصلاح لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة ، وفى تحصيلها تَنْفَد المَحَابر ؛ أو أبدى فى أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعرىّ بأوفى زِمام ، وسدّ باب الكلام على المعتزلة حتّى يقول عمرو بن عُبَيْد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا فى الكلام ؛ أو دقق النظر فى المنطق بهر الأَبْهَرِىَّ فى مناظرته ، وكتب الكاشى وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألمّ بالجَدَل رمى الأرموىُّ نفسَه بين يديه ، وجعل العميدىُّ عمدتَه فى آداب البحث عليه ؛ أو بسط فى اللغة لسانه آعترف له آبن سيده بالسياده ، وأقرّ بالعجز لديه الجوهرى وجلس آبن فارس بين يديه مجلس الآستفاده ، أونحا إلى النحو والتصريف أربى فيه على سيبو يه ، وصرف الكسائىّ له عزمه فسار من البعد إليه ، أووضع أنموذجا فى علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجانى ، ولم يتعدّ حدَّه آبنُ أبى الأصبع ولم يجاوز وضعَه الرُّمَّانى ؛ أو روى أشعار العرب ، أزرى بالأصمعىّ فى حفظه ، وفاق أبا عُبَيدة فى كثرة روايته وغزير لفظه ؛ أو تعرض للعَرُوض والقَوَافى استحقهما على الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارَك وآعترف الجوهرىّ بأنه ليس له فى هذا الفن مثيل ؛ أو أصَّل فى الطب أصلا ، قال آبن سينا هذا هو القانون المعتبر فى الأُصُول ، وأقسم الرازى بمحيى الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنَّف الفصول ؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فانقاد ذلك العلم إليه ، أوسلك فى علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض آبن الهيتم عن حل الشكوك وولّى وهو كظيم ، وحمد المؤتمن بن هود عدم إكمال

(١) لعله بالتبريز .

كتابه الآستكمال، وقال عرفت بذلك نفسي وفوق كل ذى علم عليم، أو عرّج علىٰ علوم الهيئة لآعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأُعْجوبة النادره، وقال آبن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائره؛ أو صرف إلىٰ علم الحساب نظره لقال السموءل آبن يحيي، لقد أحيا هذا العزَّ الدارس، وآنجلت عن هذا العلم غَيَاهبه حتّٰى لم يبق عَمَهٌ لعامِهٍ ولا غُمَّة علىٰ ممارس:

وقد وجَدْت مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ * فإن وجَدْتَ لساناً قائلا فُقلِ

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقدّم ذكر شيء مما يجرى هذا المجرىٰ فى الكلام علىٰ النحو ونحوه.

تم الجـــزء الأوّل

ويليه الجزء الثانى، أوّله "النوع الثامن عشر — المعرفة بالأحكام السلطانية"

(المطبعة المصرية ١٧/١٩٢٢/١٠٠٠)

فهرست الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى

صحيفة

صحيفة

المقالة الأولى